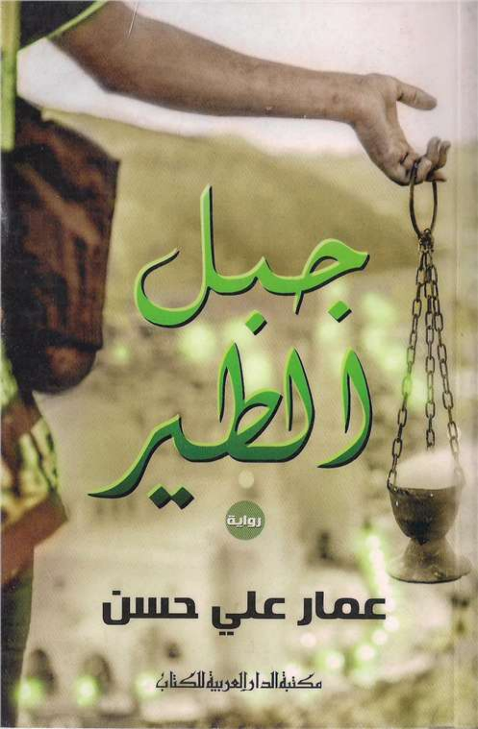
جبل الطير
رواية
عمار علي حسن
مكتبة الدار العربية للكتاب

«الحكاياتُ جندٌ من جنودِ الله تعالى، يقوِّي بها قلوبَ المريدين»

الجنيد

# القسم الأول

# 1

حين فتح الشيخ «سمحان» النافذة لم يجد الجبل مكانه. حملق بشدة مصارعًا جيوش النمل التي زحفت في شرايينه، ثم عصر عينيه وفركهما بقسوةٍ، وعاد ليرشق بصره في كل شيءٍ أمامه، والدهشة تملؤه، ممزوجة بالحيرة والخوف. وراح العرق يتفصَّد غزيرًا من جبينه رغم النسمة الباردة التي تهبُّ عفية من الخلاء، وهو غارق في كل ما قال له شيخه «عبد العاطي» قبل أن يغمض عينيه إلى الأبد.

كان الليل يلملم رداءه الكبير من فوق هامات البيوت، ويتسلَّل النور شحيحًا من الشرق، فيكشف كتلًا سوداء تعانق الفراغ، وتتدلى على بساطٍ مفتوحٍ حتى المدى.

سواد عميق، لا تهزمه طيور «البوقير» ذات الريش ناصع البياض والنقاط السوداء الموزعة بعناية، والمناقير الطويلة بلون سن الفيل، والأهداب المتدلية بانسيابٍ حول أعناقها. طيور بديعة تأتي من عند خط الاستواء في إفريقيا ذاهبة إلى أورُبا ثم تعود، وفي الذهاب والإياب، كانت تحط فوق الجبل، وتغطيه بكثرة أسرابها، وتنقر الأحجار ملتقطة حبات من ملح الكالسيوم، وتطير وتترك خلفها غرابيل متجاورة من الصخر.

التفت خلفه فوجد زوجته التي لم ينل الزمن من جمالها الأخاذ لا تزال غارقة في نوم هادئ عميق، وأنفاسها التي تتلاحق رخيَّة، ويهيج لها طرف اللحاف، فيهفهف صامتًا، ثم يخمد، حين تبعد رأسها قليلًا إلى الوراء، ويدها مطروحة إلى جانبها في سلام، ووشم الصليب الأزرق مستقر في باطن معصمها، تحيط به عروق نافرة، ليشهد على المعركة العصيبة التي خاضها من أجل أن يظفر بها في الزمان الأول، ويبقى معها إلى الآن.

اقترب منها، وغمز كتفها:

- قومي شوفي.

لكنها انقلبت على جنبها الآخر، وغرقت في النوم من جديد، لتتركه شاردًا في صياح الديكة، التي تؤذن للفجر الوليد، والبقرة التي تخور معها بصوتٍ مجروح، لتعزف لحنًا مميزًا، يكاد يطير له قلبه الثمل، وينسى به السحجات والرضوض التي خلَّفها سحله في الشارع الليلة الفائتة من أصحاب اللحى الطويلة، وهم يرددون بأصواتٍ زاعقة: «كافر .. كافر». ولولا بعض أتباعه لمات في أيديهم أبشع ميتة.

عاد إلى غمزها، هذه المرة في خدها، إلا أنها لم تتململ، بل ظلت ساكنة كأنها قد فارقت الحياة. وفي نظرته الساهمة الطويلة إليها وجد «سمحان» نفسه يستعيد صامتًا - وهو في حيرة من أمره - الحوار الذي دار بينهما ذات يوم عند «دير العذراء»، حين لم يكن بينه وبينها رسول سوى أحلام الليل، حول العابر والمقيم في حياة البشر: النوم أم اليقظة؟



فحيوان منوي نائم في صلب رجل، وبويضة نائمة في رحم امرأة، يستيقظان فجأة على عناقٍ حارٍّ وامتزاجٍ، تتخلَّق منه علقة، فمُضغة، فعظام تُكسى لحمًا، ويصير جنينًا، لكن هذه الرحلة لا يستيقظ فيها صاحبها، بل يظل نائمًا في مخدع الرحم تسعة أشهر أو سبعة، يتغذَّى في صمتٍ من حبلٍ سُرِّي، وبعد أن يصرخ وهو يرى قبح الدنيا وزينتها، يعود إلى النوم المتقطع، الذي يستغرق ثلث اليوم تقريبًا، إلى أن يأتي الرمق الأخير وبعده نوم طويل غارق في السكينة. وفي ساعات اليقظة في أيام العمر يظل السؤال: هل سجل حياتنا يحدده ما نراه في النوم من رؤى وأحلام وكوابيس؟ أم هو ما يضنينا وما نبتهج به في اليقظة؟

كل هذا مرَّ برأسه في لحظة خاطفة مكثفة تعتقت عبر سنين، صنعتها تجاربه التي تأرجحت بين صحوٍ ونوم، كان يراها فيها نائمة وغائبة وسابحة في ملكوت آخر، وكان هو يقظًا، يتقلب كبقلة خضراء، أُلقيت فوق جمرات صافية.

هزَّ رأسه نافضًا عنها كل هذه الخواطر، التي ربما استحضرها ليهرب من هول ما رآه، ولم يصدقه، فالجبل لم يعد في مكانه. كان قد اعتاد أهوالًا كابدها طيلة حياته، إلا أنها في كل الأحوال لم تكن على هذا النحو المرعب.

كان أذان كل الديكة مألوفًا لأذنيه، كما اعتاد أن يسمعه كل فجر، ويقول لمريديه:

- الديك يصيح يا أحبابي قائلًا: «كبر الله».

فيهزون قلوبهم ويرددون:

- الله أكبر من كل أحد، وكل شيء.

إلا الديك الأحمر، فقد كان صوته يخرج مختلفًا: صوت مبهم طويل ورفيع كأنين الغاب، ليختلط بخوار أجش للبقرة العقيم.

ولم يكن «سمحان» يعرف ماذا يعنيه الديك الأحمر بصياحه، والبقرة بخوارها، وكلما سأل زوجته:

- من أين أتيت بهذا الديك؟

كانت تبتسم وترد:

- جاءت به سيدة من غرب البحر مع كتاكيت كثيرة وتركتها نفحة للأحباب، فكبر وسط الدجاج.

- أتعرفينها؟

- لا.

- هل تذكرين هيئتها؟

- كل يوم تأتي نسوة وتروح.

وبعد أن يسمعها كل مرة، وهو يغالب وجيب قلبه واضطراب خواطره، ينصت إلى هاتفٍ يهمس من بعيد، كلما أتى على ذكر هذا الديك: «لا تستعجل في الجواب، ولا تسأل عما سينكشف لك غدًا». أما البقرة فهو



الذي أتى بها حين أهداها إليه رجل ثري بعد أن أقام «حضرة ذكر» أمام بيته الفخيم، وسحبها أحد مريديه وراءه، لتستقر في حظيرة داره هانئة، ورغم أنها لم تقبل أن يُعشِّرها عجل إلى الآن، فلم تضق زوجته بطعامها وشرابها، ولا بتنظيف المكان الذي تقف فيه وتنام.

تغافل عن الصياح والخوار، الذي امتزج مع نباح الكلاب، ودفس قدميه في مركوبه الذي قدده صهد الرمل الحارق، وسار في هدوء نحو الباب، ففتحه، وخرج ساعيًا وراء الجبل الذي اختفى.

رفع هامته ليرى ما رآه من النافذة، فإذا بالغبش ينزاح قليلًا عند مرمى البصر، وإذا بالكتل السوداء تخضرُّ، والسجادة الهائلة المبسوطة تحت أقدام الشجر تبدو خضراء، وتهادى أريج الفل والياسمين إلى أنف «سمحان»، وهو يتقدم مذهولًا نحو الذي كان بالأمس جبلًا.

قبل أيام تسلَّق الصخر في هدوءٍ كعادته، دافنًا جسده بين درفتين شاهقتين من الحجر الصوان، ليصل إلى المغارة، التي يختلي فيها إلى ربِّه، ويمكث بها أيامًا، تمتد أحيانًا إلى أسابيع، دون أن يكون معه من الزاد سوى كسور خبزٍ يابسة وجبنٍ قديم، ومن الماء سوى قُلةٍ قناوي يعب منها كلما شعر بالظمأ، لكنها لا تفرغ أبدًا. يشرب هو، ويسقي شجرة التين الشوكي الوحيدة، والصبار ونبات إبر آدم الذي ينام تحت قدم التينة في سكون، والماء على حاله.

على فوهة المغارة دفن كراسة لا يكف عن القراءة فيها، وأخرى يدون فيها أدعيته وعظاته وتعاليمه، ونصب راية خضراء، أهداها إليه

مكتبة مصر العامة



أحـد مريديـه، فوق قماشـها العريض كتبـت كلمتان فقط همـا: «الطريقة الشـاذلية»، طرفها أكلته نار أشعلها فيها ذات مغرب «أبو حذيفة»، الشيخ السـلفي ذو الأتباع، وهو يقول للناس بينما يعض على ضروسه: «فريضة عليَّ أن أغيِّر هذا المنكر».

في البداية زرع الشـيخ «سـمحان» الراية أمام بيته، لكن بعض مريديه كانوا كلما شاهدوا طرفها المتعرِّج وعلى حافته خط أسود من أثر الحريق، ثار غيظ في قلوبهم، وحنق على «أبو حذيفة» ومَن معه. وأراد الشـيخ أن ينـزع الغِل من نفوسـهم فأخذ الراية إلـى خلوته. رفع السـاق التي تنتهي بقطعة القماش العريضة، وغرسها بقوة في قلب الصخر فانغرست، وكأنه طمي طري، وراحت ترقص في وجه الريح. وها هي ترفرف رغم اختفاء الجبل.

أيـن ذهبـت المغارة؟ راح يسـأل نفسـه، ويجيبهـا في الوقت نفسـه: «ذهبـت مع الجبل الذي غاب، وقامت مكان طرفه الأمامي هذه الحديقة الباسقة». ربما انشقَّت الأرض فابتلعته، ثم ألقت ما فيها من حمم، وبردت فصارت طينًا خصبًا، وانبجس الماء من الأعماق البعيدة، وجرى، فأنبت هذه الجنة وارفة الظلال.

لكـن كيف حـدث هذا في سـاعات قلائل؟ هل غـار الرمل والصخر وجاء الطمي والماء في تلك المدة البسـيطة المتراوحة بين انقباض الليل وانبساط الصبح؟ أم نام هو سنين عددًا من دون أن يدري؟



لكن زوجته، التي تركها تغطُّ في سُبات عميق، لم تتغير هيئتها كثيرًا. كل شـيء على حاله إلى حدٍّ بعيدٍ، وجهها المستدير، وعنقها الذي بدأت تغـزوه التجاعيد الخفيفة، وقميص نومها الذي ارتدته الليلة الفائتة وفتنته فضاجعها ثلاث مرات ملهوفًا ولـم يشبع، ومساحات الشيب التي هجمت على خصلةٍ واحدة من شعر رأسها، والغطاء الذي يسترخي فوق جسدها بثقله ودفئه. وحين وضع يده على النافذة كي يفتحها لمحت عيناه الشرخ الجديـد الذي أصابهـا من قبضات يـد «أبو حذيفة» والذيـن معه، وخيط العنكبـوت الـذي حـطَّ على الحالـق، حتى آثـار قدميه التي تركهـا الليلة الفائتة على مساحة زلقة أمام الدار كانت كما هي.

مـا الـذي جـرى إذن حتى يرحـل الجبل فجـأة، وتأتي هـذه الحديقة الغنـاء التي لا أسـوار لها؟ أيكون لا يزال نائمًا، وهـذه رؤية جميلة تبعث في نفسـه المسـرَّة، وسـيتبدد كل شـيء حين يصحو؟ لكنه كان يدرك في هذه اللحظة أنه يقظان، وأن الليل يفرُّ هاربًا من أمام عينيه، ويفسح الطريق لنهارٍ أبلج.

كان قـد خطـف القُلة، وصُرة الخبز اليابس الراقـدة خلف باب الدار، فقـال في نفسـه: «معي زادي، ومَـن يغيب في الجبل لا يخشـى أن يغيب في هذه الخضرة اليانعة». وانبعث في غبشٍ راح يترنح على رأسـه، حتى صفت السماء، وانجلى كل شيءٍ أمام بصره.

وهو في بيته كان يرى تلك الحديقة دانية، يكاد يمسكها بيده، لو مشي مائة خطوة فقط، لكنه سـار مئات الخطوات، ولـم يصل إليها، ينقل قدميه

على رملٍ ناعمٍ، يخالطه حصى قليل، بعضه يخزُّه ويجرحه، إلا أنه لم يتوقف وهو يمضي نحو الخضرة اليانعة.

قبل أن يغيب الجبل كان يقطع الطريق نفسه في صعوبةٍ بالغة، عبر مدقٍّ ضيقٍ، يمتد كوريدٍ باهتٍ بين جذع الجبل وساقيه العملاقتين اللتين تتوزعان نحو اليمين واليسار. لكن ها هي الأرض انبسطت ولانت تحت مركوبه المقدد، وانفتح المدى، بعد أن كان الصخر يصد عينيه عن رؤية البعيد هناك.

من البيت إلى المغارة، ألفا خطوة بالتمام والكمال، كان يحصيها وهو يمشي الهوينى، وأحيانًا كان يستبدل بعدِّ الأرقام ترديد تسبيحٍ واحد لا يغيره: «اللهم املأ قلبي بنورك ومحبة كل خلقك».

بعد جهد جهيد، وصل إلى المكان الذي كانت به المغارة، لكنها لم تكن متواجدة. ذهبت مع الجبل، الذي اختفى الليلة الفائتة.

كان مكان المغارة كثيب قصير، وأحجار متوسطة الحجم وأخرى صغيرة متناثرة على جنباته. اختفت شجرة التين الشوكي والصبار وإبر آدم، وظهرت تحت الأحجار قنافذ، غريبة الشكل، فجسدها كان مفرطحًا كورق التين الشوكي تمامًا، وشوكها كان يميل إلى الاخضرار. ما إن شعرت بقدمي الشيخ «سمحان» تتقدمان على مهلٍ حتى تكوَّرت على نفسها، مخبئة أفواهها المدببة، لتبدو قطع شوكٍ ملقاةٍ على صفحة الكثيب، وتساقطت تحت أرجلها بقايا ديدان، راحت تزحف على



الرمل، تاركة وراءها خطوطًا متعرجة، رسمت أمام الشيخ متاهة كتلك التي يشعر أنه مُقدم عليها.

ورنا بوجهه إلى البعيد فلاحت له تلك الحديقة التي ملأت بصره حين فتح نافذة بيته. وعاد يفرك عينيه من جديد.

كانت الشمس قد استيقظت من نومها، وفردت جسدها الذهبي العملاق، فتساقطت منه الجمرات الهائلة، وصفا النور، وراح يداعب هامات الشجر، فتمطَّت فروعها العالية، وأفسحت مسارب للشعاع الغض، ففرد خيوطه الزاهية على الرمل، فازدهى، وغرق كل شيء في الضوء المبهر. لكن الشمس سرعان ما سحبت ذهبها الدافئ من على الأرض، وخبأته في صندوقها الأحمر، كي تعطي سحابة سوداء هائلة فرصة لتهدي الحديقة ماءً رقراقًا.

وحتى تتقدم السحابة بعرض الأشجار الباسقة وطولها كان على الريح أن تشحذ همتها، وتمد أذرعها المتينة إلى الأمام، فتدفع الماء المتحفز لينهمر، ويدغدغ الهامات الخضراء فتتراقص. واندفاع الريح مع غياب الشمس رمى على الرمل صقيعًا قارسًا، فارتعشت أطراف «سمحان» وانكشمت القنافذ، وأخذ بعضها يحفر الرمل ليندسَّ فيه.

ووسط العجيج الذي ملأ المكان، سمع الشيخ رفرفة ودبيبًا، فالتفت إلى الخلف، فإذا الديك الأحمر، والبقرة العاقر، قادمان على مهلٍ.

كان ريش الديك يقاوم الريح، وذيل البقرة مفرودًا عن آخره، وأذناها ترفرفان بعنف، وعيناها مغمضتان قليلًا، لتتفادى حبات الرمل الهائجة،

وفي وجوه الجميع كانت الراية تذهب ذات اليمين وذات اليسار، ثم تلتفّ حول نفسها، وتعود كما كانت.

جلباب الشيخ كان يرتجُّ بعنفٍ، حتى كاد ينخلع، وشوك القنافذ يهتز، ويوشك على الطيران من مكانه، وراحت موجات الصقيع تضرب الخلاء، فتجمَّد الدم في عروق الشيخ، وشعر أن روحه تنسحب منه، فجلس مكانه، وغامت في عينيه الحديقة القريبة البعيدة.

ونظرت البقرة إلى الديك، ثم هرولت نحو الأحجار المتناثرة، ومدَّت خطمها، وراحت تلقم الواحد تلو الآخر، حتى صنعت كومة، وعادت تنظر إلى الديك، ففرد جناحيه، ومشى نحو الأحجار المتراصة، وغمس منقاره في أحد الفوالق، وصاح بصوتٍ لم يطلقه من قبل، فاشتعلت النار، واحمرَّت الأحجار، وصارت جمرات صافية.

جلس الشيخ «سمحان» إلى جانبها يقطف من أزاهيرها ويمسِّد جسده. وجاءت القنافذ في هدوءٍ، واصطفت حوله، وأخرجت أفواهها المختبئة، ونام شوكها. ولما سرى الدفء في عروقها، راحت تتمايل جذلى.

ووسط دهشة الشيخ تقدمت مجموعة من القنافذ، أكبرها وقف في المنتصف، والبقية تناثرت حوله، ثم استكانت المجموعة وكأنها تنتظر شيئًا ما. وفعلًا جاء ما تنتظره، إذ تقدمت البقرة، ونصبت سيقانها العالية فوق كومة من القنافذ، وراحت تخور بصوتٍ مرتفعٍ جدًّا، وأخذ ضرعها



يقذف زخَّات ساخنة من اللبن فوق القنافذ، والشيخ يتمتم في استغراب: «عاقر وتحلب».

فلمَّا ابتلَّت القنافذ تمامًا رفع أكبرها فمه في الهواء، وأخذ جسده يتكوَّر، حتى صار مثل حبة المشمش المعطوبة، ثم تمطت فإذا بورقة تين شوكي لها جذر، ترفع هامتها في وجه الريح، وراحت تكبر وتكبر، وتولد من أضلع أوراقها السميكة أوراق جديدة، حتى صارت شجرة، بحجم تلك التي كانت قبل أن يختفي الجبل. أما بعض القنافذ الصغيرة فتحولت إلى صبارٍ وإبر آدم حول هذا الجانب من الكثيب.

وحين وقفت الشجرة وحولها الصبار تذكر الشيخ مريديه، فوقف شامخًا، ثم أخفض جبينه، وراح يطوح جسده مستعيدًا أيام الحضرات والذكر.

وكما تجمَّعت القنافذ حوله الآن وأخذت تطوِّح جسدها مثله، كان المريدون يتلاصقون في صفوفٍ عن يمينه وشماله، وخلفه وأمامه، وهو في المنتصف ذائب في ملكوت الله الفسيح.

تذكر أول حضرة قادها، لكنه حتى يصل إلى هذه اللحظة كان عليه أن يمر متوجعًا في مسرب طويل متعرِّج، طالما كابد وهو يقطعه، بينما عمره يتساقط على جنبيه كأوراق الخريف.

وقف يومها وسط مريديه، نظر في عيونهم فلامس بصره أبصارهم، ومسَّت روحه أرواحهم، ثم قسَّم بينهم ابتسامة بالتساوي، فأهدوه كل

ابتساماتهم، وبعدها أغمض عينيه، فأغمضوا عيونهم، وصفق بكفيه ثلاثًا، وبدأ يقول بصوتٍ قادمٍ من سويداء قلبه:

- الله حي.. الله حي..

فرددوا خلفه ما يقول، وبدأت الأجساد الواقفة تهتز في هدوءٍ، وتتمايل وتتطوح في شدة، ومات في الرؤوس الزمان والمكان، وانجلت النفوس، وطارت إلى عنان السماء. وذاب الإنشاد مع الحمحمات والتهليلات ليصير هديرًا، ترتجف له القلوب خشوعًا، بينما العيون تفيض بسخونة مبتلة، تنزُّ على الخدود، التي غطاها البخور المحمول على مجمرة، وانحبست الأنفاس، فامتلأت الصدور بالحب الإلهي.

لا تستقر في رأسه الآن كثير من تفاصيل أيامه البعيدة، فكل شيء تلاحم وذاب وتخلّص مما علق به من مواقف صغيرة، ولمحات ومشاهد عابرة، ليصير كأسًا واحدة مفعمة بالحكايات، بعد أن راقت وصفت وتعتقت بحكمة السنين. تلك الحكمة التي صنعتها تجربة مشحونة بالأوجاع، وقليل من المسرات، إنه العذاب والمحنة التي عركته، فخرج من أهوالها ذلك العبد الذي إن أقسم على الله أبرَّه.



# 2

يتوه الآن في كل ما مضى وهو يلقي جسده فوق الكثيب تحت التينة ذات الإبر، وبين ما تبقى من القنافذ، ومع بقرةٍ وديكٍ تبعاه إلى هنا من دون استئذان.

رأى نفسه شابًّا يافعًا يخرج قبل طلوع الشمس وهو يقتل التثاؤب الراقد في جوفه، ويطرد نعاسًا لم يستقر بعد سهرة طويلة قضاها مع رفاقه، ملتفين حول «طبلية» ناعم سطحها، تنقر عليها أحجار «الدومينو»، بينما تلف الجوزة على أفواههم، وتغرق رؤوسهم في الدخان الأسود.

كان عليه أن يضرب «بردعة» حماره بساقيه النحيلتين، ليهم مسرعًا نحو الجنوب، حيث قرية «طهنا الجبل»، فهناك، بين المقبرة الساكنة تحت سفح الجبل ومخر السيول النابت من جوف الحجر إلى خيط الطمي الذي يمده النهر على ضفته، توجد «مقصورة حتحور» و«أكوراس» المدينة الرومانية البائدة، و«معبد نيرون»، وعليه أن يحرس هذه الآثار التي تركها الغابرون.

لم تكن هذه الوظيفة تخطر له على بال، لكنها جاءته بعد أن زار والده موظفًا كبيرًا في الآثار من بندر «المنيا»، يمت إليهم بصلة قرابة، وقال له: «أغلب أرضنا أكلها النيل ورمل الجبل، وابني عاطل».

بعد شهر صدر قرار تعيينه خفير آثار، ليجد نفسه وجهًا لوجه مع تلك الأحجار القديمة، التي تنام في حضن الجبل، وتطل على أكوام متلاحقة من تراب بيوت ترنحت مكانها منذ آلاف السنين.

يتذكر الآن، وهو يرمق الحديقة الغَنَّاء بطرف عينه، اليوم الأول الذي ذهب فيه لاستلام عمله. كان الخفير السابق له ينتظره على أبواب المقبرة، وراء أكوام التراب العالية، ويغطيه عجيج أبيض، يقذفه في وجه المكان «كسَّار الأحجار» الذي ينبح بلا توقف بين الجبل والبيوت.

كان الرجل يقف فوق حجر كبير، حين وصل إليه، فلما رآه تهلَّلت أساريره وناداه: «جئت يا سمحان»، فرد عليه: «نعم يا عم». وطلب الرجل منه أن يريه بطاقة الهوية، فلمَّا اطمأن إلى أنه الشخص الذي أبلغته الإدارة أنه سيتسلَّم منه، قدَّم الرجل إليه الشومة المستوية، ومدَّ يده إلى جيبه، فأخرج ورقة، وسأله ضاحكًا:

- تعرف توقع؟

أجابه في ثقة:

- معي الابتدائية.

ردَّ عليه ضاحكًا:



- أعرف لكنني أمازحك.

كان محضر تسليم للمكان والشومة ودفتر لتدوين الزيارات المتتابعة للآثار.

حصل الرجل على توقيع «سمحان»، وطوى الورقة في جيبه، ثم التفت إلى الخلف، وأشار إلى حجرين يركب أحدهما الآخر، وقال:

- بينهما كراسة نسيها مرشد سياحي منذ سنين، ولم يعد ليأخذها، لكنني أحتفظ بها، ربما يعود يومًا ويسأل عنها.

ورفع رأسه نحو مكان إلى جانب فلق الجبل، وقال:

- هذا كشك للحراسة، اعتبره بيتك لنصف اليوم، وحافظ عليه لتسلمه إلى مَن سيأتي بعدك، أطال الله في عمرك.

ومدَّ يده وأخذ كف «سمحان» وداس عليها، وهو يمعن النظر إليه، ثم ابتسم وقال:

- أيامك معي لم تأتِ بعد، ستجيء وأنتظرها لكن بعد أن تضنيك التجربة.

بعدها انبعث في العجيج مخلفًا وراءه فراغًا هائلًا ووحشة، وسؤالًا يردده «سمحان» في صمت:

- أي مجنون هذا؟

كان متعجـلًا، وكأنه انتظر لحظـة الهروب تلك من هذا المكان طوال عمره، فمضى من دون أن يشرح لمَن خلفه في الحراسة أي شيء عن هذه الأحجـار العتيقة التي يأتـي ناس من آخر الدنيا لزيارتهـا، ويقفون أمامها مشدوهين.

مـاذا تكـون هـذه الأحجـار؟ ولمـاذا تحتـاج إلـى أن يتبـادل رجلان حراسـتها، واحد في الليل، وآخر في النهار؟ ولماذا هذه الشـومة القديمة المسـتوية والدفتـر وخاتم الحديد الذي ينطبع علـى صفحات متلاحقة؟ وتسـاءل في نفسـه: «ألـم يجد قريبنـا مكانًا أفضـل من هـذا ليجعله مقرًّا لعملي؟»، وتذكر كل ما دار بمخيلته وهو ينتظر الوظيفة من ذهاب وإياب إلى البندر والتنعُّم ببعض ما يعيش فيه أهل المدينة، وابتسم ساخرًا، وهزَّ رأسـه حتى يتسـاقط كل مـا فكر فيه تحـت قدميه وأقدام حمـاره الواقف صامتًا، ولم يكن يعرف وقتها ما ينتظره في هذا المكان.



# 3

ترامـى إليه صراخ قادم من جوف المقبرة، وبانت له حفنة من الرجال يسـيرون ببطءٍ حاملين نعشًـا، يتدلَّى من جانبه الأيمن طرف غطاء أبيض، وخلف الرجال ثلاث نسـاء، تصرخ أوسطهن بحرقة، والاثنتان تحاولان تهدئتها بلا جدوى.

كانـت المرأة تطلق عديدًا بصوتٍ شـجي، يدور في الهواء ويعود إلى الماشين خلف النعش في صمتٍ:

«طالع وأنا وراه أنوح
قال عاودي وبخاطرك نروح
طالع وأنا وراك بالعين
قال عاودي ورايحة ورايا فين؟»

وانتقلت إلى عدودة أخرى:

«قلت لك يوم الرحيل ابكي
وتعلقي في كرابنا وامشي
قلت لك يوم الرحيل نوحي

وتعلقي في كرابنا وروحي»

تقدم المشيعون حتى غابوا عن ناظريه وراء سور يطوِّق مجموعة من القبور، تتوسطها نخلة مائلة، ثم بانوا مرة ثانية، وهم يحفرون الأرض، بينما وضعوا النعش إلى جانبهم، وجلست السيدات إلى جانبه، ولمَّا وضعوا جسد الميت في القبر جاء صوت المعددة مشروخًا، لكن الخلاء حمله إلى أذني «سمحان» بلا عناء:

«باب اللحود مش زي باب البيت

كتفك عريض وازاي خشيت؟

باب اللحود مش زي باب الدار

كتفك عريض وازاي تندار؟»

وحاولت إحدى النسوة أن تهدئ من روعها، ومدَّت يدها لتكفكف دموعها وهي تتشنج معها، لكن المعددة واصلت:

«ولا تنزلوني القبر بالعاصي

حالق جديد لا تعكسوا راسي

ولا تنزلوني القبر بالهمة

لابس جديد لا تعكسوا العمة»

لكن لم يلبث الصراخ أن هدأ، وحلَّ محله غبار كثيف أصفر، راح يطير نحو صهوة الجبل، وينزلق عليه ليغير لونه مع مرور الأيام، أو يركد مؤقتًا حتى يهيج مع هبوب رياح شديدة تهب من الغرب وتزوم بين أفلاق الصخر.



تلفَّت «سمحان» حوله، وأخذ الشمس الساطعة على صدره، فتدفق الدم قويًّا في عروقه، ليشعر بنشاطٍ عارم، جعله يقفز فوق الأحجار الصلدة حتى يصل إلى «مقصورة حتحور»، ويجلس عليها راميًا ساقيه إلى الأمام. في هذا المكان العالي كان بوسعه أن يرى صفحة النيل وهو يسري في هدوء نحو الشمال، وبانت غربه زراعات ممتدة حتى آخر ما يرى بصره، يتناثر فيها نخل عالٍ، تمر عليه الريح قبل أن تأتي هنا إلى حيث يجلس، فيهيج الرمل، ويغطي المكان حاجبًا الرؤية تمامًا، ثم لم يلبث أن يخمد الهواء، فتنجلي بيوت «طهنا» التي تبدو خطوطًا متوارية تتدرَّج من عند سفح الجبل إلى أول الطريق الواصل بين «سمالوط» و«المنيا» شرق النيل.

التقط الكراسة، التي ترقق غلافها وتآكل من كثرة مرَّات الإمساك به، وحشرها بين الحجرين الكبيرين، وهي متسخة إلى حدٍّ جار كثيرًا على الحروف المكتوبة في صفحتها الأولى فانطمست، والمساحة الفارغة المحشورة بين الحروف كانت مثقوبة من أكل الرمل لها بلا توقف.

فتح الصفحة الأولى، فوجد في أوسطها اسم صاحب الكراسة: «عادل منسي»، وتحت الاسم وظيفته «مرشد سياحي».

أين هذا العادل المنسي في دنيا الناس؟ هل أهمل في استعادة هذه الكراسة لأن ما فيها لا يهمه؟ أم أنه استكثر أن يعود كل هذه المسافة ليلملم الحروف التي سقطت منه هنا على الرمل وتحت الأحجار؟

راح «سمحان» يسأل نفسه بصوتٍ مسموع، وتذكر كيف احتفظ سلفه بتلك الكراسة كل هذه السنين، وقال لنفسه، بلا صوت هذه المرة:

«يبدو أنه كان صارمًا في أمانته، وربما يكون قد تعلَّم شيئًا من زمنه المر المحصور بين المقبرة والتماثيل، وربما تكون التعليمات التي تخص هذه الوظيفة غاية في الشدة والحسم».

طوَّح يده في الهواء طاردًا كل هذه الأسئلة التي راحت تتشابك في رأسه، وتضغط على أعصابه، مستغلة جسده الذي أنهكه سهر الليلة الفائتة. عصر عينيه ثم فتحهما بشدة، فوقع على أول سطر في أول صفحة يقول: «كانت الشمس تطل من سنِّ الجبل حين دخلت تل العمارنة ذات صباح مشرق».

كان «سمحان» يعرف هذه البلدة جيدًا، فالرجل الغريب الذي حلَّ بقريتهم منذ زمنٍ بعيدٍ، وتسلَّل إلى قلوب أهلها، حتى صار واحدًا منهم، جاء من هناك، وطالما افتخر بنسبه ومسقط رأسه، قائلًا: «أنا من قبيلة العمارنة ومن بلد إخناتون». وحين كانوا يسألونه ليفسر لهم ما أجمله، كان يبتسم في وجوههم، ويكمل: «هو مَن نادى بالتوحيد قبل آلاف السنين».

فرح «سمحان» بنفسه؛ لأنه عرف مفتاح هذه الكراسة، فانخفض ساندًا ظهره على حجر، وسحب شهيقًا طويلًا، وتمنَّى في هذه اللحظة لو أنه اصطحب الجوزة معه إلى هنا، وراح يقرأ ورأسه مغطًّى بالدخان الأسود، يطرده بشدة نحو شواهد القبور، فربما تخفيها قليلًا عن عينيه فلا تضطرب في نفسه كل هذه الهواجس التي تحيط بالنهاية المحتومة، التي لا يفلت منها إنسان أبدًا.



وتهادى من بين عجيج الحجر رجل ربعة، يخبُّ في قفطان رمادي، يتدحرج في هدوءٍ نحو المقبرة، وتهتز على رأسه عمامة ناصعة البياض، تتوسطها طاقية حمراء. وبعد خطوات وئيدة، انضمَّ إلى النسوة وحفنة الرجال الواقفين في المكان الذي دفنوا فيه الجثة. ما إن وصل حتى جلس وراح يقرأ بصوتٍ ندي «فاتحة الكتاب» وبعدها راح يتلو:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ..

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

وبعدها أخذ يدعو للميت ومعه دعا للأحياء من أهله، وسائر عموم المسلمين.

وتردد صوته بين أكتاف الجبل، وتصاعد إلى قلب السماء، وارتدَّ إلى حيث يجلس «سمحان» لحنًا حنونًا، يفضي إلى البكاء.

وبعد أن أنهى الشيخ المعمَّم تلاوته، قام ونفض قفطانه، وسار الركب عائدًا في الطريق المضاد. كانت خطوات الرجال أكثر اتساعًا بعد أن تخففوا من النعش، ومشت النسوة صامتات، بعد أن تراجع الصراخ ليصير قطرات ساخنة، تتساقط فوق رمل المدق وحصواته.

كان «الكسار» قد كفَّ عن النباح بعد انصراف العمال إلى تناول غدائهم، فسكن الغبار، وراق الهواء، وبات بوسع «سمحان» أن يتتبع من مكانه انسحاب المشيعين، حتى اختفوا وراء جدران أول بيت بالقرية من ناحية المقبرة.

لـم يكـن قد حمل معه أي طعام، ولم يدرِ إلا بعد استلام الشـومة أنه سيمكث في مكانه هذا يومًا كاملًا إلى أن يأتي زميله، ويستلم منه عملًا لم يعرف أي شيءٍ عنه من قبل.

صبر، لكن الجوع أخذ يمضه، ويقرص بطنه بقسوة، ويشعل في رأسه مزيدًا من الأسئلة: «هل يترك المكان ويذهب باحثًا عن طعام؟ أم يكون تصرفه هذا عملًا غير مسئول؟ لكن كيف بوسعه أن يتحمل الجوع كل هذه الساعات الطويلة المتبقية حتى ينتهي أطول يوم في حياته؟»

وقـف فـوق الحجرين الكبيريـن لعله يرى أي مـكان قريب يمكن أن يشـتري منه شـيئًا يلقيه في بطنه، لكنه لم يرَ سوى ظهور البيوت، وصهوة الجبـل، وأسـوار المقبـرة، وفجاجًـا تمزع الصخـر، وتمتد إلـى أين؟ لا يدري.

لكن جاء الفرج بعد العصر، حين ظهرت سـيدة نحيفة تسـرع الخطى نحـو قبـر متمدِّد في طرف السـور، وعلى رأسـها قفة كبيرة مغطـاة. ولمَّا وصلـت، تجمع حولهـا عيال صغار، فجلسـت، وفتحت القفـة، ومدَّت يدهـا، وأخـذت تلتقط منهـا «قُرَصًـا» ذات لون قمحي وبرتقـالًا، وتوزع عليهم.

راقـب «سـمحان» مـا يجـري، وقبـل أن تفـرغ القفـة من كل مـا فيها صرخ:

- أنا جعان يا حاجة.



رفعت السيدة رأسـها، ونظرت إليه ثم أومأت له، فأدرك أنها ادَّخرت لـه نصيبـه. ولم يمرَّ وقت طويـل حتى كان أحد الأولاد يتسـلَّق الأحجار قادمًا إليه وفي حجره قُرص وبرتقال.

كان ولـدًا نحيـلًا، ذا عينيـن تبرقـان بقـوة، فبدتا نجمتيـن زاهيتين في ليلـةٍ حالكة الظلام، وجهـه ضامر من أثر الجوع المزمن. كان يحمل عدة «قُـرص» وبرتقالات فـي حجر جلبابه الممزق المتسـخ، فـراح البرتقال يتساقط من الخروم على الرمل، وكلما التقط واحدة سقطت أختها.

ورأى «سـمحان» حيرته، فهرع لنجدته، والشـومة تذهب وتجيء في يده. أخذ ما جادت به المرأة وجلس في مكانه يقضم الطعام ببطءٍ شديدٍ، بعـد أن اتخذ من الأكل فرصة لترويـض وقته العصيب. كان يمضغ بتلذذ وامتنـان، وهـو يتابـع رحيل الشـمس خلف النخيـل البعيد غـرب النهر، وهكـذا حتى ذهب النـور وحلَّ الظلام المصمت، فاختفـى الماء والزرع والمقبـرة، وصـار الجبـل كتلة سـوداء هائلة، وعـوت الذئـاب من قلب الصخـر، لكنه لـم يخف، فقد اعتاد على عوائها وهو سـاهر في ليل قريته التي لا تبعد عن هذا سوى ما يزيد على ميلين قليلًا.

كانـت تأتيه بين حين وآخر أصوات أطفـال يبكون بحرقة، وقهقهات رجال سـاهرين على المصاطب، يشـفطون الشـاي الأسـود، ويسحبون دخان الجُوَز، ونبـاح كلاب رابضة بالقرب من عتبات البيوت الخفيضة، ويتخالـط كل هـذا مع نهيق حمير، وخوار جامـوس، وثغاء ماعز. تمتزج الأصوات وتتصاعد فتحملها الريح إلى حيث يجلس.

ولم تمضِ سوى سويعات وخرس كل شيء، حتى الذئاب والكلاب صمتت، وكان صوتها قبل قليل يثير الخوف، لكن صمتها الآن هو الذي يخيف. كان النباح والعواء يشعره بأن هناك أحدًا غيره في هذا العالم، والآن تقبض الوحدة والوحشة على روحه المهيضة.

انقطع ما يؤنسه، وخرج الخوف من الجهات الأربع، من أفلاق الجبل المتجهمة في الشرق، والريح التي تتأرجح بين شواهد القبور، فتصنع صفيرًا حادًّا في الجنوب، وماء النهر الذي اسوَدَّ، وراح يلثم الشط في مكر، ليتهاوى تحت ألسنة أمواج لا تكف عن الهجوم المتلاحق في الغرب، وصمت البيوت التي تبدو خطوطًا متعرجة معلقة بطرف السماء في الشمال. ومن تحته أرق الحصى المسنون، والحجر الصوان، وفوقه تبصُّ النجوم لتفضحه بألف ألف عين، وتستره أحيانًا سحب داكنة تهبُّ من وراء النهر.

لا يسليه ويؤنس وحدته هنا سوى مذياع صغير، يحشوه ببطاريات جافة من الزنك والكربون، يضعه على أذنه اليسرى، ويدير المؤشر بيده اليمنى بحثًا عن أي محطة إذاعية تتهادى منها أغنية أو قطعة موسيقية عذبة، وفي الهزيع الأخير يصل المؤشر إلى «إذاعة القرآن الكريم» لينصت إلى آيات الله فتهدئ من روعه، وتخطف روحه لتسبح في السماوات البعيدة.

انتصف الليل، وراح النوم يداعب عينيه، وصوت المذياع يخفت في



موجات الإرسال الضعيفة، لكنه شعر بالخزي من أن ينام في أول ليلة حراسة له، أو أن يهرب من الخوف بالنوم. ركن رأسه إلى بطن الصخرة التي تقف خلفه في جسارة، وسرح في لياليه الماضية، أين الصحاب الآن؟ في مثل هذا التوقيت من الليلة الفائتة كان بينهم في «قهوة هاشم» يقهقه ويكركر ويتآنس مفتخرًا بشبابه الغض، أو ماسكًا كتابًا بيديه، يدس فيه عينيه ويقرأ في صمت، ليعوض ما ذهب عنه بتسرُّبه من المدرسة، ويترحَّم على عمِّه الذي ترك له صندوقًا صغيرًا مملوءًا بالكتب، ورحل ذات ليلة إلى غير رجعة.

# 4

توحَّش الصمت ساعة، لكن لم يلبث أن هزمته أصوات تهادت من ناحية المقبرة، كانت رائقة وعميقة وكأنها نازلة من السماء، حتى السعال والضحك والبكاء كان سالكًا نقيًا.

«مَن هؤلاء؟».. سأل «سمحان» نفسه، وأجابها فورًا: «ربما خفير الجبانة وبعض أصحابه، وربما مشيعون جاءوا بميتٍ جديد». لكن أحدًا لم يمرَّ على المدق المؤدي إلى المقبرة، والذي يمزع المكان، تحت الحجر العالي الذي يجلس عليه هو.

وتملكته حيرة، إلا أنه طردها قائلًا لنفسه من جديد: «ربما يكون للمقبرة طريق آخر من ناحية الجنوب حيث قرى نزلة عبيد، وعرب الشيخ محمد، والحوارتة». لكن «كيف يدفنون ميتهم في هذه الظلمة الدامسة الشاملة؟»، تساءل مرة أخرى، وعاد يطمئن نفسه: «ربما هناك رجال قد سبقوا حاملي النعش إلى هنا، وسيأتي بعد قليل أولئك الذين يحملون الميت راقدًا بين جدران الخشبة، وأجسادهم مغمورة في نور الكلوبات». إلا أن أحدًا من هؤلاء المنتظرين لا يثقب الظلام ببقعة حمراء تصنعها سيجارة ينفثها في تلذُّذ.



«ربما لا يكونون من المدخنين، وهذه نعمة والله»، حدَّث نفسه ثم قام من مكانه، وسار خطواتٍ نحو الصوت، واسترق السمع، فأحسَّ وكأنهم يجلسون إلى جانبه، وتذكر كلام أبيه، حين كان يحذره من الكلام بصوتٍ عالٍ وهو في الجبل بعيد العشاء: «الصوت في الليل يسري، ويدل عليك قاطع الطريق والذئب، فالتزم السكوت، وإن غلبتك الكحة فاكتمها، ولا تنم هناك، فقد يرتفع شخيرك ويجذب إليك الغريب».

لكن ما عساه أن يفعل؟ أيذهب إليهم بحثًا عن ونسٍ ومسامرةٍ يفتقدها الليلة بقسوة، وربما يجد لديهم دخانًا وشايًا؟ أم يبقى مكانه خوفًا من لصوص الآثار؟ الرجل الذي سلمه الشومة والدفتر في الصباح كان متعجلًا ولم ينصحه بشيء.

أعطاه ظهره ومضى ولم يلتفت إلى الخلف ولو مرة واحدة، وكأنه سجين خرج لتوه من باب الليمان، ورأسه معلق بذكريات قديمة في الحواري والشوارع المفتوحة، يريد أن يستعيدها مرة واحدة، ويلعن في سره وجهره الزنازين ومَن فيها. إلا أن السجناء يعانقون رفاقهم قبل خروجهم إلى الهواء الطلق، وبعضهم يبكي على أكتاف مَن كابدوا معه أهوال الأيام العصيبة، وبعضهم يكون معتزًّا بلحظات الصمود وتربية الأمل، وبعضهم يكون قد تآلف مع ما هو فيه ويخشى أن يواجه ما جرى خارج السجن من تغيير، فيمشي بتثاقلٍ بعيدًا عن الأسوار العالية والأبواب السميكة المتجهمة.

أمـا الرجل الذي سبقه فـي هذا المكان سـنين لم يُلقِ نظـرة على أي شـيءٍ هنا، بل لـم يتمهل ليمعن النظر في ملامح «سـمحان»، ولـم يقُل له ماذا يفعل إن سمع أصواتًا في منتصف الليل تأتي من ناحية المقبرة، فعليه أن يهرول إليها بحثًا عن أنيس، أو يتجاهلها تمامًا ولا يبرح مكانه.

أطرق مفكرًا، ثم نفض رأسه، وصرخ في نفسه متسائلًا، دون أن ينطق بكلمـة واحـدة: «منذ متى كنت أحسـبها؟»، وجـاءه صوت أبيـه من قعر الزمن البعيد: «عمرك ما سمعت كلام أحد، ولا كان لك كبير ترجع إليه، قرارك من دماغك، وتعاند كثورٍ هائجٍ».

كاد الفضول يقتله، فلم يستطع عليه صبرًا. أمسك الشومة بيده جيدًا، ثم حملق متخيرًا مسـارًا مأمونًا لقدميه، حتى يهبط من عليائه بسـلامٍ إلى المدق. كانت الأصوات تقترب، وأصبح بوسعه أن يميز ما يُقال.

كان أحد المتكلمين يقول:

- عبرت اليوم البرزخ الذي يستحم في النور من المشقة إلى الراحة، ومن الضيق إلى البراح.

وردَّ عليه الثاني:

- عبرته قبلك، لكن لا أتذكر متى، فمنذ أن جئت إلى هنا، لا أعرف أمسي من غدي، واليوم يمر كلمح البصر.

وشاركهما صوت ثالث ضاحكًا:



- في الأبدية يصبح الانشغال بالوقت عبثًا.

وقال رابع:

- تموت الحاجة وتذهب كل الذكريات.

وردَّ خامس:

- وكأن ما كنا فيه هناك بين الناس ليس أكثر من غمضة عين وانتباهتها.

وتدخَّل سادس:

- فـلاة كانـت ودبنا في هجيرها سـاعة مـن نهار، ولم نستظل إلا دقائق معدودات تحت شجرة واحدة لا تكل ولا تمل من استقبال العابرين.

«مَـن هـؤلاء؟ ولمَ يتكلمون هكـذا كأنهم حكمـاء قادمون من جوف التاريخ البعيد؟»، سأل «سمحان» نفسه، وردَّ عليها: «الدنيا فيها العجب». وتذكـر خبراء الآثار الذين جاءوا إلـى قرية «جبل الطير» وكانوا يتحدثون بطريقة غريبـة، وهم يتجولون على الأحجار القديمـة، ويقرأون النقوش الراسخة التي تركها الغابرون، وكان هو وأقرانه من العيال يلتصقون بهم، وعيونهم على الأفواه التي تنطق الكلام العجيب.

اقتـرب من المقبـرة، وكلما قطـع صوبها خطـوات ينخفض الصوت الآتي منها، ولهذا أخذ الخوف يتسـرَّب إلى نفسـه، ووخزه السؤال: «هل رأوه فتراجعوا إلى الهمس؟ أم أن الريح كانت تحمل الصوت، وتنفخ فيه فيأتي إليه عاليًا وهو في مكانه؟»

خفت الصوت حتى صار همسًا، وانبثق نور من قلب المقبرة، كان مبهرًا لم يستطع «سمحان» أن يحملق فيه، بل كاد بصره ينخطف. ولمَّا غمر الضياء كل المكان، سكنت جميع الأصوات تمامًا، ثم انطلق صفير عذب، لم يلبث أن تحوَّل إلى لحنٍ موجعٍ لناي مجروح. وبعد زمن من اللحن الباكي، جاء صوت فخيم:

- هلموا إلى الحضرة.

كان الصوت قويًّا جليًّا، لم يتمكن «سمحان» من أن يصمد أمام ذبذباته، فارتجَّ، وأسند يده على السور الكالح، وسحب شهيقًا عميقًا، ليعوِّض انقطاع نفسه من فرط الوجل.

ورنا إلى باحة وسيعة أمام المقبرة، فوجد مَن يأتون إليها من كل صوب، مرتدين جلابيب، يكاد بياضها الناصع أن يضيء، ويمشون بخطى موحدة في هدوءٍ واطمئنان، ثم توزعوا على صفين متقابلين، ورفعوا هاماتهم نحو رجلٍ طويل القامة، ذي كتفين عريضتين، وسكنتهم هيبته وحبه في آنٍ إذ أقبلوا عليه في حبور وخشوع، وتطلعوا إلى كفيه الكبيرتين، منتظرين منهما شيئًا، ولم يطل الانتظار، إذ تقدَّم الرجل خطوات وصفق ثلاثًا، وطوح جسده قليلًا يمنة ويسرة، ففعلوا جميعًا مثله، وانطلقوا في صوت متناغم: «الله حي.. الله حي». كانوا يمدون لفظ الجلالة، ويتكئون على الحروف حتى يشعر مَن يسمعهم أنها قادمة من أعماق الروح.



«هل رأوني وتغافلوا عني؟»، سأل «سمحان» نفسه واحتار، لكن حيرته لم تطل، إذ تقدم أحد الذاكرين في الحضرة، وأشار إليه بيده أن يأتي، لكنه أوجس منه خيفة، وتراجع إلى الخلف، فاصطدم ظهره بالسور الصلد، وخرجت من حنجرته آهة ألم حاد، انداحت في المكان، وماتت قبل أن تصل إلى آذان الواقفين في الحضرة، إلا أن مَن مدَّ إليه اليد سمعها، وكان قد قطع خطوات نحوه مبتسمًا حتى يطمئنه.

كان العرق يتفصَّد غزيرًا من كل مسام جلد «سمحان»، وأطرافه ترتعش بقوة، فترتج الشومة في يده، بينما أخذت بلغته تحفر في الرمل حفرة صغيرة، وثار غبار لوَّث الضوء المنبعث من وجوه الذاكرين.

كانت ابتسامة الرجل تتسع، ويده تمتد أكثر، وبان الامتنان في عينيه المغموستين في لجة النور، فتسرب الاطمئنان إلى نفس «سمحان»، ورفع يده اليمنى، ومدَّها نحو الرجل، وسار خطوتين حياله، والتقط أنفاسه المبعثرة، وابتسم، ولم يعرف أين هو؟ وماذا سيجري له؟ لكنه ترك نفسه لأقداره، وبدا منبتَّ الصلة عما جرى، وعما سيجري، وشعر أن جسده يخف، وتكاد قدماه ترتفعان وتسبحان إلى الأمام، فتقدم نحو الحضرة، وصرخ بأعلى صوته: «الله حي.. الله حي».

وجاء صدى صرخته دوامات هادرة ملأت رأسه، فشعر بدوار خفيف، لكنه نفخ في إرادته وتماسك، وتقدم قليلًا حتى دخل في الصف الأيمن للذاكرين، وصار بينهم يتطوح، ولسانه يلهج بالذكر، وقلبه ينبض بوجيبٍ متلاحقٍ، وجسده مغطى بالنور المبهر، وعيناه ذاهبتان إلى حيث الظلام

المكـدس عند السـفح القريب، وأنفه يسـحب مـن رائحة زكيـة، لبخور عجيب لم يشمه من قبل.

استردَّ جزءًا من وعيه بما جعله يستطيع أن يرى مكانه بين المتطوحين، وطرف السور الكالح الواقف كقدر مقبض، وصهوة قبر أعلى من القبور، وبان له الصبار ملفوفًا في نور شحيح.

كان الرجـل الـذي خـرج من الصف، وأشـار إليه بيده، قـد وقف إلى جـواره وانخرط فـي الحضرة بكل كيانه، ونسـيه «سـمحان» قليلًا، حين ذاب مع الجمع، وشعر أنه الوحيد بينهم المعني الآن بأن يتابع ولو بطرف عينه ما يجري، أو يعود لينشغل بأي شيءٍ يجول بغتة في خاطره.

وانشـغل بالرجل الذي أدخل السـكينة علـى قلبه، ففتـح عينيه ليراه، فروَّعه ما رأى، فالواقفون إلى جواره يتمايلون لا ملامح لهم، والجلابيب البيض تحجب ما لا يمكن لـ «سـمحان» أن يتخيلـه، والرؤوس الظاهرة مـن فتحات الصدور لا أعناق لها، ولا يغطيها شـعر أو تلمع لها صلعات فـي الضـوء، وليس لهـا أنـوف ولا آذان ولا شـفاه، ولا عيـون تطل منها لهـا رمـوش، وتحدها حواجب، لا شـيء من ملامح البشـر، إنما هالات مسـتديرة مـن نورٍ طاغٍ، كأنها زهـور فُلٍّ ضخمة تضـيء بذاتها ومن ذاتها دون أن يمسسها شيء.

«ما هذا؟ وأين أنا؟»، سـأل نفسـه صامتًا وفي سـرعة خاطفة، وطغت عليـه رغبـة فـي أن يعرف، وعـرف، فانكشـف كل شـيءٍ أمامـه، فالذين



يتطوحـون حوله وصدورهم تلهج: «الله حي»، ليسـوا كما ظنهم قبل أن يخطو نحوهم، وينضم إليهم، إنما كائنات من نوع آخر.

«ملائكـة هـؤلاء؟ أم عبـاد اللـه النورانييـن، يبصـرون بعيـن اللـه، ويدبـون بقدمه، ويشـيرون بيده؟ أنـاس هم أم جان؟»، كل هذه الأسـئلة ولـدت وماتـت برأس «سـمحان» في لمـح البصر، ووجـد الأرض تميد مـن تحتـه، وانتابـه وجل ممـزوج بجلال وهيبة، وشـك يصـارع اليقين، وغياب وحضور، وصحو ومحو، واتسعت الأرض وضاقت حتى غابت وضاعت منه فسقط مغشيًّا عليه.

# 5

سمع مَن يناديه:

- سمحاااااااااان..

صوت جاءه أم صدى أم مزيج منهما، لا يدري كم من الوقت والجهد بذله مَن أطلق نداءً باسمه ممطوطًا، حتى يقتحم أذنيه، ويجعله يتململ في مكانه، ويبدأ في فتح عينيه. فتحهما فامتلأتا بنورٍ طاغٍ، كان مختلفًا عمّا أغمضتا عليه قبل ساعات، هو نور ساخن، يسطع على كل شيء، الأحجار والرمل والوجوه.

مدَّ «سمحان» يده إلى جبهته الملتهبة، فوجد مياهًا راكدة على الأخاديد الرفيعة الضحلة الممتدة على جبهته، ثم زحفت أصابعه بجانبه فلم يجد الشومة، فانتفض فزعًا. وطارده الصوت والصدى: «سمحاااااااااان»، كان يأتي هناك من عند الكُشك، وبان رجل نحيل طويل، ملفوف في جلباب رمادي، يرفع يده ويضعها فوق عينيه ليحجب عنهما الشمس، وينادي بكل ما وسعه.

وقف «سمحان» وسار خطوتين مترنحًا، فتعثرت قدماه في الشومة، مال إليها ورفعها، وسار في اتجاه الكُشك، ورآه الرجل الواقف هناك



فراح يهبط من عليائه، ويسير نحوه بخطى نشطة، حتى وصل إليه، فمدَّ يده وأمسك به، وقال له بصوتٍ مبحوحٍ:

- أنا «فتحي أبو هاشم» خفير النهار.

وكان «سمحان» لا يزال يصارع الخوف والدهشة فلاذ بصمتٍ، ولم تصدر عنه سوى تنهيدات موجعة. حملق «فتحي» في وجهه، ثم مدَّ أطراف أصابعه ولمس جبين «سمحان» ليعرف ما إذا كان محمومًا، ثم سأله:

- ما لك يا ولدي؟

واجهه «سمحان» بصمتٍ من جديد، فواصل الرجل تساؤلاته، واكتسى صوته بحدةٍ ظاهرة:

- كيف تترك مكان حراستك وتنام عند المقبرة؟

تنحنح ولم يجب، فقال الرجل في غيظ:

- لا يجب أن تنام أصلًا.

وعندها هزَّ رأسه وأجابه:

- لا أعرف ما الذي جرى لي.

وجلسا على الحجر العريض الذي ينام أمام الكُشك، وحكى «سمحان» للرجل كل ما وقع له. وبعد أن أنصت «فتحي» إليه قهقه، وضرب جبينه براحة يده، ثم ربَّت كتف «سمحان» وقال:

- جرى لك ما جرى لمَن تسلَّمت منه، وفي المكان نفسه لكن منذ زمن بعيد.

واستعاد «سمحان» هيئة الرجل وهو يسلِّمه كل شيءٍ على عجل، ويفر من المكان من دون أن يلتفت خلفه، وتذكر شعر الرجل الذي صار قطعة قطن تحط فوق جبهته وقفاه، وسرى الخوف في عروقه من جديد، وتلعثم لسانه، وهو يقول:

- لهذا ألقى هذا الحِمل على كتفي وجرى مني وكأنني أجرب.

هزَّ رأسه بالنفي:

- «عبد العاطي» لم يخف، بل سار وراء النداء، وعاد غير ما ذهب.

وساد بينهما صمت، ولاح هناك مركب شراعي يسري فوق الماء في وداعة، وقطعة من سحاب أبيض تعبر السماء رامية ظلها على سرب طير ساعٍ وراء رزقه، وجاء ثُغاء ماعز فوق سطح بيت في طرف قرية «طهنا»، وشحطت شاحنة تحمل أحجارًا ضخمة على الطريق الأسفلتي الذي يمتد أعلى شاطئ النهر.

وعاد كلاهما من شروده، ولم يعد يتذكر الآن بعد إيابه فيمَ كان شاردًا؟ لكن المهم أنه أدرك في هذه اللحظة أن دبيبًا يسري في أعماق نفسه، ويترك وراءه خوفًا ينهش الروح.

ونظر «سمحان» في عيني الرجل الذي يجلس إلى جواره مادًّا عنقه نحو المجهول فوجد البياض قد زحف على سوادهما، فيما زحف صفار



إلى وجهه، وبدت شفتاه مقددتان، تتحركان لتنطقا شيئًا، وها قد جاءهما الكلام:

- كان في أول أيامه هنا، وسمع مَن يناديه عند المقبرة والليل أسود غطيس، يا عبد العاااااااااطي.. يا عبد العاااااااااطي، فنزل من هنا فوق هذا الحجر الكبير الذي ينام تحتنا، وذهب وراء الصوت، مردومًا بالصدى، ووراء بقعة النور الأبيض كالنهار، فوجد حضرة منصوبة، يتمايل فيها رجال ملفوفون في جلابيب بيض، دخل بينهم وصار منهم، وظل يتطوح حتى وجده الناس ملقًى على الأرض والشمس تأكل جسده عند الظهر القادح.

وتابعه «سمحان» باندهاش، واستعاد كل ما جرى له، وقال:

- كأنك تتحدَّث عني.

هزَّ «فتحي» رأسه، وشرد قليلًا، وامتلأت عيناه بالدموع، وردَّ عليه:

- على قدر خوفي مما حكاه لي تمنيت لو عشته أنا، كان أمرًا مثيرًا، لا يمكن لمن مرَّ به أن ينساه أبدًا.

تنهد متوجعًا وواصل:

- العيش في خطر هو ما يقوي قلب بني آدم.

لوى «سمحان» شفتيه، وتساءل في سره: «بماذا يهذي هذا الرجل الذي لم أكن أعرفه منذ ساعة؟». وتعجَّب من أمر «فتحي»، ولم يكن يدري في هذه اللحظة أن الأيام المقبلة ستعرفه ما كان يقصده الرجل،

الذي أراد أن يبدِّد دهشته في اللحظة تلك، وليس في زمنٍ آتٍ يماط فيه اللثام عن أشياء كثيرة ويُرفع الحجاب عمَّا هو أكثر، فنظر طويلًا في عيني «سمحان» وقال له:

- لم يعد «عبد العاطي» كما كان بعد أن تمايل في الحضرة.

ضرب «سمحان» ركبته اليسرى وصرخ:

- هل مسَّه جنون؟

- بل طار بعيدًا عن هنا.

- طار؟!

- تبدَّلت أحواله. نسي ما في يديه، والذي أمسك به سنين، وهام وراء ما ليس عنده.

- وما هو؟

- المسافات الطويلة بين السماء والأرض.

وبدا «سمحان» متعجبًا مما يسمعه، وسأل:

- من أين لك بكل هذه الحكمة يا عم؟

- هذا المكان يجعلك «لقمان» إن ملأت منه عينيك، وسكتَّ لتسمع ما تنطق به هذه المساخيط، وما يأتي من الجبَّانة، ويروح إليها.

- وهل تنطق هذه المساخيط؟



- تنطق بما لا يستطيع عقلي وعقلك أن يدركه.

اتسعت حدقتا «سمحان»، وقبل أن يبدأ من جديد، بدَّد «فتحي» حيرته:

- كل مرشد سياحي يجيء إلى هنا يتكلم بما يجعلنا نعتقد في أن هذه الأحجار لها أصوات تدوي في المكان، ولا تخرس بتقدُّم الزمن.

ثم صمت برهة وأشار إلى الحجرين الكبيرين اللذين يعتلي أحدهما الآخر وقال:

- ما قرأه «عبد العاطي» أمامي في هذه الكراسة وفسَّره لي يبين الكثير.

ثم التفت إليَّ قائلًا:

- أتعرف القراءة؟

- معي الابتدائية.

- ما شاء الله.. افتح الكراسة على الصفحة المقطوع جزء منها واقرأ.

- لكن.. مَن قطعها؟

- «عبد العاطي»، وكنت معه هنا والشمس تغرب.

وفتح «سمحان» الكراسة وراح يقرأ:

«هناك مَن يقول إنه لا يموت أحد، إنما ينتقل إلى حياة أخرى، فالروح تفر من جسد صاحبها حين توافيه المنية وتسكن أجسام حيوانات وطيور في البر والبحر والجو، ثم تعود إلى جسم الإنسان. وتطول فترة الانتقال

هـذه لتصل إلى ثلاثة آلاف سنة، وكم من بشر تحولوا إلـى عنقاء، وإلى صقـور ذهبية، وإلـى أزهار لوتس. أمـا أجدادنا الفراعنة فقـد كانوا يرون أن الروح التي أطلقوا عليها اسـم (با) تحوم حول جسـد الميت في قبره، ويمكنهـا أن تغيب عنه قليلًا وتتجول في أرجاء الأرض، فتزور بركة كان قد استحم فيها، أو شجرة استظل بها، لكنها لا تلبث أن تعود إليه».

ولما انتهى «سمحان» من القراءة، زحف العجب إلى سحنته، وانعقد لسـانه. كان قد سـمع عن روح أحد التوءمين، التي تخـرج منه وهو نائم، وتسكن جسد قِطٍّ، يقفز على أسطح البيوت، ثم يهبط إلى كل الحجرات بحثًا عن طعام، لكن ما قرأه في هذه الكراسة كان جديدًا عليه.

تنحنح «فتحي» وقال لـ «سمحان»:

- لتذهـب أنـت الآن كـي تنـام، وعد عنـد المغـرب، ولا تنـسَ أن تأخذ شومتك التي ألقيتها تحت قدميك.

وبينما كان «سـمحان» ينسـحب في هدوء نحو حماره الواقف تحت تلة مسـنونة، يلوك بقايا جذور أعواد الذرة، الملقاة تحت حوافره منذ يوم كامل، جاءه صوت «فتحي»:

- سيأتي مفتـش الآثـار عند الظهر، وسيسـأل عنك، وسـأقول لـه كلامًا طيبًا.

لم يعبأ بما سـمعه، إذ كان قد عقد العزم في شـروده على ألا يبقى في هذا المكان طويلًا.



حيـن عاد إلى البيت منهكًا حكـى لأبيه في مرارة وخوفٍ ما جرى له، طالبًا منه أن يوسـط قريبهم في نقله إلى أي مكان في البندر، أو في مكان عامر لا يقف على تخوم مقبرة. لكن الأب برم بوزه، وأشاح برأسه بعيدًا عن ولده، ثم زفر، وقال في غضبٍ:

- الرجل ليس على قدر أيدينا، ولا رهن إشارتنا.

وصمت برهة وقال:

- كما أن أحدًا لن يصدق هذه التخاريف.

وقبل أن يغطس «سمحان» في النوم جاءه صوت أبيه:

- ابـقَ فـي مكانـك شـهرًا أو اثنين حتى يمكننـي أن أتكلم مـع قريبنا في موضوع نقلك، لكن لو فعلت الآن، فقد يراك الرجل مستهترًا أو مدللًا، لم تتحمل يومًا واحدًا من العمل.

سـقط «سـمحان» في النوم قبيل العصر بعد أن ظل في فرشـته مؤرقًا سـاعات، يحاول أن يطرد الهلاوس التي اجتاحته بقسوة. حطَّت المقبرة أمامـه علـى الحائـط، ورأى الرجال الذيـن يحملون النعـش في صمت، والنسـوة الباكيـات، واقتحـم أذنيـه صراخ المـرأة التي كانت تمشـي في المنتصف مولولة بحرقة، وجاء الرجال الملفوفون في النور والبياض بلا رؤوس، وبرز من بينهم ذلك الذي ناداه إلى الغياب.

راح يسـتعيد كل التفاصيـل منذ أن ربط حماره تحـت التلة، وألقى له جذور الذرة حتى سمع صوت «فتحي» يموج بين فوالق الصخر العتيدة،

ووجد نفسه منشغلًا كثيرًا بـ«عبد العاطي» الذي لم يمهله حتى أن يحفظ ملامحه جيدًا. كل ما يتذكره منه هي تلك البقعة السوداء المكسوة بالشعر، التي تحط على خده الأيمن. وتملك «سمحان» شعور بأنه سيلقى هذا الرجل يومًا، أين؟ لا يدري.

الشيء الوحيد الذي لم يتذكره هو صور المساخيط التي يحرسها، إلى متى؟ لا يدري أيضًا. أشار إليها «عبد العاطي» في عجالة، وقال له:

- وراءك مقصورة حتحور، ومعبد نيرون، وأمامك المدينة الرومانية المهدمة.

وعندما كانت الشمس تشق طريقها هاربة بين جريد النخل غرب النهر فتح «سمحان» عينيه مستجيبًا لنداء أبيه، الذي وقف بجسده البدين، وسدَّ باب الغرفة الرطبة. نهض متثاقلًا يفرك عينيه، ويزيل بأصابعه بقايا رغاء عالق بشفتيه وطرف شاربه الخفيف.

دفس قدميه في مركوبه، وخرج يتثاءب مناديًا أمه، كي تعد له طعامًا، لكن الأب قال بحسم:

- جهزت لك صرة الأكل، وقلة الماء، وكنكة للشاي.

وضايقه ما سمع، لكن أباه اقترب منه، وربَّت كتفه، ورقق صوته:

- الشمس اقتربت من المغيب، ويجب أن تسرع حتى لا يستعوقك صاحبك.



تقدم إلى الطلمبة الواقفة في صالة البيت، وداس يدها المقوسة، وتدفق الماء أمامها، فأخذ منه، ورماه على وجهه، ثم مسحه ببشكير صغير أصفر معلق فوق مسمار على الحائط، وارتدى جلبابًا ثقيلًا من الصوف، ولفَّ عنقه ورأسه بكوفية بنية عريضة، وقفز فوق حماره، ونغزه في كتفه حتى يسرع نحو «طهنا الجبل». وبعد أن سار الحمار خطوات قليلة، جاء صوت الأب:

- لا تذهب عند المقبرة مرة أخرى.

# 6

كان الكسَّـار ينبح حين وصل، وغباره يخفي المكان الأثري والمقبرة و«فتحي». غطس في بحر التراب وهو يتنفـس بصعوبة، ومنحته معاناته تلك فرصة ليتلهى عن الهواجس التي هجمت على نفسـه طوال الطريق، فزرعت فيها كآبة سوداء، وراح يقول في صمت: «مكان موحش، أبعدني عن صحبة الليل، حيث السـهر والسـمر، ولعب الورق، والقهقهات التي لا تنقطع».

لكـن لم يكن أمامه خيار، فأصحابه يحسـدونه على هذه الوظيفة، بل إن أحدهـم قال له حين سـمع عـن تضجره وقرفه وقـت أن جاءه خطاب التعيين على «طهنا»:

- كلِّـم قريبك ليقوم بتعييني مكانك، وأترك لك سـتة قراريط من أرضنا، وله مني هدية ثمينة.

وقال له آخر:

- ألم تسمع عن المثل الذي يقول: «إن فاتك الميري تمرغ في ترابه».

ثم ضحك وأكمل:



- أنت ستكون ميري مربع، بعد أن تتسلم الشومة الطويلة.

مـا إن رآه «فتحي» حتى نـزل إليه مهرولًا، صافحه بسـرعة، ثم أعطاه ظهـره وانصرف. وقبل أن يصل إلى المدق اسـتمهله «سـمحان» بصوتٍ رفيعٍ متحشرج يستعطفه:

- ألا تريد أن تنصحني بشيء؟

فردَّ عليه مبتسمًا:

- لا تذهب عند المقبرة مرة أخرى.

فاغتصب «سمحان» ابتسامة من طرف شفتيه، وقال:

- حَرَّمت.

وقبل أن ينثني «فتحي» من جديد نحو المدق ناداه «سمحان»:

- هل هناك نصيحة أخرى؟

فالتفت إليه:

- أوقد نارًا تستدفئ بها وتؤنسك، وتخيف الذئاب.

- ألا يمكن أن تنبه الغرباء إلى مكاني؟

- هم يعرفون المكان، ويأتون منذ سـنين لشـرب الشاي، فلا تغلظ معهم وإلا آذوك.

- لكنهم قد يسرقون شيئًا.

قهقه حتى لمع نابه المعدني في الغبش، وقال:

- المساخيط منحوتة في الجبل، والمدينة الرومانية صارت أكوامًا من ركام منذ زمن بعيد، وشومتك قديمة ومتهالكة، وحمارك نحيل وأعرج، فماذا سيسرقون من هنا؟

وأشاح بيده، ثم أعطاه ظهره، ولوى عنقه ليوجِّه رأسه ناحية الشمال، حيث سيقطع طريقه إلى بيت صديق له في قرية «طهنا»، يحلو له أن يجالسه أحيانًا قبل أن يعبر النهر إلى بلدته، وأحيانًا يبيت عنده.

يحرس «فتحي» هذه الآثار منذ عشرين سنة، وفي أول عهده بالوظيفة واظب على وردية الليل، وها قد جاءه مَن يأخذ عنه هذا العبء الثقيل، لاسيما أن في سنواته الأولى كانت القرية ضامرة، منكمشة تحت سفح الجبل، وكأنها خائفة من أشياء كثيرة: السيول والعاصفة وانفلاق الصخر، ثم تدحرجه، والذئاب الشاردة، وقطاع الطرق، أما في وقت أن جاء «سمحان» كانت البيوت قد تمدَّدت حتى اقتربت قليلًا من الآثار.

وقبل أن يزداد الغبش قتامة هرع «سمحان» ليجمع الحطب المتناثر حوله، لكن قدميه تعثرتا في كومة منه موضوعة بجوار الكشك، يبدو أن «عبد العاطي» قد جمعها قبل أن يرحل، أو لملمها «فتحي» اليوم لعمل الشاي. أخذ منها وراح يكسر الحطبة الهشة بين يديه، والمتينة على ركبته اليمنى، ويضع بعضها فوق بعض حتى صنع منها كومة، والتقط علبة الثقاب من جيبه، وسحب منها عودًا بين إصبعين، وأشعله ودسَّه بين الحطب، لكنه انطفأ.



تلفت حوله بحثًا عن أي قشٍّ يساعده، ولم يجد. ووقعت عيناه على الكراسة النائمة بين الحجرين الكبيرين، وقام إليها وجذبها، وفتشها سريعًا ليجد أي صفحة فارغة فيقطعها ويدسها تحت الحطب، إلا أنها كانت مزدحمة بالكلمات، ومع هذا قطع واحدة وأشعلها، ورفع جانب كومة الحطب ودسَّ الورقة التي احترق نصفها، فازدهى جانب الكومة بلسان نار يتلوى وسط دخان خفيف.

النصف الذي لم يحترق سوى طرف صغير منه انفلت فجأة من يد «سمحان» وطار بعيدًا عنه، وأخذت الريح تضربه فيتموج ويتأرجح حتى سكن هناك على تبة صغيرة من بقايا المدينة الرومانية الميتة.

تابعه بصعوبة لأن الليل كان قد هجم، ولفَّ النار بغلالة سوداء خفيفة، امتزجت مع جدران الكنكة التي اختفى لونها الفضي من كثرة عراكها مع اللهب طيلة السنوات الماضية. واعتقد أن الشرارات التي تنبعث من الورقة وهي تلف في الهواء ستموت هناك بين ركام التراب، وشقف الفخار، وقطع الأحجار العتيدة، وراح يصب الشاي في كوبٍ من الزجاج الشفاف، ويقلب السكر بحطبة نظفها بالماء حتى يذوب، وأخذ ثلاث شفطات، وبصره يمتلئ بلسان نار يصعد من أسفل، ويتلوى كثعبان.

«ما هذا؟!»، سأل «سمحان» نفسه بصوتٍ مسموع، وقد فغر فاه من الدهشة، ووجد نفسه مغطى بسحب كثيفة من دخان، حجبت عنه رؤية القناديل الذابلة التي تبث نورها في الغرف المصمتة، ويبين بعضها من النوافذ التي فتحها الأهالي لتستقبل نسائم الليل.

لكـن الدخان الأسـود بدأ يصفو رويدًا رويـدًا، فبانت عروق من نور، تنزل من عمق السـماء البعيد، وتنغرس في التراب، الذي بقي من أطلال المدينـة الغابـرة، التـي لـم تعد فـي عيني الجالـس عند ركوة النـار أكوامًا وحفرًا، بل بيوتًا وشوارع وميادين.

رأى أمامه بلدة شبه مربعة، تبدو كرقعة شطرنج، لها طريقان رئيسيان، أحدهما يمتد من الشـرق إلى الغرب، والثاني من الشـمال إلى الجنوب، ثـم طـرق فرعية موازيـة للطريقين السـابقين. ويشـكِّلان عنـد تقاطعهما مربَّعـات محشـوة بالمنازل. وينتهي كل شـارع ببابين كبيريـن في طرفيه، يزينهما قوسان ضخمان تزركشهما أشكال منحوتة من الحجارة.

وبـان لـه سـور يطـوق المدينـة مـن جهـات ثـلاث، وكان مهدمًا من الشـمال، حيث عبرته البيوت منطلقـة وراء الرمال. وفي منتصف البيوت ظهرت سـاحة عمومية وسـيعة، يحيـط بها معبد، وقصر للعدل، وسـوق عمومية، وحوانيت تجارية، ومجلس للمشورة، ومسرح مدرج.

وسمع صوتًا يناديه:

- سمحاااااااااااااان..

اشـتعلت في رأسـه آلام الليلة الفائتة، فأغمض عينيه وفتحهما مرات ومرات، ومدَّ يده إلى النار طائعًا كي تلسـعه، ويدرك أنه مسـتيقظ وأن ما يراه أمامه ليس حلم ليل سرعان ما يتبدد في وضح النهار.



وكانـت لا تـزال في الكوب رشـفتان فسـحبهما، وغـرس مقلتيه في هالات النور، التي تكسو بيوتًا غير بيوتهم، وعاد الصوت يناديه:

- سمحاااااااااااااان..

وقـف مكانـه يرتعـش، والتفت إلـى الخلف، ليجـد المقبـرة صامتة وغارقة في الظلام. كان يعتقد أن مَن يناديه يقف هناك بين الذاكرين، كما حدث في الليلة الفائتة، إلا أنه لم يكن هناك سوى السكوت المخيف.

لـوى عنقـه ليتأكد مما رآه، فإذا بالنهار قد فـرش رداءه الأبيض أمامه. لـم يفرحه النور، بل أفزعه؛ لأن الليل لـم يكن قد أوغل راحلًا حتى يأتي الفجر سـريعًا هكذا. ونظـر خلفه مرة أخرى، فوجد الليـل لا يزال جاثمًا فـوق شـواهد القبور. ليـل وراءه وأمامه النهـار، وبينهما ركـوة النار التي تتراقص في هدوء.

تيقـن أن مَـن يناديـه يقف هنـاك أمامه، ربما في شـارع مـن تلك التي ترسـم خطوطهـا بين البيـوت العتيقـة، أو هناك في السـاحة، أو متوارٍ في حارة خلف جدار صلب.

وفكر «سـمحان» أن يهرب إلى الخلف، ويغوص في الليل ويختفي، لكن مشـهد الأمس حلَّ برأسه بغتة، فوقف متجمدًا مكانه، ثم وجد نفسه يتقدم إلى الأمام على غير إرادة منه.

ماذا كان في الورقة التي طارت، فانطلق شلال النار، وهجمت سحب الدخان، التي تحمل رائحة بخور غريب؟ وهل ما جرى له علاقة بحرقها وطيرانها أم لا؟

تساءل «سمحان» في حيرة، لكنه كان يحدّث نفسه وهو يمشي صوب النهار، الذي وُلد فجأة في قلب الليل.

بدا الوقت فجرًا، وظهر أمامه معبد، راح عاملوه يفتحون عيونهم ويطردون النعاس عنها، وينظرون إلى كاهن ذي جسد فارع، يقف أمامهم، ويشير إليهم في تجهُّم. ولم يمر وقت طويل حتى كان الجميع يدبون في نشاط نحو المخازن والمطابخ، وينصتون برؤوس مطرقة إلى أوامر الكهنة والكتبة.

ولاحت مجموعة من الكهنة، رؤوسهم حليقة، يمشون في هدوء نحو البحيرة المقدسة لتطهير أجسامهم، ثم يدخلون إلى ممرات المعبد المؤدية إلى غرفة «قدس الأقداس» التي بها تمثال تحل فيه روح الإله هابطة من جوف السماء البعيد، كان منهم مَن يمسك في يديه آنية بها ماء رقراق يصبه في الأحواض، وبينهم مَن يمسك مبخرة تضوع منها رائحة زكية، ومنهم مَن يمسك خرقة مبللة بمواد مطهرة ويمررها على الجدران لتزيل ما علق بها من أدران وغبار، وإلى جانبهم يسير حاملو القرابين، وأخذوا في وضع أباريق ماء وأوانٍ بها طعام وفواكه على المائدة، ملفوفة في سحب من البخور.

وسمع مَن يناديه من جديد:

- سمحاااااااااان..

تقدم حتى أصبح بين المتزاحمين في المعبد، ثم تسلَّل إلى أن اقترب من الكاهن الأكبر، الذي وصل إلى «قدس الأقداس» وهو يحمل مبخرة،



وسمعه وهو يردد حين شد المزلاج: «سيرخي الرباط، ويحل المقبض، حتى يجتاز الباب، لقد طرحت أرضًا كل الشروط التي عليَّ». فلما دخل أغلق الباب وراءه فأصبح في ظلامٍ دامسٍ، ثم أضاء شعلة بنار المبخرة العطرة، وحل رباط الختم، وهو ينشد: «الرباط قد حُلَّ، والختم قد فُضَّ، كل ما فيَّ من شرٍّ قد ترك جانبًا، إنني آتٍ وأحضر لك عين حورس»، ثم خرَّ منبطحًا على بطنه، وراح يقبِّل الأرض، وهو يقول: «أنا أقبل الأرض ووجهي إلى أسفل، لقد أنبت بالحق إلى سيده، وبالغذاء إلى مَن صنعه.. سلام على الإله. الروح الحية التي تقهر أعداءها. إن روحك معك، وعصاك إلى جانبك، وإني طاهر».

وراح ينظف تمثاله الموضوع في الناووس، ويُلبسه حلته الأنيقة، ويعلِّق في رقبته وعلى صدره أوسمته، وقدَّم له وجبته الشهية.

وأتى مرددو الأناشيد، وظهرت مغنيات ينشدن ويغنين ويحركن الصلاصل، وارتفعت الأصوات صادحة، ولم يجد «سمحان» بُدًّا من الانخراط في الترديد العذب الندي:

«يا إله الشمس

استيقظ أيها الواحد المطهر في سلام

استيقظ أنت يا حور الشرق

إنك تنام في سفينة الليل

وتستيقظ في سفينة الصباح

لأنك أنت الذي تشرق على الآلهة، ولا إله يشرق عليك

إن استيقاظك مليء بالسلام

ما أجمل إشراقك يا رع

العالم سيعيش بصنيع يدك

فيحيا حينما تشرق

ويموت حينما تغيب

لأن حياتك طول مدى نفسك

والناس تعيش بوساطتك

وأعين الناس لا ترى إلا جمالك حين تغيب

وحينما تغيب في الغرب وحينما تشرق ثانية

تجعل كل كفٍّ تندى لأجل الملك

والخير في إثر كل قدم

منذ أن خلقت العالم

وأوجدتهم لابنك

الذي ولد من لحمك

ملك الوجه القبلي والوجه البحري

العائش في الصدق رب الأرضين».



وبدا رئيس الكهنة أمام الجميع مرتديًا زيًّا مصنوعًا من التيل وفوقه جلد نمر حقيقي، أما بقية الكهنة فكانوا يلبسون ملابس منوعة من القمصان الضيقة أو المجول المثبت بشريط يلف حول الكتف، أو عباءة مستديرة، وفي أقدامهم أحذية من ورق البردي. وسرت في الجو رائحة الكافور والصندل، فراحت الأنوف تشهقها في تلذُّذٍ وامتنانٍ كبيرين.

وكان بعضهم يبيع أدراج برديات عليها تعاويذ من «كتاب الموتى»، وعدة مناظر متخيلة من الآخرة، وهناك مَن كان يبيع مواد التحنيط والتوابيت وتماثيل الشوباشي، التي لا تزيد على حجم الإبهام وتدفن مع الموتى في توابيتهم، للتضرُّع إلى تاسوع الآلهة من أجل الغفران. ووقف كاهنان يبيعان أبوابًا خيالية يقولان إنها التي تدخل منها الروح لتتصل بالجسد ثانية بعد الممات، وأقنعة ترشد الروح «الكا» و«البا»، وهناك مَن يبيعون تماثيل تشبه الموتى.

وكان الناس يتزاحمون حول هؤلاء الكهنة، وسمع «سمحان» أحدهم يقول لصاحبه:

- جئت ماشيًا من بلد بعيد لأشتري بردية تضمن لي البراءة في الحياة الأخرى.

فنظر إليه الرجل وهو يحاول أن يحبس الضيق الذي سرى في أوصاله، وقال:

- هؤلاء الكهنة لا ينفقون شيئًا من دخلهم الذي خصَّصه لهم الملك، فخبزهم مقدَّس، وكل واحد منهم يتسلَّم كل يوم هشمة كبيرة من لحم

الثيران والإوز، وقارورة فخار كبيرة من خمر العنب، ولم يكفهم هذا فراحوا يجمعون المال من أيادي الراغبين في نعيم الفردوس بعد الموت.

وهناك في الجانب المقابل للمعبد ظهرت سيدة تحمل رضيعًا عاريًا نحيلًا ذا وجهٍ ضامرٍ، عليه صفرة الموت، هكذا رآه «سمحان» حين تقدم نحوها متعاطفًا مع سيدة تسعى وراء الحياة في مواجهة أولئك الذين يحتفون بالموت.

ولمَّا أصبح على بعد خطوات قليلة منها، تقدمت نحو «مقصورة حتحور»، إنها التماثيل التي يحرسها الآن، رآها على حالها القديم، حين لم تكن واقفة هكذا جرداء عزلاء حزينة، لا يلقي لها بالًا إلا العارفون بالتاريخ والساعون وراء الإلمام بعطاء زاخر لحضارة قديمة عظيمة. رآها كيف كانت مبجلة ومسربلة برجاء الواقفين أمامها، ومنهم هذه السيدة التي وقفت أمامها وراحت تترنم:

«أيتها الإلهة الأم نوت، يا سيدة السماء، يا واهبة النار والدفء، ويا حامية أبنائك من المسوخ والتنانين، ويا راعية الوالدات ساعة المخاض، ويا مبتلعة رع ومعيدته كل صباح، ويا مكثرة نسلنا ليكون كنجوم السماء ورمل الصحراء، لكِ منَّا الشكر أيتها الربة حتحور، يا راعية كل أم ساعة الميلاد، ويا مخففة آلام مَن تلدغهم الحية، والعقرب، ويا مزيلة الأوجاع التي ترسلها الآلهة والمردة والشياطين، ويا راعية كل مولود، يخرج من الرحم ليتنسم هواءكِ كي يعيش، يا معلمة الحب والحنان، سوف نهب



لكِ أيتها الأم كل الأخشاب العطرية التي نجدها في الغابة، فنحرقها على مذبحكِ المقدس، لتصل أرواحها إليكِ في السماء، هيلا .. هيلا .. هيلا».

بعد أن انتهت من إنشاد الترنيمة بصوتٍ يفضي إلى البكاء، تقدمت السيدة نحو تماثيل «حتحور» وأشارت إلى ثلاثة رجال يتبعونها، أحدهم يحمل جوالًا مملوءًا، والثاني يحمل إناءين، أحدهما فخاري والآخر حجري، أما الرجل الثالث فيحمل حزمة من فروع شجر ناشف. فتح الرجل الجوال، وأخرج منه لحم فرائس، ووضعها في الإناءين، وصبوا الماء عليها، وأشعلوا النار، فارتفع بخار السليق وملأ المكان، ثم رصوا المئات من البيض المشوي، وعناقيد الموز الأصفر الطري. ونادت السيدة في العابرين:

- تقدموا لتأكلوا وتبتهلوا معي إلى الإلهة أن تحفظ لي نسلي.

ووجدها «سمحان» فرصة فهرع إلى إناء وخطف قطعتين كبيرتين من اللحم المسلوق، وازدردهما في نهم، من دون أن ينتبه أحد إلى هيئته الغريبة، فقد تاهت عقول الجوعى الذين جاءوا ببطونٍ خاوية، وعلى وجوههم العوز من فجاج وحارات جانبية، ينتهي عند الأخصاص، وشمروا عن سواعدهم، ومدوا أيديهم ولقفوا اللحم الشهي والبيض والموز، وشربوا المرق في أوانٍ فخارية صغيرة، حتى شبعوا، فقاموا من مكانهم وساروا في خشوع نحو «حتحور»، بينما المرأة تتابعهم ودموعها

تتساقط فوق رضيعها، وتشير إلى الرجال الذين كانوا معها أن يشرعوا في حرق رؤوس البقر، ليتصاعد دخانها إلى «نوت» إلهة النار، فتغتبط.

وتقدمت سيدة أخرى، كانت بدينة وأكبر سنًّا وتحمل طفلًا يبدو أنه قد تجاوز الفطام، وخلفها رجال يحملون فطائر وبلحًا وزبيبًا ونبقًا، وخوانًا به لحم بقري ينام في قليل من المرق، وآخر به سمان وكلاوي مطهية، وثلاثة دوارق كبيرة مملوءة بالخمر. ووقفت على مقربة من السيدة الأخرى، وراحت تردد الترنيمة نفسها، والجوعى حولها يرددون معها، إلى أن انتهت، فتسابقوا إلى الطعام، ومعهم «سمحان»، والتهموه وهم في غاية من السرور.

وظهر إلى جانب جدار بيت ذي رياش رجل نحيف، يجتمع في مقلتيه الألق والسكينة، وعلى شفتيه ابتسامة هادئة عذبة، وأخذ ينظر إلى الكهنة والكتبة والمنشدين ومقدمي القرابين ويهز رأسه ساخرًا، ثم يرفع عينيه إلى السماء البعيدة، ويشير بطرف إصبعه، ويكلم نفسه.

كان أغلب المتواجدين يرتدون أثوابًا بيضاء، فبدوا سربًا هائلًا من البجع أو أبي قردان. وكان الرجال يرتدون مآزر أو نقبات صغيرات تغطي عوراتهم، أو جلابيب، أو مجولًا أو صدرة، بها حزام عند الوسط، وأطواق وكولات أعلى الجسم. أما النساء فيرتدين فساتين وأردية طويلة محتشمة تلمس سمانات الأرجل، بعضها من الحرير وبعضها من الكتان والقطن تطوقها أحزمة عند الخصر، وثنيات أفقية ورأسية، محبوكة تتناسق على الأجسام بصورة بارعة، أو تكون فضفاضة، وتوجد



بها شراشيب عند منطقة الساقين، وعلى الرؤوس طواقي وأغطية رأس، تغطي شعورهن القصيرة، وبعضها مستعار بشعور طويلة مضفورة من القماش المزركش. وعند الصدر زخارف من الخرز الملون تغطيه، وفي الأرجل جوارب قصيرة، وعلى الأذرع كمامات وحمالات، وظهرت الخادمات وهن يرتدين سراويل صغيرة وقطع حلي، بينما ارتدت العاملات أروابًا قصيرة.

ووسط هذا الخليط من الأزياء لم يلتفت أحد إلى ما يرتديه «سمحان» الذي رنا ببصره بعيدًا، ليهرب من منظر المدينة العتيقة، التي يمكن أن يبرز له منها فارس يقبض على سيفه، أو يمسك رمحًا أو كنانة سهام، ويقتله، أو تقفز من فوق السور الغربي كلاب حراسة ضارية، تنتبه لمنظره المختلف فتهرول إليه لتمزقه.

واستقر ناظراه على الأخصاص التي يسكنها الفقراء والمعوزين، والتي بنوها من أغصان الشجر وغطوها بأوراق البردي وسيقان اللوتس وما وجدوه من لحاء، وطلوها من الخارج بطين خلطوه بالقش، ومن الداخل بالطمي الأحمر الذي جلبوه من قاع النيل.

وأمام الأخصاص كانت توجد أكواخ من حجرة واحدة، مسقوفة بأعواد البوص والنجيل والقش، وتحط على جدرانها سلالم تؤدي إلى الأسطح الخفيضة، التي تحمل أجسام رجال ونساء نائمين على ظهورهم، يحملقون في النجوم البعيدة، وتحتهم غرف تكاد تخلو من أي أثاث.

وهنـاك علـى تلـة مرتفعـة، توجـد بيـوت بنوها مـن قوالـب الطوب المصنوعـة مـن الطمـي المخلـوط بالتبـن والرمـل والحصـى، وطليت جدرانهـا باللـون الأبيض، بعـد أن سـقفوها بعروق مشـقوقة من جذوع النخل، تتوازى على مسـافات متسـاوية وفوقها ألـواح كبيرة من الطمي، وتتتابع نوافذ مربعة، خلفها ستائر من الحصر المجدولة.

وحيـن تنتهي هذه البيوت تبدأ بيوت أخرى، تكسـو جدرانها لوحات جداريـة بديعـة، أو تزينها معلقات منسـوجة من الكتـان تحتضن الألوان الزاهية، بينما الأسقف مزخرفة بأشكال من الجص، والأرضيات مفروشة فيها رقائق القرميد، وفوقها حصر وأبسطة مصنوعة بعناية.

وذهب بصر «سـمحان» بعيدًا فوجد النهر مكانه، لكنه كان متسعًا عن ذلـك الذي مرَّ به قبيل الغروب وهو قادم من «جبل الطير». جعل المدينة تحـت ذقنه ومدَّ مقلتيه هناك فوق الماء، فـرأى مركبًا صغيرًا مصنوعًا من خشـب الكافـور، يعبر النهر الـذي كانـت أمواجه تلثم طـرف الجبل في موسـم الفيضـان. يجلس على مجدافـي المركب رجـلان نحيلان، وفي منتصفه حُصُر من القش ملفوفة ومربوطة من طرفيها ومنتصفها، وحولها ثلاثـة رجال صامتون شـاردون في المياه المتدفقة بقوة، وثلاث سـيدات متشـحات بالسـواد، إحداهـن تنـوح بحرقـة، وتلطـم رأسـها وصدرها، وتغـرف من إنـاء فخاري مملوء بالتـراب، وتعفر جسـمها، وهي تولول، وتقـول كلامًـا منظومًـا لـم يفهمـه «سـمحان»، بينمـا رجل ثالـث معهم



ينتقل يمينًا ويسـارًا فوق المركب، وفي يده عصا طويلة مسـنونة يهش بها التماسيح وأفراس النهر، التي تعوم بين حين وآخر نحوهم.

وإلى جانب المركب كانت هنـاك طوافتان وإرماث، على كل واحدة منها رجل، واحد في يده مجداف أو مذراة، يغرسها في الماء، فيتقدم في موازاة المركب الصغير. بدوا حراسًا للمركب، أو أنه لم يحمل كل أهالي الميت ففضلوا ركوب هذه العوامات البسـيطة ليصلوا في موعد وصول الجثمان إلى الشاطئ الشرقي.

وعندما رسـا المركب على شـاطئ النيل، شـدوا الحصيـر، ورفعوه، ووضعـوه على حامل من الخشـب، ووقفت امرأتان، واحدة عن شـمال الحامـل والثانية عن يسـاره، ونطقت الأولى: «أنا عـن إيزيس»، ونطقت الثانيـة: «أنا عن نفتيس». وجاء ثوران أقرنـان ضخمان يجران زحافة بنية اللون، ورفع الرجال الحامل، ووضعوه على الزحافة، وسـار الثوران في الطريق المترب متجهين نحو المقبرة.

فلمـا وصلـوا حفـروا حفرة على قـدر جسـم الميـت، وأخرجوه من الحصير، ووضعوا ركبتيه مطويتين نحو ذقنه، وأسندوا جسمه المتخشب فـي قبره ورموا حولـه آنية فخار مملوءة بالطعام وآلات الطزان وأسـلحة مسنونة من الحجر، وبعض أشكال من الصفيح على شكل حُلي.

ووقـف الكاهـن، وحوله أناس يبكون، يبدو أنهـم أهل المتوفى، نظر إلـى وجه الميـت، وخاطبه بصـوتٍ خفيضٍ وكأنه يسـمعه: «عظامك لن تفنـى، ولحمـك لن يمرض، وأعضاؤك سـتظل قريبة منـك، ولتصبر فإن

آلهة السماء ستعيد لك رأسك مرة ثانية، وتجمع لك عظامك، وتضم لك أعضاءك، وتحضر قلبك لجسمك».

وانتهى هؤلاء من دفن ميتهم المسكين، ثم غادروا المكان متربين، وتقاطروا في الطريق المعوج كأنهم عائدون من مهلكة، وفوق رؤوسهم المطأطأة يدور الغبار في دوامات، وبعض قطرات دموعهم تدوسها أحذيتهم المقددة الممزقة، حتى وصلوا إلى الشاطئ، واختفوا في الماء مبحرين نحو الغرب.

ولم يمر وقت طويل حتى رأى «سمحان» موكبًا عريضًا من الناس يتجهون نحو الشاطئ الشرقي للنهر، يحملون محفة متينة عليها تابوت مغطى برداء ملون، وأحصنة عفية تجر عربات عليها صناديق محشوة بالأسلحة والعصي والتمائم، وأوانٍ فخارية يفوح منها طبيخ شهي، ومشنات من الخوص تحوي الخبز الناعم وفطائر على هيئة بقر، وقوارير الجعة، وفاكهة مسلوقة، ونبق أصفر طازج، وشهد وبلح طازج وآخر مجفف، وشحم وزبيب ولبن وجبن وزبد وزيت وفول مقشر، وقطع لحم بقري وسمك مطهي وعصيد، ومربوط إلى جانب المشنات ماعز وإوز.

ولاح هناك صندوق صغير مملوء بأوراق البردي، مدونة فيها أوراد، تجعل المتوفى ينعم بالسكينة والبركة، وبها تعاويذ سحرية تحميه من التماسيح ذات الفكوك المسنونة، والأحناش السامة، والعقارب التي تلدغ في خبث، وهياكل من الخشب على هيئة أوزوريس محنط،



وبداخلها كيس من القماش الخشن مملوء بخليط من الشعير والرمل، حيث سيسقى في القبر أيامًا حتى ينبت الشعير ويترعرع ويهفهف ثم يجف.

كانوا قد نزلوا من فوق أسطول من القوارب الزاهية، بينها قارب كبير، به غرفة مبطنة بأقمشة نفيسة، تقدم اثنان منهم ودفنا أياديهما في المحفة، ورفعا جسدًا، ووضعاه ممددًا، وإلى جانبه حطًّا تماثيل إيزيس ونفتيس، وراح الكاهن يحرق البخور.

في زمن آخر وأماكن أخرى كانت المراكب تنطلق في اتجاه غروب الشمس، فعلى شط النيل تولد الأنفس فيعيش الناس، وهناك تموت فيدفنون تحت الأردية الحمراء والزرقاء المفروشة أمام سواد الليل. لكن في هذا المكان لا يوجد في الغرب سوى الرمال، أما الصخر فهنا في الشرق، تحت سفح الجبل، الصامد في وجه الريح، ولذا طاب هنا دفن الموتى.

وسار «سمحان» مع المشيعين حتى وصلوا إلى القبر الصخري «هيبو جيم»، بيت عادي هو، أو كأنه كذلك، حيث الساحة المكشوفة، التي يتلوها ممر منحوت في بطن الجبل، يرتكز سقفه على أعمدة، وفيها قاعة كبيرة منحوتة أيضًا في أصل الصخر، تنتهي بحجرة صغيرة يوضع فيها جسد الميت، نائمًا على جنبه الأيمن، بعد أن يوضع رأسه على وسادة لينة.

ووقف الكاهن أمام القبر، ومدَّ بوزه نحو المتوفى وناداه كأنه يسمعه، بعد أن رقَّق صوته حتى خرج مختلطًا برذاذ الدموع:

«إذا وقفت أمام الإله الأعظم فلا تنسَ أن تقول له: السلام عليك أيها الإله الأعظم، إله الحق. لقد جئتك يا إلهي خاضعًا لأشهد جلالك، جئتك يا إلهي متحليًا بالحق، متخليًا عن الباطل، فلم أظلم أحدًا، ولم أسلك سبيل الضالين، لم أحنث في يمين، ولم تضلني الشهوة، فتمتد عيني لزوجة أحد من رحمي، ولم تمتد يدي لمال غيري، أنا أتيت إليك، باحثًا عن عدلك، ومبرئك من خطيئتي، وأنا لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة، ولم آتِ سوءًا في مكان الحق، ولم أرتكب عملًا خبيثًا، ولم أفعل ما يمقته الإله، فلم أبلغ عن خادم شرًّا عند سيده، ولم أترك أحدًا يتضور جوعًا، ولم أتسبب في بكاء أي إنسان، ولم أقتل، ولم آمر بقتل، ولم أتسبب في تعاسة أحد، ولم أنقص طعامًا من المعابد، ولم أنقص قربان الآلهة، ولم أغتصب طعامًا من قربان الموتى، ولم أرتكب الزنى، ولم أرتكب خطيئة تدنس نفسي داخل حرم إله البلد الطاهر، ولم أخسر مكيال الحبوب، ولم أنقص المقياس، ولم أثقل الميزان، ولم أغتصب لبنًا من فم طفل، ولم أطرد الماشية من مرعاها، ولم أنصب الشباك لطيور الآلهة، ولم أتصيد السمك من بحيراتهم، ولم أمنع المياه من أوقاتها، ولم أضع سدًّا للمياه الجارية، ولم أطفئ النار حين كان الناس في حاجة إليها.. أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر. وما دمت بريئًا من الإثم، فاجعلني يا إلهي من الفائزين».



وتقهقر الكاهن الأول، وتقدم الكاهن الثاني، وكان رجلًا ربعة، ذا وجه بشوش، حتى اقترب من الميت، ونصحه بصوتٍ حنون أن يخاطب قلبه إن وقف أمام «ماعت»، وقبل أن يحل في كفة الميزان: «يا قلبي الذي أتيت من أمي، يا قلبي الخاص بكياني، لا تقفنَّ شاهدًا ضدي، ولا تعارضني في المجلس، ولا تكوننَّ حربًا عليَّ أمام الموازين، ولا تدعنَّ اسمي يصير منتن الرائحة في المحكمة، ولا تقولنَّ ضدي زورًا في حضرة الإله».

وتقدم «سمحان» في حذر، ووقف إلى جانب جدار فتناهى إلى سمعه حديث اثنين من مساعدي الكهنة يتحدثان سويًّا بصوتٍ مسموع في خلفية الحشد الذي يرافق الجنازة. تنحنح الأول وبصق تحت قدمه اليسرى، ودهس بصاقه، وقال:

- ستشرق شمس الإله «رع» في الغرب، لتلملم الظلام من فوق رأس الراحلين، لكنها لن تجد مَن دفنّاه الآن بينهم؛ لأن الإله ضنَّ على بلدتنا بجبل في غربها، ندفن فيه موتانا، وأعطاه لها في شرقها، ولا حيلة لنا.

فهزَّ الثاني رأسه وردَّ عليه:

- أخبرني الكاهن الأكبر بأن الإله العظيم «أوزوريس»، الذي يحكم جميع آلهة الموتى ويتحكم في الراحلين أنفسهم، يرسل سفينة الشمس عبر النيل السماوي لتأتي إلى هنا فترفع الظلمة الدامسة وتعيد الأموات إلى الحياة.

ثم صمت قليلًا وواصل:

- سيذهب موتانا إلى «جزر أوزير»، حيث ينتظرهم الإله «جنان عالو» على باب الفردوس، ليعطيهم كتبهم في أيمانهم، وسيطيرون إلى السماء كطائر الواق، وكحور الأفق، ليقبلوها في امتنان، ويلبسوا التيجان، ويتطهروا بأباريق أربعة، وينعمون بالأبدية.

واغرورقت عينا الأول بالدموع، وسحت على خديه فمسحها بكمه العريض، وهو يقول:

- ليست سوى رحلة قصيرة على التراب أما في الأثير الذي لا نهاية له سيدوم الأجل، والفوز لمن عمل لما سيكون هناك.

لكن الرجل الثاني سأله عما جرى في عملية التحنيط، وبدا من ملامحه التي تابعت ما يُقال بصمت واستغراب أنه لا يعرف الكثير عن تحنيط علية القوم لموتاهم، ولذا راح يلتقط كل ما يُقال، بينما الرجل الأول مستغرق في وصف ما جرى باستمتاع عجيب:

- سبعون يومًا استغرقها تحنيط جثته، نظفنا الجسد، وحقنًّا تجويف الدماغ بسائل مذيب، ونزعناه بملقاط من فتحة الأنف، قطع مهترئة وسوائل لزجة، وملأنا التجويف الفارغ بالراتنج، وبعدها نزعنا الأحشاء الداخلية التي ستفسد سريعًا، عقب شق الجسد من ناحيته اليسرى بسكين من حجر الصوان، خلعنا المعدة والأمعاء والكبد، ووضعناها في جرة أتينا بها من الإسكندرية، ولففنا كتلًا من ملح



النطرون المقدس بالكتان، ورششنا مسحوقًا منه حول الجسد، لنزيل عنه الرطوبة، ويجف ويقاوم التعفن، وبذا أصبح الجسد هيكلًا بعد أربعين يومًا من تمليحه، وطرحناه أمامنا وغسلناه بجرارٍ من مياه نيلية رائقة ونبيذ النخل، وعالجناه بزيوت المر والقرفة، وحشوناه بنشارة الخشب وحشوات من الكتان المشبع بزيوت معطرة، وبعدها لففناه في مئات الأمتار من الكتان المغموسة بالقطران. بدأنا بأصابع اليدين والقدمين ثم الجذع والوركين والساقين والذراعين. وقام اختصاصي بوضع عينين حجريتين مكان المقلتين المفرغتين بعد أن لونهما بلون عيني الميت تمامًا، ولوَّن كذلك الشفتين والخدين والكفين وباطن القدمين.

وأراد الرجل الأول أن يبين أنه يعلم أي شيء مما يجري في مثل هذا الحال والمقام، فسأله في سرعة خاطفة، حتى لا يبدو أنه يقطع حديثه المسترسل:

- وأين وضعتم التمائم؟

فأجاب دون أن يلتفت إليه:

- دسسنا تماثيل من عين حورس وحزام أوزوريس وجعارين مقدسة بين الأربطة، وكتبنا نقوشًا مقدسة على جعران كبير من العقيق الأحمر ووضعناه مكان القلب، وقرأ الكهنة عليه تعاويذ كثيرة.

وصمت برهة ثم واصل:

– وضعنا كذلك قناعًا وشعرًا مستعارًا حتى تصل الروح إلى جسد الميت بسهولة ليستيقظ في العالم الآخر متنعمًا بما معه.

ووجد «سمحان» نفسه غارقًا في أفكار وخواطر مضطربة، بين ما رآه وما سمعه. وحط في مخيلته ذلك الرجل الفقير الملفوف في حصير ينام على قارب صغير متوجهًا إلى قبره، وذلك الذي ظلوا سبعين يومًا يجهزونه بأثمن الأشياء. هذا سيتحلل جسده ويأكله الدود بعد أن يتسلل من فتحات الصندوق المطمور تحت التراب، وذاك سيبقى جسمه آلاف السنين.

واحتار «سمحان» بين ما يسمعه من خطيب الجمعة الذي يقول بصوت فخيم جهير: «الفقراء لهم الجنة»، وبين ما رآه في هذه الدنيا القديمة التي انفتحت على عينيه بغتة. هناك أناس يرون أن الأثرياء سيُبعثون على حالهم الذي كانوا عليه في دار الفناء، ولذا يحشون توابيتهم والمصاطب التي يدفنونهم فيها بكل ما لذَّ وطاب من طعام وشراب، وكثير من الحلي والنفائس التي تجعلهم يحافظون على طبقتهم الاجتماعية، ولا يرتدُّون فقراء معدمين.

أما في زمنه فالناس ينتظرون أن تسوي القبور بين أغنيائهم وفقرائهم، فأجسادهم جميعًا يلتهمها الدود، دون أن يفرق بين مَن مات من فرط الجوع ومَن أهلكته كثرة الطعام ودسامته، ومَن تقلَّب في العوز والمسكنة ينتظر التعويض هناك في رحاب ذي الجلال، ومَن يرفل في رغد العيش يفهم أنه ممتحن في ماله، وبعضهم ينفق منه الكثير من أجل أن يرضى



الله عنه في الآخرة، وهو يفهم جيدًا أن ماله مهما كثر لن يغني عنه من ربه شيئًا.

لكنْ هناك كثيرون يتوهمون أن مالهم يمكن أن يشتري لهم مكانًا في الفردوس الأعلى. أليس أولئك الذين يظنون أن الحج إلى بيت الله الحرام سيُدخلهم الجنة حتمًا مهما فعلوا من ذنوب لا يختلفون عن أصحاب التوابيت العامرة بالنفائس؟ ولا يختلفون كذلك عمَّن وقفوا أمام الكنائس في العصور الوسطى يشترون صكوك الغفران؟ إنها آفة التحايل التي تصيب البشر فيظنون أنهم يمكن أن يخدعوا ملائكة الحساب مثلما يخدعون جامعي الضرائب.

في كل هذا شرد «سمحان»، لكن ما سرح فيه تبخَّر فجأة، حين لمح الرجل الذي كان يجلس إلى جانب الجدار متهكمًا، قد جاء ووقف إلى جانب الكاهنين، وأنصت طويلًا، وهو يهز رأسه، ثم قلَّب كفيه، متأرجحًا بين القبول والرفض، وتلمظ، وسار خطوات مبتعدًا، وراح يقول: «أنت خلقت السماوات العلا لتشرق فيها، ولتشاهد كل ما صنعت حينما كنت لا تزال وحيدًا، مضيئًا في صورتك أنت آتون الحي، وبازغًا وساطعًا وذاهبًا بعيدًا وآيبًا، أنت تخلق الملايين من الصور وحدك بنفسك، من مدن وقرى وحقول وطرق وأنهار، وجميع العيون تراك تجاهها؛ لأنك شمس النهار فوق الأرض، وحينما تغيب، فإن جميع الناس الذين سويت وجوههم، لكيلا ترى نفسك وحيدًا، يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقته، ومع ذلك فإنك لا تزال في قلبي».

وسمعه الكهنة، فجروا نحوه، وتبعهم عوام في أيديهم أحجار صغيرة وعصي وحراب ممشوقة، وحاصروا الرجل من كل جانب، فوقف في وسط الحشد يبتسم في هدوء. وتعجب «سمحان» من هدوء أعصاب الرجل، رغم أنه مستهدف من كل هؤلاء، وإن قذفوه أو طعنوه فهو لا محالة هالك. ولم يعرف سبب مطاردته، لكنه خمَّن أن ما تفوه به قد أثار غضبهم جميعًا. لكن الكهنة لم يتركوه يتحير أطول من هذا، إذ انخرطوا في حوار، أدرك من كلماته الكثير.

فقد انبرى كبيرهم وسأله:

- ألا تزال زنديقًا، تتبع ديانة إخناتون الفاسدة؟

هزَّ الرجل رأسه وقال في ثقة:

- أنا قادم من أخيتاتون، وتركت خلفي كثيرين مثلي، فالعقائد والأفكار لها أجنحة، لا تموت لمجرد أنكم قد نلتم من أصحابها عنوة، وجمعتم خلفكم العوام لتجعلوا الباطل يغلب الحق.

وهنا صرخ كبير الكهنة:

- أمثالك أثاروا فتنة في بلادنا، إذ قسّموا الناس ومزقوا صفوفهم، فخاصم الولد أباه، وهجرت الزوجة زوجها، وتناحرت القرى والمدن، واضطربت قلوب الناس حيال الآلهة.

لكن الرجل العنيد قال لهم من دون أن يرمش له جفن، أو تهتز شعرة واحدة:



- نحن وحّدنا أبصار الناس نحو السماء، وأنزلنا الملك من عليائه كي يتواضع مع رعاياه، فصار أبًا يقبل ابنته الصغيرة، مثل أي والد من عوام الناس، وجعلنا الناس تشعر بالجمال الذي كانت أعينهم تقع عليه من قبل دون أن يطربهم ويجعل مشاعرهم تفيض.

وقاطعه أحد الكهنة بغضب شديد، وهو ينظر إلى زملائه، والناس الواقفون يترقبون المشهد، وينتظرون القرار:

- لم نترك حجرًا واحدًا إلا قلبناه لإزالة كل أثر باقٍ يدل على حكم «إخناتون» الممقوت، ودمَّرنا بردياته، وأغلقنا معابده من شلال إلفنتين حتى مستنقعات الدلتا، وطردنا كهنتها المارقين، وصادرنا كل الأموال المربوطة على المعابد والقرابين، وتأكدنا من أنها باتت مهجورة، وصارت خاوية من أي إشارة إلى عبادته، حتى نبتت فوق أحجارها المراعي، وبيوت أتباعه صارت طرقًا معبدة. وبعد كل هذا تجيء أنت أيها المارق المخبول، من أين؟ لا أدري.

وهزَّ آخر رأسه مؤمِّنًا على ما سمع من كلام، وأراد أن يضيف إليه:

- لقد تمكنَّا، بعد سنين طويلة من كظم غيظنا في صدورنا التي تشتعل نارًا، من أن نضم إلينا كل الساخطين على «إخناتون»، ففي عهده حُرم الخبازون من بيع فطائر الشعائر، ولم يعد بمقدور الصناع أن يجدوا مَن يشتري تعاويذ الآلهة عند أبواب المعابد، وفشل الحفارون في تسويق التماثيل التي صنعوها بصبر في المعامل، التي خربت وغطاها التراب الكثيف، حتى الحجّارين غبنوهم حين استبعدوهم من مدينة

الأموات، وأفسدوا عليهم ما صنعوه من شواهد القبور ذات الزخارف والنقوش الرائعة والنقول الراسخة في كتاب الموتى.

ونظر كبير الكهنة إليهم جميعًا، ثم قال في هدوء، وهو يعض على أسنانه، كأنه يؤكد الكلام، أو يرشقه في رأس الرجل النحيف المتمرد المحاصر:

- أعدنا عبادة «آمون»، والآلهة القدامى، وقضينا على مجرم أخيتاتون، بفضل هذا الشاب الجميل «توت عنخ»، الحاكم الطيب الذي قام بعمل جليل لصالح والد الآلهة، وأصلح كل ما كان مخربًا حتى صار آثارًا خالدة، ومحا الخطيئة، وأعاد العدل، وجعل الظلم ممقوتًا.

لكنَّ كاهنًا آخر ردَّ في صوت خفيض:

- بقيت نتف وقطع حجرية حملت كلامه إلى اللاحقين، ومنهم هذا الكافر.

ووجهوا أبصارهم إلى الرجل المحاصر من كل جانب، وصرخ كبير الكهنة فيه آمرًا:

- عُد إلى الصواب.

نظر الرجل إليهم هازئًا، وصرخ:

- بل عودوا أنتم إلى الصواب.. ولتعبدوا «آتون» فهو مصدر كل الحياة على أرضنا، هو الواحد الخالق، لا تعبر عنه تماثيل من حجر، ولا رموز من وهم، ليس أشبه بإنسان ولا حيوان، ما يرسله من نور يمنح



كل المخلوقات طاقتها التي تتحرك بها، ولا نحتاج إلى واسطة لنصل إليه، لا كهنة ولا أصنامًا، فهو موجود في الهواء الطلق، ليس له زوجة ولا معبودات، والناس عنده متساوون في الحقوق، والماعت أصيل، ولا يعلو شيء فوق الحق والصدق.

فحشدوا قبضات أياديهم وكادوا ينهالون بها على رأسه، لكنهم كظموا غيظهم بأمر حاسم من الكاهن الأكبر، بينما لم يتحرك عابد «آتون» من مكانه، بل غرس قدميه في الأرض، ودفع صخرتين عظيمتين إلى مقلتيه، ليظهر أكبر قدر من التحدي، ومسح بعينيه وجوه كل الواقفين، وقال جازمًا:

- لن أترك ما علَّمني إياه حتى تشرق الشمس من الغرب، وتتحرك الجبال وتسير، ويجري الماء من أسفل إلى أعلى.

وهنا أشار كبير الكهنة إلى العوام الواقفين بأن يتركوه في المدينة، ويمهلوه ثلاثة أيام، ليعود عن كفره، وبعدها فلا يلومنَّ إلا نفسه. وتابعه كاهن صغير في السن حانقًا، ثم مال على أذنه هامسًا:

- كيف تتركه يذهب بكفره؟

فهزَّ كبير الكهنة رأسه وردَّ عليه في هدوء:

- لو قتلناه الآن أمام العوام سيخطف أبصارهم وأذهانهم أن رجلًا ضحى بحياته في سبيل ما يعتقد، وقد يفكرون فيما كان يقوله ويقتنعون به كله أو ببعضه، ويمقتوننا أو تفتر عواطفهم حيالنا، أما هو فبالقتل سيصبح

بطلًا، وسيخلد اسمه، وقد نفاجأ فيما بعد بظهور أتباع له، أو يفتش أحد وراءه ويصل إلى برديات قد كتبها، أو أحجار قد نقشها، ويردد ما فيها فيستميل بعض الناس.

وامتلأ وجه الكاهن الشاب إعجابًا بحكمة رئيسه، ونظر إلى الآخرين ليعرف ما إذا كانوا قد سمعوا كلامه من عدمه، فوجد أنهم يهزون رؤوسهم موافقين، بينما بقي العوام حائرين لا يدركون ما انتهى إليه الكهنة. ولما وجد كبير الكهنة كل هذا الإعجاب، تفتّق ذهنه عمّا يعزز به انبهارهم برئيسهم، فواصل:

- بعد أن ينصرف العوام، خذوا هذا الرجل إلى السجن، وعذّبوه، فإن رضخ لكم، ودفعتموه إلى أن يعود إلى عبادة «آمون»، سنأتي به هنا إلى هذه الساحة، كي يعلن أمام الجميع توبته عن عبادة «آتون». ووقتها سيزداد الناس تمسكًا بما نحن عليه. أما إذا رفض وأصر، فاقتلوه سرًّا، واذهبوا بجثته ليلًا إلى مكان بعيد وراء الجبل، وادفنوها تحت أطمار من الرمل، أو اتركوها على فوهة كهف مهجور، كي تأكلها الضباع الجائعة.

وراح كبير الكهنة يردد، ويطلب من كل الحاضرين أن يرددوا خلفه:

«يا آمون، إنك تصل إلى مَن يبغي عليك، والويل لمن يهاجمك، مدينتك تبقى، ومَن يرفضك يهوي، وشمس مَن لا يعرفك تغيب، وأما مَن يعرفك فإنه يضيء، ومعبد مَن هاجمك في ظلمة، بينما جميع الأرض في نور».



وصدح الجميع بالنشيد غارقين في كلماته وموسيقاه، ثم أشار الكهنة إلى الناس أن ينصرفوا، فغادروا إلى المعبد ليواصلوا ما كانوا يفعلونه، ومَن كان منهم قد جاء من بيته عاد إليه. ووجد الرجل الجمع ينفض من حوله، فسار خطوات إلى الأمام، وراح صوته يأتي شجيًا لكن خافتًا، ليصدح بمزمور، لم يسمعه المنصرفون جيدًا:

«حينما تغيب في أفق السماء الغربي، فإن الأرض تظلم كالموات، فينامون في حجراتهم، ورؤوسهم ملفوفة، ومعاطسهم مسدودة، ولا يرى إنسان الآخر، في حين أن أمتعتهم تسرق، وهي تحت رؤوسهم، وهم لا يشعرون بذلك، وكل أسد يخرج من عرينه ليفترس، وكل الثعابين تنساب لتلدغ، والظلام يخيم، والعالم في صمت، في حين أن الذي خلقهم في أفقه».

كان مغمض العينين وهو ينشد، ثم فتح عينيه فجأة، ونادى:

- سمحاااااااااااان..

وكان هو الذي ينادي منذ البداية، لكن «سمحان» لم يكن يعرف من أين يأتي النداء؟ فلمّا رأى الفم الذي ينطق باسمه مشى نحوه، حتى وصل إليه، نظر في وجهه، فوجد عينين سوداوين، وحاجبين مقرونين، وأنفًا نحيفًا مستقيمًا كنصل سكين، وشفتين ممتلئتين، وتراقصت هذه الملامح في عينيه، تذهب وتأتي، وتذهب وتأتي، ثم لم يلبث أن تحول وجه الرجل إلى شكل مثلث يشع نورًا، وراح النور ينشع على كتفيه،

وصدره، وبطنه، وفخذيه، وساقيه، وقدميه، فبدا كذُرَّةٍ هائلة، اتسعت حتى ملأت عيني «سمحان» وحجبت عنه رؤية أي شيء وأي أحد سواها، وشعر أن الأرض تميد من تحت قدميه، فارتجَّ جسده بقوة، ثم سقط مكانه، يرغي ويزبد.



# 7

لا يعرف كم ساعة مرت حتى شعر بعصا مغروسة في كتفه، تنغزه بقسوة. فتح عينيه فوجد «فتحي» يقف فوق رأسه، وقد فتح فمه عن آخره ضاحكًا، ولما شعر بأن «سمحان» يتوجع، وعلى وجهه أسى وخوف، جلس إلى جانبه، ورمى العصا، ومد يده إلى كتفه يربته، ثم قال:

- تركت فرشتك في الكشك وجئت لتنام هنا.. يا لك من إنسان غريب!

اعتدل «سمحان» وعيناه زائغتان، ثم زفر في ألم ورد:

- لم أنم هنا بإرادتي.

فسحب «فتحي» بقايا ابتسامة كانت مرسومة على شفتيه، وقال له متضجرًا:

- لكن المقبرة ليست هنا.

فصمت «سمحان» برهة، وأرسل بصره ومسح المكان حوله، فوجد أكوامًا من تراب وشقف وبقايا جدران موغلة في القدم، وعاد ليثبّت ناظريه في عيني «فتحي» ويقول:

- بل هنا أيضًا مقبرة، لكنها من زمن آخر.

وبـرق في رأس «فتحـي» بعض ما كان قد حكاه له «عبد العاطي» قبل سنين طويلة، وسأله:

– هل تفَّ «عبد العاطي» في حنكك قبل أن يودعك؟

أشاح «سمحان» بيده، ولم يرد. فواصل «فتحي»:

– كان يقول لي إنه قد رأى مقبرة هنا ذات ليلة، ورجالًا ونسـاءً، لباسـهم غيـر لباسنا، يشيعون موتـى، ويدفنونهم بطريقـة غريبـة، ورأى معبدًا وكهنة وسمع أدعية عجيبة.

لكن «سمحان» سأله:

– ماذا تعني بأنه تفَّ في حنكي؟

ضحك «فتحي»:

– تركت كل شيء ومسكت هذه؟

وحين وجده مصرًّا على أن يعرف، ابتسم وقال:

– كانـت لـ«عبـد العاطي» أحوال غريبـة، يتوه أحيانًا وينطـق بكلمات لا أفهمها، وتعاملت معه دومًا على أنه رجل مبروك، وأمثاله حين يرضون عن أحد يعطونه العهد والبركة بالتفِّ في فمه.

شعر «سمحان» أن ريقه يجري بقرفٍ شديدٍ، ونهض من مكانه، ونفض التراب والقش العالق بثوبه. كان مرهقًا إلى حدٍّ بعيد، وعلى وجهه صفرة الموت، وبصره زائغ، وريقه عصا، ونفسـه شـاردة حائـرة تتقلب بعنف،



كأنها قشـة في وجه عاصفة هوجاء. وبدا وكأنه قد كبر عشـرين سـنة على الأقل. وهذه مسـألة لم يكن من الصعب اكتشـافها، إذ فغـر «فتحي» فاه، ومدَّ يده، وأمسـك شعرات في رأس «سـمحان» قد اشتعلت شيبًا. وأراد أن يهدئ من روعه، فاغتصب ابتسامة من أعماق نفسه، وقال:

– قدَّر ولطف، وإذا كان ثمن الأهوال التي عشتها هو شعرات قد ابيضت، فهذا من رحمة الله بك.

هزَّ «سـمحان» رأسه، وراح يجر ساقيه المتعبتين نحو الحمار الواقف هناك تحت التلة مشدودًا بكل كيانه إلى خضار الزرع الممتد خلف الضفة الغربية للنيل، يُمني نفسه لو يخوض الماء إليه، ويرتع فيه بلا توقف.

مـال علـى البردعة ورفعها وغطـى بها ظهر الحمار، ثـم قفز عليه مرة واحدة، وضرب عنقه براحة يده، فمشى نحو المدق، تعارك حوافره بقايا الحصى، فتحدث صوتًا تكز له الأسـنان، وتثير عجيجًا قليلًا يمهد لذلك الهائل الذي سيقذفه الكسار حين ينبح.

حيـن وصل إلى البيت لم يجـد أباه، كان الرجل يكـدح في القراريط القليلـة النحيلـة التي تتمطع بين سـفح الجبـل وطريق الأسـفلت القديم الذي تشقق جسده، ويبدو نشازًا بين صفار الصخر وزرقة ماء النهر.

لـم ترَ أمـه خصلة الشـعر التي ابيض بعضهـا بعد أن غطاهـا بكوفيته العريضـة. وقف إلى جانبها يتثاءب، وعظامه تتداعى كأن الجبل قد أطبق عليهـا. لم يعر بقايـا طعام الإفطـار انتباهًا قويًّا، كانـت راقدة في صحون

الألمونيوم، وموضوعة على صينية كبيرة من الخوص، فول، أعدته أمه، من ذلك الذي يتقلب في هدوء بالدمَّاسة الواقفة فوق فوهة لمبة الجاز منذ العشاء حتى الفجر، فينضج على مهل فواحًا شهيًّا، وقطع من الجبن الأبيض الطري، الذي نام ساعتين في قلب «الشندة» المصنوعة من شرائح جريد النخل حتى ينز ماؤه، الذي كان ممزوجًا باللبن قبل أن تضعه في «القِربة»، وتخضَّه مع شروق الشمس، لتلتقط الزبدة، وتجمعها حتى نهاية الأسبوع، ثم تضعها في «حَلة» عميقة على النار، فتسيح وتصير أرطالًا من السمن البلدي، تبيعها في سوق بندر «سمالوط»، بعد أن تعبر إلى الضفة الغربية من النهر راكبة معدية «بني خالد».

أشارت أمه ناحية الطعام، فنظر سريعًا إليه، لكن نفسه، التي لم يستقر فيها سوى آثار الهلع والحيرة، كانت مصدودة عن أي شيء، فدخل غرفته، وجاءه صوت أمه:

- متى تفطر؟

فردَّ عليها بصوتٍ واهنٍ:

- حين أصحو.

وأغلق باب الغرفة، وتوحد مع الظلام الرائق، محاولًا أن يطرد الوساوس والهلاوس التي تدور برأسه، والصور المفزعة المرسومة على الحائط، وترسل غرائبها أمام ناظريه من جديد. ورآهم كما كانوا في الليلة الفائتة، رجالًا ونساءً، ملفوفين في أزياء غريبة، يرفلون منَعَّمين في



سخاء زمن بعيد، كان هانئًا رخيًّا، وعيونهم تنطق بالامتنان. وانشقَّ أمامه نهر فياض، ومراكب تسبح في عيون الشمس، وأحجار صلدة يقبلها الماء، ثم يعود مبتهجًا، ورجل كفيف وجهه يشع نورًا، يهزأ من كل شيء ويناديه.

وفجأة امتلأ نصف ذاكرة «سمحان» بصورة هذا الرجل المختلف، والنصف الآخر بصورة «عبد العاطي»، وأدهشه ما بين الرجلين من تشابه، لكنه لم يجزم بهذا، وظنه وهمًا أو تخاريف يصنعها الإجهاد الشديد، فهو لم يتفرس في ملامحه جيدًا؛ لأن الرجل كان متعجلًا، سلمه كل شيء في سرعة ومضى صامتًا، كما أن وجه الرجل القديم لم يأتِ خالصًا وحيدًا يحوطه الفراغ، إنما جاء ممزوجًا بسحنات كثيرة تحل على الحائط، وتتداخل في كل المساحات الممتدة بينه وبين عيني «سمحان».

ظل يتقلب في فرشته حتى جاءه النوم عصيًّا قبيل الظهر فغطس في سُبات عميق، لم يخلُ من أحلام مزعجة، وشخير مخلوط بزعيق وتوجع، جعل أباه يأتيه هرولة بعد أن وصله عراك ابنه في نومه، فاصطدم بالباب، وكاد يسقط على الأرض. والجلبة التي أحدثها أفزعت «سمحان» فوقف مكانه، وهو يصرخ:

- مَن.. مَن؟

جرى أبوه إليه، وجلس بجانبه، وأخذ رأسه على صدره، وبسمل وحوقل، ونادى على زوجته أن تأتي بقلة الماء، وصبَّ في فمه، وعلى جبهته، فانتبه واعتدل في جلسته، وقسم ابتسامته بين عيني أمه وعيني

أبيه، وزفر في أسى شديد، ومدَّ يده إلى صدره ووسَّع بأصابعه بين فتحتي الجلباب، ليزيل الغمة عن أنفاسه المنقبضة، وسحب بعض الهواء المتدفق من فتحات الشيش، التي كانت تنضح بنور ما بعد العصر.

ونهض من مكانه، وسحب قدميه إلى بُلغته المقددة، وسار نحو «الكنيف»، وأبوه وأمه يتبعانه، حتى أغلق الباب الهش خلفه في هدوء، وجاءهما صوت قيئه وسعاله وبصاقه، فجزعا عليه، وانسحبا ينتظرانه على الدكة المستقرة في مدخل صالة البيت. وما إن رآه أبوه خارجًا يجر قدميه، حتى استبقه بالقول:

- نمت في الطل وأخذت بردًا.

خطف ضحكة كانت تائهة عنه منذ يومين على الأقل، وردَّ:

- أتسمع عن لعنة الفراعنة؟

- ما هذه؟

- أصابتني الليلة الفائتة، والعوض على الله.

ونظر الأب إلى وجه الأم لعلها تكون قد فهمت شيئًا، وقرأ الحيرة طافحة في عينيها، فعاد يسأل «سمحان»:

- وهذه اللعنة تجعلك تكح وتستفرغ كل ما في بطنك؟

تقدم حتى جلس إلى جانبه، قدم على الأرض، وأخرى رفعها وحطها مطوية على حافة الدكة، وغرس كوعه في فخذه، وفرطح راحته وأسند إليها رأسه المثقل، وقال:



- رأيت أهوالًا فوق الخيال.

وتطلّع أبوه إليه، وأنصت غارقًا في هذه الدنيا العجيبة التي رسمتها أمامه كلمات ابنه، ثم مدَّ يده ووضعها على جبهة «سمحان» ليرى ما إذا كان محمومًا، لكن حرارة جسمه كانت طبيعية، فاستغرب مما سمع، وكان لم يلحظ بعد شعره الذي غزاه الشيب في مسافة سواد الليل، فرمى أصابعه في الهواء متضجرًا، وقال:

- ربما حلمت.

نفخ «سمحان» وألقى بساقه المطوية فاستقرت قدمه اليمنى إلى جانب اليسرى، وقال في غيظ:

- لا تخف، سأذهب إلى هناك هذه الليلة ولن أطلب منك أن تتوسط عند قريبك لينقلني.

وكان الأب عند كلامه القديم، فهو يعلم أن طلبًا مثل هذا ليس سهلًا، ويتذكر كيف تحايل على قريبهم هذا حتى استجاب له وعيَّن ابنه، بعد أن رأى الدموع ترقص في عينيه ثم تغلبه وتسيل حامية سوداء على خديه من فرط الأسى. يومها تركه يكفكف دموعه في طرف جلبابه، وقام من مكانه غاضبًا، وهو ينهره:

- لا تبكِ هنا، حتى لا يراك أحد.

وكان يفهم وقتها أن البيك لا يريد لأحد من الموظفين أن يعرف أن هذا الرجل البسيط قريبه، ولهذا يعرف الأب أن الطلب من قريبهم

صعب، وقاسٍ على النفس العزيزة، وهذا ما لا يعرفه «سمحان»، فالأب كان يتحدث أمام ابنه عن قريبه الموظف الكبير بالآثار وكأنه طوع بنانه، أو رجل عطوف على أقربائه، إن قصدوه لا يردهم على أعقابهم خاسرين. ولهذا التزم الصمت حيال كلام «سمحان» وانسحب من مكانه وهو يقول:

- ألحق أعَشِّي الجاموسة قبل غياب الشمس.

ونظر إلى ابنه وأمره وهو يعطيه ظهره حتى لا يرى أثر الكلام عليه فيرق لحاله، ويضعف أمامه:

- دوس على نفسك، وكُل لقمة، والحق شغلك قبل الليل.



# 8

ها هو يسعى ليلحق شغله قبل المغيب، رابضًا فوق حماره يهرول بنصف بطن، ليقف إلى جانبه فوق قطع الليل والوحشة. إنه الوقت السانح له كي يسبح في ذكرياته، ويتأسَّى على ساعات الهناء والسمر مع الأصدقاء، ويبتهج لأيام الطفولة الغضة، ليرى نفسه ولدًا نحيفًا، لا يميل إلى اللعب مع العيال، ويختلي بأحزانه تحت الصخرة التي يسميها الناس «رأس الأقرع»؛ لأنها تشبه رأسَ آدمي، وسطه أملس ينكسر عليه شعاع الشمس منذ أن تشرق وحتى تغيب.

كان يستطيع من مكانه هذا أن يرى المراكب بأشرعتها البيضاء، وهي تقطع النهر على مهلٍ، وعلى متنها القادمون إلى المقابر أو مولد العذراء وما معهم من زاد وذبائح، ويتابع «الغلايين» التي تحمل الأحجار ذاهبة نحو الشمال، وقوارب الصيد الصغيرة التي تطارد الأسماك بين لجاج الموج الساري.

وكان يرى الفلاحين وهم راكعون إلى الأرض يعزقونها، ويمشون بين مياهٍ دافقة تروي الزرع، ويجلسون القرفصاء، ليخطفوا بمناجلهم المسنونة أرواح البرسيم، ويطعموا بهائمهم الجائعة، ورأى بعض

الكلاب تنسحب في هدوءٍ لتموت بعيدًا في بطن الجبل، فلا تكلف أهلها رائحتها النتنة حين تغادرها الحياة وتنتفخ أجسامها، وسمع من هنا ضحكات وبكاءً وزعيقًا، يأتيه جليًا كأن أذنه مع الصائحين والمرحين والحزانى.

كان يتأمل كل هذا وهو صامت، على فمه ابتسامة تزدهر وتنطفئ، حتى إذا ماتت الشمس على جذوع النخل البعيد غرب النيل، يهبُّ واقفًا، وينفض جلبابه مما علق به، ويعود إلى البيت هرولة. في بعض المرات كان أبوه يأخذه معه ليساعده في الحقل فيحرمه من هذه الجلسة الرائقة، وأحيانًا كانت أمه تناديه من نافذة البيت المطلة على الجبل:

- سمحاااااااااان..

يقتحم اسمه الممطوط أذنيه فيقفز ويجري نحو مَن نادته، يلثم الأرض دون أن يؤذي حتى الأحجار الصغيرة المستقرة على جانب الطريق، والتي كان أقرانه يلهون بها، ويوجعونها ركلًا ودهسًا.

ألهذا السبب حين سمع مَن يناديه من عند المقبرة ذهب إليه طائعًا، وكرَّر الأمر نفسه مع مَن طلبه من تحته وهو واقف في الزمن القديم؟ لا يدري، ربما اعتاد أن يلبي النداء. خصلة لازمته منذ نعومة أظافره، ولم يفعلها في أي مرة إلا ووجد بعدها خيرًا. كانت الأم تناديه ليتناول الطعام الذي أعدته، أو ليذهب كي يشتري حلوى من دكان «زغلول»، أو ينادي جارتهم «أم محمود» التي أرضعته، وكان لا يجد لديها إلا المحبة والسخاء.



أهي الذكريات المحفورة في خاطره تقفز لتملأ الحاضر؟ أم هو الأمر الساكن داخله الذي يدفعه إلى أن يذهب بذهنه بعيدًا عما يقف عنده أقرانه الغارقون في تفاصيل أيامهم الرتيبة؟ أم هي الرغبة في كشف المستور وتجلية الغامض واختراق الحُجُب؟

هذه أسئلته، أما الإجابات فمطمورة تحت ركام أوجدته المتاعب التي كابدها في رحلته من الطفولة إلى الشباب. فالأبُ كان يكبر بمرور الأيام، وتعتل صحته، والحال تبدل، فالميراث الذي تركه جده أضاعه أبوه على الأطباء، وبطون غرباء الجبل ومطاريده، الذين كانوا يهبطون في بعض الليالي، ويطرقون باب البيت باحثين عن طعام وشاي ودخان. ولا يدري الآن إن كان الأب قد جاراهم بحثًا عن الأمان؟ أم أن هذا من تأثير الزهو الذي كان ينفخ صدره وهم يمدحون كرمه في خبث؟ أم كان يبحث في كنفهم عن عزوة وهو رجل وحيد في قرية «جبل الطير» لا أهل له ولا سند؟ مثل رجل «تل العمارنة».

الأخير كان لديه ما يفتخر به، وهو بلده الذي فرش مجده على صفحة التاريخ، أما الأب فلم يكن لديه سوى قريبه الموظف الكبير في الآثار، والذي لم يزر القرية إلا مرة واحدة في حياته. حتى مال الجد، الذي تبدد مع الأيام، ما كان بوسع الأب أن يتحدث عنه، وهو يفزع لسباب بعض الناس إن تشاجروا معه وهم يعيرونه:

- أبوك جاء عائمًا في النيل بعد أن سرق مال الرجل الذي كان يخدم في سرايته.

وكان «أبـو سـمحان» ينفـي هذا، لكن لـم يكن معـه أي دليل لإثبات عكـس مـا يهمس بـه النـاس كثيـرًا، ويصرخـون قليـلًا، وتتناسـل حوله الأسـاطير الجارحـة. وحيـن يجـيء ابنـه باكيًا مـن كلام أقرانـه الغلاظ، يكفكف دموعه ويقول له في ثقة:

– جدك كان رجلًا شجاعًا وشريفًا.

وفي طريقه إلى «طهنا الجبل» مر «سمحان» على رجل هزمته الأيام، وتركت قسـوتها على وجهه فامتلأ بالتجاعيد، وعلى رأسه فاشتعل شيبًا، وبـدا اليأس متمـددًا في عيونه، إلا مـن دفقة أمل يمنحها إيـاه ذلك الولد الصغيـر المعلق في طرف إصبعه، وجسـمه ملفوف فـي «مريلة» لونها ما بين الأصفر والبني، وعلى شفتيه ابتسامة تشرق في وجه الغروب.

كان الرجـل ينـادي الولد: «يا برهـان»، وكلما نطق الاسـم، ردَّ الولد عليـه: «نعـم»، ودق قلب «سـمحان» مع سـماع الاسـم، وتملكه شـعور جـارف بأن شيئًا سـيكون بينه وبين هـذا الولد الصغير. ربمـا هو يصغره بعشـر سـنوات أو يزيد، لكن منذ متى كان يتقارع الأنداد في السـن فقط. هكـذا جاءت على رأس «سـمحان»، مقارعة، أو مفاضلة بين مسـلكين، لكـن متـى يلتقيان؟ لا يـدري. ولم يعنه في هذه اللحظة أن يسـأل الرجل عن شـيء، إنما حفظ ملامح الولد جيدًا، وتبعه بعينيه وهو يبتعد في مدق صغير بين حقلي شعير.

«يااااااااااااااه»، زفر «سمحان» متألمًا، وهو يتذكر أيام المدرسة، وكيف كان تلميـذًا نابهًـا، يتحدث كل المدرسـين عن المسـتقبل العريض الذي



ينتظره إن حافظ على تفوقه، لكن كل شـيء ضاع من يده في أيام قلائل. مرض أبوه، وكان عليه أن يقوم مكانه في حقلهم الصغير، يعزق الأرض ويوفر الكلأ للجاموسة العجفاء، ونعجتين وعنزة وحيدة وحمار.

الأب نظر إليه من خلف أوجاعه المعتقة، وقال:

– على عيني خروجك من المدرسة.

وقبل أن يرد هو، قالت الأم:

– «سمحان» رجل، ولن يتأخر عن واجبه.

وبعد أن تغيب ثلاثة أيام متصلة، جاء المدرسـون يسألون عنه، وكانوا قد عرفوا من زملائه أن أباه قرر أن يسـربه من التعليـم. حاولوا مع الأب، وتمسك بقراره، وحبس «سمحان» دموعه في عينيه، حتى لا يكسر خاطر أبيه، ولمـا وجدوا عزمًا مـن الرجل وصمتًـا من الابن، استسـلموا للأمر الواقع، وبمرور السـنين جاءتهم قرارات نقل إلى مدارس في قرى أخرى، وحـل مكانهـم مدرسـون جـدد لا يعرفونه، إلا واحـدًا منهم بقـي، ليقول لـ«سمحان» كلما رآه ذاهبًا إلى الحقل بينما أقرانه ذاهبون إلى المدرسة:

– يا خسارتك يا بني، لم أرَ طيلة حياتي تلميذًا في نجابتك.

وكان بعض المدرسين حين يجدونه متجنبًا اللعب مع العيال، وجالسًا في طرف الفناء يحدق في الفراغ، يقولون:

– نريد أن نعرف فيمَ يفكر هذا الولد.

وتفوقه الدراسي جعلهم يحسبون دومًا أن ما يفكر فيه «سمحان» شيء مفارق لواقعهم البائس، وربما يكون بداية لنظرية علمية تغير مصير العالم، أو فكرة عميقة تجذب إليها ملايين الناس، أو دورًا عظيمًا يُحدث تغييرًا اجتماعيًا كبيرًا. وحين سأله أحدهم ذات يوم عما يدور برأسه وهو يرسل عينيه لتحطًا عند السحب، ردَّ عليه:

ـ أنا شارد في أحلام حلوة.

وحين سألوه:

ـ أي أحلام هي؟

هزَّ رأسه، وابتسم، ونهض، وجرى نحو الفصل.

في المدرسة تعلم تدريجيًا كيف يشارك أقرانه بعض ألعابهم أو انشغالاتهم، وجروه أحيانًا إلى حكاياتهم الصغيرة والمدهشة عن العفاريت و«ست الحسن والجمال» و«الشاطر حسن» و«أبو رجل مسلوخة» و«أم بزاز»، وتحدثوا أمامه عن الأحجار التي تصير خرافًا، فيمسكها الناس ويجرون إلى بيوتهم فرحين وحين يضعون السكاكين على رقابها تعود أحجارًا، كما كانت، وعن قطع الطوب الأحمر التي تصير أرانب، وتعود طوبًا قبيل الذبح، وسمع عن عالم المطاريد وتجار الملح الذين يجوبون الجبال بحثًا عنه، ومثلهم الذين يسعون وراء الكنوز والدفائن.

وعمّقت هذه الحكايات شروده، ليجد نفسه يسأل أباه ذات مساء:



ـ هل الآدميون يعيشون وحدهم على الأرض؟

وقبل أن ينطق الرجل بشيء، جاء السؤال الثاني:

ـ وهل الأرض هي المكان الوحيد الصالح للعيش في الكون؟

كانت الأسئلة موجهة إلى مَن لا يستطيع أن يعطي إجابة على قدر ولع الولد وشغفه، لكن الأب يومها نظر بإمعان في عيني ابنه، فوجدهما تلمعان بشدة. مدَّ يده إلى كتفه، وداس عليه في لين وحدب. وفهم لماذا يقول له الناس:

ـ «سمحان» يبدو أكبر من سنه بكثير.

في البداية كان يعتقد أنهم يتحدثون عن ملامحه التي تحط فيها صرامة ظاهرة، وكان قولهم يفرحه، ويهمس لنفسه مغتبطًا ومزهوًا:

ـ رجل من ظهر رجل.

لكنه حين سأله هذين السؤالين أدرك أن الناس لا يتحدثون عن الملامح وفورة الجسم، إنما عن رجاحة العقل.

ومع أن «سمحان» كان قليل الكلام، فالوقت الذي يستغرقه في الشرود لا يعطيه فرصة كبيرة للثرثرة، فإنه كان كلما نطق بضع كلمات لفت انتباه الناس إليه، وملأت الدهشة عيونهم أو جعلت أفواههم تنفتح فيملأها الهواء. ومع هذا لم يغضب أحد منهم لتسرُّبه من التعليم، ويمد يده ليساعد هذا النجيب على أن يواصل رحلته في المدارس حتى النهاية. كانوا ينظرون إليه مشفقين، وهو يمضي صامتًا على ظهر حمارهم، منطلقًا

إلى الحقل بينما الشمس تطل من سن الجبل، وتلقي تحية الصباح على رؤوس أهل القرية الساعين في البكور.

لا صناعة له كلما اختلى بنفسه إلا تذكر هذه الأيام. أصبح يشرد في شروده القديم، باحثًا عن أي لحظة فرح يقبض عليها. توالت الأيام، وانسحب المرض من جسد أبيه بعد سنتين قضاهما يكابد الألم واليأس، وعاد الرجل يقضم الأرض بفأسه من جديد، لكن «سمحان» لم يعد كما كان، فقد شيئًا، سيظل طيلة عمره يستعيده، حتى وهو سابح في ملكوت الله، لا يحط على الأرض، ولا تحتويه سماء.

كان وهو في الحقل، محني الظهر وراء أبيه، تأتيه أصوات العيال وهم يحيون العلم في الصباح، أو يرددون نشيدًا بين جدران فصل من الفصول، فتتساقط الدموع من عينيه، تحت جذور القمح، فيشربها في امتنان، وتهتز سنابله، لتلثم كتف «سمحان» وكأنها تريد أن تخفف عنه ذلك الأسى الذي يهيج في نفسه، فيوقد بها نارًا تلظى، لم يطفئه أبوه بأي اعتذار عما فعل، ولم تعبأ به أمه، التي كانت الأمور عندها سيان، المهم أن يكون ابنها أمامها، يأكل ويشرب ويدب على الأرض، ويضحك أحيانًا، ويطلب في بعض الأوقات أن ينام في حضنها، أو على حجرها العريض، ثم يغمض عينيه سابحًا في تخيل ما يقع هناك غرب النهر وخلف الجبل وبعد السماء.

كانت أحلام اليقظة تطارده كظله، وفي الليل تأتيه الرؤى، ويختلط هذا بذاك، فيبقى دومًا ما بين صحو ونوم، لهذا لم يعرف ما جرى له



خلال الليلتين الفائتتين، هل كان شرودًا في خيالات رسمت نفسها أمامه في الفراغ؟ أم حلمين غريبين؟ أم كابوسين تختلط فيهما اللذة بالعذاب، والفزع بالطمأنينة، مرًا عليه وهو غارق في نوم عميق؟ أم جرى كل شيء بعالم الشهادة في ليلتين عصيبتين، تعاقبتا هنا بين الماء الرقراق والصخر الصوان؟

في رحلة الإجابة عن هذه التساؤلات، تتساقط التفاصيل الصغيرة تحت قدميه، تذوب في الرمل أو تدفعها الأمواج المتلاحقة بلا انقطاع نحو الشمال، ولا يبقى شيء سوى ما يومض في العقل، وينبض في الوجدان، ما يمكن أن يتذكره الإنسان، وهو شارد، فتنفرج أساريره أو تنقبض، ينكمش يأسًا أو يفرد أجنحة الأمل، ويحلق في جوف السماء البعيد، يشعر بالضياع والضعة، أو يتصور أنه قد أوتي الحكمة بجوامعها.

إنه الجسر الذي ارتسم في ذهن «سمحان» بين مقبرتين، بين عالمين، وزمنين، وصنفين من البشر. هكذا بدا له الأمر للوهلة الأولى، لكن حين أمعن النظر فيه، وترك لحدسه فرصة كاملة كي يشارك عقله وهو يحاول أن يفهم ما جرى، وجد أنهم صنف واحد من الناس، وإن ابتعدت بينهم الأيام، واختلفت الطريقة. إنها رحلة الإنسان، التي لن تنتهي إلا بقيام الساعة، نحو الحقيقة، ومحاولته أن يردم متاهات الغيب باختلاق الأساطير، أو التأمل العميق في الذات، أو انتظار الوحي والانصياع لما جاء به.

أشياء كثيرة ينصاع الإنسان لها وهو يكابد، وعلى مَن يريد أن يتحرَّر من كل قيد أن يواجهه بشجاعة واقتدار كل ما سيلحق به من تنكيل أو مطاردة، في بلاد يتعامل مَن بيدهم السلطان فيها مع الناس على أنهم مجرد غنم عيونهم معلقة بعصا الراعي، أو أنهم بطون زاحفة ستأكلها الأرض إن لم تجد هذه البطون ما تأكله.

مكابدة في الصمت، ومكابدة في الكلام، في القعود وفي الوقوف، وفي التمهل والعجلة. وها هو «سمحان» يشعر أن هذه الأثقال تُطبق على نفسه وهو يقترب من الكشك، ويرى «فتحي» واقفًا ينتظره في لهفة، وها هو يستعد لأن يلقي إليه الشومة، ويجري بعيدًا، وبعض الشفق الذابل يحطُّ على رأسه وهو يبين ويغطس على المدق.

«أي ليلة ستكون تلك التي بدأت الآن؟»

سأل «سمحان» نفسه، مستعيدًا في لمح البصر دفقة مكثفة من الرعب الذي ارتعدت له فرائصه في ليلتين عصيبتين، لكنهما فتحتا رأسه على مزيد من الشرود الجميل.

ربط الحمار في وتد الحديد المرشوق في الصخر منذ زمن بعيد، ودلف إلى الكشك، الذي لم يدخله من قبل، فوجد لمبة جاز معلقة في مسمار بالركن الأيمن، وإلى جانبها رف صغير عليه علبة ثقاب، وزجاجة مملوءة بالكيروسين. التقط عودًا وأشعله، وأنار اللمبة، فهربت العتمة الراقدة في الجنبات من أثر المغيب.



نظر إلى الضوء النابت وراء الزجاج الخفيف، واستعاد أيام الاستذكار، حين كان يجد أمه قد حملت إليه اللمبة لتضعها إلى جانبه فلا يقطع قراءته، وهو الذي بدأ منذ العصر ولم يشعر بذهاب النور تدريجيًّا لانهماكه فيما يفعل. وبرق في رأسه أن يلتقط الكراسة الموضوعة بين الحجرين، ويسترجع حاله القديمة. وعلى حشية من قش ملقاة في الركن اضطجع، وفتح الكراسة وراح يقرأ في هدوء، وعيناه تلمعان بدموع كانت مختزنة منذ أيام الوحدة والاندهاش، أيام الطفولة الغضة، والتي كان يصرفها في ابتسامات شاردة، تموت في المسافة المحصورة بين فمه الرطب ونافذة بيتهم:

«ما أكثر أعمالك، إنها على الناس خافية. أنت الإله الواحد، الذي ليس معه سواه، وليس له نظير. برأت الدنيا حسب رغبتك، وكنت فردًا، خلقت البشر والأنعام، وكلَّ ما يسعى على الأرض بقدم، ويُحلِّق في الفضاء بجناح. خلقت بلاد أفور وكوش وأرض مصر، ووجَّهت كلَّ فرد فيها إلى موطنه، ودبَّرت للجميع شؤونهم، فأصبح لكلِّ فرد رزقه، وتعيَّن لكل فرد أجله، وظلَّت الألسنة بينهم، في النطق متباينة، والهيئات والألوان متمايزة».

ووجد «سمحان» نفسه يصرخ في الخلاء وهو ينظر إلى السماء من نافذة الكشك، فتتراقص في عينيه النجوم الزاهية هناك في البعيد الأسود: «الكل يبحث عنك، فدلني عليك».

واستغرقته القراءة، لكن التعب الذي يقبض على جسده، والأرق الذي يثقل رأسه، أسقطاه في نوم عميق، بعد أن ترك الشومة ملقاة تحت التماثيل القديمة، والريح تعوي في جوف الجبل، ويلقى بعض عوائها هنا على ركام المدينة الرومانية التي سادت ثم بادت.



# 9

قبيل الفجر سمع طرقات على باب الكشك، فسرى خوف في أوصاله، وجاء صوته مخنوقًا:

- مَن؟

فردَّ عليه صوت طليق مفعم بالخشوع، فاطمأن إليه:

- عبد من عباد الله.

قام يتثاءب، وشد المزلاج، فانفتح الباب على رجلٍ ذي وجهٍ منير، يكاد يضيء الغبش المنبعث في المكان. يسترسل شعره على أذنيه وقفاه، وعنقه طويل معتدل كرقاب التماثيل القديمة، لباسه يقترب كثيرًا من ذلك الذي رآه في الليلة الفائتة على أجساد الذين كانوا يرتلون كلمات غريبة عند المعبد، وفي يده عصا طويلة، تفوح منها رائحة طيبة.

وأصبح «سمحان» متقلبًا بين مخاوف من لباس لا ينتمي إلى زمانه يلف جسد الرجل، وبين وجهه الوضيء السمح، وابتسامته الهادئة العذبة، التي ترسل الأمان إلى كل مَن يراه. وجعله هذا التقلب مترددًا، لكن الرجل عاجله قائلًا:

- إما أن تسمح لي بالدخول أو تخرج إليّ.

صمت «سمحان» برهة، ثم سأله:

- مَن أنت يا عم؟

- أنا الثاني ممَّن اتصلوا بالسماء في أرض هذا البلد المكرم، أنا أول مَن خطَّ ورسم بالقلم، وصاحب الثلاثين موعظة.

- لم أفهم يا عم!

- أنا الدارس الوراث المحنك بقدر الله والمعلم الأول للبشر، ومَن علَّمه ربه أسرار الفلك وعدد السنين والحساب، فطفت في هذه البلاد أكثر من ثلاثمائة سنة، فعرف أهلها مني ما يجعل الفرد يصنع ما يستر عورته ويقيه البرد وعيون المتلصصين، وما يداوي به سقمه، وما يجعله يكيل ويزِن فلا يطفف، لا يستوفي إن اكتال ولا يُخسر إن كال.

- أتهزأ بي؟

- لا أعرف كيف أهزأ يا ولدي.

ثم نظر إلى مكان المدينة الرومانية الهالكة، وقال:

- أرأيت ما جرى لك هنا في الليلة الفائتة؟

ارتعش جسد «سمحان»، وقال:

- نعم.

فابتسم وقال:



- أنا مَن علمهم دفن الموتى، والصلاة عليهم، وحدَّدت لهم أعيادًا بها يفرحون.

- أنت تتحدث عما لا أعرف.

تقدم الرجل قليلًا، وأشار إلى الكراسة، وقال لـ«سمحان»:

- أمسك الكراسة بأناملك، وافتحها.

استجاب «سمحان» لطلبه. وفتح وقرأ:

«ليست النجاة بالقوة، ولا الخلاص بالجبروت، ولا تستحق اسم الصديقية بالملك العظيم، ولا يوصل إلى ملكوت السماء بالعز الجسيم، ولا ينفع في الآخرة كثرة الرجال، وثروة الآمال، ولا ينجي يوم الحساب الحذق في الصنائع، والكيس في المكاسب، لكن البر الذي ينجي، والطهارة التي تنقذ، وبالنزاهة من الذنوب، تستحق الصديقية، وبالعمل الصالح يُنال ملكوت السماء. ما يثقل في الميزان إلا النية الصادقة، والأعمال الطاهرة وكف الأذى، والنصيحة لجميع الورى، واجتناب المحارم، والهرب من المآثم، فاعبدوا الله الذي فطركم، وسوى صوركم، وأنيبوا إليه وتوكلوا عليه يسهل لكم في دنياكم المطالب، ويجركم في معادكم من المعاطب، واعلموا أن الخير بيديه والأمور كلها إليه وهو العزيز الغلاب».

وبعد أن انتهى من القراءة، رفع هامته، وحطَّ عينيه في وجه الرجل من جديد، وقال:

- أقوال حكيمة، لا يعرفها أغلب أهل زماننا، وإن عرفوا لا يعملون بها.

وتنحنح «سمحان» وواصل:

- أهذه أقوال صاحب الكراسة، أم هي نُقُول من كتب قديمة؟

- كل ما فعله صاحبها هو استخدام قلمه ليسطر به ما راق له وهو يطالع المنحوت على جدران المعابد، أو ينقل عن كتب تركها المنشغلون بالفراعين ومَن أتى بعدهم.

وهنا سأله «سمحان» فجأة:

- وهل أنت من الفراعين؟

ابتسم وردَّ عليه سريعًا:

- أنا من كل الأزمنة، فما تركته سيظل في غدوٍّ ورواحٍ بين السماء والأرض، حتى يسترد الله ما أودعه لنا طيبًا مباركًا.

أرسل «سمحان» ناظريه فوق أطلال المدينة الهالكة، وأعادهما إلى وجه الرجل الواقف أمامه، فوجد في بؤبؤي عينيه ظلالًا من الوداعة والسكينة والصدق، وسأله:

- أهذا الكلام لك؟

- نطقته بإذن ممَّن علَّمنا الكلم الطيب.

- هل أنت ولي؟



- أنا «أخنوخ».

- ألك وظيفة أم لقب؟

- بل اسم يا ولدي.. ألم تسمع به؟

فتش «سمحان» في رأسه، فلم يعثر به على مثل هذا الاسم، وردَّ عليه:

- لم أسمع به من قبل.

ثم واصل:

- لم تقل لي ما هي صناعتك؟

ابتسم الرجل، وربَّت كتف «سمحان»، ونقر عصاه في الأرض ثلاث نقرات، ثم ابتعد ثلاث خطوات، والتفت إلى الخلف، وقال لـ«سمحان»:

- أنت ممتحن فاصبر، وما أنت فيه ما كان يمكن أبدًا أن يخطئك.

ابتسم في مرارة وقال:

- لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

هزَّ الرجل رأسه في امتنانٍ وردَّ عليه:

- طاقتك أكبر مما تظن، لكنك تجهلها، ومع الأيام ستعرف، فلا تتعجل. أنا جئت إليك بقدر، بعد أن رأيتك في الليلة الفائتة تتقلب كأنك مُلقًى على جمرٍ، وترتعد كأنك منكمش بين أنياب سبع.

وامتلأ وجه «سمحان» بالعجب، وقال له:

- هل أنت الرجل الذي كان يقف على طرف الحشد بالأمس، ويهزأ مما يفعلون؟

أومأ نافيًا وقال:

- لا، هذا كان صاحبي.

- صاحبك؟!!

- تبعني ولم يرني، فهو صاحبي.

ووضع يده على كتف «سمحان» وقال له:

- وأنت أيضًا صاحبي.

- صاحبك؟!!

- أنا أعرفك أعمق ما تكون المعرفة.

- تعرفني؟ منذ متى؟

- منذ أن كانت قدمك لا تزيد على حجم الملعقة الملقاة خلفك على الأرض، والتي ستهشم بها الأرز الذي وضعته أمك لك في إناء فضي اللون، وصرَّته لك في قطعةٍ من القماش، ومنذ أن كان صوتك رقيقًا له رنين.

أيقن «سمحان» من حديث الرجل أنه من المباركين الذين كشف الله لهم ما وراء الحُجُب، وإلا كيف عرف ما في الصرة؟ فابتسم له في امتنان، وسأله من جديد:



- ولمَ عرفتني؟

- لمست فيك ما لم تحط به أنت خبرًا إلى الآن.

- أهو ذكائي الذي شهد له أهل قريتي؟

وطوَّح يده في الهواء هازئًا:

- لكنه لم يشفع لي عند أبي فخطفني من مدرستي وأغلق أمامي طريق العلم.

- كثير من الناس أذكياء، من بينهم أقرانك الذين رافقوك أو جاوروك على مقاعد الدرس، وبعضهم كان لا يقل عنك ذكاءً لكن مسلكه غير مسلكك، ومنهم مَن توقد ذكاؤه بمرور الأيام، وأصبح يفوقك الآن، وأنت تعلم ذلك جيدًا، وبعضهم تساقطت ألمعيته وتوحش غباؤه، حين أهمل ما منحه الله من موهبة، وظلم نفسه. وإذا كان لأهل البرهان حجة، فلأهل العرفان حجة، وكما للعقل طريق، فللقلب طريق، وفوق كل ذي علم عليم.

- إذا كان الأمر كذلك، فما الذي وجدته عندي ولم تجده عند غيري؟

- وهل يتناسب ما تنطق به مع ما حصلته في دنياك من معارف؟

- على كل حال، يشهد الناس لي بالفصاحة.

- يضع الله على لسانك ما يريد لك أن تنطق به أحيانًا، هو كلامك وليس كلام ذا الجلال، وما يأتي على خاطرك وتتفوه به في بعض الأوقات

يكون بالنسبة لكلام الله أشبه بعطر الزهرة، وظل الشجرة، وطيف النجوم السارية، فمَن أحبه سبحانه، وهبه ما يقوِّي حجته بين الناس، ويجعل كلامه مسموعًا، ففي البدء كان الكلمة، وللبيان سحره.

نظر إليه «سمحان» مليًّا مستملحًا ما يقول، وداری دفقةً من زهوٍ عبرت نفسه سريعًا.

استدار الرجل، وأعطى ظهره لـ «سمحان»، ووجهه للرمل والصخر وسن الجبل الذي ستقف عليه الشمس بعد قليل، ويغرق الكشك والتماثيل والمدينة الهالكة والقرية الغافية إلى الآن، والماء الساري. كان ثوبه الأبيض يهفهف في نسائم الصبح الطرية، ونقرات عصاه تطلق لحنًا شجيًّا، وراح يغوص في الطريق حتى وصل إلى سفح الجبل، ثم اختفى فجأة.

«من أين جاء؟ وإلى أين ذهب؟»، سأل «سمحان» نفسه هامسًا، لكنه لا يعرف إجابة، فالرجل اختفى عند الصخرة العالية. هل صعد إلى السماء؟ أم غاص في الأرض؟ أم شق الصخر وتوغل راحلًا؟ ووجد نفسه يتثاءب، وذهنه يسترخي هاربًا من التفتيش وراء إجابة لكل هذه الأسئلة. واستكفى بمحاولة استعادة كلَ ما جرى منذ قليل كاملًا، ليستمتع بعمق ما سمع، ويسحب من الرائحة الطيبة التي تركها الرجل مكانه. سحب شهيقًا عميقًا، ثم قهقه فجأة في وجه الفراغ، ساخرًا من نفسه.



# 10

غاب الرجل الصالح في بطن الجبل، وترك «سمحان» متخبطًا بين ناظرين يجمعهما سؤال يتجدد كتعاقب الليل والنهار: «هل كان هو الأخر رؤية ليل؟ أم مرَّ من هنا وذهب؟».

وسقطت عينا «سمحان» على قدميه، ورفع ناظريه تباعًا ليمسح بهما ساقيه وفخذيه وجذعه وصدره وذراعيه، ثم تنهد وهو يهز صدغيه غير مصدق ما سمع. ونظر إلى الكراسة التي كانت لا تزال مستقرة في طرفي إصبعيه، وحركها يمينًا ويسارًا، ثم غمس بصره في السطور التي قرأها أمام الرجل الغريب، ذي الاسم الجديد على أذنيه، ومصمص شفتيه، ودخل والتقط صرة الطعام، فتحها وأخرج ما بها، وأكل نصف بطن، ثم أشعل نارًا في بقايا الحطب المكوم تحت الكشك، ودفس البراد فيها، بعد أن ألقى فيه تلقيمة شاي، ثم صبَّ كوبًا وراح يرشف منه على مهل وهو جالس إلى جانب الجمر، الذي يخبو تدريجيًّا، غارقًا في شرودٍ طويل. وراحت الريح تُهيِّج الرماد، فتطاير شرر على لحيته النابتة، ثم تساقط الجمر تباعًا ومات على جانبيه، وهو جالس، وقد رفع ساقيه، وأسند ظهره إلى حجر عريض أملس، واستلذ للرشفات المتتابعة أكثر من أي وقت مضى، وشعر بأنه مع كل رشفة ساخنة تتسرب دفقة خوف من نفسه.

وفي شروده حلَّ برأسه بغتة وجه «عبد العاطي»، فضرب جبهته براحة يده اليمنى، وصرخ: «يا ألله!»، إذ رأى فيه ملامح كثيرة تشبه وجه الرجل الغريب الذي كان هنا منذ قليل وذهب. وكلاهما يشبهان وجه الرجل الذي كان يقف في الزمن القديم بعيدًا هازئًا من الكهنة وهم يمنحون الناس صكوك الجنة.

ثم صرخ من جديد، حين تذكر فجأة ما لم يخطر على باله طيلة الليلتين الفائتتين، فالرجل الذي كان يقف على طرف الحضرة، عند المقبرة الجديدة، ويشير إليه أن يلتحق بالذاكرين، يشبه «أخنوخ» و«عبد العاطي» وذلك المتمرد على كهنة المعبد.

وامتلأت عينا «سمحان» بالدهشة، فاتسعت حدقتاه، وراح يسأل نفسه في صمت: «أهو رجل واحد تتبدل هيئته ويختلف زمن ظهوره؟ أم هم رجال أربعة متشابهون؟». لا يدري. لكن كيف هذا و«عبد العاطي» اسمه مسجل في الدفتر خفير آثار مكث في هذا المكان سنين؟ ورجلا المقبرتين الجديدة والقديمة كانا بين أناس مختلفين في لباسهم، والكلام الذي يجري على ألسنتهم. أما الرجل الأخير فقد أخذ يبتعد أمام عينيه، وفعل ما لم يفعله مَن سبقاه، حين انبعث في الصخر على ما يبدو.

«هل كان حلم ليل؟»

عاد «سمحان» يتساءل، ويجيب نفسه: «كنت مستيقظًا، ولا جدال في هذا»، «أهو حلم في الحلم، يجعل الإنسان في حيرة من أمره، فلا يعرف أكان مستيقظًا أم منجرفًا إلى سبات عميق؟».



وفكر في أن الإنسان، أي إنسان، قد يأتيه أحيانًا حلم مركب، إذ يحلم أنه يحلم، وحين يفتح عينيه لا يعرف ما إذا كان قد عاد إلى اليقظة قادمًا من النوم، أو ذهب إلى النوم بعد أن كان يقظان. هكذا شعر أن حياته تمضي على حافة بين الرؤى ومنامات الليل، وبين أحلام اليقظة في عزِّ النهار، ووضع هذا في وجه واقع تعيس، لا يبرحه ليلًا أو نهارًا.

ووجد أنه من العبث أن ينشغل بهيئات الرجال الأربعة، أو الهيئات الأربع لرجل واحد، رآه في أربعة أماكن متتابعة، وسمعه ينطق بألسنة متعددة. وراق له واجب الانشغال بما بدر منهم في حركاتهم وسكناتهم، وكل ما نطقوا به من كلمات، وكل ما جاء عنهم من طقوس عجيبة.

وغرق في شجونه الآسرة بينما الشمس تعلو، وتنفلت من قبضة الجبل، وتهرول على صفحة السماء.

نظر في ساعة يده ووجد عقاربها تشير إلى الثامنة والنصف، فسرت في نفسه موجة عابرة من كآبة، وشعر بانقباض وضجر، وقال لنفسه في صمت: «تأخر فتحي، وستكون مصيبة لو أنه معتاد على التلكؤ»، ووقف مكانه يرقب الطريق.

لم يمضِ وقت طويل حتى ظهر «فتحي» هناك يمد الخطى، فيغطس ويطفو على الطريق، مرتديًا جلبابًا أخضر، فبدا كحزمة من أعواد الذرة، نابتة في قلب الرمل، ولمرآه قفزت فكرة في رأس «سمحان». فهنا على يمين الكشك مساحة منبسطة من الأرض، تبلغ نحو ثلاثة قراريط، تربتها صفراء ناعمة، لها عمق مناسب كي تنبت فيها الخضراوات، باذنجان

وطماطم وبصل، لكن كيف يأتي لها بما يسقيها والنهر لا يصعد إلى الجبل؟

ولمَّا وصل «فتحي» طرح عليه ما عنَّ له، فأطلق ضحكة دارت كدوامة من الهزء بين أفلاق الجبل، وقال مستنكرًا:

- أتزرع الصخر؟

- نرمي الحب، وقد يأتي المطر، فإن لم يأتِ، فلنرفع كل يوم بعض الماء في جرار من النهر، ونضع تحت جذر كل نبتة قطرات تكفيها.

فصمت «فتحي» قليلًا، ثم هزَّ رأسه موافقًا، وقال:

- المطر هنا شحيح، فلتأتِ بالماء أنت على حمارك.

- لا بأس، سأفعل كل صباح.

- يبدو أنك تحب الزرع.

- ومَن لا يحب الخير؟!!

- هناك مَن ولدوا للشر فقط.

«أعوذ به من شر خلقه»، كلم «سمحان» نفسه صامتًا، وأطرق مفكرًا فيما سمع، فأعطى «فتحي» فرصة كي يأتي على خاطره سؤال، استحقَّ في نظره، وقبل أن يطلقه، غرق في ضحكة عريضة:

- هل قضيت الليلة في المقبرة القديمة أم الجديدة؟

ابتسم «سمحان» ورد:

- بل زارني أحد الأموات في الكشك.



رنت ضحكة «فتحي» في الجبل، وراح يضرب ركبته براحة يده اليمنى، ثم يرفعها ليضرب جبهته، وهو يهتز من فرط المفارقة، حتى كاد يقع على حجر مستقر خلفه منذ سنين.

وتابعه «سمحان» دون أن ينبس ببنت شفة، وهو في حيرة من أمره، ويعذر زميله في عدم تصديقه لما سمع. فكل شيء جرى هنا فاق خياله، وهو نفسه، مَن سمع ورأى وعايش وكابد، لا يعرف حتى هذه اللحظة على وجه اليقين، ما الذي يهبط فوق رأسه كل ليلة.

وحكى له عن الرجل المهيب الذي وجده أمامه في غبش الفجر بوجه وضيء، فتفرَّس «فتحي» جيدًا في ملامح «سمحان»، وسأله ساخرًا من جديد:

- أمتأكد أنك قد سحبت هذه البطانية الممزقة فوق جسدك، أم كنت تنام عاريًا؟

ولم يرد على تهكمه، فواصل:

- ما إن انتهت معي حكايات «عبد العاطي»، وقلت لنفسي إنني استرحت من شطحاته التي أرهقت خيالي، حتى جئت أنت لتكمل مهمة إصابتي بالجنون.

وهنا سأله «سمحان»:

- أتسمع عن لعنة الفراعنة؟

- بسيط..

- لماذا لا تكون هي، تلاحقني بسوادها وشرها.

مط «فتحي» شفتيه ممتعضًا، وردَّ عليه في ثقة:

- لو كان هناك شخص هنا يستحق أن تسحقه لعنة الفراعنة فهو أنا؛ لأنني طالما سخرت من هذه المساخيط، وركلتها بقدميَّ أحيانًا، بخفة حتى لا تنكسر عظامي، ولو كان بوسعي أن أوجعها ما ترددت، انتقامًا منها على عمري الذي يضيع إلى جانبها، وكم قذفتها بأحجار صغيرة، وكم تبولت وتغوطت فوق تراب المدينة الهالكة، وأخرجت لساني للذين كانوا يسكنونها وانقلبوا قبل أن يراهم أجداد أجدادنا.

تابع «سمحان» ما يقوله «فتحي» وهو شارد، لكنه التقط جوهر الكلام، وسرى جزع في أوصاله فجأة، نطق به قائلًا:

- لو زرعنا هذا المكان ربما عوقبنا من هيئة الآثار.

قهقه «فتحي» ساخرًا:

- أي هيئة أيها المستجد؟ إنهم لا يتذكروننا إلا كل عدة سنوات، ولو جاء المفتش ووجد زرعك قد أخرج ثمرًا عفيًا، سيكون كل همّه أن يأخذ منه لعياله، وربما رمى عينيه يمينًا ويسارًا بحثًا عن أرض أخرى يوصيك بزراعتها، لتزيده من الأعطية.

وأرسل ناظريه إلى النهر، ورفعهما نحو السحب العابرة من الغرب إلى الشرق، وقال:

- أتدري ما الذي يجلب عليك غضب الفراعنة وغيرهم؟



- ماذا؟

- الماء الذي تريد أن ترفعه وتسقي به أرضًا لم يمسسها أبدًا.

- قرأت في الكراسة أن مياه النهر كانت تصل إلى سفح الجبل أيام الفراعنة، وأبي كان يقول لي إنها كانت تغمر أطراف القرى قبل بناء السد العالي.

- دعك من الكراسة ومن أبيك، وأنصت إلى ما كانت تقوله أمي، فهي قديمة مجرِّبة، وكثيرًا ما يصدق الناس كلامها.

- وما الذي قالته أمك، وترى أنه على علاقة بما نحن فيه؟

- كانت تحدثني عن مياه سحرية، تعالج المرضى، وتعيد الموتى إلى الحياة، وتهب الأحياء الخلود.

- تخاريف.

- ممكن، لكن ما ليس بتخاريف هو ما ذكرته عن كره الكائنات الشريرة من الجان للمياه، ولهذا كانت تحذر زوجتي وجيراننا من أن يسكبوا الماء في الطريق ليلًا، حتى لا يؤذيهم الجان.

- الجان وليس الفراعنة.

- «عبد العاطي» كان يقول إنهم كانوا أحيانًا يسخِّرون الجان.

- وكأنني في حاجة إلى مزيد من الرعب!

- نحن في أول النهار، والشمس حامية، وستحرق أي جني شرير يريد أن يؤذيك.

- أو تجعلني أتقلب على جمر أمام جني يسعى إلى أن يتلذذ بتعذيبي.

- أحيانًا لا أفهم كلامك.

- «أخنوخ» قال لي إن ما يجري على لساني ليس في كل الأحوال من صنع عقلي.

- أوحي بعد محمد؟!!

- اختتمت النبوة لكن لم تختتم الولاية.

- وهل أنت ولي؟

- لا أعلم.. لكن «أخنوخ» قال لي إنني مُعدٌّ لحياة مختلفة.

- فعلًا، أنت تُجهز للسرايا الصفراء.

- شعرة بين العبقرية والجنون، شعرة بين الولاية والبلاهة.

- كل هذه الحكمة تحت جلباب كالح، ووراء شومة طويلة تليق ببلطجي محترف.

- أو تليق بمَن بات يحرس في سبيل الله.

- قصدك في سبيل المساخيط.

- يخيل لي أن وراءها أسرارًا معلقة في السماء.

ضحك «فتحي» ساخرًا:

- ألست وليًا تنكشف أمامك الأسرار.



«أخنوخ» حدثني عن فارق بين البرهان والعرفان.

- لا أفهم شيئًا منك، هنا مقبرة وكشك وجبل وليست جامعة.

ضحك «سمحان» كما لم يضحك من قبل، وقال لـ «فتحي» متشفيًا فيه:

- فرصة لتتعلم شيئًا.

- منك أنت؟!! على الأقل أنا أعرف عن هذا المكان أكثر منك.

- وما الذي تعرفه لا أعرفه أنا إلى الآن؟

- أعرف أن القراريط التي تنوي زراعتها لا تصلح إلا لأن تكون مساحة خالية من الرمل، تسخن في الصيف، وتبرد في الشتاء، وفي الخماسين تهيج وتردم المكان، ولا يحميني منها سوى الكشك، أدخل بسرعة، وأغلقه خلفي، وأدفس وجهي تحت البطانية، فالتراب الذي يملأ أنفي يجعلني أكح وأكح بلا توقف، وعيني يؤذيها الرمل الناعم، يحرقها كأنه فتافيت جمر.

- قلبي يحدثني أن الخضراوات ستنبت، والبراعم ستتفتح، وتشمخ منها أعواد، وتنام على الأرض أوراق وبتلات، وتبتسم أزهار، وتنضج ثمار، وتقطف أيدٍ، وتبلع أفواه، وتمتلئ بطون.

- الجوعان يحلم بسوق العيش.

- غدًا سترى.

# 11

جاء «سـمحان» عقب عصـر اليوم التالي، بعد أن خصم سـاعتين من نومه، وفي يده فأس، وأخذ يقلب الأرض أمام الشـمس، حتى انتهى منها مـع رحيل الغبـش وحلول الظلام. وبعد أيام أتاح له قمر منتصف الشهر العربـي أن يرى جيـدًا فراح يقسـم الأرض إلى أحواض، ويشـق داخلها سـرائب متسـاوية، وطيلة هذه الأيام كان يأتي إلى المـكان وعلى حماره جوال مملوء بالسـماد البلدي. يفتحه ويكومه على طرف القراريط، وبعد أن يدخر من السماد ما يكفي، يفرده فوق سطح التربة ويقلبه بفأسه.

وجـاء فـي يـوم بشـتلات الباذنجـان والطماطـم والبصـل والفجـل والفلفـل الحـراق، راقدة في جوال خيش مبتـل، ومعها برميلان صغيران مملوآن بالماء، ومربوطان في عرق خشـب مسـتقر فـوق بردعة الحمار. كان الحمـار يمشـي متوجعًا من ثقل الحمولة، و«سـمحان» يسـير خلفه وهو يعده بنصيبٍ وافرٍ من البرسيم، وبكل أعواد النجيل التي ستنبت بين سيقان الخضراوات. كان يزرع كل يوم قيراطًا واحدًا، يحفر بفأسه حفرة صغيرة ويصب فيها ماء، ثم يضع الشتلة، ويهيل عليها قليلًا من التربة.



في اليـوم الثالـث وجد الشـتلات التي غرسـها فـي اليـوم الأول قد أخذت تترنح وتذبل وتسـتعد لييبس سينشـب في جذورها وسيقانها وقد وأوراقها، فكان عليه أن يجري بعد أن يفرغ من شتل ما معه إلى النهر ويملأ البرميلين الصغيرين ويعود.

ورآه «فتحي» متحيرًا، فوقف على رأس الزرع الهش، يقهقه ويقول:

- ألم أقل لك، ولم تسمع كلامي.

ابتسم «سمحان» وسأله:

- ألن تأكل من هذا الزرع؟

- أتعتقد أنه سيعيش حتى يكبر ويخرج لنا ما نأكله؟

- سيحصل، وستكون أنت أول الآكلين.

- يعجبني تفاؤلك.

- ليس تفاؤلًا يا عمنا، بل هو يقين.

- طبعًا، ألم تتوهم أنك ولي، فكيف لا تتكلم بكل هذه الثقة؟

ابتسـم «سـمحان» رافضًـا أن يرد علـى تهكمه، وقبل أن تعود شـفته العليا لتنام على السـفلى، زامت الريح، وفتحت السـماء المرعدة البارقة ذراعيهـا لقطـع القطـن المغبر الهائلة التـي هجمت من الغـرب، فملأت الفضاء، وضاعت الشمس، وجاء الضوء الشحيح، مصحوبًا ببردٍ قارسٍ،

ففتحت الـزروع براعمهـا الوليدة، وابتسـمت وراحت ترقـص، وتطلق أوامرها لكل مسام جذورها بالاستعداد لرشف الماء الآتي.

ووقف «سمحان» بين زرعه الهش فاتحًا ذراعيه، وراحتي يديه، وأخذ ينادي السـحب ألا تبخل بما تحمله على نباتاته. والتفت إلى يمينه فوجد البنـات السـبع الحجرية الجالسـة فـي مقصـورة حتحور تبتسـم، وتميل الواحـدة منها على جارتها. فرك عينيه، وفتحهما عن آخرهما، ليتيقن مما يـرى، ورآه فعلًا، كما لمحـه للمرة الأولى، ونادى «فتحي» أن ينظر إلى التماثيل التي تهتز فرحًا، فمنحه فرصة جيدة كي يسخر منه، ويصرخ:

- ألم أقل لك إنك شاب مجنون؟!

وتسـاقط القطـر الخفيـف فزركـش الأرض، وبلَّل هامات الشـتلات الضعيفـة، ففردت أوراقها الصغيرة في وجه الريح، ثم لم يلبث المطر أن هطل بشـدة، فغسل الصخر، وعجن الرمل والتراب، وصنع حفرًا صغيرة مملـوءة بالمـاء هنا وهنـاك، فجرى «سـمحان» نحو الشـتلات، وخطف الجـوال، ورآه «فتحي» متحمسًـا، فشـمر عن سـاعديه، وشـاركه العمل بنفس راضية.

غرسوا كل ما تبقى من شتلات، وخاضوا بأقدامهم في ماءٍ لزج، وهم ينقلونها بصعوبة حتى بلغوا حافة القراريط وراحوا يحكُّون باطن أقدامهم في الصخر، فتساقط الطين قطعًا غير متساوية، لم يشهد «فتحي» لها مثيلًا هنا في هذا المكان، منذ أن جاء خفيرًا إليه قبل عشر سنوات.



ضحك «فتحي» وقال له، بعد أن هدأ المطر:

- قررت أن أبيت الليلة هنا معك، احتفالًا بما زرعناه.

ورد «سمحان» على الفور:

- سيقلق أهلك عليك، وربما نجد أحدًا منهم واقفًا بيننا هنا عند منتصف الليل منزعجًا.

نظر «فتحي» نحو قرية «طهنا الجبل»، ثم نظر في ساعة يده، وقال:

- سألحق المراكبي، هو ساكن في الطرف المقابل لنا، وحين يصل البر الغربي، سيرسل مرسالًا لأهلي.

- قد لا يبحر الليلة بسبب المطر.

- لـم يتخلف يومًا، ولا يستطيع، ولا يجد فرقًا بين ماءٍ تحته وآخر فوقه، وقد هدأت الريح.

ودفس قدميه في مركوبه، وهرع إلى المدق، وعاد بعد ساعة يقول:

- خلاص.. كله تمام.

# 12

كانت ليلة مختلفة بكل الأحوال، لم تبقَ بقعة ناشفة في كل هذا المكان الفسيح سوى الكشك، الذي بناه «عبد العاطي» بعد أن بات في الطل ليلة مطيرة، كتب طلبًا لهيئة الآثار، فأمدوه بالأخشاب، واستعان بالمراكبي، فصنعا سقفه مثل قاع المركب، لا يمكن للماء أن ينشع منه.

جاء يومها ومعه أدواته، مطرقة ومنشار ومثقاب الخيط والقوس والإزميل والسحج وحديدة القلفطة، ونظر إلى الخشب الذي أحضرته الهيئة، وقال لـ «عبد العاطي»:

- هذا الخشب لا ينفع لصناعة سقف يصد الماء.

وغادر المكان، وعاد بعد ساعة، وخلفه جمل محمَّل بخشب السدر، وكيس به قطن وعلب الغراء، وبعد أن بنى النجار جدران الكشك، راح المراكبي يرص شرائح خشب السدر، ويرمم ثقوبه بالقطن، وبين الشقوق يدفن خيوط القطن وفوقها الغراء. وبعدها قام «عبد العاطي» بجمع صفائح من الحجر الصلد الرقيق، وعشّقها فوق خشب السقف، وفرش فوقها الأسمنت، ثم أكياس من البلاستيك، وفوقها طبقة خفيفة من الرمل، لتشرب الماء.



كان المراكبي يضحك ويقول لـ «عبد العاطي»:

- تريد أن تبني قلعة؟

وكان «عبد العاطي» يهز رأسه ويرد:

- ألم ترَ مخرات السيول المدفونة هناك؟ قد تعود يومًا وأنا نائم فلا تطمرني المياه، وأموت غريقًا.

وسأل «سمحان»:

- وهل دفع «عبد العاطي» للمراكبي أجره، وثمن الخشب؟

- لا، المراكبي رفض.

وسرى عجب في وجه «سمحان»، لكن «فتحي» لم يتركه لحيرته طويلًا:

- «عبد العاطي» عاش هنا أكثر مما عاش في بلده، وتوحّد مع المكان، وكان ينزل أحيانًا إلى القرية ليسهر فيها مع شيخ الجامع، أو يأتي الشيخ إليه ومعه كثيرون يعشقون الهواء الطلق وسكون الجبل. وقد أُشيع بين الناس أن لـ «عبد العاطي» كرامات، وكان هو ينكر هذا، ويهرب ممَّن يقتربون منه لينتفعوا بها.

ذات مرة جاءه المراكبي باكيًا؛ لأن ابنته تصارع ألمًا شديدًا، وصفه هو قائلًا:

- مناشير تقطع مصارينها.

وغلت لها أمها كراوية وشمر ونعناع، ولا فائدة. وهرول «عبد العاطي» معه بلا تردد. جلس أمام البنت، ووضع يده على بطنها، وأخذ يتمتم بكلمات لا يسمعها أحد ممَّن حوله، ثم سقاها جرعتين من زيت الخروع، ولم يتركها إلا بعد أن تنهدت واستكانت ونامت. وربما حفظ المراكبي له هذا الجميل، وصنع له سقف الكشك بلا مقابل.

- سبحان الله!

- «عبد العاطي» كان يقرأ في هذه الكراسة، وأنا أستغرب كيف تركها لك، والناس كانوا يقولون إنه تعلَّم منها بعض سحر الفراعين، لكن شيخ الجامع كان ينفي هذا، ويقول بل هو رجل مبروك، من أهل الله.

- لم ألحظ شيئًا من هذا حين قابلته، بل ضايقني ما فعله معي، حين رمى كل شيء في يدي، وغادر صامتًا، ولم يعطني حتى فرصة كي أحفظ ملامح وجهه جيدًا.

وساد بينهما صمت لم يطل، إذ تنهَّد «فتحي» طويلًا، وترك منخريه يشهقان بقوة، ويسحبان من النسائم البليلة النقية التي أعقبت توقف المطر، فيما راح «سمحان» يتابع نزول الليل خلف الجبل، وزحفه إلى حيث يقف هو وزميله، وشعر أنه بحاجة إلى احتساء كوب شاي ساخن، فنظر إلى «فتحي» وقال:

- أين الحطب؟

قهقه، وردَّ عليه بحروف ممزقة من أثر الضحك:



البلل، ولا أمل في إشعاله.

وأشاح «سمحان» بيده، وغمس بصره في عمق الظلام الشفيف ورأى كومة حطب ملقاة هناك، فمشى إليها، وانتشلها من الماء الذي كان راقدًا فوق أعوادها، وخلَّصها من عجين الرمل العالق بها، وأخذها ودخل الكشك. وجاء «فتحي» خلفه ليرى ما سيفعل، فوجده يفرش الحطب على الأرض، ويأتي بخرقة ناشفة، ويمسح عودًا تلو آخر، ثم أسند ما نظفه ورماه مفرودًا على البطانية، ولملم أطرافها، ودعك بقوة، حتى اطمأن إلى أن البلل قد رحل، فكشف عن حطبه، وهشمه، ونفخ فيه من نفسه على قدر ما يستطيع، كأنه يمنحه كل الدفء الساكن في أحشائه، ولملم كسور الحطب، وتركها مكانها، ومضى خارج الكشك يبحث عن أحجار، وجمع منها عددًا مناسبًا، وجففها بطرف البطانية، وأخذها في حجر جلبابه، ورصها إلى جانب بعضها بعضًا، فعزلت الرمل المبلول عن كومة الحطب التي جاء بها ورصها. ودخل مرة أخرى وخلع «لمبة الجاز» من مكانها، وفتح فوهتها وسكب بعضها على جانب الكومة، ثم أشعل النار فاشتعلت.

فلمَّا صعدت ألسنة اللهب، وطار الدخان عاليًا، لم يملك «فتحي» من أمره شيئًا سوى مواصلة الضحك، وهو يضرب كفًّا بكفٍّ، ويقول من جديد: «أقسم بالله لم أقابل في حياتي مجنونًا مثلك»، وصمت قليلًا ثم واصل: «أنت تفوقت على عبد العاطي».

واستلذّا سويًّا بشرب الشاي الساخن في هذا البرد، وسمعا خرير الماء إلى جانبهما، لكن الليل الأسود حرمهما من أن يريا شيئًا، وظن «فتحي» أن الماء ينساب نحو النهر، قادمًا من صهوة الجبل، وحكى لـ «سمحان» عن سيول ضربت هذا المكان قبل سنين طويلة وأهلكت بيوتًا من الطوب اللبن، وشرّدت ساكنيها، وغمرت الزرع حتى ترنح ومات، وحملت الرمل إلى النهر، فضاعت زرقته، وغلبها الأصفر الداكن، وانجرفت طيور الفلاحين، الدجاج والإوز والبط والديوك الرومي، وهربت القطط إلى الأسطح العالية، وجرت الكلاب نحو قطع الجبل التي لا يأتي منها ماء غزير، ووقفت تلهث وتنظر إلى المنازل التي أتت منها متحسرة، وعامت جواميس نحو الشاطئ الغربي، وركب ناس المراكب بحثًا عن مأوى، وتقاطرت أواني الألمونيوم الخفيف وراء بعضها، وصنعت أسرابًا لامعة، حملتها المياه المتدفقة من الأعالي إلى مجرى النهر.

حكى «فتحي» حتى هدَّه التعب وغطس في نوم هادئ بين جدران الكشك، بينما بقي «سمحان» ساهرًا، وقد دفن وجهه في بطن السماء، وشخص ببصره ليعد النجوم الزاهية والخافتة معًا، ويستعيد الكلام الذي سمعه في مثل هذا الوقت في الليلة الفائتة، هنا على بعد أمتار قليلة مما يجلس الآن، وجد أناسًا يطاردون رجلًا غريبًا يرى الله بعين غير عيونهم.



«لماذا يتناحر الناس حول السماء وهي عالية وجليلة ومترامية وكافية في لظللهم جميعًا؟ لماذا تسيل دماء باسم الله وهو يرزق الكافرين به كما يرزق المؤمنين؟»، تساءل «سمحان» وقلبه يتفطر ألمًا، وشخص ببصره في عمق أزرق السماء الداكن المرقط ببقع ضوءٍ فضي لنجوم فرحة، ورفع يديه عاليًا، وتمتم بأدعية لم يسمعها غيره.

واقتحم خرير الماء عليه كل سمعه، فتعجب من هذا، رغم أن المطر كفّ من الهطول منذ ساعات، وصفت السماء، وهدأت الريح، وجاءت أصوات الغلايين التي تمخر عباب الموج متجهة من الصعيد إلى الوجه البحري حاملة أحجارًا، وعادت الضحكات تخرج من نوافذ بيوت «طهنا الجبل» وتمرق في الخلاء فتكسر الصمت، حتى الكلاب التي كان المطر قد أجبرها على الانكماش في أماكن مغلقة خرجت إلى الشوارع تنبح، وبعضها يجري نحو المقبرة ويعود، ونباحه يدل على خط سيره.

عند الفجر بان له كل شيء. فمياه الأمطار تجمَّعت هناك في الأعالي، وأخذت تتدحرج ساحبة معها الحصى الصغير والرمل السافي، وتأتي هنا خلف التماثيل بأمتار قليلة، ثم تختفي، وكأن شيئًا لم يكن. جلس «سمحان» القرفصاء يراقبها، واحتار في أمرها، ونادى «فتحي» فقام إليه يتثاءب، وتوجَّها نحو البقعة التي يختفي عندها الماء، وجلسا على أقدامهما وراحات أيديهما فظهرا كثعلبين يكمشان لأرنب بري رابض في جحره.

كانت المياه تتجمع في سرسوب وافر من اليمين واليسار، وتجري نحو تبة رمل صغيرة، تنحر جانبها في هدوء، وتندس تحت قشرة من حجر، ثم تسقط محدثة صوت ارتطام في فراغ مكتوم. استعاد به «سمحان» تذكر صوت الأحجار، التي كانوا يرمونها في البئر القديمة شمال قرية «جبل الطير»، والتي يقول الآباء إن أجدادهم قد قالوا لهم إن أجدادهم قد ولدوا هنا فوجدوها قائمة، وكانت تسقي زرعًا إلى جانبها، ويشرب الناس منها، حتى تعطلت، وكانت أم «سمحان» تحذره من أن يسقط فيها أو يشرب من جانبها الذي تسمم.

حلَّت هذه الذكرى برأس «سمحان» فقال لـ «فتحي»:

– يبدو أن هناك بئرًا مهجورة تحت قشرة الحجر، يستقر في أعماقها كل الماء الآتي من الجبل.

وكعادته قهقه «فتحي» ساخرًا وقال:

– وربما هو نفق يأخذ كل الماء من هنا، ليزيد به النيل.

ورفع هامته، وأرسل ناظريه إلى النهر، وواصل:

– ألم ترَ أن الماء قد اصفرَّ من أثر ما جرفه المطر من رمال.

لكن «سمحان» بدا متشككًا في هذا الأمر، وصمَّم على أن المياه تنحدر من الأعالي، وتختبئ في جوف بئر عميقة، وتتجمَّع، وقد تتصل بمياه أخرى متواجدة في القاع البعيد منذ سنين طويلة، فتوقظها من سباتها الطويل، فتتفجر عيون الماء المطمورة، فيصبح هنا نبع صاف.



وتقدم خطوات، ونام على جانبه الأيمن، وألصق أذنه بالقشرة الحجرية، وعاد يقول بصوتٍ ممزوجٍ بفرحةٍ غامرة:

– الماء يتجمَّع هنا.

وبُهت «فتحي» عجبًا أو حسدًا، لا يدري، فقد استطاع هذا الخفير المستجد أن يأتي بما لم يأتِ به الأوائل، الذين تعاقبوا على حراسة هذا المكان. استصلح أرضًا وزرعها، وأرسل لها الله ماءً ليسقيها. وبرق بخاطره وجه «عبد العاطي» وقال في نفسه: «كانت له أحوال تثير العجب، وأعمال فوق العقل، لكنها لم تبلغ الذي طاوله ذلك الفتى الذي يجهل كراماته العظيمة».

ووجد «فتحي» نفسه يقف أمام «سمحان» ويقول له في خضوع:

– بركاتك يا مولانا.

رد «سمحان» على الفور:

– يا أخي، لا تستهزئ بي، ولا تبالغ، فأنا عبد فقير، لا أملك من نفسي شيئًا، ولا تتصور أنني مسئول عن كل هذه المصادفات الغريبة.

لكن «فتحي» رمقه بطرف عين، وقال:

– أنت تداري الحسد.

ولم يرد عليه هذه المرة فواصل:

– إن لم تكن كرامات من السماء، فقد مسَّك سحر الفراعين، في الليلة الفائتة.

أومأ «سمحان» برأسه راغبًا في إنهاء هذا الحديث الذي يرى أنه لا طائل منه، وإن استمر سيصير جدلًا، يفسد عليه فرحته بهذه المياه التي تتجمّع الآن، لتُذهب عن زرعه عطشًا ينتظره بين أحضان الصخر، ولتقيه هو من عناء حمل المياه من النهر السارح هناك في مواجهة سفح الجبل.

ونظر إلى حماره، الواقف ينفض بعض قطرات لا تزال عالقة بجسده من مياه المطر، وقال لـ «فتحي»:

– أتدري مَن هو صاحب الكرامات في هذا المكان؟

فأرسل عينيه مستفسرًا، ولم يمهله «سمحان» في حيرته، وأجابه:

– الحمار.

ورنت ضحكة «فتحي» والتفت إلى الحمار النحيل الواقف في هدوء، وهو يتفرس في التماثيل، بعينين ثابتتين، وقال:

– بوسعك أن تريح الحمار، وتنقل الماء من النهر في جرتين مربوطتين في نير يستقر على كتفيك.

تعجب «سمحان» من كلامه وردَّ في ضيق:

– تتكلم وكأنك لن تأكل من هذا الزرع.

عاد إلى الضحك، وأجاب:

– على حسب ما وصفتني أنت من قبل فأنا سأكون أول الآكلين.



في اليوم التالي جاء «سمحان» مبكرًا ومعه إزميل وراح ينقر القشرة الصخرية التي اندسَّ تحتها الماء. وما إن ثقب الإزميل فتحة صغيرة حتى بدأت بقية القشرة تتشقق، فلم يستغرق الأمر سوى ساعتين حتى انفتح باب عريض، وإذا بالماء يطل من جوف جب عميق، وقد راق بعد أن ترسب الرمل في القاع.

غمس وجهه في العتمة، فرأى وكأن أشياء تتحرك على السطح، لكن لم يتبين ما هي، ولم يكن لها صوت يسمعه، ولم يكن يشغله الآن سوى أن زرعه أصبح له ماء يسقيه، بعد أن ثبّت المطر جذوره في التربة.

سهر ليله، وعاد إلى بيته، وعند العصر استيقظ، وقال لأبيه:

– زرعت زرعًا وسخَّر الله له بئرًا تسقيه.

وبعد أن أنصت الرجل إليه وهو يحدثه عن كل شيء، قال له ناصحًا:

– إن لم تُغطِّ ماءك أكلته الشمس.

وفكرا معًا في صناعة غطاء من المشمع، بعد أن جمع له عددًا وفيرًا من أكياس سماد «اليوريا»، واصطحبه «سمحان» معه، ورماه على البئر فاستظلَّت به، وتوقف البخر، الذي كان قد سحب بعض المياه في النهارين الفائتين.

وجهَّز الأب لابنه دلوًا، بعد أن أتى بصفيحة مسلي جديدة، وثبت في منتصفها خشبة، ومزع جزءًا من فوهتها ليدخل الماء إليها سريعًا، وربط

في الخشبة حبلًا طويلًا من الليف. وحين نشفت الأرض حول الزرع، قام سمحان بنبش حفرة صغيرة عند جذر كل شتلة، واستعد لسحب أي دلو من البئر العجيبة.

رمى الحبل، وسمع غبيب الدلو، وسحب فوجد ماءً يهتز من أثر دود أسود متفاوت الأحجام يرقص متململًا من النور الذي غمره بعد أن اعتاد العتمة في بطن الصخر. وراح يزحف في سرعة خارجًا من الصفيحة إلى الحبل، ومنه إلى ساعدي «سمحان». ورآه «فتحي» فصرخ فيه:

– أخرجت لنا السم المدفون منذ آلاف السنين.

ولم يفهم «سمحان» ولاذ بصمتٍ، تاركًا الفرصة لصاحبه كي يوضح ما يقصد.

– ربما كان هذا الدود يعيش في ماء مختزن منذ زمن طويل، وقد تسمم، وبعض السم عالق به، إن لم يقتلنا، فقد تتقرَّح له جلودنا.

واستدار حتى ملأ عينيه من شتلات الزرع التي تتمايل في دفقات النسيم، ثم اتجه مبتسمًا إلى «سمحان»، وهو يشفق عليه:

– لو رميت هذا الماء المدوَّد عند جذور الزرع، سيندس تحتها ويأكل بشهية مفتوحة، ويتركه خلفه مصفرًّا ليموت في هدوء.

لكن «سمحان» عاد في اليوم التالي ومعه جردل وغربال خيوطه من أمعاء البقر، وغب الدلو وصبه فوق الغربال المستقر على الجردل، فحجز الدود كبير الحجم، لكن اليرقات الصغيرة تسلَّلت وأصبحت فوق



الماء من جديد. ولم يجد «سمحان» من سبيل سوى أن يسقي زرعه، وليكن ما يكون.

وحين فتح عينيه بعد انقضاء الليل، وجد السرائب مغطاة بلون أبيض، يكاد يغطي الخضار الضئيل. كانت طيور «أبو قردان» قد جاءت من فوق الأشجار المتفرقة على ضفتي النهر، وراحت تغرس مناقيرها في التربة السهلة، ثم ترفعها والدود يتدلى منها، لتلتهمه بلا توقف.

# 13

مرَّت شـهور هادئـة، لم تأتِه فيهـا كوابيس اليقظة، التـي طالما أورثته رعبًا وحيرة. كان «سمحان» يجيء إلى المكان قبل غياب الشمس بساعة واحدةٍ، تكون كافية ليرعى فيها زرعه. أحيانًا كان يمكث هنا، ولا يعود إلى بيته، ويبقى نائمًا داخل الكشـك، بينمـا «فتحي» يحرس التماثيل وأجران التراب المتبقية من المدينة الهالكة، ويستيقظ عند العصر، ليواصل غرس أظافره تحت جـذور الخضار اليانع المثمر ليقبض على النجيل ويخلعه، فيقي الزرع شرًّا، ويطعم الحمار.

ولمـا نضجت الثمار وصارت جاهـزة للآكلين، عرض على «فتحي» أن يقتسما هذا الخير، لكنه اقترح أن يبيعا بعضه، ليدفعا ثمن الشاي الذي يحتسيانه بلا توقف، والطعام الذي يسد رمقهما وقال:

- يمكنني أن آتي بالخضري إلى هنا، ليشتري كل ما نريد بيعه.

لكـن جـاء اليـوم التالي بحسـاب مختلـف، فبينمـا فارقت الشـمس مخدعهـا متسيدة على الجبل والنهر والزرع، بـان على أول المدق رجل سـمين، يرتـدي بنطـالًا أسـود وقميصًا أخضـر، يتدحرج في هـدوء نحو



الموقع الأثري، ويقف كل بضع خطوات ليضع يده فوق عينيه مستطلعًا المكان الذي يقصده.

ورآه «فتحي» فعاد إلى القهقهة وقال لـ «سمحان»:

- جاء من سيأكل نصف زرعك.

- من؟

- مفتش الآثار الذي يشبه بطنه متحفًا واسعًا.

ما إن وصل حتى سلَّم على «فتحي» ولاطفه، ثم التفت إلى «سمحان» وقال:

- أنت الخفير الجديد؟

أومأ برأسه وقال:

- أنا هو.

طلـب دفتر الحضـور والانصراف، وراجعـه، ثم وقَّع عليه، مسـجلًا وجوده في الموقع باليوم والساعة، وبعدها ملأ عينيه من الزرع، وتلمظت الشفاه، وانفرجت أساريره، لكنه حبس الفرحة العابرة، واصطنع التجهم، ولاذ بصمت، فأثار مخاوف «سـمحان» مـن أن يكون قد أغضبه ما رأى، وعاجله قائلًا:

- قلت أنشـط جسـمي، وأسـلي وقتـي، وأملأ بطنـي، وأجعـل المكان جميلًا.

ولم يعلّق الرجل، فواصل «سمحان»:

- أعرف أن هذا قد يضر بالآثار، لكنه بعيد عنها كما ترى.

وقابلـه الرجـل بصمـت وهو شـارد، وعينـاه مثبتتـان علـى التماثيل، وشفتاه مزمومتان في صرامة، ولم يلبث أن تدفق كشلال:

- ربمـا أوعزت لك روح أجدادنـا الفراعنة أن تفعل ما فعلت من دون أن تـدري. فأنت تحرس تمثال «حتحـور»، وهي معبودة فرعونية للأمومة البـارة والطفولـة السـعيدة والحـب والموسـيقى والخصوبـة، وهي الروح الحية للأشـجار، كان يُرمز إليها بالبقـرة، أو بامرأة لها أذنا بقرة، وعلى رأسـها قرنان يطل من بينهما قرص الشـمس وريشـتان والكوبرا المقدسة. وجعلها البعض راعية للموتى، وأسكنوا روحها ما يُزرع عند قبورهم من شـجرة الجميز، وجعلوها تبرز من بيـن الأغصان الوارفة، كي ترسـل الفيء وتسـقي العطشـى، ممَّن رقدوا في الجبانات، بعد أن تسـمح للموتى بالمرور إلـى العالم الآخر في سـلام. ويعتقد الفراعنة أنها أرضعت «حـورس» عندما تركته أمه «إيزيس» وراحت تبحث عن زوجها الضائع «أوزوريس»، ولذا ظنوا أن الحتحورات تتنبأ بما هو آتٍ لكل مولود جديد، ففي مهده تقررن مصيره، وهو لاهٍ في فراشه لا يعلم من أمره شيئًا، وحين يولد للملك طفل تحت نجوم نحسٍ، تستبدلن به آخر جاء إلى الدنيا تحت نجوم سعدٍ.

بلع ريقه، وسرَّب بعـض الهـواء الحبيس في صدره، وسـحب غيره وواصل:



لهذا كُرِّست لهـن مقصـورة تضم ردهـة وصالـة أعمـدة يعقبها حرم منحوت في الصخرة، يتكون من فسـحة بهـا عمودان، وغرفتين. وهذا الحرم هـو الجزء المقدس من المقصورة؛ حيـث كانت تؤدَّى طقوس دينية، يصاحبها عزف الكهنـة ورقصهم، وكما تـرى أمامك هنا توجد الحتحورات السـبع، وهن أشـبه بجنياتنـا اللاتي يقـررن مصير الطفل حديث الولادة، إنهن أشـكال سـبعة للإلهة «حتحـور»، فتيات يعزفن على الرق، ويرتدين أغطية رأس، بها قرون بقرة، كما قلت لك.

وراقـت لـ«سـمحان» معرفة الرجل بالآثار المتواجـدة هنا منذ آلاف السنين، وجرى إلى الكراسة، وفتش فيها فوجد شيئًا قليلًا عن «حتحور»، طالعه في سرعة، عين على السطور، وأخرى على المفتش، الذي استغرق في ضحك طويل، وقال:

- ألا تزال هذه الكراسة هنا.

تدخّل «فتحي» الذي التزم السكوت طيلة الوقت، قائلًا:

- إنها أصبحت جزءًا من المكان، يتوارثها خفير بعد آخر.

هزّ المفتش رأسه، وقال:

- ورثها «عبد العاطي» عن «سـلمان»، والأخير يقول إن مرشـدًا سـياحيًّا جاء إلى هنا منذ سنين ونسيها ومضى.

عنـد الظهيـرة كان المفتـش قـد مـلأ جـوالًا مـن الباذنجـان والبصل والفلفل والفجل، وكيسًا من الطماطم الحمراء، وركب حمار «سمحان»

ونَيَّم «فتحي» أمامه الجوال والكيس، ومشى وراءه ينقر بشومته في أرض المـدق، فتصطـدم بالزلط وتحدث صفيرًا، أو تنغرس فـي البقع الناعمة، وتثير عجيجًا. كانا يقصدان مكانًا ليس بالبعيد، يسـتقل منه الباص، الذي يجري ثلاث مـرات، ذهابًا وإيابًا، بين «المنيا» و«سـمالوط» مارًّا بالقرى التي تتتابع شرق النيل، يشق بعضها وتحاذي أخرى منها شريط الأسفلت القديم.

حين عاد «فتحي» وسـاقاه الطويلتان متدليتان من فوق بردعة الحمار والشومة نائمة تحت إبطه، وجد جسد «سمحان» ملقًى في قلب «سرابة» من زرعه، تظلله أوراق الفلفل وقرونه الخضراء المنفوخ منها والمنبعج. كان مغمض العينين تمامًا، وسحب شهيقه ونفخ زفيره ترفرف له الأوراق المدلاة، وتضوع له رائحة الأزهار العفية، والبتلات والتويجات اليانعة.

كان مطمئنًـا، يـكاد وجهه يشـرق بنور يزيـل الظلام الخفيـف، الذي تصنعه تعريشـات الزرع وأغصانه الصغيرة، فمنذ أن ضرب فأسه في هذا المكان، وكان يخشى أن يأتي المفتش، ويعترض على ما غرسه، ويطلب منه أن يعيد إلى الأرض القحل الذي ذهب عنها.

لـم يكن يخـاف من أن يوقِّـع المفتش عليـه جزاءً بالخصـم من راتبه البسـيط، ولا بالحرمـان مـن علاوة دوريـة أو حافز ليس سـوى جنيهات قليلـة، لا تسـمن ولا تغني من جـوع، ولا بالنقـل من المـكان، فالليلتان العصيبتان اللتان مرَّ بهما هنا لا تجعلانه يتمسك بالبقاء فيه. وكل ما يخيفه هو أن يموت هذا الجمال بأمر إداري غبي، من رئيس إلى مرؤوسه، لكنه



فوجئ بشيءٍ مختلف، لم يتوقف معه كثيرًا عند طمع الرجل، الذي جعله يأخذ ربع ما غلتـه القراريط في زيارة واحدة، فهو لا يأتي إلا على فترات متباعدة جـدًّا، إنما عند هـذا الخيط الطويل المتين الـذي مدَّه الرجل في دقيقة واحدة من الكلام المرتب بين القرون الغابرة وتلك الأيام التي يحيا فيها «سمحان»، ثم مدَّه في روية وثقة ليصل سرائب الخضراوات بتماثيل المنحورات الجميلة.

«يااااااه! كم تتعانق الأيام في هذا البلد العريق!»، حدَّث «سـمحان» نفسـه، وقبـل أن يغوص في سُـباته العميق، التقط الكراسـة، وراح يفتش فيها عن أي شيءٍ يساعده على فهم هذه المعاني التي اشتعلت في رأسه، وأخذته إلى عوالم لم يألفها من قبل. فتَّش في سرعة، وهو يأكل السطور بعينيه، حتى وقعتا على ما أراد:

«مصر وثيقة قديمة من جلدٍ رقيق، الإنجيل فيها مكتوب على ما خطه هيرودوت، وفوقهمـا القرآن، وتحت الجميع لا تزال كتابة الفراعين تُقرأ بوضوح وجلاء».

نَقَّل «سمحان» عينيه بين الكراسة والتماثيل والجبل والقرية، التي تئن تحت صهد ظهيرة لا يُلطِّف منها النهر الساري هناك، وعاد وحطهما على زرعـه، وقفز إلى خاطره فجـأة أولئك الذين نـادوه ذات ليلة عند المقبرة الجديدة، والمدينة العتيقة التي أزاحت ستائرها أمام عينيه في ليلة أخرى، ووجد جسـده يهتز، وقدميه لا تقويان على حمله، فسار خطوات، ورمى جسـده تحت شـجيرات الفلفل، وتعبَّد طريق وسيع نحـو حلمٍ عجيب،

أدهشه وهو ماضٍ فيه، وازداد دهشة بعد أن استيقظ شاردًا يلملم ما انفرط من تلك اللذة المبهجة.

رأى رجلًا فارع الطول، شعره متهدِّل على كتفيه، ولحيته كثَّة تكاد تطمس وجهه تمامًا، وكان جسده عاريًا إلا من خرقة عريضة من ورق البردي، ملفوفة على وسطه. راح يسير بحذرٍ نحو الشرق وخلفه مروج وسهوب تنحسر تدريجيًّا ويزحف عليها رمل ناعم فيردمها، فيتحول الأخضر إلى أصفر، وتنبت أحجار بعد أن تُعرِّي الريح الرمل، وتتزحزح أخرى حين تمور الأرض التي صارت يبابًا.

كان الرجل يمسك في يده اليمنى خشبة طويلة مسنونة، يبدو أنه قد سلخها من فرع شجرة جميز، وفي يده اليسرى سكين حجرية طويلة. والتفت خلفه، وأشار بيده فبان وسط الأدغال رجال على شاكلته، ونساء نحيفات يقدن أطفالًا يولولون خلفهن، ويشدون أيديهن إلى الخلف. كان الرجال يحملون على رؤوسهم أشياءَ لفوها في ورق الموز الجاف، والنساء تحملن على أكتافهن أمتعة قليلة.

ومضوا ينتقلون بخطواتٍ وئيدة، وكلما أوغلوا أمتارًا في قلب الأدغال توقفوا والتفتوا في كل شبرٍ حولهم، بينما الكلاب تنبح، والقرود تتقافز، وتضوي في المستنقعات ظهور بعض الأسماك المنعمة بظلال الغابة، فتجفل ثلاث بقرات سمان تسير خلفهم أينما ذهبوا.

فجأة صرخت امرأة:



- المسوخ.. المسوخ.

هرع الرجل الكبير الذي يمشي أمامهم نحوها، وتبعوه جميعًا، ليجدوها قد جلست على الأرض تحثو الطين على وجهها، ويختلط بدموعها الساخنة فيزداد بللًا. سألوها عن سرِّ جزعها، فصوَّبت يدها نحو دغل كثيف، مظلمٍ وقالت:

- المسخ خطف طفلي وهرب إلى هذه الجهة.

زأر الرجل الكبير، ورفع حربته المسنونة وسكينه الحجري، ففعلوا مثله، وهجموا صوب المكان الذي أشارت إليه. كانوا مجهدين، لكنهم مصممون على أن يستردوا الطفل الضائع. واصطدموا بظلام كثيفٍ بين الجذوع الهائلة، فأمر كبيرهم رجلًا يمشي خلفه أن يصلي للإلهة «نوت»، فوضع ما على رأسه، وأخرج منه حجرين أملسين، وضرب أحدهما بالآخر مرات في سرعة فانقدح شرر، أوقد منه شعلة.

أُنير المكان، لكن لم تظهر المسوخ، إنما تماسيح شاردة في المستنقعات، وتنانين رابضة في الظلال، حالت دون تقدمهم، فوقفوا قليلًا، بينما راح الرجل الكبير يمد العصا المسنونة وينغز بها رؤوس التماسيح وبطون التنانين، بعضها تقهقر، وبعضها استعد للهجوم. ودارت معركة حامية، سقط فيها ثلاثة من الآدميين وجُرح تمساحان واثنان من التنانين، وانفتح الطريق، لكن كانت الشمس قد انسحبت من فوق الغابة وزحف الظلام الشامل، فقال الكبير:

- تخلى «رع» عنَّا، فلا حيلة لنا في أن نسترد ما ضاع.

وجلس يائسًا، فجلسوا حوله.

وصرخ طفل من فرط الجوع فقامت امرأة وفي يدها ثلاثة أكواب من عُقل البامبو، وجلست تحت ضرع بقرة بيضاء وشدَّته فشخب اللبن حتى ملأت أكوابها، وعادت إلى الأطفال فشربوا. وفي مساحة بائرة بين الأشجار السامقة رصوا كومةً من الحطب فوق قطعٍ صغيرةٍ من الحجر، كانت مصرورة بين سلخات من سيقان الموز، وأشعلوا النار، فلما صارت جمرات صافية، أخرجوا بقايا شرائح لحم فرس نهر صغير كانوا قد ذبحوه في أول النهار، ولحم بقرة صغيرة جزُّوا رقبتها قبل قليل، ورصوا اللحم، ليأكلوا، ثم أشعلوا النار في رأس البقرة على مقربةٍ من شوائهم الغني، ووقفوا يرددون ترنيمتهم المعتادة:

«أيتها الربة الأم نوت، يا زوجة رع، رب الأرباب، ويا شقيقة حتحور، التي تبتلع رع عند الغروب، وتلده مع الصباح، أنت أيتها المقدسة لا زلتِ تقودين حرب الآلهة ضد الشرور، وضد المسوخ، وأرسلتِ ناركِ لتحاربيها بها، ولا يزال الدخان يتصاعد إلى أنفكِ ليؤكد لكِ نصركِ المظفر عليهم. أيتها الربة نوت، يا قبة السماء المتحولة إلى حتحور، يا بقرة الحياة التي ترتكز في سماء هذا العالم، نشكركِ أنكِ وهبتِ لنا ناركِ أمنًا وحياةً، ولكِ منَّا هذه التقدمات. تحية لكِ، ونسمة تصل إلى أنفكِ في السماء. هيلا .. هيلا».



اختطفوا قطع اللحم من فوق الجمر والتهموها وسط دخان يتصاعد بين تلافيف الشجر إلى السماء، ورموا عظامًا تلتصق بها بعض نسائر اللحم إلى الكلاب، فجلست على أقدامها تأكل في امتنان.

ولما شبعوا أوقدوا إلى جانبهم نارًا جديدة، تدفئهم وتخيف المسوخ والذئاب، ثم استلقوا على ظهورهم، كل رجل إلى جانب امرأته، وانبرى فتى منهم وأخرج بوصة من الغاب كان قد قطعها وخرمها بسن سكين حجري، وراح ينفخ فتُخرج لحنًا عذبًا شجيًّا. وسرى الطعام في أمعائهم ومنها إلى عروقهم فثقلت أجسادهم، وسرت الأنغام في أرواحهم فسكنت، وغطسوا في نومٍ عميق.

أثناء نومهم قامت ريح عاتية هزت الغابة، وأخافت الأشجار والأحراش فولَّت هاربة نحو خلاءٍ بعيد، وبانت أرض مكسوة بالحشائش، وظهر شريان هائل من الماء العذب، يتلوى بين المروج كثعبان لا يكف عن الزحف. ونبت ورد وزهور وقمح، وشبَّت عن الأرض قليلًا نخيلات وشجيرات كافور وجميز، وظهرت قطعان من الضأن والماعز والجواميس والأبقار والحمير. ومرقت في الفضاء أسراب من العصافير، وحطَّ يمام على الأغصان الصغيرة، وصدح كروان، وملأت طيور أبي منجل وأبي قردان والهداهد الأرض اللينة، وسطعت الشمس، ونشرت ذهبها على صفحات الغدران والجداول، فلمعت قشور السمك وعيونه وازدهت خياشيمه القرمزية، وبانت فراشات مدهشة ألوانها، والنحل اللاهث وراء الزهور، الذي أخذ يطنُّ سعيدًا، فيمتزج طنينه بزقزقة العصافير.

وحين فتح النائمون عيونهم أدهشهم أن الغابة قد رحلت، فأخذوا يتقافزون هرولة ورقصًا، وعانق الرجال النساء، وتحنجل الأطفال بلا هدف، وغنوا جميعًا بأصواتٍ فرحة ذابت في النسائم الطرية التي أتت من عند الماء الرقراق والشجر:

«حابي يا إله النيل، أبو الآلهة الذي يغذي ويطعم ويجلب المئونة لمصر كلها، الذي يهب كل فرد الحياة في اسم قرينه، ويأتي الخير في طريقه والغذاء عن بنانه ويجلب مجيئه البهجة لكل إنسان. إنك فريد، أنت الذي خلقت نفسك من نفسك، دون أن يعرف أي فرد جوهر».

وفجأة ظهر أمامهم فوق النهر جبل، يرتفع وينخفض، متعرجًا بلا انتهاء، يبتعد عن الماء الساري في مسافات ويلثمه في أخرى، وبانت على الضفة الشرقية مدينة تحطُّ على رملٍ، وتجاور صخرًا، إنها المدينة التي كانت هنا على مقربة من زرع «سمحان» وكشك هيئة الآثار. وتراءت التماثيل التي يحرسها أمامه، إنها الحتحورات الجميلات ومعبد نيرون.

ونظر الرجل الكبير إلى ما ظهر تحت الجبل، ونادى قومه أن يتلوا المزامير شكرًا للإلهة، وما إن أنهوا ترتيلهم وساد صمت عميم، حتى وقف كبيرهم أمامهم ومدَّ بوزه من بين لحيته وشاربه، ونادى بصوتٍ جهوري، مرق واصطدم بالأشجار والجبل وسطح المياه والمروج والحشائش النابتة حول الجداول، وجاء الصوت مدويًا:

ـ سمحااااااااااااان..



هكذا نادى كبيرهم، ولقوة صرخته سقطت لحيته وطار شاربه وصار وجهه حليقًا أنيقًا، ورآه مَن نادى عليه في هذه اللحظة يشبه الرجل الذي ناداه عند المقبرة الجديدة، والثاني الذي كان يسخر من الكهنة عند الجدران العتيقة، و«عبد العاطي» الذي ألقى كل شيءٍ أمامه ورحل هائمًا بقدمين تنهبان الأرض، وذلك الرجل الوقور الطيب الذي طرق باب الكشك عند الفجر قبل شهور.

# 14

كرَّت الليالي التالية دون أن يتخلَّلها أي شيءٍ يخيف، لكن لم يكن بها شيء يطمئن، ومع هدوء الليل وجد «سمحان» فرصة جيدة ليراجع كل ما جرى له هنا، بينما ظهره ملقًى على بقعة رملٍ ناعم، وعيناه شاخصتان في النجوم الزاهية، ورأسه يستعيد كل شيء، منذ أول لحظة رأى فيها هذا المكان، إلى تلك اللحظة التي يعيشها الآن. إنها رحلة الانتقال من الكراهية إلى المحبة، ومن الوحشة إلى الأنس، ومن القبض إلى البسط.

كل شيءٍ هنا حين رآه للمرة الأولى استصغره، واحتقر تلك المهنة البائسة التي أُسندت إليه، ويتيه قريبهم على أبيه لأنه وفرها لابنه. تماثيل خرساء، وأكوام تراب خربة، وشومة قاسية مصمتة لا حياة فيها ولا هيبة، ومدق متعرِّج مملوء بالحفر التي تُبلى فيها أحذية، وتتعب منها أقدام. قفر وفقر وعزلة وصمت وموت يحط من اليمين والشمال. مقبرة قديمة صنعتها المدينة التي سقطت فوق رؤوس ساكنيها في القرون الغابرة، والمقبرة الجديدة تفتح فمها الوسيع كل يوم لتبتلع الجثامين التي ترد إليها بلا انقطاع. شيوخ وشيخات، فتيان وفتيات، أولاد وبنات. كل يوم يحصد «عزرائيل» في القرى المجاورة ويرسل حصاده ما فعل إلى هنا محمولًا فوق أكتافٍ لأناس متعبين، أموات وهم أحياء، ولا يدري أي



فهم أنه يُشيِّع نفسه، وليس مَن يحمله في نعشٍ يغوص ويطفو على الأكتاف، العريضة منها والنحيلة.

كل الأمور تنطق بالرتابة والملل والقنوط، وتجعله يتساءل في مرارة: ألهذا المكان ضحى بليالي السمر الهانئة مع الصحاب المقبلين على الدنيا بقلوب منشرحة، وكُتب عليه وهو يرفل في فتوته أن يجاور الأموات؟.

كان يشعر أن كل جثمان يمر من تحته يقطع جزءًا من نفسه وجسده حتى يصل إلى بر الفناء رويدًا رويدًا. موت بطيء يعذبه ويضنيه، ويأخذه فجأة من التفكير في دنيا يصيبها، مال وبنون وزوجة حسناء ومغامرات مع أصدقاء لا يكفون عن الحديث حول الكنوز والدفائن المطمورة في بطن هذا الجبل الأصم، وساعات من أحلام اليقظة الممتعة في أمور التافهة، لا تُتعب العقل ولا تشغل البال، وليست تلك التي تسيطر عليه الآن، حول الخلود والموت، والبقاء والفناء، والإيمان والكفر، والتاريخ الذي تدفق في هدوء حتى أكل كل هذه القرون، ولا يزال يلتهم المزيد من دون أن تظهر أي بوادر للشبع أو حتى القناعة، حتى يجد كل واحد منَّا نفسه واقفًا على باب النهاية، فيدخله، بوجهه أو بظهره، ليس مهمًّا، المهم أنه لن يخرج منه أبدًا أمام أعيننا.

كان قد سمع كثيرًا من خطيب الجمعة، الشيخ «عرفان»، قولًا أدرك الآن معناه: «من أراد واعظًا فالموت يكفيه». كان الرجل يقولها ثم يتوقف قليلًا، وهو يحبس شهقات تتردد في صدره، ودموعًا تترقرق في مقلتيه.

وكان «سمحان» ينظر إليه متعجبًا، ويبتسم في نفسه، فـ«عرفان» كان صلبًا كعمود خرساني، متين كأجساد الحتحورات التي لـم يبلها الزمن الطويل، ويقول في سرِّه ساخرًا: «عزرائيل إذا أتى لعرفان سيخاف منه».

وحين يسـمع ضرب خطواته القوية وهو يهبط من فوق المنبر، يعاوده الضحـك المكتـوم، ويهمس لذاتـه: «صاحب هذه الخطـوات قد يعيش فوق المائة عام».

كان هـذا الخطيـب الورع مـن قرية «طهنـا الجبل»، تلـك البلدة التي يعانقها سـفح هضبة البحر الأحمر علـى بعد خطوات من الموقع الأثري الذي كُتب على «سمحان» أن يعيد فيه فهم الدنيا من جديد. كان يأتي قبل أذان ظهر الجمعة بنصف سـاعة، موعد منضبط لا يخلفه أبدًا، وكأنه يعد خطوات حماره السمين المتين من باب بيته حتى باب الجامع، يقف عند الترعـة، ويخلـع جبته وقفطانه الوحيـد وعمته البيضاء التي تسـتدير على طاقيـة حمراء مضلعة، ثـم يجلس القرفصاء فوق حجـر عريض ليتوضأ. يضـرب الماء بيـده العفية فيموج، ويستنشـق ويتمضمـض ويرج الخلاء حول أنفه وفمه، ورغم ورعه الذي يطل من عينيه، كانت نسـوة في القرية يتهامسن عن السعادة التي ترفل فيها زوجة هذا الحصان المتين.

كانـوا جميعًـا مشـغولين بحياته وملذاتـه التي تخلقها قوته الجسـدية الهائلة، ولم تنشـغل إلا قلـة بتقواه وذائقته الرائقة، وقلبه المغسـول دومًا بالمحبـة. وهذا ما بقي له في النهاية، فجسـده أكله الدود الآن، وقبل أيام وقف «سـمحان» مشـدوهًا و«فتحي» يوقظه ليسـمع ما ينادي به الناعي، والريح تحمل إليهما صـوت ميكروفون جامع «طهنـا»: «لا إله إلا الله، محمد رسـول اللـه. إنا لله وإنا إليـه راجعون.. كل نفـس ذائقة الموت.. الشيخ عرفـان أبو الخيـر توفي إلـى رحمة اللـه، والجنازة سـتخرج بعد العصر من المسجد.. لا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم».



لم تمضِ سـاعتان حتى كان النعش يمر من هنا، فوق المدق، وتحت الحتحورات، وبمحاذاة أكوام المدينة البائدة، ووقف «سـمحان» يصرخ بداخله متسائلًا:

- لماذا يموت الطيبون سريعًا؟

وتذكـر المثل الـذي تقوله أمه دومًا: «ما يفضل على المزاود إلا شـر البقر». بقي الأشـرار، يدوسـون على الحق والفضيلة وهـم يتقدمون في تحير نحو كل ما يملأ البطن، ويشبع الفرج، ويجعل النفس تزهو مغرورة، والقلـب مظلم بالكراهية، وذهب واحد مـن الطيبين. مرَّ من هنا محمولًا على تابوت أملس لا شـيء مكتوب عليه، مجردًا مـن أي كلمات؛ لأنها سكنت قلبه وعقلـه، رحل هو وبقيت هـي. تابوت غير تلـك التي كانت تُحمل إلى المدينة البائدة في الزمن البعيد. أشياء قرأها هنا «سمحان» في الكراسة القديمة.

شـعر أنـه في حاجـة إلـى أن يطالعهـا الآن، فتـرك النجوم السـاهرة، والرمـل البارد، ودخل إلى الكشـك، مدَّ يده إلى اللمبـة وأدار «اللاكور» ناحيـة اليسـار، فتمـدد العويـل إلى أعلى وسـطع نور كثيـف مكَّنه من أن يطالع ما كان مكتوبًا ذات يوم على جدران التوابيت:

«أوه! أنت يا فلان هنا، حارسو الآلهة يقفون أمامك، وهم ينتظرونك منذ قديم الأزل، وهؤلاء الذين يقبعون في بيوتهم يخافون منك. تأتي الآلهة إليك، إلى عتبة سلم عرشك، ويهتف لك كل عباد الشمس الموجودين في قصرك. قم فأنت كبير لكي تنهض، وإنك لقوي لكي تبقى نائمًا، فإنك إله. وقد جمع حورس جميع أعضائك. إنك ابن آوى في ناحيته عندما يقوم بالهجوم على أعدائه. السماء تؤول إليك، وتخضع لك الأرض بين ذراعيك. وأنت الآن في طريقك إلى مَن قدمت لهم القرابين ومعهم أوزوريس ونيفتيس. ستصعد إلى رع في السماء وسيخضع لك الآلهة الموجودون فيها؛ لأنك قد أعطيت قوة الأول في الغرب، أوزوريس، خبزك طيب لدى الآلهة، وطعامك الذي قدمته طيب لدى الاثنين من التاسوع. وحينما تكون أمام أنوبيس، وهو مع الآلهة يمكنك فك جميع قيودك، فُك رباطاتك، واطلب سريان الدم فيك فينمو جسمك وتنهض. وقد أمر رع - حوراختي أن تحضر ماعت التي تحبها إلى أي مكان تذهب إليه».

تاه «سمحان» في كل هذه المعاني وهو راقد على ظهره، فوق الرمل وتحت النجوم، ثم في غمرة الضوء الشحيح الذي تهبه له لمبة جاز في عداءٍ دائم مع نافذة الكشك، التي تدفع إليها ريحًا قادمة من فوق سطح النهر، متدفقة إلى ما بين أفلاق الجبل، لتكنس في طريقها رملًا ناعمًا يغطي كل شيء، حتى توابيت الموتى، الذاهبة إلى لحظة الكشف التام، حين ينقشع كل الغبار عن كل المدفون في عمق السرائر.



«متى أذهب أنا؟»...

سأل «سمحان» نفسه، وحجبت الدموع سطور الكراسة عن عينيه، وشعر أن الشهور القليلة التي قضاها هنا أضافت إلى عمره سنين طويلة، ورفعت اللثام عما كان مطمورًا في الضحك المتواصل والانشغال بالتفاصيل، والانغماس في المسرات والملذات على قدر الاستطاعة، وتملكه شعور جارف بأن الحياة ما هي إلا رحلة قصيرة، يبدأها الإنسان قادمًا من أعمار وتجارب كل الذين سبقوه على هذه الأرض، وينهيها على أعتاب كل الذين سيأتون بعده. أرض دفَّاعة وبطن بلَّاعة، وأماني لغر الجميع إلا مَن جمع فأوعى.

ووجد نفسه يخرج من الكشك ليقف على حافة الصخرة العريضة التي تطل على المدينة الهالكة ويرسل بصره إلى جوف السماء، والسكون يلف المكان، ويسحب كثيرًا من الهواء النقي الذي يتدفق بانتظام، ثم فتح ذراعيه إلى أقصى حدٍّ لهما، وأناخ رأسه إلى الوراء، فأصبحت عيناه مصوبتين إلى أعلى، أغمضهما قليلًا وفتحهما، وشعر أنه يطير في الفضاء، ويسبح وسط النجوم، وأن بوسعه أن يمد يديه إليها فيقطفها.

هكذا رأى نفسه هناك، وتذكر الدراويش الذين رآهم في مولد «سيدي الفولي» بمدينة «المنيا» وهم يدورون حول أنفسهم، ليرسموا هالات افتراضية، يعتقدون معها أنهم يسبحون في الفضاء الرحب، بعد أن تتسامى نفوسهم عن الصغائر، وترتفع عن الأرض التي تلتصق

بهـا أقدامهم، بينمـا تنطلق أدعية ومديـح إلهي من فمٍ نـدي، وعزف نايٍ مجروح شجي.

وعندما سأل أباه عنهم، نظر إليهم في امتنان وغبطة، وردَّ عليه:

- إنهم «الجلالية».

استغرب الاسم وعاود السؤال:

- مَن؟

ردَّ أبـوه بلهجةٍ حاسـمةٍ، كأنه يطلب من ابنه الـذي لا يكف عن طرح الأسئلة ألا يثقل رأسه بما لا يعلمه، أو لا يعرف عنه إلا النذر اليسير:

- أتباع مولانا «جلال الدين الرومي».

وقبل أن يسأل «سمحان» من جديد، واصل الأب:

- لا أعلـم عنـه شيئًا، لكن سـمعت رجلًا يقول هـذا العـام الماضي في المكان نفسه.

ليس المهم مَن هؤلاء، ولا مَن كبيرهم الذي علَّمهم الدوران من أجل أن تتسـاقط عن أرواحهم تباعًا كل الأثقال التي خلَّفها الانشغال بملذات الدنيـا وشـهواتها، فقد كان المهم في هذه اللحظة عند «سـمحان» هو أن يمتلك الشعور الذي يعيشه هؤلاء الدراويش.

وحيـن أغمـض عينيـه، وجعـل أنفاسـه تهدأ ليسـمع صـوت روحه، أحسَّ أنه هناك في قلب الأعالي البعيدة، يُنقِّل قدميه على أسـطح النجوم



اللامعة بحذرٍ حتى لا تنزلقا في لجاج الفضة الزاهية، فيسقط فوق الصخر الصوان، الذي يقف شامخًا خلف ظهره، هنا على الأرض.

وخطـر له فـي هذه اللحظـة ما فوق خيالـه وجنونه وجموحه ونفسـه التواقة دومًا إلى تجاوز كل شـيء، والبحث عن المسـتحيل. إنها الإجابة عن السؤال الكبير الذي انشغل به البشر منذ أن وجد الإنسان الأول نفسه وحيدًا يدب في خلاءٍ أصم، لا يعرف شيئًا عن الآتي، ونسي كل ما جرى له هناك وراء الحجب. سـؤال عريض بعرض السماوات والأرض، تولد منه تساؤلات لا نهاية لها، وتصير أشواكًا تلسع رؤوس الناس منذ البداية وإلى النهاية.

والإجابـة الكبرى، وكل الإجابـات الصغرى، تجري كريح هادرة في رأس «سمحان»، تخزه وتضنيه، ويظن أحيانًا، أو يتوهم، أنه قادر على القبض عليها، لكنه في كل مرة يمسـك الفراغ، ليـس لأنه فراغ ولا يوجد فيه ما يمكن الإمساك به في الحقيقة، إنما ما يريد أن يصل إليه، يحتاج إلى مجاهدة لم يبلغها بعد، ولا يملك إزاءها سـوى ظنون تغمره بأنه غير كل الذين يدبون ويثرثرون حوله.

يحملق في الفضاء، فيرتد إليه البصر حسيرًا، وتنطلق الحيرة والقلق، ولا يجـد الطمأنينـة إلا في الاستسـلام التـام لنداء الروح، حين يسـتيقظ وجدانه العامر بالخواطر الطيبة، ويعرف عقله أن له حدودًا، ليقول لنفسه في صمت:

– حين أشعر بالعطش أجري إلى القلة وأشرب حتى أرتوي، ولا أسأل نفسي عن سبب العطش، وكيف نقص الماء في جسمي، وجعلني عطشان. الروح تعطش أيضًا، ولا ترتوي إلا بالإيمان.

لكنه كان يعرف أن ما هو عليه يزيد وينقص، وفي لحظات النقصان يشتد الظمأ ويصير لظى، ولا يشفي الغليل شيء.

هو لا يشعر بالنقصان فقط، في هذه اللحظة التي يقف فيها فاردًا ذراعيه في وجه الدنيا بأسرها، بل بالضعف والهوان والحيرة وقلة الحيلة، وكأنه جناح بعوضة، لكن الرغبة العارمة المتجددة في أن يعرف كل شيء دفعة واحدة، ودفقة واحدة لم تفارقه حتى في أشد لحظات ضعفه، كان يريد أن يحتضن اليقين أو يحبسه في أعماق روحه إلى الأبد.

يـاااااه! كلم الله النبي موسى، وأرسل الملاك جبريل إلى رسله، وأمدهم بالمعجزات التي كانت تبهر الناس وتعظهم ليؤمنوا برسالة السماء ويكونوا على يقين بأن الله موجود. هم عدد قليل من البشر أُتيح لهم أن يطلعوا على السر الأعظم، ومَن عداهم، من هذه المليارات التي تتابعت آثار أقدامها فوق التراب على مدار آلاف السنين، مطلوب منهم أن يسعوا إلى اليقين بقلوبهم وعقولهم. سعي لا يستغنون عنه، منذ أن يطلقوا أسئلة الطفولة البريئة في آذان أهاليهم: «فين ربنا؟ وشكله إيه؟»، إلى أن تلتفَّ الساق بالساق، ويصبح البصر حديدًا، فينكشف الغطاء عن كل المستور، لكنهم يعجزون عن أن يصفوا لنا نحن مَن ننتظرهم في طابور الموت الطويل ما سمعوه ورأوه، ليستمر الغيب بجلاله الرهيب.



«لماذا تشغل رأسك بكل هذا؟»...

خاطب «سمحان» نفسه متهكمًا منها، فهو يدرك تمامًا أنه مجرد خفير آثار، يحرس الزمن القديم، أما الزمن الآتي فليس له، هكذا يرى في لحظات اليأس، لكن حين تسري في نفسه موجة من التفاؤل يرى غير ذلك، ويعتقد أن هناك شيئًا مختلفًا ينتظره، ما هو؟ لا يدري إلى الآن، وسرعان ما يغمره القنوط، خفير توقفت علاقته بالمدارس عند الابتدائية، نعم كان تلميذًا نجيبًا، إلا أن الرحلة التي تمنى أن تطول كما كان يحلم، تجمدت عند المريلة والقلم الرصاص والممحاة المتآكلة، وابتعدت الشقة بينه وبين الكراريس والكتب المدرسية، ولم يكن أمامه من سبيل لمعرفة أشياء خارج عالم ضيق لقرية يطوقها الجبل بذراعيه سوى كتب المكتبة تركها عمه، الذي وصل إلى المرحلة الثانوية، وكان على أبواب الجامعة، لكن يد الردى امتدت إليه وخطفته ذات ليلة عصيبة.

كان أبو «سمحان» كلما تذكر أخاه الراحل ابتلَّت عيناه بدموع ساخنة، وقال لابنه:

كان أخي يصغرني بعشرين سنة، ودلَّعه جدك، وعامله دومًا على أنه ابن مدارس، خُلق لهذه المهة فأعفاه من كدِّ الغيطان، وألقى الحمل على كتفي، فعاش دون أن تحرقه شمس الغيطان، ولا تلسع ظهره عصا.

وسأله «سمحان»:

أكنت تكرهه يا أبي؟

يهز رأسه نافيًا، ويقول:

- اعتبرته ابني «رشيد»، كان اسمًا على مسمى، وكان ابن موت.

ويصمت «سمحان» فيواصل الأب:

- كان قريبنا الموظف الكبير في هيئة الآثار متحمسًا له، وطالما كان يعطيه كتبًا من مكتبته، ويتوقع له مستقبلًا عظيمًا.

يتذكر «سمحان» ما جرى له ولمستقبله هو في التعليم، لكنه ينفض عن نفسه الكدر، ويعاود التساؤل:

- وكيف مات يا أبي؟

- طلع عصر يوم جمعة إلى الجبل وحده، وعاد قبل المغرب محمومًا يرتجف، لسانه ثقيل، وعيناه زائغتان، جئنا إليه بأطباء فاحتاروا في أمره، فلجأنا إلى الشيوخ والعرافين فتكلموا عن جن قد مسّه، أو شيء قد أفزعه، وحش كاسر أو ثعبان ضخم أو منظر مخيف لم يتحمله، وظل يخس وينحف، ويصفر جلده، حتى مات بعد شهر، ولم يقو جدك على فراقه، فقتله الحزن، ولحق به، ودُفن إلى جواره.

وترك «رشيد» بصمته وهو في العالم الآخر على نفس «سمحان»، فأراد أن يكمل طريقه في التعليم، ويكون مثل عمه، وحين خانته ظروفه، وجد السلوى في صندوق صغير مملوء بكتب الآثار والدين والتاريخ والأدب، تركه العم شاهدًا على جانب من سيرته.



كان «سمحان» يلتقط منه كتابًا تلو الآخر، ويدس رأسه بين صفحاته. في البداية كان لا يفهم كل المعاني الكامنة في السطور، لكن بمرور الوقت تهادت الأفكار وتيسرت، فتحصل على ما يتيه به على أقرانه، الذين تسربوا مثله من المدارس، وأولئك الذين لم يلتحقوا بها أصلًا، ووجد ما يعوض به النقص الذي يكوي ضلوعه حيال مَن كانوا معه على مقاعد الدراسة وواصلوا الطريق.

كان «سمحان» يمد يده في الصندوق، ليدس كتابًا في جيب جلبابه وهو ذاهب إلى الحقل، ويغافل أباه، ويجلس تحت شجرة الصفصاف، يلتقط أنفاسه المبهورة من الكدح بالفأس والمنجل، ويقرأ بضع صفحات حتى يشعر الأب بغيابه فيناديه. وحين لا يكون الأب هناك تسنح له الفرصة لقراءة أطول.

يأخذ معه كتابًا إلى قهوة «هاشم»، يترك أصحابه غارقين في لعب «الدومينو» و«الطاولة» و«الورق»، ويرسل عينيه إلى السطور. في البداية كان أكثرهم يسخرون منه، لكنهم اعتادوا مع الوقت ما هو عليه فتقبلوه، وكفوا عن المزاح الثقيل والتندر، لاسيما بعد أن أظهرت لهم الأيام أنه يكتسب حكمة تفوق عمره، ويهدي إليهم آراءً عميقة عن الحب، وأخرى عن الأمل، ويعلّق لهم على الأخبار التي يسكبها الراديو في آذانهم.

أحدهم قالها صريحة أمام جميع الصحاب ذات ليلة:

- اتركوه يقرأ هو ونعرف نحن منه دون أن نتعب أنفسنا.

كانـت القراءة تزيـده حزنًا، ليس لأن مَن يعرف تركبه الهموم، بل لأنه كان يزداد اغترابًا عن واقعه البسيط، وتتملكه أحيانًا لحظات سخط على حالـه التعيس، ويمقـت أباه الذي خطفه من المدرسـة بقـرارٍ جائرٍ، لكنه سـرعان ما يسـامحه، ويشـفق عليـه، ويلتمس له سـبعين عـذرًا، ويود لو ارتمى في حضنه وبكى حتى يغسل كل همومه.



# 15

في ليالي الحراسة انشغل باله بأمر آخر غير الكتب، القراءة غذَّت نصفه العلوي، العقل والوجدان، أما ما اسـتجد عليه فيخص نصفه الأسفل. لم يكن هذا بالضبـط، فهو أيضًـا يمر بعالم الـروح، وجيـب القلب وفيض الدموع ولوعة الانتظار والحيرة ووجع الشغف واللهفة والافتتان.

في تلك الليالي لم يسعده قدر، أو يناده أحد، ليدخل إلى مكان جديد وراء ما لا يسـتوعبه عقله، وأبعد مما يتصور خياله، بل جاء كل شـيءٍ إليه هينًا وهو مغمض العينين، غاطسًا في نوم عميق. وكان كلما استيقظ، ينظر إلى سـرواله المبتل بفيض رجولته، ويتساءل: «مَن هذه التي تأتيني طوعًا لكنها لا تمنحني جسدها كاملًا، وتتركني أتحرق من فرط الاشتهاء؟».

كان أحيانًـا يسـارع إلـى النوم حتى تأتيه سـريعًا، يسـتلقي على ظهره وفوق شـفتيه ابتسـامة عريضة، يسحب نفسًـا عميقًا، ويحاول أن يستعيد تفاصيـل وجههـا. كل ليلـة يتذكر جـزءًا منه، بـدأ من عينيهـا النجلاوين، وحولهما رسم ملامحها في هدوء حتى اكتملت في مخيلته.

في أحد الأحلام سألها في وله:

- ما اسمكِ؟

أشرق وجهها بابتسامة رائقة وقالت له:

- اسم على مسمى.
- فاتن.. فُتنة.. حسناء.. حُسنة؟
- اقتربت يا فتى.
- احتار دليلي.
- نجّاك الرب من كل حيرة.
- الرب جميل.
- واسمي «جميلة».

ومدَّت كفيها إلى وجهه، وأخذته بين أصابعها العشر، ثم مالت في هدوء، وقبلته في صمت. وبينما تسحب يديها، لمح وشمًا أزرق فوق الساعد وتحت الكف. كان صليبًا صغيرًا.

انتفض من نومه ليلتها حائرًا، فقد كانت الفتاة ترتدي غطاء رأس ينسدل على صدرها، واسمها الذي نطقت به مفتوح على كل الأديان، لكنه سرعان ما تذكر هيئة النساء المسيحيات في قريته، حيث ترتدين الزي نفسه الذي ترتديه المسلمات، جلباب طويل وطرحة فوق الرأس.

وانشغل بها في كل لياليه وأيامه التي مرت هادئة، ونسي بها تلك الليالي العصيبة التي كابد فيها الأهوال، وكاد شعره يشيب كاملًا.

لكن حياته التي مضت رتيبة على مدار أسابيع لم تكسرها الأحلام اللذيذة التي اعتادها، إنما كسرها هؤلاء الغرباء الذين جاءوا بغتة.



# 16

جاءت بعثة يابانية للبحث عن آثار تحت قدمي «سمحان» وحوله. داروا حول المكان، وفردوا خرائط مرسومة على ورق مقوى، ورطنوا بلسان لا يبين شيئًا للواقفين حولهم من المصريين، ثم طلبوا من مترجم معهم أن يأمر العمال بأن يشرعوا في الحفر.

كان العمال من أهالي «طهنا الجبل»، وهجموا مقبلين بصدور منشرحة على الرزق الذي أتاهم من دون حيلة منهم، ومترحمين على أجدادهم الفراعين، الذين تركوا لهم ما يمنحهم شيئًا يتقوتون منه، رغم مرور آلاف السنين، وكم هو شيء عظيم وخالد، إلى درجة أن يدفع مثل هؤلاء الرجال الصفر ذوي الوجوه المستديرة، والعيون الضيقة، ليقفوا هنا تحت الجبل، وفوق النهر، تتطاير شعورهم السوداء الناعمة في النسائم، وتغبر وجوههم بالتراب الذي تثيره الأزاميل والفؤوس والغرابيل.

كان العمال يقسمون أنفسهم إلى نصفين، نصف يحفر، ونصف يغربل الأكوام التي تركها الحفارون، فيتساقط التراب الناعم من بين الثقوب المتساوية، ويبقى حصى كبير، وكسارة فخار قديم. وقد تلمع في

عين الشـمس قطعة معدن فليتقطونها ويعطونها لواحد من أفراد البعثة، يضعها في صندوق ليفحصها فيما بعد.

اقترب «سـمحان» من البعثـة، ولازم عالم آثار مصري كان يصحبهم منذ مجيئهم قادمين من فندق يقيمون به في بندر «المنيا» وحتى ذهابهم، وأنصت إليه وهو يقول للناس الذين تحلقوا حوله، والشـمس تغمر رؤوسهم بنور العصر الشجي:

- التنقيب عن آثار الفراعين يرمي إلى اكتشاف أسلوب حياتهم، عاداتهم وتقاليدهم، أفراحهم وأحزانهم، ولذا لا بد من أن تبقى اللقى الأثرية في أماكنها؛ لأن تغيير موضعها هو هدم وتخريب لمعالم حضارة عظيمة، فكل قطعة لا يمكن أن تحيا بعيدًا عن الأرض التي نبتت فيها، وأنامل الفرد الذي وضعها كي تؤدي دورها في مكانها. إنها كالأسماك التي لا يمكن أن تعيش خارج المياه التي كانت فيها مجرد بيض دقيق تتقاذفه الأمواج. ولهذا علينا ألا نتعجل في عملية الحفر والتنقيب إلا إذا كان بوسعنا أن نفعل كل شيء بكفاءة وعناية.

يومها سأله «سمحان»:

- هل تبحثون عن كنزٍ هنا؟

ابتسم وقال:

- كل ما تركه أجدادكم كنوز ثمينة.



وذهب اليابانيون وتركوا الحلم في رؤوس أهالي «طهنا الجبل» فجاءوا بغرابيلهم، ينفضون أكوام التراب وكسور الفخار الراقدة من زمن بعيد، بحثًا عن قطع تائهة من الذهب أو جعارين شاردة من مقبرة أو قطع بردي هاربة من تابوت. كانوا يأتون مبكرًا، بمجرد أن ينضح النور من الغرابيل، ويفرش هالاته على بقايا المدينة الرومانية البائدة.

كان وجودهم هكذا يقلق «سمحان» ويصيبه بحيرة شديدة. هل يطردهم بعيدًا عن مكان هو مؤتمن عليه؟ أم يتركهم حتى لا يغضب مَن تربطه بهم قرابة وجيرة؟ لكن «فتحي» خفف عليه الألم حين أخبره بأن ما يفعلونه لن يؤدي إلى شيء، وأنه رأى هذا المشهد من قبل، وأن «عبد العاطي» قد حدَّثه أنه أيضًا رآه مرات، فكل جيل جديد لا يصدق روايات الذي سبقه عن أن المكان قد بات خاليًا من أي كنوز، فيأتي شباب ليختبروا الأمر، محاولين أن يثبتوا أنهم أفضل حظًا من آبائهم، كما حاول الآباء أن يبرهنوا على أنهم أفضل من الأجداد.

تابعهم «فتحي» وهم يغربلون في نشاطٍ ونهم، والطمع يطل من عيونهم، وقهقه حتى جعلهم يتركون غرابيلهم وينظرون إليه شزرًا، وقال لـ«سمحان»:

- كلما أنهت بعثة مهمتها جروا إلى هنا بفؤوسهم وأزاميلهم وغرابيلهم، يضربون بهمة، وتأكل الشمس أقفاءهم، ويعودون كما جاءوا، لا شيء معهم، فما قصدوه لم يعد موجودًا، بلعته الأرض أو نهبته أيدي اللصوص.

تابعه «سمحان» باهتمام، وقال:

- إيمان الإنسان بالحظ يعطيه أملًا في أن يحصل مصادفة على ما لم يمكّنه كفاحه من أن يبلغه. إنه الأمل والتمني اللذين لولاهما لمات الناس كمدًا.

طبق «فتحي» شفتيه المنفرجتين من آثار الضحكة الطويلة التي أطلقها قبل قليل، ثم فتحهما بهدوءٍ غير معهود له:

- ليس مصادفة، إنهم يجيئون كل سنين متقطعة وهم متعمدون البحث عن آثار منسية.

عاد «سمحان» إلى الابتسام:

- والمصادفة أن يجدوا شيئًا من هذا المنسي. مصادفة نسيه الأوائل، ومصادفة لقيه الأواخر.

في الحقيقة كان «سمحان» يخاطب نفسه، فهو يعيش في انتظار مصادفة، متى تأتي؟ لا يدري، لكنه لا يمل من الانتظار. انتظار ما حلم به وهو صغير من أنه سيصير يومًا رجلًا ذا شأن، أو على الأقل يكمل مسيرة عمه الذي ناداه الرحيل الأخير فلبى طائعًا.

في اللحظات التي كان يجنح به الخيال فيها، بينما عيناه مفتوحتان تحملقان في صور ومعالم مرسومة أمامه في الفراغ الممتد بلا نهاية، رأى نفسه أحيانًا فارسًا عظيمًا يتقدم الآلاف من المتعبين المطحونين، الذين تقرقر بطونهم من فرط الجوع، وترفرف سواعدهم رغبة في الطيران،



ويزحف بهم إلى قصر الحاكم، ليقول له ما قاله «عرابي»: «لسنا عبيد إحساناتكم»، ويطلب منه أن يرد المظالم، ويزيل القهر، ويعيد الحقوق المهضومة. وأحيانًا كان يتخيل أنه عالم كبير جالس في معمله، يضع اللمسات الأخيرة على اختراع سيغير مصير البشرية. وأحيانًا كان يرى نفسه واعظًا يقف فوق مكانٍ عالٍ، وأمامه يجلس الناس صفوفًا تتتابع حتى لا يُرى آخرها، وعيونهم جميعًا مربوطة بشفتيه، تلتقط كل ما يخرج منهما.

كيف يمكن أن تجتمع هذه الأشياء المختلفة؟ لم يعتنِ «سمحان» بالإجابة، فذهنه كان يشرد في كل صوب مطمئنًا إلى تميزه في كل العلوم، وقت أن كان يجلس في فصلٍ جدرانه تظلّل أجساد الساعين على أول طريق المعرفة. وحين وجد نفسه مخطوفًا بعيدًا عن الفصل الدراسي لم يسمح لأحد بأن يخطف منه حلمه بأن يصير في يومٍ من الأيام رجلًا عظيمًا.

لكن كيف يشق طريقه في هذه الغابة مترامية الأطراف؟ وكيف يمكن أن ينسى هذا الولد الذي وقف ذات عصر يصرخ وسط أكوام التراب: «إنه تمثال ذهب». وترك الجميع الفؤوس والأزاميل والغرابيل وجروا نحوه حاسدين، وبعضهم ربما يضمر به شرًّا. وفعلًا انبرى غلام من بين المتحلقين حوله، وخطف التمثال وطار كالريح، لكن الرجال قطعوا عليه الطريق، واستردوا ما خطفه، وأوسعوه ضربًا وركلًا وسحلًا، وحين أمسك أحدهم بالتمثال وقرّبه من عينيه، رماه في الأرض غاضبًا: «حجر أصفر».

كان ما جرى كاشفًا لـ«سمحان»، فالحجر الذي رماه الرجل لم يسقط علـى الأرض، إنمـا ارتطم بقلبه، بل بروحه، فهو لـم يدرك من قبل، على هذا النحو العميق، أن البشر يتصارعون بلا حدود على الثروة. كان يسمع أبـاه وهـو ينفخ متضجرًا مـن الناس الذيـن تحولوا إلى وحوش كاسرة، كلام يطير أمامه في الهواء، ولم يعتنِ يومًا بأن يتخيله متجسدًا، يملأ أذنيه وعينيه. لم يرَ أهل بلدته أمامه إلا أناسًا، كما ألفهم وعرفهم، ولم يعتقد أن ما يسـكن تحت جلودهم، أو يختبئ في أعماق أنفسهم، يمكن أن يجعل الواحد منهم نمرًا مفترسًا أو ضبعًا يلوك لحمًا كاد يصير جيفة نتنة.

اليـوم رأى، وبطريقـة مختلفة، كل مـا قاله أبوه، يمـلأ عينيه، ويجعل بدنه يقشـعر، ونفسه تشـمئز، وهو يغالب دموعًا طفرت في مقلتيه. وكان لديـه وقت كافٍ كي يفكر في كل ما يجـري تحته، فقد توالت الأيام عليه وهو يرى أولئك الذين يأتون مع مطلع الشـمس، ويذهبون حين غروبها وأياديهم قابضة على الريح، إلى أن جاءت ليلة لم تكن في حسـبانه أبدًا، هزته بعنف، وأسـقطت كثيرًا من الأفكار التي كانت قد بدأت تترسـخ في رأسه.

كان وقتهـا وحيـدًا في المكان، لا يسـمع سـوى نقيق الضفـادع يأتيه خافتًـا من عنـد النهر، وصفير الهواء بين أفلاق الجبل، حين داهمه مغص شـديد، سـكاكين بل مناشـير تمزق أمعـاءه، وتدفعه إلـى أن يهرول على فتـرات متقاربـة جدًا، إلى تبة رمـل واطئة، ليجلس فوقها، شـالحًا جلبابه وسـرواله، ويقضي حاجته، فلا يخرج من أحشـائه سـوى قطرات ساخنة عفنة، وهواء يقرفه رغم طلاقة الريح.



تملكه شعور بالضعف في هذه اللحظات، فأنفاس مكتومة، وفضلات البالية مـن الطعام المهضوم يضرب بعضه بعضًا فـي بطنه، لا تجعل كيانه مستقرًا. حـاول أن ينام فلم يقدر، جلس فأضنـاه الجلوس، تقرفص فزاد الألم، وقف فأحسَّ أن أحشاءه تنفلق إلى نصفين.

لكن فجأة نسـي كل الألم، وانخطف ذهنه إلى شـيءٍ جديد مختلف، بعد أن حلَّت فوق رأسه مصيبة كبرى، شرخت روحه وجسده، ونجا منها بأعجوبة، ورأى بنفسـه، بينما الدم يسقي الرمل والحصى وكسور الفخار القديم، أن الغابـة التـي انطلق منها الإنسـان الأول، حينمـا حطَّت قدماه على الأرض، لا تزال سـاكنة تحت جلـده، وأن أنامل يديه الرقيقة الطرية يمكن أن تتحـول في لحظة إلى مخالب تنهـش كل مَن يقف أمامها، وأن أصابع قدميه تصير أظلافًا خشـنة، وينبت في رأسـه قرنان طويلان متينان يطيح بهما كل مَن ينافسه على المال والنساء والجاه.

كان مسـتغرقًا فـي كل ما قرأه على صفحات الكراسـة، وما شـرد فيه ذهنه، متقلبًا بين بكاء وضحك، لحظة أن مزع الظلام صوت أجش:

- هات الشومة.

حين رفع هامته، ليسـتخلص وجه مَن يحدثه في طيات العتمة، وجد فوهتي بندقية مصوبتين نحو منتصف جبهته، يحملها سـاعدا رجل طويل كالنخلـة، ملفـوف في جلباب أسـود، وعلـى كتفيه كوفيـة عريضة تغطي وجهه، وجزءًا من ذقنه، وخلفه عشـرة رجال بسـطاء، ورجل يتلفت حوله

كنمر جائع، ويقف بعيدًا عنهم قليلًا، ينتظر ما سيفعلونه، وإلى جانبه آخر يبدو تائهًا في نفسه.

حين سألهم ملتاعًا:

- مَن أنتم؟

أجاب أحدهم بكل برود:

- حرامية آثار يا روح أمك.

وقفز إلى ذهنه فجأة ما سبق أن قرأه في الكراسة القديمة المتآكلة أطرافها:

«أجمل الآثار القديمة قد صانت نفسها من عوادي الزمن قرونًا عديدة، ليتسنى لنيافتكم اختيار ما تشاءون منها لتزيين مكاتبكم أو الحفظ في خزائن نفائسكم، أتشرف بإخطاركم أنني كي أوفر لها ما تستحق من الحماية والصيانة، فقد وزعت منشورًا في المشرق على كل القنصليات الفرنسية ينبه إلى ضرورة اتخاذ ما يلزم لتحقيق هذا الهدف النبيل». وتحت هذه العبارة مكتوب: «هذا نص رسالة سفير فرنسا بالقاهرة سنة 1638 إلى الكاردينال ريشيليو».

كانوا فعلًا خليطًا غريبًا من الناس، شيخ يرتدي عمامة وجلبابًا وقفطانًا، وآخر يرتدي بنطالًا وقميصًا مشجرًا وعلى رأسه قبعة سوداء، وثالث بدين يلهث في جلباب واسع، ومعهم عمال يحملون مقاطف



وصناديق وفؤوسًا وأزاميل، ووراء هؤلاء ثلاثة رجال يحملون بنادق آلية، واحد منهم طويل، واثنان ربعان يقفان عن يمينه ويساره.

قام الشيخ بتربيع المكان، محددًا بطرف إصبعه المساحة التي سيتم فيها الحفر، وقال:

- بعد أمتار سيبرق الذهب وتماثيل أغلى منه تعود إلى الزمن القديم، لكن الوصول إليها يحتاج إلى أن أقرأ أدعية وتعاويذ وآيات وكلامًا آخر من كتب لا يملكها غيري في منطقتنا هذه.

قال له الرجل البدين:

- ابدأ باسم الله يا مولانا.. على البركة.

لكن الشيخ رفع بوزه في وجه الرجل، وقال:

- الذي أوله شرط، آخره نور.

وفهم الرجل ما يقصده، فرد على الفور:

- نحن على اتفاقنا، ثلث لي، وثلث لك، والثلث الأخير للحفارين.

وأراد الرجل ذو القميص المشجر أن يشاركهما في الحديث بأي طريقة، ربما ليعزز نصيبه فيما سيعثرون عليه، فراح يستعرض معلوماته ويقول:

- كان الناس في الماضي يبيعون المومياوات بأسعار زهيدة، كل ثلاثة رؤوس محشوة بمادة التحنيط، تُباع بدرهم واحد، وهناك مَن كانوا

يغلون الجثث على النار حتى يتساقط لحمها القديم، ثم يمدون أيديهم ليقطفوا القطران الطافي على سطح الماء بعد أن يبرد، ويبيعونه للفرنجة مقابل الذهب.

ونظر إليه الرجل البدين بقرف، ونهره:

- نقطنا بسكاتك، قلت لنا هذا الكلام من قبل.

وشعر الرجل بالإهانة، فمد يده وحرك القبعة في توتر، ولاذ بالصمت، ولم يشأ البدين أن يتركه مهانًا أطول من هذا، فاقترب منه، وربت كتفه، وقال:

- هذا وقت العمل يا أستاذ، وأنت تعرف ما صرفته على هذه المهمة، وإن لم نجد الكنز سيُخرب بيتي، فاعذرني.

وجلس الشيخ وأطلق بخورًا، وبدأ في تلاوة «سورة يس» وبعض قصار سور القرآن، ثم دخل في قراءة تعاويذ بلهجة غريبة، وبعدها «مزامير داود»، ونظر إلى الرجل البدين، وقال:

- هات البقرة والديك.

وسحب أحدهم رسن بقرة بيضاء وجذبها حتى وصل بها إلى فوهة المقبرة، وقال:

- ها هي البقرة.

لكن الشيخ صعد إلى أعلى، وراح يدور حول البقرة، مقربًا الفانوس من جسمها، وهو يتفرس فيها بإمعان، ثم أعطى الفانوس لأحدهم، ونام



تحت بطنها، وطلب منه أن يمد النور، حتى اطمأن إلى أنها بيضاء لا شية فيها.

وشعر الرجل البدين بضيق، فنفخ وقال:

- ستظل تلف وتدور حتى يفضحنا نور الفجر.

فسرى غضب في وجه الشيخ وعينيه، ورد عليه:

- أنا أعرف ماذا أفعل، وأتبع خطى الكهنة الذين كانوا يتعاملون مع الثيران على أنها مقدسة، فإذا رأى الواحد منهم شعرة سوداء واحدة في جسد الثور اعتقد أنه مدنس، ولذا يفحص الثور واقفًا وراقدًا، ويجذب لسانه ليرى ما إذا كان طاهرًا أم لا، ويتأكد من أن ذيله قد نبت طبيعيًا، ثم يلف ورقة بردي حول قرنيه، يلصقها بصلصال لزج، ويختمها، فيصبح بوسع صاحب الثور أن يضحي به، أما مَن يضحي بثور غير مختوم فمصيره الموت.

وهزَّ الرجل البدين رأسه، وكاد يلكز الشيخ في كتفه، لكنه تماسك في اللحظة الأخيرة، وابتلع لسانه، وضغط على أضراسه، وقال:

- لكننا لن نضحي بشيء للآلهة، إنما سنسرق ما أوعزوا إلى الناس قبل آلاف السنين أن يدفنوه مع موتاهم، كما أن هذه بقرة وليست ثورًا.

خطف الشيخ الفانوس من الرجل الذي كان يمده نحو البقرة، ورد عليه:

- انشغل أنت بتجهيز الصناديق التي سنرفع فيها ما نجده، ولا تجادل فيما لا تعرف عنه شيئًا.

بعدها نظر إلى الحفارين وقال:

- قربوا الديك مني.

كان «سمحان» يقف وخلفه الرجل الطويل وقد دفس فوهة البندقية في ظهره، ويزوم في أذنه بين حين وآخر. لكن هذا لم يمنعه من أن يصرخ في وجوههم:

- لن تسرقوا شيئًا إلا على جثتي.

وهنا انبرى الرجل البدين، ولكزه في بطنه، وهو يقول ضاغطًا الحروف تحت أضراسه:

- سترى جثتك بنفسك.

وصرخ الشيخ:

- إن قتلتموه لن يُفتح لنا الكنز.

وتساءل البدين مغتاظًا:

- كيف نؤدبه إذن؟

ضحك الشيخ وسأل «سمحان»:

- هل ذبحت من قبل؟



هزَّ رأسه نافيًا، وهنا قال الشيخ على الفور:

- لنجعله يذبح الديك والبقرة.

عندها صرخ «سمحان» في وجوههم:

- مستحيل، اذبحوني قبل أن أفعل هذا.

وطوح البدين يده اليمنى، وتوجَّه إلى الشيخ قائلًا:

- هذا الخرِع قد يهتز أثناء الذبح ويطير الديك أو تفر البقرة نصف مذبوحة.

ثم التفت إلى أحد الرجلين الماسكين ببندقيتين آليتين، وأمره:

- تعالَ واذبح أنت.

تقدم الرجل سريعًا وأمسك رقبة الديك بيده اليسرى، والسكين باليمنى، وفي ثانية واحدة سرق روحه.

ورماه أمام الشيخ، فمد يديه في الدم، وأخذ منه قطرات وألقاه على الأرض، وراح يتلو تعاويذ بصوتٍ رفيعٍ كثغاء الماعز، وهو يطوح رأسه. وبعد أن انتهى التفت إلى الخلف وقال للرجل البدين:

- اذبحوا البقرة.

وقبل أن يتقدم الرجل الربعة مرة أخرى، ويسحب البقرة، التي كانت تقضم في سرعة من زرع «سمحان»، قال الرجل البدين:

- الآن سنعاقب هذا المغرور المجنون.

وطلب من الرجل الطويل أن يقود «سمحان» نحو البقرة، بعد أن ربطوا قدميها الخلفيتين والأماميتين بحبل متين، ودفعه الرجل بقوة فسقط إلى جانب جسد البقرة الهائل، وجرُّوا الحبل، وربطوا ساقيه في جذع البقرة، وكتفيه في كتفها، ورأسه في قرونها من الخلف، فصار جزءًا منها، وتركوها هي على حالها دقائق بينما أوسعوه هو ضربًا بدباشك البنادق، ثم طرحوها على جانبها فانطرح معها، هو يئن وهي تجار، وجاءوا بسكين حامٍ، وقال الرجل الربعة: «بسم الله .. الله أكبر»، وقطع عنقها من الأمام، فارتجت مكانها، وانهرس تحتها «سمحان»، وانفتحت نافورة الدم فأغرقت وجهه، وساحت في شعره، ولطخت ثيابه، وشم في الدم المسفوح رائحة زرعه، الباذنجان والفلفل والبصل.

خمدت البقرة مكانها بعد وقتٍ قليل، ففكوا قيود «سمحان» ورموه على الأرض فاقدًا الوعي. وحفن الشيخ، على قدر ما أمكنه، من الدم الذي سقى الرمل والحصى، ونثره في المكان، ثم التفت إلى العمال آمرًا:

- احفروا هنا، وبعد ثلاثة أمتار ستصلون إلى الدليل.. ثلاث طبقات بعضها فوق بعض، واحدة من الفحم المحفور، والثانية من البُدرة الحمراء، والثالثة هي عجينة الحكمة، التي أعدها الكهنة ووضعوها على أبواب المقبرة.

وتنحنح، وتلفت حوله، وواصل:



حين تصلون إلى السلالم، توقفوا عن الحفر، حتى لا تنقبوا الجدار فيهيج عليكم السيانيد القاتل.

وأرسل ناظريه في اتجاه رجل نحيف يقف إلى اليسار، وأمره:

جهز الشاش.

وبدأوا الحفر، وبعد ثلاث ساعات صرخ أحدهم:

وصلنا إلى باب المقبرة.

فجرى الشيخ نحوهم وهو يقول:

توقفوا عند هذا الحد.

ونزل إليهم، وهو يربط وجهه وأنفه بالشاش ومعه فانوس، ثم نظر إلى باب المقبرة، ووجده غير محكم، فانشغل رأسه بشكوك، لكن لم يكن أمامه طريق سوى مواصلة العمل، وأدار رأسه إلى الناحية الأخرى، وهو يعطس بشدة، ونادى:

هاتوا الخرقة المبلولة بالبنزين.

وألقوها إليه، فرماها في الحجرة، فلم تشتعل بها نار. نظر بطرف عينه إلى جانب المقبرة بعد أن أرسل إليها شعاع نور الفانوس، فسرت موجة من الكآبة في نفسه. التفت إلى الخلف، وقال في صوت مفعم بالغيظ:

الإشارات التي وجدناها محفورة ومنقورة على جدران الجبل تدل على أن في هذا المكان مقبرة، وقد رأيت بنفسك صورًا لعقارب

وأكباش ورأس غزال وقرد وقضيب رجل وفرج امرأة، وحكيت له عن الرؤية المنامية التي رأيتها، وهذه ليست المرة الأولى التي نخرج فيها للبحث عن كنوز معتمدين على مثل هذه الإشارات، ونجحت معنا في المرتين السابقتين.

- ما الذي جرى هذه المرة؟

- يبدو أن هناك مَن وصل إلى المقبرة قبلنا، ورفع ما فيها من صناديق ذهب وجعارين وتماثيل صغيرة كانت مدفونة.

ضرب الرجل البدين كفًّا بكفٍّ، وصرخ متألمًا، ورَجَّ المكان:

- بيتي خُرب.

ووجد «سمحان» مكومًا على الأرض أمامه، والدم يلطخ وجهه وعنقه ورأسه، فبصق عليه، وركله بقسوةٍ، حتى سقط على جنبه، ثم صرخ في وجوه الرجال الواقفين في الخلف ملتحفين بالصمت:

- اسحبوا البقرة المذبوحة إلى العربة، وهاتوا الديك.. لا تتركوا وراءكم أثرًا.

وفعلوا ما أمرهم به.

وأشار إلى الرجل ذي العمامة والآخر ذي القبعة، فمشيا خلفه، نحو المدق، وابتلعتهم العتمة الراقدة عند المقبرة، وسلكوا فجًّا عميقًا بين الصخور، ثم هبطوا من الناحية الأخرى نحو طريق الأوتوستراد، حيث



ركبوا عربة وسيارة، وأضاءت فوانيسهما، ثم مرقتا نحو الجنوب، وغابتا في انحناء الطريق فوق النهر وتحت الجبل.

رفع هامته ورأى السيارتين وهما تغوصان في العتمة، لكن طاقته على التحمل خانته فسقط مكانه مرة ثانية، منكمشًا في نفسه، وتكور كجنين في بطن أمه. وظل على حالته هذه حتى أطلت الشمس من خلف الجبل، وملأت الدنيا نورًا، وجعلت «فتحي» يأتي إلى مكان عمله، كي يجد صاحبه مكومًا وهو غارق في نومٍ ثقيل، مثلما وجده في ليالٍ سابقة.

جاء من الخلف، ومدَّ يده وغمزه في كتفه، لكن «سمحان» لم يتحرك، وحين هزه قليلًا لينبهه وقعت عيناه على دم متجلط فوق جبينه، وبين جفنيه، وأسفل وجهه المدموغ بالتراب، وهناك خطوط من الجلد المتقرح حول عنقه، وجلبابه ممزق من أعلى. مرر بصره عليه كله، فوجد أيضًا سحجات في قدميه.

حرّكه يمنة ويسرة، لكنه لم يفتح عينيه، بل لم يُبدِ أي تجاوب يُشعر «فتحي» بالاطمئنان، فجرى نحو البئر، واصطدمت قدماه بسيقان أشجار الباذنجان، وهرست أشجار الطماطم الوديعة، ووصل إلى الدلو وهو يلهث بشدة، خطفه، ورماه في البئر حتى امتلأ بماءٍ باردٍ، وعاد إلى «سمحان»، فوجده ملقًى مكانه، رفع الدلو، وترك الماء يخر عليه، وهو يزيد من دفقاته حتى شهق، وفتح عينيه.

حين أفاق تمامًا، ابتسم لـ «فتحي»، وقال:

- طالما أتعبتك معي.

قهقه، حتى هزَّ طبلتي أذني «سمحان»، ثم توقف فجأة، وتنهد عميقًا، وقال:

- اوعي تقول إنك كنت في معركة ضد التتار؟!

تعجب «سمحان» من كلامه، وسأله:

- أتعرف التتار يا عم «فتحي»؟

تاه قليلًا، وعاد:

- كان «عبد العاطي» يحكي لي عنهم ويقول إنهم أشرس مَن حارب على وجه الأرض.

حاول «سمحان» أن ينهض لكن جسده خانه فترنح مكانه متوجعًا، ومد «فتحي» ذراعيه إليه، وساعده حتى اعتدل، فبان الجزء المخبوء من جلبابه ملطخًا بدماء جفت في الرمل الزاحف عليها وحرارة الشمس التي كانت تتقدم نحو الضحى.

لم تكن هيئة «سمحان» في عيني «فتحي» هي تلك التي رآه عليها من قبل، فهذه المرة هناك دم مسفوح قد تقدد، وجروح صغيرة مفتوحة، وسحجات من آثار سحل، وقطع لحم زرقاء متورمة، وغياب عميق عن الوعي.

ملأ «فتحي» عينيه من جسد الشاب الراقد أمامه، وسأله:



- ما الذي جرى لك؟

انفتح كسيلٍ عرم، وحكى له كل شيءٍ بتفاصيل دقيقة. كان يثرثر بلا انقطاع على غير عادته، وكأنه فرح بنجاته، أو يمحو بالكلام آثار الوحشة والخوف، أو يبحث عند مَن ينصت إليه بإمعان عن تفسير لما جرى.

كان «فتحي» يسمع وقلبه يدق بعنف، فمنذ أن جاء إلى هذا المكان لم يمر بهذه التجربة، وإن كان قد تلقى نصيحة من «عبد العاطي» ذات يوم بألا يتصدى لأولاد الليل، قطاع الطرق، ولصوص الآثار. وحين أبدى له يومها اندهاشه الشديد من نصيحة تجعله يخون أكل عيشه، قال له:

- كل المقابر هنا نُهبت منذ زمن بعيد، ولن يجد مَن يبحث عن الكنوز شيئًا يذكر، فاتركهم يتعبون أنفسهم جريًا وراء أوهام لا تنتهي.

وحين سأله عن قطاع الطرق والمطاريد، أوصاه بأن يجعل علب الشاي والسكر عامرة دومًا، فهم يهبطون من الجبل وراء أهداف لا علاقة لها بالآثار وخفرائها.

وطيلة السنين التي قضاها «فتحي» هنا، جاءته على فترات متقطعة زمر من المطاريد ولصوص المواشي، لكنه لم يصادف ولا ليلة واحدة لصوص الآثار. أشفق على «سمحان» وهو يقول بصوت واهن:

- ربما أرادوا قتلي، أو قتل رجولتي.

كان يشعر بوهن شديد وهو يتكلم، وكأن يدًا امتدت وسحبت كل العافية من جسده، فبدا وكأنه ليمونة بعد عصرها، أو عود قصب مصته

أسنان وقواطع وأضراس فتية. مسح المكان ببصره، فوجد غشاوة على كل شيء، الجبل والنهر والزرع وبيوت القرية والمقبرة الملقاة على اليمين.

لكن «فتحي»، الذي مرت عشر سنوات على شغله هنا، كان من الصعب عليه أن يهضم الأمر بسهولة، وهكذا فعل مع ما سمعه من «عبد العاطي» الذي كانت له طريقة مشوقة في حكي ما جرى له في هذا المكان، بعد أن كتمه سنوات طويلة، لكنه يحكيه على أنه حواديت مسلية، ولا يتباهى بشيء.

كان يتوه قليلًا، فيحبس مَن يسمعه أنفاسه، ويرهف أذنيه ليعرف بقية الحكاية، بينما الليل يسري أو النهار يجري. سيان في الزمنين لا يتغير «عبد العاطي» وهو يضيق عينيه ويزم شفتيه ويسرد بشغفٍ ما يراه ويسمعه، بينما «فتحي» يقول في سره: «هذا رجل مجنون».

على المنوال ذاته كان «فتحي» يعتقد أن ما يذكره له «سمحان» عما وقع له في الليالي الفائتة هي مجرد أحلام ليل، وهلاوس، وأشياء من ظلال الفراعين الأقدمين. هو نفسه طالما سرحت روحه وهو نائم، وجابت هذا المكان العتيد، ورأت طرفًا من العالم القديم، ناس غير الناس، وبيوت غير البيوت، وأزياء غير الأزياء، والجبل والنهر لم يكونا على هيئتهما الآن، كان النهر أعرض والجبل أطول، وكانت الريح طليقة لا يعوقها شيء.



وكان «فتحي» وهو يستمع إلى «سمحان» يستدعي مناماته ويقيس ما يسمعه عليها، فيشفق على الفتى، الذي يعتقد أنه يسافر في الأزمنة، بين انتصاف الليل، وانبلاج النهار.

اليوم فقط رأى «فتحي» أمامه أدلة مادية قاطعة على ما يحكي عنه الفتى، فقال له في شبه اعتذار:

- حكيت لي من قبل تخيلات وأوهام فارغة، أما اليوم فأنت تقول الحقيقة.

سرت دفقة من حزن في وجه «سمحان» ورد في هدوء:

- في كل الأحوال لم أقل سوى الحقيقة.

# 17

ما جرى في الليلة الأخيرة كان مرعبًا ومروعًا، غابت عنه الدهشة والألق والمتعة، وضاعت أي روعة يمكن أن تكون مطمورة خلف قشرة من الحذر والخوف، تلك الروعة التي عايشها في الليالي الفائتة بمشاهدها الغريبة، حين كانت تذوب القشور لتبقى الأشياء المدهشة، متجسدة في صور يستدعيها ذهن «سمحان» في لحظات الاسترخاء، وتتوالى أمام بصره الشارد، بل ينتابه أحيانًا حنين إليها.

ذلك الحنين الذي تملكه لحظة أن فتح النافذة فلم يرَ الجبل مكانه، رغم أنه حين أغلق النافذة في مساء الليلة الفائتة كان الصخر العملاق يبدو قطعًا هائلة من الظلام تملأ عينيه، وتسد المدى والريح أمام بيت «سمحان» فينكتم الهواء، ويشتد الحر، ويضيق التنفس، فتنقبض الصدور وتنبسط في عنف باحثة عن أي دفقة نسيم، بلا جدوى.

كل المحطات الغريبة التي مرَّ بها عند آثار «طهنا الجبل» تدفقت كسيل هادر في رأسه وهو يتقدم إلى الأمام، وظهره مقوس وعيناه كليلتان، نحو تلك الحديقة الغنَّاء التي لاحت في الأفق، بعيدًا عن مكان المغارة العميقة التي كانت رابية خضراء ترفرف عليها، واختفت باختفاء الجبل.



لكن ما وقع في المرة الأخيرة كان مفزعًا ومقززًا، ولم يسعَ إلى تذكره، بل حاول بكل ما أوتي من طاقة أن يطرده إلى غير رجعة، إلا أنه يطل في كل مرة ليعيش في كابوس أسود. كان يقفز من النوم مذعورًا، يتصبب عرقًا، ويطالع النافذة التي تركها أبوه مفتوحة حتى يغمره أي نور يلمحه، حين تفجعه الكوابيس.

كانت الأم تجري إلى فرشته كلما سمعت صراخه، وإن جاء من الشغل ونام قليلًا، ترابط هي أمام باب الغرفة، وهي تتمتم في سرها، تدعو الله أن يُذهب عنه هذه الغمة. وكان الأب يترك بهائمه وفأسه في الحقل، ويجري نحو البيت ليطمئن عليه. يدخل من الباب مكسورًا، ويسأل الأم بعينيه، فترفع وجهها إليه وتقول:

- لم يفزع إلى الآن غير مرتين.

يقف عند باب البيت، يضع يده على حلق الباب، ويمد بوزه إلى الداخل، غارقًا في حيرته ولون وجهه الأصفر. واستمر هكذا أيامًا، حتى قالت له زوجته:

- افعل شيئًا غير وقوفك على الباب.

ونظر إليها طويلًا ليفهم ما تقصده، فواصلت:

- اذهب إلى قريبك وانقذ ابنك.

وذهب الأب إلى قريبهم، موظف الآثار الكبير، وفي يده جلباب «سمحان» وعليه دم غير كذب، ووضعه أمامه على المكتب، بعد أن أخرجه من كيس بلاستيك سميك، وقال في استعطاف:

- حاولوا أن يقتلوا ابني.

فنظر الرجل إلى الجلباب المتسخ بقرف ووجل واستغراب، وسأله:

- عمَّن تتحدث؟

- لصوص الآثار.

وحكى له كل شيء، كما سمعه من «سمحان»، لكن الرجل رد في صوت محايد:

- لصوص الآثار في كل مكان.

وعاد الرجل يستعطفه:

- ليس لنا غيرك، وقد كنت تساند المرحوم «رشيد»، فاعتبر «سمحان» مكانه.

زفر الرجل في أسى وقال:

- هذا غير ذاك.

لكن «أبو سمحان» قال بصوت مخنوق:

- «سمحان» كان تلميذًا شاطرًا، وأنا الذي خيبته بجهلي.



وأطرق الرجل مفكرًا، ورق لحال «أبو سمحان» الذي تساقطت دموعه على خديه، فقام من مكانه، ومشى نحوه في هدوء، وربت كتفه بوداعة لم يعهدها منه قبل هذا. كان الرجل في هذه اللحظة قد شرد في زمن قديم، حين أتى إلى «جبل الطير» مع والده، عامل السكة الحديد، ولعب مع «أبو سمحان» وقت أن كان طفلًا نابهًا، أخذه إلى الجبل، وصعداه سويًا، حتى شاهدا آخر مدى للزرع الممتد غرب النهر، ثم هبطا ولعبا «السيجة» و«الحجلة» مع الأولاد، حتى غابت الشمس فوق الرأس الصخري للأقرع، فعادا إلى المنزل.

ومن حسن حظهما أنها كانت ليلة قمرية فوجدا وقتًا إضافيًا للعب حتى تعبا وسمعا نداء الجدة وهي تدعوهما إلى طعام العشاء، فهرعا راجعين.

كانت مرة واحدة لكن البيك لا ينساها أبدًا، وكثيرًا ما يجلس وحيدًا ليستعيدها، ويستمتع بجمالها الغريب، ويشعر بامتنان شديد إزاء «أبو سمحان».

في اليوم التالي صدر قرار بنقل «سمحان عبد الباطن» خفيرًا على «دير العذراء» بجبل الطير، فودع المكان ذات صباح، جلس في وسط زرعه وسقاه من دموعه، وتفرّس طويلًا في الحتحورات الجميلات، ورمى حجرًا نحو المدينة البائدة، وخرج راكبًا حماره، ولم يأخذ معه شيئًا سوى الكراسة القديمة المتآكلة.

# القسم الثاني

# 18

تعلو التراتيم بألحان عذبة شجية، وتختلط بالمدائح الدينية، التي تصل واهنة إلى آذان الغلابة الجالسين بالقرب من حواف الجبل، يلتهمون من لحم الذبائح، ومرقها السابح في صحون من الألمونيوم والبلاستيك الرخيص، وأرزهم يتصاعد منه بخار، ليملأ أنوف الآكلين، الذين يسترخون في تلذذهم وهم يراقبون مَن يصعدون على مهل السلم الحجري الطويل المؤدي إلى الكنيسة المحفورة في قلب جبل الكف.

مائة وستة وستون درجة من صخر صوان، أبلتها أقدام حافية وأحذية ذات نعالٍ خشنة على مدار قرون طويلة، لأناس إما أن ألقت بهم المراكب على الشاطئ الشرقي للنيل، أو أتوا إلى هنا سيرًا على الأقدام من القرى الموزعة ذات اليمين وذات اليسار، مسلمون ومسيحيون، ليوفوا نذرًا لـ«أم المخلص»، ويبقوا إلى جوارها أسبوعًا كاملًا، حتى «عيد الصعود»، متجولين في شوارع تحمل أسماء القديسين، أو نائمين إلى جانب الكنيسة القديمة.

هذا هو أول مشهد يتذكره «سمحان» حين كان ولدًا صغيرًا معلقًا في يد أبيه، وهو ذاهب إلى الليلة الكبيرة من «مولد العذراء»، يدق الأرض

بعصاه الغليظة، بعد أن يرتدي أفضل ثياب لديه. كان الأب يقصد الفرجة على الغوازي اللائي يرقصن أمام مطرب شعبي يرتجل أزجالًا وأشعارًا حسب طلب رجال، بعضهم سكارى، يمسكون في أطراف أصابعهم نقودًا، ويدسونها في يده أو في صدر الغازية التي تأكل العيون قطع جسدها المهتزة في ولهٍ ودلال.

عند أول المولد يختلطون بأناس يأتون من كل مكان، وفي أيديهم نذورهم، ذبائح وحلي ونقود، يرمون بعضها في ماجور الفخار الذي استخدمته العائلة المقدسة في عجن الدقيق لصنع الخبز، آملين في شفاء العلل وزيادة الرزق وذهاب الكدر.

كانوا يصدحون بالغناء:

«يا عتبة العدرا يا محلا عتبها

افتحوا للزايرة تنصر ولدها

يا عتبة العدرا يا محلا هواها»

ويرد فوج آخر قادم من الناحية الأخرى بغناءٍ جديد:

«على دير العدرا وديني

زاد فرحي والرب داعيني

يا شفيعة أنا إنسان

أمدح فيكي بصوت رنان

تدعيني أجيلك فرحان»



كان «سمحان» يفلت من يد أبيه، ويتركه تائهًا في جسد الغازية، ويجري ليتابع القساوسة المنهمكين في تعميد الأطفال، الذكر بعد أربعين يومًا من ولادته، والأنثى بعد ثمانين. يجردونهم من ملابسهم، ويغطسونهم في مياه مقدسة، قرأوا عليها تعاويذ وترانيم، وصبوا فيها زيتًا مباركًا. وخلفهم تقف الأمهات رافعات أيديهن ليُقسمن على إنهن سيربين الصغار على تعاليم المسيح.

أحيانًا كان يدس جسده بين نسوة عاقرات يهرولن نحو «الشق» الصخري الذي اختبأت فيه العائلة المقدسة، ويدخلن فيه بكل أجسادهن، ويظللن ماكثات وقتًا كافيًا، وحين يخرجن يمسحن براحات الأيدي على الصور والهيكل والمعمودية الأثرية، حتى تحل البركة بأرحامهن، وينجبن البنين والبنات. كانت دموعهن الساخنة تتساقط على كتف «سمحان» وفوق رأسه، وبعضهن كن يربتن كتفه، ويدسسن في يده حلوى، وكل منهن ترفع يديها في ضراعة إلى الله: «يا رب ارزقني ولد زيه».

كان يحلو له أن يقف مشدوهًا أمام فتى نحيل، يهز جسده في فرح، منتظرًا لزبائنه من الأطفال والكبار، رجالًا ونساءً، الذين يقبلون عليه لرسم الصلبان وصور القديسين وأسمائهم على سواعدهم بحروف عربية أو أجنبية. يرش من زجاجة بنجًا موضعيًا، ويلتقط من جانبه جهازًا يضخ على الجلد حبرًا مخلوطًا بدواءٍ خفيفٍ ومضاد حيوي يمنع التقرح، يمد أذنه ليلتقط من فم الزبون ما يريد كتابته، ثم يبدأ فورًا في تنفيذ طلبه.

بعدهـا يمر بصفوف مـن باعة الحمص والفول السـوداني والخروب والبلح والحلوى، وألعاب الأطفال مختلفة الأشكال والألوان، شخاليل وطراطير ومزامير وفوانيس، يمعن النظر في الناس وهم مقبلون على البيع والشراء بنفوس راضية، ويرى الصغار الذين يجرون نحو المراجيح وألعاب البخت والأراجوز وصندوق الدنيا والنيشان ولعبة المدفع، لكنه لا يلبث أن يترك كل هذا ويجري نحو المكان الذي اعتاد عليه، هناك عند الكنيسة.

يقف على طرف حشد هائل من الناس، ويشاركهم في اهتمام وهم يتابعون قسًّا يغرس عينيه في النجوم، ويقول:

– انظروا إلى السماء جيدًا، إنها هناك، ترسل إليكم المحبة والسلام.

فترتفع الهامات في الأفق البعيد، ويمد البعض أيديهم إلى أعلى، وهم يرتلون مزامير وأدعية، وبعضهم يصيح في فرح.

يرفع القس إصبعه في خط مستقيم، ويشير إلى جوف الفضاء ويقول:

– ها هي المطوبة، تظهر لنا نورًا أبيض، سرعان ما يصير حمامة بيضاء، تطير فوق الكنيسة.

ثم يتلو في خشوع:

«رأتها البنات فطوبنها، الملكات والسراري فمدحنها»

«تعظم نفسي الرب،



وتبتهج روحي بالله مخلصي،

لأنه نظر إلى تواضع أمته،

فها منذ الآن تطوبني جميع الأجيال،

لأن القدير قد صنع بي العظائم،

واسمه قدوس،

ورحمته إلى أجيالٍ وأجيالٍ للذين يتقون».

«يا مريم العذراء الطوباوية، أم الرحمة و الرأفة، آتي إليكم مفعمًا بمشاعر الثقة والحب، أنا الخاطئ غير المستحق. أتوسل إليك يا مَن وقفت قرب ابنك الحبيب المسمَّر على الصليب، تكرَّمي وابقي بقربي، أنا الخاطئ التعيس، وقرب جميع الكهنة الذين سيقرِّبون ذبيحة القداس اليوم في الكنيسة جميعًا. ساعديني بمعونتك الكريمة أن أقدِّم ذبيحة استحقاق مرضية في عيني الله القدير، الثالوث غير المنفصل. آمين».

«أيتها العذراء الطوباوية،

صلِّي إلى الله من أجلنا دومًا،

ليغفر لنا و يمنحنا النعم،

صلِّي إلى الله من أجلنا دومًا،

ليمنحنا السلام في هذه الحياة،

صلِّي إلى الله من أجلنا دومًا،

ليكافئنا بالجنة عند موتنا.

آمين».

بعض مَن يحفظون هذا أو طرفًا منه يرددون معه، وهناك مَن يخطفون آخر الحروف ويلوون ألسنتهم لتصدر نغمًا متماشيًا مع الكلمات، لكن جميعهم متحدون في النظر إلى أعلى تمامًا باتجاه إصبع القس، الذي كان قد فرد راحة يده فأصبح ساعده كله وكفه في اتجاه السماء الصافية.

يدعك البعض عيونهم، ويشخصونها من جديد، ثم يهزون رؤوسهم، بينما يقتحم آذانهم قول الأب «أبنوب»:

– لن يراها إلا الأتقياء والمخلصون منكم.

فيخفضون رؤوسهم متحسرين، ويتفرس بعضهم في ملامح البعض، وعيونهم تسكب لومًا، وبعضهم يتنهد متوجعًا، ويكتم كل شيء في صدره صامتًا، وهناك مَن يتمتم بحروف لا يسمعها غيره.

استعاد «سمحان» هذه المشاهد التي رآها منذ سنين، واختزنها محتفيًا بها، تأتيه أحيانًا فتبرق في رأسه، لتشرد عيناه في صورة ترتسم في الهواء، وهو جالس عند سفح الجبل، أو فوق واحدة من صخوره العالية. لذا شعر بسعادة غامرة لأن أول يوم عمل له في حراسة الدير هو الليلة الكبيرة في مولد العذراء.



اليوم هو ذاهب إلى المكان نفسه، لكن لمهمة أخرى، غير الفرجة والتأمل. ذاهب بعد انقطاع دام سنين، لا يدري ما الذي جرى فيها هناك. لا شك أنه سيجد الأحجار المنقوشة، والكف المطبوعة، التي ظلت على حالها أكثر من تسعة عشر قرنًا، لكن هل سيكون الناس والطقوس على حالهم؟

ربما لم يكن قد اهتدى «سمحان» وقت أن كان يركب حماره وينغزه بالرمح نحو «جبل الطير» إلى ذلك الذي فهمه فيما بعد من أن الأحجار الصغيرة تعيش أطول من البشر الذين يدوسون فوقها، بل إن الناس يحرصون كثيرًا على بقاء قطعة متآكلة من صخر ترتبط لديهم بشيء عزيز على أنفسهم، روحي أو نفسي، أكثر من حرصهم على حياة ذويهم أو جيرانهم أو مَن يتقاسمون معهم اللقمة والابتسامة والدموع الساخنة.

# 19

كان النور يغمر الجبل والنهر حين خرج الحمار النحيل من المدق الذي يربط البيوت بطريق الأسفلت، انعطف يسارًا، كعادته، باتجاه «طهنا الجبل»، لكن «سمحان» ضربه بلطفٍ على عنقه ليستدير نحو اليمين، حيث «دير العذراء».

لا يعرف وهو يمد يده ليدفع الحمار إلى الوجهة التي يقصدها ما الذي جاء بهذا الولد «برهان» مرة جديدة أمام عينيه. كان يمشي ممسكًا يد أبيه، وهو ينظر في البعيد، هل كانت عيناه تحطان فوق المياه الجارية في هدوء؟ أم كانتا تقبلان النسائم السارية عند السفح الصخري الممتد في صمود وعزة؟ أم كانتا تتبعان شعاع الصبح الذي يرسو فوق هامات الزرع، ثم يرتفع شامخًا، حتى يلثم خد الشمس التي تطل حانية لترعى كل السائرين تحتها؟

كان الأب يدق قدميه وعصاه التي يتوكأ عليها في الأرض فتحدث نقراتٍ قوية على الأسفلت الخشن، أما الولد فكان خفيفًا ومتحكمًا في ساقيه إلى درجة أنك لا تسمع دبيبه الواهن، وهو معلق في يد أبيه، تاركًا كفه في امتنان ورضا للأصابع الطويلة المعروقة.



كانا يتجهان نحو «جبل الطير» فوجدها «سمحان» فرصة سانحة كي يتعرف على هذا الولد الذي أرسل إليه ألقه من قبل فخطف به رأسه. نظرة واحدة اخترقت جمجمة «سمحان» فانشغل به، ورآه ثلاث مرات على الأقل في أحلام الليل.

«هل أنت ذاهب إلى المولد؟»، سأله «سمحان» بعد أن تمهل الحمار بموازاة الرجل، الذي خلع عينيه من الأسفلت، وأجاب: «نعم». لحظتها ترجل «سمحان»، وقال له:

- اركب يا عم.

لكن الرجل الذي امتلأ وجهه دهشة، ردَّ بصوت حاول أن يكون قويًّا وحاسمًا وفيه اعتداد:

- لا أزال بحيلي.. أشكرك يا بني.

سرى انقباض خفيف في نفس «سمحان» فطرده، وحاول أن يخفف وطأة الكلام على الرجل:

- أنت مثل أبي.

بدا الرجل مصرًّا على موقفه:

- تعودت على المشي بعد أن بعت جملي، وأخاف إن ركبت حمارك أن تنكسر عادتي، فأنتظر مساعدة ما لا أملكه.

«هو حكيم إذن»، حدَّث «سمحان» نفسه، ثم قال للرجل:

- أدام الله عليك الصحة يا عم.

امتطى الحمار مرة أخرى. كان الولد يتابع الحوار صامتًا، وأشار إلى «سمحان» أن يقفز خلفه، نظر إلى أبيه فأومأ إليه موافقًا، وغرس قدميه في الأرض، ثـم انتفض طائرًا، حتى استقر على البردعة، ومدَّ ذراعيه تحت إبطي «سمحان»، ووضع كفيه على صدره، وكأنه استبدله بيد أبيه التي كانت قابضة عليه قبل قليل.

تأثر الحمار قليلًا بالثقل الذي زاد عليه، فتباطأ، وطال الطريق، وانفتح باب الحكايات، وقال الرجل دون أن يدعوه أحد للكلام:

- كان عندي جمل ضخم، وكنت أركبه، ويسير بي أيامًا في الجبل، ليس معي سوى زوادة بها طعام وقلل ماء، وأغنيات في رأسي أغنيها له حتى يصبر على الرحلة والحمولة.

رسم بكلامه صورة مدهشة لـ «سمحان» فولَّد في نفسه شغفًا، دفعه إلى السؤال:

- ولمَ كانت الرحلة؟

- بحثًا عن الملح.

- الملح؟!

- الملح الجبلي لا يعلو عليه ملح، كنت أجيء بصخوره الناعمة، وأكسرها بالمرزبة والشاكوش، ويأتي مَن يأخذون طحينها، وقطعها الصغيرة، ليحملوها على حميرهم ويدورون بها في البلاد، يبيعونها،



ويعودون ليدفعوا لي ثمن ما أخذوه، ويحتفظون لأنفسهم بما يفتحون به بيوتهم.

يرفع بصره، فيعانق سفح الجبل، وخيط الزرع باهت الخضار، الممتد على قدر ما يسمح به الماء والصخر، ثـم ينتهد، ويصمت قليلًا، ويواصل:

- دوري مثل الضباع التي تنتظر ما يبقى من جسد الفريسة بعد أن تشبع الأسود، فما أذهب إليها هي مناجم مهجورة، سبقني إليها رجال شداد، معهم عمال كثيرون، ينقبون عن الملح، ويستخرجونه، ويهشمون صخوره الضخمة، وتحملها قوافل الجمال عائدة، ويتركون خلفهم صخور ملح ملقاة هنا أو هناك، وبعض أكتاف من جبله الحادق، فأنبش فيها، وألملم على قدر ما يستطيع الجمل أن يحمل.

يمد يده ويسند «برهان» الذي كان يميل قليلًا في اتجاه النهر، وهو يتابع مركبًا شراعيًّا يجلس على مقدمته حفنة من رجال يتناولون طعام الإفطار ويتضاحكون بصدور منشرحة، وينتبه الولد إلى لمسة أبيه فيعتدل، ويعطيه فرصة ليكمل كلامه:

- كبرت، ولم أعد قادرًا على هذه الرحلات، فبعت الجمل قبل أسبوع، واكتفيت ببعض الأغنام والماعز التي اشتريتها طيلة السنين الفائتة من كل قرش ادخرته من بيع الملح، كي أجد ما أكمل به مشواري مع ولدي.

لكن «سمحان» رد عليه بفتور:

- كان يمكن لأحد رجالك أن يواصل جلب الملح من بطن الجبل.

ابتسم الرجل، وقال:

- لم يكن أي منهم يعرف الطريق، كما أنهم كانوا باعة سريحة، لا أحد منهم لديه قلب ميت، يجعله قادرًا على مواجهة أهوال الجبل.

وسكت برهة، ثم أدرك أن ما قدمه من سبب ليس كافيًا لإقناع «سمحان»، فواصل كلامه:

- خانني الجمل ولم يكن من الحكمة أن أحتفظ بالذي خان.

- خانك؟!

- ألم تسمع عن غِلِّ الإبل وغدرها؟

- سمعت.

- كنت غاضبًا وصرفت فيه غضبي، فضربته بقسوة، بعد أن برك بالملح ماكرًا، ومال بالحمولة ليُسقطها على الأرض. لسعته العصا فنهض وسار معي، وعدنا من الرحلة صامتين. لم تكن لديَّ رغبة في الغناء لأسليه، ولم يهز رأسه، كالعادة، طالبًا مني الغناء. ومرت على هذه الحادثة ثلاثة أسابيع، وبعد ظهر يوم جمعة نمت تحت الشجرة التي تعلو ستة قراريط أمتلكها، بعد أن صليت في جامع «طهنا الجبل»، وتناولت غدائي، وبينما شخيري يصعد واصلًا إلى أذني الجمل، قطع



الرسن، وجرى نحوي، لكن كلبي أنقذني، نبح بقوة، وسبقه إليَّ وشد جلبابي من عند كتفي، فقمت مفزوعًا، وكان الجمل على بعد خطوات مني، وحمدت الله أن شومتي كانت تنام جانبي، فخطفتها وضربته على خطمه، فظل يزبد، ريم هائل يخرج من فمه، كاد يغطي رأس الكلب، الذي حارب معي، عضه في فخذه الخلفي، وكسبنا المعركة. في اليوم التالي بعته للجزار.

يتنهد ويواصل:

- آخر رحلة لم تكن عادية، صحبتني فيها فتاة لم أرَ في مثل جمالها.

- فتاة في هذا الجبل المخيف؟!

- كانت مجهدة بين الرمل والصخر، بالقرب من دير «أبو حنس» عطشى وجوعانة، ووجهها أصفر من شدة الخوف. كانت الشمس على وشك الغروب حين لمحتها تخب في ثوبها الأزرق الطويل، وطرحتها البيضاء التي تستر رأسها وعنقها وصدرها الناهد. حين كانت بعيدًا لم أتبين ملامحها جيدًا، رجلًا كانت أم امرأة، فخلعت بندقيتي من كتفي، وصوبتها ناحيتها، وشددت الأجزاء مستعدًّا لإطلاق النار، لكن حين أصبحت في مرمى نيراني وجدتها سيدة ترفع يدها، وتستنجد بي.

- من هذه التي تغامر بحياتها؟

- فتاة خارجة من دير «أبو حنس»، جاءت لتزور قريبًا لها كان قسًّا في الكنيسة فأخبروها أنه قد مات، فعادت كسيفة البال إلى الصحراء

المفتوحة، ولم تكن تعرف إلى أين تذهب، بعد أن خانها الطريق، وألقى بها الجبل إلى الجهة التي لا تقصدها.

- وكيف تركوها لوحدها؟

- أفهمتهم أنها تعرف طريقها جيدًا، وكانت الشمس تحرس الجميع والمكان آمن، وسارت نحو طريق الأسفلت فوجدت نفسها في الطريق المضاد، كانت راغبة في زيارة دير العذراء، وحين أخبرتها بأنني ذاهب إلى مكان قريب منه، كادت تطير من الفرح. رفعت يديها إلى أعلى في حركة راقصة، ثم سكنت فجأة، وضغطت على نفسها، وكست ملامحها بجدية واضحة.

ساد صمت ليفسح طريقًا لجلبة عارمة يطلقها جرار زراعي، لونه كالح، وعجلاته الضخمة تصدر صفيرًا مزعجًا، ومحركه القديم يطلق تكتكات كأنه مدفع على خط النار. كان يجري في اتجاه الجنوب، ويتأرجح فوق أفلاج الأسفلت المتشقق. وبعد أن خفت صوته حين ابتعد، وضاع في انحناء الطريق، عاد الرجل يقول:

- قالت لي إن اسمها «جميلة»، اسم على مسمًّى، وحين اطمأنَّت لي عرفتني بأنها كانت تدرب نفسها لتصير راهبة، ولما تقاسمنا بتاوة وقطعة من الجبن وشربنا جرعات ماء من القلة، نادتني يا أبي، فرددت عليها يا بنتي، وقضينا بقية الرحلة، أبًا وابنته، وكان قلبي يدق طوال ما تبقى من الرحلة، خوفًا عليها من قطَّاع الطرق، والعربان.



حين سمع «سمحان» الاسم دقَّ قلبه بعنف، مستعيدًا الأحلام اللذيذة، لكنه تماسك، وتصنَّع عدم المبالاة، وسأل في فتور:

- أين هي الآن؟

- لا أدري.. حين خرجنا من بطن الجبل إلى طريق الأسفلت ألحقتها بنساءٍ كنَّ ذاهبات إلى المولد.

عند الضحى بانت كنيسة العذراء فسكت الرجل، ومدَّ الولد رأسه من فوق كتف «سمحان» ليراها، مسح منارتها بعينيه، ثم عاد لينشغل بالناس الذين يسيرون في هدوء نحو الدير. كانوا كثيرين، يتقاطرون على الطريق، جماعات وفرادى، يصدحون بترانيم وأغانٍ، وبعضهم يسير صامتًا واضعًا يده في جيبه. على الأرجح كان يقبض بأصابعه على النقود القليلة المستقرة فيه، ربما يعدها في ظلام الجب القماشي الضحل، أو يتحسب لمواجهة لصوص الموالد، الذين يمزعون الجيوب بشفرات الموسى الحادة، ويسحبون أوراق البنكنوت أو يلتقطون بأصابعهم الخفيفة القطع المعدنية قبل أن تهبط إلى الأرض فتحدث رنينًا يفضحهم.

على أول المدق المؤدي إلى الدير راح ينتشر رجال الشرطة والمخبرون السريون وسيارات الإسعاف، وتتابع شمامسة وقساوسة يمشون بين الناس، وبعضهم يتجنب الكتل البشرية ويسير على الطرف، وفي نفسه شعور بأن أنظار السائرين تتابعه، فيضبط خطواته ليبدو وقورًا، ويحرص طيلة الوقت على ألا تفارق الابتسامة وجهه.

تململ الولد قبل مدخل البيوت التي يتراص أمامها الباعة، وفي الساحات الضيقة التي تقع بين جدرانها، حيث يقف لاعبو «الروليت»، وبينها وبين الجبل تنصب فرق الاستعراض الشعبية مسارحها البسيطة. ورأى الأب ابنه وهو يكاد يتقافز صامتًا على الحمار، فمد يديه وأنزله، وقال له:

- سنذهب لرؤية شق العذراء، وكف المسيح، لنتبارك به.

لكن الولد هزَّ رأسه غاضبًا، وقال:

- أنا أريد أن ألعب.

زام الأب ورد عليه:

- سنقضي اليوم والليلة هنا، نتبارك ثم تلعب.

والتفت إلى «سمحان» وقال:

- في الأيام الأخيرة يجفل عن كتبه، فقلت آتي لأدعو «أم المخلص» أن تساعده على العودة إلى الاستذكار.

- في أي سنة دراسية هو؟

- الشهادة الابتدائية.

لم يقابل «سمحان» الرجل وابنه إلا مرات قليلة، ولم يكن يعرف عنه أي شيء قبل اليوم، فهو يسكن في بيت وحيد، إلى جانب بعض العشش والأكواخ، بين قريتي «طهنا» و«جبل الطير»، لكنه حين رآه للمرة الأولى



قبل شهور، شعر نحوه بتعاطف شديد، دون أن يفهم سببًا لذلك، لكنه كان يؤمن دومًا بأن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. ولهذا قرر أن يقضي اليوم مع الرجل وابنه.

التفت إلى «أبو برهان» وقال:

- بعد دقائق سيبدأ أول يوم عمل لي، سأبلغ القساوسة بأنني الخفير الجديد، ثم ننصرف معًا إلى المولد، فمئات الألوف التي ستحتشد في هذا المكان خلال الساعات المقبلة، تحرس كل شيء، وبينهم ضباط وصولات وخفر كثيرون.

- محروسة بفضل الله والأولياء والقديسين.

حين وصلوا إلى الكنيسة سأل «سمحان» عن القس «أبنوب» فدلوه عليه، قابله وعرَّفه بنفسه، وسلمه «خطاب النقل» وطلب منه دفتر الحضور، فوقَّع فيه، ثم قال له مبتسمًا:

- طبعًا اليوم إجازة.

ضحك «أبنوب» وقال:

- استمتع بالمولد، اليوم والليلة، ونم في الغد، وبعده تأتي لأعرفك على كل شيء هنا، وأسلِّمك العُهدة.. الدفتر والشومة.

هز رأسه ورد عليه في امتنان:

- أعرف كل شيء هنا يا أبانا.

ولم يسأله الرجل عن سرِّ معرفته تلك، ولم يكن يعلم أن معالم هذا المكان محفورة في رأس «سمحان» منذ أن كان يشرد فيها ويتأملها طويلًا، الصور والأيقونات والتماثيل والحفائر والجدران، حتى وجوه الناس الذين كانوا يتابعونها في ولهٍ وافتتان.

كان الرجل ينتظره داخل صحن الكنيسة، حيث يقف وابنه مع مئات الواقفين وعيونهم معلقة بصورة العذراء وابنها و«يوسف النجار». وطلب الرجل من «سمحان» أن يبقى معه حتى يتبارك بالمكان، لكن «برهان» هو الذي كان لحوحًا، إذ أخذ يجذب جلباب أبيه، ويقول:

- عاوز ألعب.

غمزه الأب في كتفه وقال:

- نزور وآخذك إلى المراجيح.

- لا أريد المراجيح.

- ماذا تريد؟

- ألعاب النيشان والبخت.

- ستقع في خطأ السنة الماضية، لعبت من أول النهار فأنفقت كل ما معنا من نقود قبل المغرب، وقضينا الليلة كلها في عجز عن شراء أي شيء، حتى ولو كان رغيفًا يسد جوعنا.

- تعلمت الدرس.



ثم جذب جسمه فأفلت من يد أبيه، وراح يجري، وهو يقول:

- نلتقي قبل المغرب عند نصبة «ريري» الغازية.

شعر الرجل بالخجل، فالولد الذي جاء ليباركه هنا، ها هو يفلت منه ويتركه غارقًا في الترانيم والأدعية التي تنسكب في أذنيه من اليمين واليسار، يلتقط منها على قدر استطاعته، ويذوب فيها، ويقول في سره: «باركك يا أم المخلص لتبارك يدك الطاهرة ابني الوحيد».

يظل على حاله هذه ساعات، يمسح بيده على الأحجار، ويتنقل بين أجساد المتزاحمين في خشوع، وعلى فترات يمد طرف كوفيته الخفيفة ليمسح دموعًا تتساقط من مقلتيه، وحين يصل إلى الشق الحجري الذي تقبله النساء المشتاقات للإنجاب، يزاور عينيه عنهن، ويتمتم داعيًا لهن بأن يحقق الله مرادهن.

بعد أن يُنهي هذه الطقوس، يغادر الكنيسة منشرح الصدر، ويعب من نسائم العصر الطرية بنفس راضية وهو يهرول نحو نصبة «ريري»، حيث يخفق قلبه كلما هزت جسدها اللدن، ويهيم بالطرب وسط الجالسين الذين أثقلت الخمور الرخيصة والبيرة رؤوس بعضهم، وأحيانًا ينتفض من مكانه، ويترك ابنه ملتصقًا بأحد الكراسي المتداعية، ويهرول نحو النصبة، وفي طرف يده ربع جنيه أو نصف، ليقدم النقوط للغازية، ويطلب من المطرب أن يسمعه أغنية «كعب الغزال» ليرقص عليها إلى جانب تلك المرأة التي تمضي في العقد الرابع من عمرها، وتبدع في حركات لولبية تطير لها عقول الرجال المتصايحين.

وبان لـ «سمحان» أن الولد يختلف عنه كثيرًا، فهو حين كان يأتي إلى هنا لم يكن يلعب، إنما يتأمل هذه الأحجار، وأبوه يزجره، طالبًا منه أن ينشغل بما يلائم سنه، بل صفعه ذات يوم على وجهه وصرخ فيه:

- أنت مسلم.

ولم يفهم ما يقصده الأب، فهو يدرس في كتب الدين أن مريم سيدة نساء العالمين، وأن ابنها المسيح نبي أعطاه الله معجزة إحياء الموتى وإشفاء الأكمه والأبرص.

نظر إلى أبيه يومها ثم خرج من المكان صامتًا.

ترك «سمحان» مكانه، وخرج باحثًا عن «برهان»، مسح الشوارع التي لم تكن قد غصت بالناس بعد، فلم يجد له أثرًا، لكنه تذكر أن الولد أبدى ولعه بألعاب البخت، فسأل عن مكانها، وذهب إليها. كان يمشي بسرعة غير عابئ باصطدام كتفه بالعابرين، إلى أن رأى ما جعله يتوقف مندهشًا، ويصرخ:

- عم «عبد العاطي»..

والتفت رجل نحيل إليه، كان هو، بشحمه ولحمه، بل وجلبابه الذي رآه يرتديه في المرة الأولى والأخيرة التي قابله فيها تحت الكشك الذي يجاور الحتحورات، ويعلو المدينة البائدة.

بدا على الرجل أنه يعرف «سمحان» جيدًا رغم أنه قد رآه مرة واحدة في حياته. مدَّ إليه يده في اطمئنان. أما «سمحان» فربما استقرت ملامح



الرجل في رأسه لأنه رآها متكررة في الرجل الذي ناداه عند الحضرة، وذلك الذي طرق باب الكشك عند الفجر، والثالث الذي كان يهزأ من الكهنة في الساحة المطلة على المعبد، والرابع الذي كان يقود آدميين شبه عراة يطاردون «الممسوخ» بين السيقان الضخمة للأشجار البرية المتوحشة.

مد «عبد العاطي» يده وحطها على كتف «سمحان» وقال له:

- أهلًا يا بني.

حط عينيه على بقعة الشعر على خده ليتيقن أنه هو من دون لَبس، فوجدها كما هي وإن زادت على صفحتها الشعيرات الشهباء، فزف إليه خبرًا:

- نقلوني إلى هنا.

هز «عبد العاطي» رأسه، وقال:

- أراك هذه المرة على سريرة غير تلك التي أتيتني بها هناك.

بدا الكلام مخيفًا لـ «سمحان»، لكنه أراد أن يجلي ما به من غموض:

- كيف؟

سأله بسرعة خاطفة، محاولًا أن يفهم مقصده، فلا تزداد حيرته، لكن «عبد العاطي» لم يرد عليه سوى بكلمات قليلة، إذ مد يده وقبض على كتف «سمحان» وقال:

- لا يذهب رجل رهيف إلى المكان الذي كنت فيه إلا ويرى ويسمع ما يجعله شخصًا آخر.

حلت كل الصور المدهشة والأصوات الغريبة بغتة في رأس «سمحان»، وكذلك ما هو مكتوب في الكراسة القديمة، التي قرأها غير مرة، وما سمعه من «فتحي» عن «عبد العاطي» وأحواله العجيبة، وسأله:

- لماذا أنت هنا؟

- في زيارة للدير.

سادت لحظة صمت قطعها «عبد العاطي» قائلًا:

- هذه عادة سنوية.

ورفع هامته نحو منارة الكنيسة القديمة، وتمتم بكلمات غير واضحة، ثم زمَّ شفتيه وفتحهما فجأة:

- أكاد أشم رائحة ثياب العذراء التي غسلتها في المكان الذي بُنيت عليه الكنيسة، ولهذه الرائحة فقط آتي كل سنة.

قهقه «سمحان» مستنكرًا:

- رائحة «مريم» لا تزال باقية؟ غريب أنت يا عم!

والتفت نحو المنارة ليدقق فيها النظر، ثم عاد ليكلم «عبد العاطي» فلم يجده، هل غاب في الزحام؟ أم انعطف في إحدى الحارتين الضيقتين



القادمتين عن اليمين وعن الشمال؟ لا يدري. هرول خلفه، وغرز مقلتيه في فوهة كل حارة، وعلى امتداد الشارع أمامه فلم يعثر له على أثر.

«غريب هذا الرجل، خفيف كريشة، وسريع كطيف، وغامض كليل آخر الشهر العربي»...

حدَّث «سمحان» نفسه، ثم تذكر أنه كان ذاهبًا للبحث عن «برهان» فمضى في طريقه حتى وصل إلى المكان الذي تتواجد فيه ألعاب البخت، دار عليها فوجده واقفًا عند رقعة «الروليت».

وصل عنده وسأله:

- كان الأولى بك أن تذهب إلى المراجيح، بدلًا من تلك اللعبة السيئة.

ملأ عينيه من وجه «سمحان» من دون أن يبدو على ملامحه أي تعبير ورد:

- خسرت العام الماضي كل نقودي في نصف ساعة، فقررت أن آخذ بثأري.

ولم يعلق على ما قاله، ونظر إلى الطاولة الضخمة المستديرة، وتابع الكرة وهي تجري في ثقة، وجاء إلى أذنه همس «برهان»:

- الرجل الذي يدير عجلة اللعبة «الكروبير» هو مَن يكسبنا جميعًا، لكنني أصبحت أعرف ما أفعله قبل أن أضع فلوسًا فوق أيٍّ من الخانات الملونة، وأصبحت أعصابي أقوى، وسيطرتي على دقات قلبي أشد، وأنا أتابع دوران الكرة الفولاذية.

ومد إصبعه نحو الطاولة وواصل محافظًا على مستوى نبرة الصوت:

- انظر! ستتحرك العجلة الآن بسرعة ثم تتباطأ، لتسقط الكرة على الرقم الذي اخترته أنا، وسيرى الجميع أنني الفائز.. سأراهن على رقم واحد، إنه الجائزة الكبرى، وبعدها على اللونين الأحمر والأسود، والخط ذي الرقمين، وصف واحد، وأرقام الزاوية، والأرقام الفردية. سألعب كل الأنواع، وأربح فلوسًا كثيرة، تعوضني عن خسارة العام الفائت.. لقد راقبت اللعبة وقتًا من الزمن وعرفت أن تغيير الرهانات واللعب بقروش قليلة فترة أطول يجعل احتمال المكسب كبيرًا، واللعبة تكون أفضل عندما أجرب أكثر من نوع.

وانتظره «سمحان» حتى عوَّض الولد خسارة السنة الماضية، بينما الشمس كانت تميل لتطبع قبلة الوداع فوق صهوة الجبل وأسطح البيوت الخفيضة، ثم قال له:

- ربما يكون أبوك قد ذهب الآن إلى نصبة «ريري».

خلع نفسه من بين المتزاحمين حول «الروليت»، وسار معه نحو النصبة المستقرة في ساحة ليست بالبعيدة، وهو يضع يده في جيبه ليقبض على النقود التي ربحها.

ورآه «سمحان» مغتبطًا بما كسب، فسأله:

- أليس القمار حرامًا؟



- قمار؟!

- أليست رهانًا، أو لعبة تعتمد على الحظ، ويخسر فيها البعض أموالًا، ويتحسرون بعدها؟

- نعم.

- أنت ربحت ما خسره غيرك، وتتراقص الآن من فرط السعادة، بينما هو يأكله الحزن.

هزَّ رأسه ولم يعلق، فواصل «سمحان»:

- دعك من الفلوس، لكن ليكن مبدؤك دومًا ألا تبني سعادتك على تعاسة أحد.

صمت، وسار يقلب عينيه في وجوه الناس الذين زاد عددهم، وهم يتدفقون إلى الليلة الكبيرة، وفجأة رفع رأسه إلى «سمحان» وقال:

- أنا لم أحسبها بهذه الطريقة، بل اعتبرتها معركة عليَّ أن أنتصر فيها، فنفسي ترفض الهزيمة، وقعدت ليالي طويلة أفكر فيها، وأستعيد طرق اللعب، وأدرسها مع نفسي بأكثر من طريقة، وجئت لأجرب ما فهمته، وسعيد جدًّا بنجاحي.

ظهر لـ«سمحان» في هذه اللحظة أن الولد الذي أمامه يفكر بعقل أكبر من سنه، وأدرك أن شعوره ناحيته له ما يبرره، وأن انخطافه أمام ألق عينيه ليس أمرًا عابرًا، بل ملأه حدس من جديد أن «برهان»، الذي ساقه

القدر في طريقه مرتين، ستكون له معه قصص وحكايات، لا يدري ما هي؟ لكن خاطره يحدثه عنها الآن، وهو يقترب من نصبة «ريري» التي تطل على صفوف من كراسي الخيزران، التي بدأت تئن تحت عجائز رجال خلفوا وراء ظهورهم متاعب الدنيا وجاءوا ليلتقطوا بعض حبات البهجة هنا.



# 20

الأب «أبنوب» رجل قصير القامة، لكن جسمه الممتلئ عوَّض ما ينقصه من طول، وكل هذا يختفي خلف ابتسامته الرائقة التي لا تفارق شفتيه، ويشرق لها وجهه، وهي أول ما يخطف بصر مَن يراه، فلا ينشغل إلا بها، وحين يهم بالابتعاد عنه أو توديعه تكون هي آخر ما يراه منه.

لكن «سمحان» قرأ في عيني «أبنوب» معاني أخرى، وبان له الرجل الهاش الباش لا يخلو من مكرٍ ودهاءٍ وحزمٍ، ليبدو متقلبًا بين سماته النفسية التي ورثها عن آبائه وأجداده وتلك التي عليه أن يخضع لها مطيعًا لتعاليم الإنجيل التي تطالبه بالمحبة والسلام.

لم يكن هنا خفير سوى «سمحان»، ففي النهار يوجد القساوسة والشمامسة، وكل شيء يبقى في حراستهم، أما الليل فيحتاج إلى مَن يقف ليحرس المكان دون أن يكون عليه عبء ثقيل، فالكنيسة تحضنها البيوت، وتراقبها عيون النسوة من فوق أسطح المنازل.

مع الأيام اكتشف «سمحان» أن الأب «أبنوب» يحفظ هذا المكان عن ظهر قلب. كل شيء هنا مستقر في رأسه، البشر والحجر، والصور والظلال، ومكتبة الدير التي تضم آلاف الكتب الدينية والتاريخية القيِّمة،

حتى مواسم هبوب الريح من بين أفلاق الجبل، وهذا مكَّنه من أن يحكي طويـلًا عـن أصناف النـاس الذين يأتون مـن بعيد قاصدين هـذا المكان متبركين ومتفرجين، ومكتشفين وباحثين في التاريخ والآثار، ومتلاعبين يسيرون في شغف وراء مساخرهم. الأغلبية الكاسحة تأتي قاصدة «مولد العذراء».

وكان «سـمحان» يشـرد دومًا في ملامحه التي تبـدو متناغمة إلى حد بعيد مع كل ما يقوله، كان يحكي بشغف وولـه وامتنان، وكأنه يتفاخر بابن له حقق نجاحًا باهرًا، أو بشيءٍ فعله هو وشهد له العالمون. بدا ما يفخر به متناقضًا في عيني «سـمحان» هذه اللحظة مع ضيق المكان، ورائحة عطن تحملهـا الريح من عند حافة الجبل، وملامح «أبنوب» المجهدة، والعرق الذي يسـخن فوق جبهته، ويمسـحه بين حين وآخر بطرف كمِّه الأسود، لكن الجلال والعراقة كان لهما حكمهما في نفوس الخلائق.

شـحذ «سمحان» خياله وهو يمعن التفكير فيما يقوله الأب «أبنوب» الـذي اغرورقت عيناه بالدمـوع، وهو يقول بكل امتنـان: «قبل نحو ألف وسبعمائة عام جاء الحفارون بأزاميل وقواديم ومناشير وسكاكين حديدية ضخمة، وشـقوا الصخر أمام المغارة التي حلَّ فيهـا الطفل المبارك وأمه البتول ثلاثة أيام، لتصير كنيسـة بأمر من الملكة «هيلانة»، التي أمرت بعد اكتشـاف الصليب، ببنـاء كنائس في كل مكان حلَّت فيه العائلة المقدسة أثناء هروبها من الطاغية «هيرودس».

وواصل «سمحان» أسئلته، فأجابه الأب «أبنوب» بكل ترحاب، وهو يشير إلى الكنيسة التي ترمي ظلال جدرانها على رأسيهما:



عُرفت في البداية باسـم «كنيسـة سيدة الكـف»؛ لأن المسـيح مدَّ كفه ليمنع سـقوط صخرة هائلة فـوق رؤوس النـاس، فانطبعت الكف في الحجـر، لكـن الملك الصليبـي «ألميرك» قطع تلـك الصخرة وأخذها معه إلى بلاد الشـام سـنة 1168 م، أيام حـرب الفرنجـة، وكان الناس يصعـدون إليها محمولين في صندوق خشـبي كبيـر، مربوط في حبال قوية تدور فوق بكرات ناعمة، وتشـدها أيدي رجال أشـداء يقفون في الأعلى. ومع الزمن أطلق المحمولون على المكان «دير البكرة»، لكن في القرن الثالث عملوا 166 درجة حجرية للصعود إلى الدير.

ويأخذه من يده ويلف به بين الجدران وخارجها تاركًا الشمس تلفهما بالدفء والنور، ويواصل الشرح:

في قطعـة صخـر واحـدة هائلـة نحـت العمـال المهـرة طابقًـا واحدًا ليصير هذه الكنيسـة، ويظـل على حاله ألف وسـتمائة سـنة حتى جاء الأنبا سـاويرس، مطران كرسـي المنيا والأشـمونين، ليبني طابقًا ثانيًا، ومذبحين، أحدهما باسـم كبيـر الملائكة ميخائيل، والآخر باسـم مار جرجس، أمير الشهداء.

ويشير بإصبعه الوسطى:

وهـذه معمودية منحوتة في أحد أعمدة الكنيسـة، كمـا ترى، تعود إلى القـرن الرابـع الميـلادي، ولا يوجد نظير لها في أي كنيسـة على أرض مصر.

ويمد كفه كلها بعد أن يقبضها على هيئة جحر:

– وهنا «لقان»[1]، مجوف، كما ترى، نستخدمه ثلاث مرات كل سنة: في عيد الغطاس، وخميس العهد، وعيد آبائنا الرسل.

عرف «سمحان» كل هذا منه، وراح يركز في كلامه بكل ما أوتي من قوة ذهنية، ليجعله محفورًا برأسه مثل هذه الكنيسة التي شقوا معالمها في الحجر الصوان. عَرَّفه كل شيء في ليالٍ مرت هادئة، قبل أن تهب عاصفة من الغضب، تُباعد بين الرجلين ابتعاد الغرب عن الشرق، والشمال عن الجنوب.

كان بيت «أبنوب» في الطرف الآخر من القرية، يطل على النهر الجاري، وحين يصعد إلى السطح يرى جزءًا كبيرًا من منارة الكنيسة. ومن زاوية ضيقة في الركن الغربي للسطح يصبح بوسعه أن يملأ عينيه من المساحة المفتوحة أمام الكنيسة، التي يأتي أحيانًا عيال البلد ليلعبوا أمامها «كرة الميص» و«الحجلة» ويجلس الكبار للعب «السيجة» بعد العصر.

من هذه الزاوية رأى ذات صبح ما جعله يغضب من «سمحان» ويطلب رحيله من هنا، بعد أن كان مغتبطًا لانشغاله بمعرفة كل شيء عن هذا المكان، وليس كغيره من الخفراء الذين تعاقبوا عليه دون أن يعتنوا بالسؤال عما يحرسون.

(1) اللقان: اسم يوناني للإناء الذي يوضع فيه الماء للاغتسال، وتقام صلوات اللقان ثلاث مرات كل سنة: في الغطاس، وفي خميس العهد، وعيد الرسل.



# 21

خلت الشوارع والحواري من الناس، بعد انقضاء الليلة الكبرى والأخيرة لمولد العذراء، بدت أشبه بكأسٍ كانت تزخر بشراب ثقيل، وبات فارغًا حتى ولو من قطرة واحدة، أو ريح صاخبة سكتت فجأة وتركت وراءها الصمت المخيف.

رحل البشر، وتركوا وراءهم أطنانًا من القمامة: علب صفيح وزجاجات فارغة وأكياس بلاستيك وقراطيس ورق ممزقة، وقشور فول سوداني، ونوى بلح، وبقايا فواكه مأكولة ومعطوبة، وأغلفة حلوى مختلفة ألوانها، وخرق بالية، وشفرات حلاقة، وقطع خشب مكسور، ونشارة الورق حول نفسها كديدان شرهة لتقوى في مواجهة الريح، ومسامير صدئة، وريش طيور، وقطع أحجار اسودت من النار التي أُشعلت بين أثافيها لتطهو لحمًا وخضارًا وضع في «قيزانات» ضخمة من النحاس والألمونيوم، وطواجن فخارية مكسورة، وتلال من الرماد، وبقايا حطب لم تمسسه نار، وأخرى أكل النار بعضه، وأكوام صغيرة من الحمص يرعى فيها السوس والدود، وأجزاء من لعب مهشمة، فوانيس وعرائس قماش وطائرات وقطارات ومزامير من الصفيح، وصفارات مشروخة

من الغاب، وقطع ملابس عليها بقايا دم وبول وغائط، وصفحات من الورق المقوى متآكلة وممزقة عليها صور العذراء والمسيح، وصلبان مكسورة، وأوراق شجر نفضتها الريح فوق رؤوس الذين كانوا يملأون المكان ضجيجًا قبل ساعات.

ولم تجد هذه الأكوام مَن يرفعها سريعًا فبدأت تخرج منها رائحة عفنة، لكنها في كل الأحوال أقل بكثير من تلك التي بدأت تنبعث من مصارين الذبائح وسكائب الدم المتجلط وبقايا جلود وأظلاف تتدفق من فوق حواف الجبل مخلوطة بمياه تحملها النسوة في كل البيوت التي يؤجرها الغرباء، ويتخلصن منها.

وسكنت الريح فتحرك العفن، ولم يكن أهل القرية الذين أجّروا منازلهم للغرباء قد عادوا بعد من عند أقاربهم في البلاد المجاورة، وأما مَن بقي هنا دورهم يغطون في سبات عميق، بعد سبع ليالٍ من السهر فتقلص عدد الأنوف التي تتلقى هذه الرائحة الكريهة، ولأن «سمحان» كان الشخص الوحيد الساهر عند باب الكنيسة، فكان عليه أن يستقبل الجزء الأكبر من تلك الطاقة النتنة، التي كبست على مراوح صدره، فشعر باختناقٍ شديد، وبرطم متأففًا:

- كم يفسد طغيان الدنيا على نفوس الزائرين الروح العطرة لهذا المكان المقدس!

كان عليه أن يمشي خطوات نحو الجانب المفتوح على فلقين من الجبل ليستقبل نسائم طرية نقية كانت تأتي، وفجأة انبعثت رائحة زكية



...وعنبر وصندل وكافور مخلوط، يأتي من الهواء الهادئ المنساب بلا انقطاع. رفع الكوفية عن عنقه، ومد ذراعيه وراح يحفن من النسيم ويلقي أمام منخاريه، ويشفط متلذذًا. وراق له الجو فقرر أن يجلس مكانه على الصخرة، ظهره إلى الجبل وعيناه على باب الكنيسة الغارق في الظلام والصمت.

لا يعرف كم مرَّ من وقت وهو مستقر في مكانه، حتى سمع نداءً يأتيه من عند السفح المتعرج:

- سمحااااااااااااااان..

حلّت برأسه ذكريات الماضي القريب، هزه بعنف لعله يطردها لكنها ثابتة، ووجد نفسه ينتفض واقفًا، ويولي وجهه صوب المكان الذي ينبعث منه النداء. كانت هناك نخلة وحيدة واقفة في ظلمة الليل، تضربها بتغريد طويل، ونقيق ضفادع يأتي من عند ماء النهر، وطريق الأسفلت المشقق يبدو خيطًا أكثر سوادًا.

ألقى نظرة شاملة على المكان، وأمعن في صمته، لعله يكتشف أن النداء يأتيه من داخل نفسه. هكذا ظن في بداية الأمر، لكن حين عاد النداء يتردد طويلًا، ضرب كفًّا بكفٍّ، وأدرك أنه مقبل على هول جديد.

في البداية جرَّب أن يستجيب من مكانه:

- من ينادي؟

لم يرد أحد.

- يا أبانا «أبنوب».

صمت مطبق وخواء.

قـرر أن يعود إلى باب الكنيسـة، ولا يمضي في اتجـاه الصوت، لكن سمع هذه المرة مَن يقول:

- تعالَ ولا تخف.

لم ينطق، وانتظر. عاد الصوت يسأل:

- ألم تشم رائحة طيبة؟

وجد نفسه يرد:

- نعم.

فعاجله الصوت:

- وهل مع هذا الطيب شر؟

أجاب طائعًا:

- لا.

سمع هذه المرة صوتًا حنونًا لامرأة:

- أطعم الجوعان.

وقطـع أمتـارًا نحوها، وشـومته في يـده، ثم تذكـر ما معه فـي الصرة الصفـراء مـن طعام، فعـاد إليها، كـي يلتقطها بيـن يديه ويعطـي مَن ناداه



بهدوء وسارت خطواته فوقه من شدة الحذر، لكنه لم يجد الصرة مكانها، يتلمس ببصره في الظلام، فرأى شـيئًا يتحرك هناك، وسمع صوت قطع وطحن ومضغ وتلمظ، فسار خطوات فإذا بكلب ضخم قد خطف الأكل وراح يلتهمه في تلذذ.

كان الظلام شـاملًا، لا تثقبه إلا نجوم زاهية في قلب السـماء البعيد، وكانت الأرض داكنـة غيـر ممهـدة، وزلقـة من أثـر المياه والدمـاء التي تركت فيهـا طيلـة الأيـام الفائتـة. وكان الصمت قد عـاد عميقًـا، فراح يتحسس موضـع قدميه، حتى رأى خلـف صخرة عالية بقعـة نور فاقعة، كانت تضيء الأحجار الواقفة تحرسـها. كانت قوية إلى درجة أنها تخبئ أي شيء أو جسد يكون بينها.

لكـن بعد خطوات بدأ شـيئًا يخلص لعيني «سـمحان» في لجة النور، اتضحت معالمـه حين اقترب منهـا، فوجد امرأة تغطي رأسـها بإسـدال أزرق طويـل، علـى ذراعيها طفـل، تضمه في حنان، وإلـى جانبها عجوز يتوكأ على عصا، يمدها ليمنع حمارًا نحيلًا من أن يذهب بعيدًا.

كانـت سـيدة ذات خـد أسـيل، مجهـدة دون أن ينطفئ نـور وجهها، تتعثر فـي خطواتها ولا تفقد تماسـكها، وتمضي معتدة بنفسـها لكنها لا تكسر ذلك التواضع الذي يقطر من جبينها، ويطل من عينيها النجلاوين. وسعيدة كانت في هذه اللحظة، وكان طفلها مسـتكينًا على ذراعها يبتسـم في عذوبـة، والعجوز يحـدب على الحمـار، ويمد إليه بوصـة خضراء، أوراقها تتدلى منها وترفرف في النسيم، حتى يسد بها بعض جوعه.

وتيقن «سمحان» بوصوله إليهم من أن الرائحة الطيبة التي اقتحمت أنفه وهو جالس على الصخرة تأتي من هنا، وتقوى كلما اقترب من ثياب الطفل الوديع.

ناداه العجوز بصوت هادئ لكنه عميق، ومد يده مبتسمًا:

- تعالَ ولا تخف.

كان يشبه الرجل الذي مد إليه يده عند المقبرة القديمة، وكل الوجوه التي تلته، هو «عبد العاطي» بلا بقعة الجلد التي يغطيها شعر خفيف، والرجل الهازئ من الكهنة، وذلك الذي طرق باب الكشك قبيل الفجر:

«نعم يا عم».

قال «سمحان» بصوتٍ خافتٍ، ثم أردف سائلًا:

- هل أنت غريب؟

لكن الرجل لم يرد للوهلة الأولى، بل ابتسم حتى زاد إشراق وجهه النور نورًا، ثم قال في هدوء:

- الغريب هو مَن نسي الرب.

وقالت المرأة في هدوء:

- جوعى ونريد طعامًا.

فرد «سمحان» على الفور:



- سرق الكلب طعامي.

وصمت غارقًا في الأسى، لكن رائحة الطيب لم تدعه يسقط في الحزن، فانتعش، ووجد نفسه يعدهم:

- سأطرق أول باب وأطلب لكم طعامًا.

قطع خطوات سريعة في اتجاه البيوت الخفيضة الغارقة في الظلام، وتبعته المرأة وطفلها ووراءها مشى العجوز وترك الحمار عند الصخرة، يغفو قليلًا في العتمة التي شملته بعد أن تحركت بقعة النور مع السيدة، وحط بعض شعاعها الأبيض على أبواب متجاورة.

وقبل أن يطرق «سمحان» أي باب، سمع صراخًا يأتيه من عمق العتمة:

- أنقذوني.

التفتت السيدة خلفها، وقطعت خطوات نحو الملهوف. كان فلاحًا نحيفًا، يتوعك في خطواته، ويلملم تجاعيد وجهه، محاولًا أن يبتلع ريقه الجاف بلا جدوى، وكان يرتدي جلبابًا فضفاضًا، يبدو طية فوق أختها، وأكمامه مثبتة بدبابيس، وعلى كتفه شملة بيضاء.

تقدم العجوز إليه، ومد يده إلى كتفه، وربتها بحنان، فهدأ واستجمع قواه المبعثرة، ثم قال:

- سمعتكم تتحدثون عن جوعكم المفرط.. طعامكم لديَّ، لكن دلوني على المعبد.

- المعبد!

نطق الطفل، فاندهش «سمحان» والفلاح، وقالت المرأة:

- ماذا تريد من الكاهن؟

- يأتي معي ليخلصني من ساحرة تطاردني كظلي حتى صارت حياتي جحيمًا.

وانخرط العجوز في الكلام سائلًا الفلاح:

- أين بيتك؟

- غرب النيل.

رفع الفلاح هامته وتفرس في ملامح العجوز وسأله:

- هل أنت كاهن؟

ابتسم ورد عليه في اطمئنان:

- سنساعدك على هزيمة السحر الأسود.

- أشكرك أيها الكاهن العظيم.

لم يعلق العجوز، ولا السيدة، وساد صمت، قطعه الفلاح ليعلمن الجميع:

- معي قارب عريض مربوط في وتد على الشاطئ الشرقي، سنستقله، والريح ستساعدنا؛ لأن البلدة التي جئت منها تقع هناك في الشمال.



وصمت برهة ثم تساءل:

- من أين يأتي هذا النور الذي يغمرنا، ويسير معنا أينما سرنا؟

ابتسم العجوز ورد عليه السؤال بسؤال:

- وهل يضايقك أن تجد ما تهتدي به في هذا الظلام؟

نظر الفلاح إلى «سمحان» وكأنه يستنجد به ليشاركه الرأي، وقال:

- أريد أن أدخل بلدتي في هدوء، والليل يسترني، فلا يعرف الناس مَن أنا، فيكشفون سري، فأنا عندي بنات كثر، ولو افتضح أمر السحر الذي يسكن داري، لن يتقدم أحد للزواج منهن.

بلع العجوز ريقه، وقرقر بطنه من فرط الجوع، ونظر إلى المرأة التي يشرق وجهها، ونظر إلى الطفل، ومال عليه في هدوء، وقبّل جبينه المسكين تحت شعره الطويل، ثم همس في أذنه بكلمات لم يسمعها «سمحان» ولا الفلاح، لكن بدا على السيدة ما يفيد بأنها تعرف ما يُقال. وما إن انتهى من همساته، حتى أشار الطفل بيده فانطفأ النور، وبانت البيوت الخفيضة أشد سوادًا، وكذلك الجبل بدا بحرًا من العتمة، وعادت النجوم إلى ازدهائها في عيونهم.

تسللوا عبر المدق حتى وصلوا إلى شاطئ النهر، لم يكن طريق الأسفلت موجودًا، وكان النهر أقرب إلى الجبل مما رآه «سمحان» وهو قادم قبل يومين إلى الدير، ولذا هزَّ رأسه، ومدَّ عينيه في عمق الظلام ليرى في أي مكان هو، لكن الفلاح جذبه من كتفه وقال له:

- لا تتركنا.

وهبطوا عند النهر تزفهم الضفادع بنقيقها، والكلاب بنباحها، قفز الفلاح في المركب بخفة ريشة، ومد يده وأخذ يدي العجوز، ثم مد يده ليأخذ يد المرأة، لكنه لم يجدها أمامه، وقبل أن يسألهما عنها، وجدها تجلس على يمينه إلى جانب المجداف، وطفلها فوق ذراعها يرسل عينيه نحو الماء، وبقي «سمحان» ليدفع الحمار من كفله، بينما يسحبه الفلاح من رسنه، حتى استقرت حوافره فوق المركب، فقفز «سمحان» خلفه وجلس على أحد المجدافين.

وأزاح الفلاح المجداف فاندفع القارب نحو الغرب، وضربته أسماك ضخمة في جنبه، وتعثر في كتل من الحشائش التي قطعها فلاحون في مكان بعيد حتى لا تعيق وصول المياه إلى زراعاتهم، وأفلتت من أيديهم قبل أن يجمعوها على الشاطئ ويضرموا فيها النار بعد أن تجف.

كان الفلاح يجدف بهمة عالية، بعد أن غمره تفاؤل عميم؛ لأنه رأى ما جعله موقنًا من أن هذه السيدة وطفلها والعجوز الذي معهم لديهم قوة أعلى من طاقة البشر، تجعلهم يأتون بأعمال فوق النواميس، ولهذا اطمأن إلى أن الساحرة الشريرة ما إن تراهم حتى تفر بلا رجعة، وربما تشتعل فيها نار الحقد والغل، وتصير رمادًا تفرقه الريح في كل اتجاه.

لم يكن الليل قد انتصف، بعد حين وصلوا إلى دار الفلاح، كانت النجوم تدل على أن ساعات كثيرة من الظلام قد توالت سريعًا. طرق الفلاح الباب فقامت زوجته تفرك عينيها، وبانت خلفها في الباحة



الفريضة ست بنات متفاوتات في العمر، كن يتثاءبن في وقت واحد، ويرسلن عيونهن إلى الباب ليستطلعن الأمر.

قال الفلاح لهن:

- أريد أفضل ما في البيت من طعام، وفي أسرع وقت ممكن.

فجرين إلى الداخل، والأم تسرع الخطوات خلفهن، حتى اختفين تمامًا، وتبعهن الفلاح، ثم عاد بعد دقائق يقول:

- أرجو أن تتحملوا الجوع ساعتين أخريين، فقد أمرت بذبح خروف، لتأكلوا لحمًا ومرقًا، وطبيخ البازلاء، وفاكهة من العنب والبلح.

لكن العجوز، رفع إصبعه رافضًا، وقال في حسم:

- لا نريد سوى الخبز والملح.

قهقه الفلاح ونظر إلى العجوز وقال:

- في مثل سنك يا عم يجب أن تلحق المرق لترُمَّ عظامك قبل أن تخور تمامًا.

لكن السيدة قالت بصوت خفيض:

- اعتدنا على الخبز والملح طيلة الأيام الفائتة، ولا نرضى بهما بديلًا، وإذا أردت أن تكرمنا أكثر فأحضر معهما تمرًا.

حين هَمَّ الفلاح بالاعتراض، وإبداء العزم على أن تمضي زوجته وبناته في تجهيز الطعام على النحو الذي أخبر به، قالت له السيدة:

- الجوع يأكلنا ولا يمكننا الانتظار، فاصدع لطلبنا.

وتميز «سمحان» غيظًا من العجوز والمرأة اللذين يصران على حرمانه من وجبة دسمة، لكنه التزم الصمت، وبسط ملامحه المنقبضة حين قال له العجوز:

- لا تأسَ على ما فاتك، ستتلذذ بالخبز والملح أكثر من اللحم.

وعادت الزوجة وبناتها، بعد نصف ساعة على الأكثر، يحملن طبقًا من الخوص عليه أرغفة من الخبز، ووضعنه على عَجلٍ أمام الضيوف، فرفعت المرأة طفلها، وجعلت يده تلمس كل رغيف، وتحط على صحن به ملح جبلي، وطبق من الخوص مملوء بالتمر. وأقبلوا على الأكل بنفوسٍ راضية، ووجد «سمحان» ما وعده به العجوز، فلم يذق طعامًا في حياته أشهى من هذا.

ولما فرغوا من الأكل، ذهبوا جميعًا نحو كوخ تعيش فيه الساحرة الشريرة، فتح الفلاح بابها في هدوء، فوجدوا أمامهم امرأة متهالكة، ينام لسانها على فك بلا أسنان، ويحط على عينيها سناج ينفثه عويل لمبة زيت معلقة على جدار من الطين الجاف والتبن، يميل إلى الداخل، ويريد أن ينقضَّ، ولا توجد في الكوخ إلا كوة صغيرة تمده بهواء النهر، الذي يشاغب طيلة الوقت خيط النار الأحمر.

كان فمها مفتوحًا، وشخيرها يتصاعد، فتتحرك تجاعيد وجهها صعودًا وهبوطًا، ويبدو أنها كانت تقاوم كابوسًا قاتمًا، إذ تقلبت في



وكأنها متوجعة، غير مرة، لكن نومها العميق جعلها لا تفتح عينيها أبدًا، أرق حالتها الصعبة. صندوق مكسور في الركن، به خرق بالية، وماجور ماعون فارغ، وثلاثة أحجار متساندة، تصنع مستطيلًا منبعجًا من عند طرفه، وينقصه ضلع، وبينها رماد قديم، من أثر نار أُوقدت منذ زمن. ومن الركن جاءت رائحة نتنة يبدو أنها لفئران ميتة، وكانت دفقات الهواء القادمة من الكوة عاجزة عن طردها.

وتعجب «سمحان» لها وهو ينظر إليها مليًا، وسأل نفسه:

- لماذا لا تستغل سحرها في كنس بؤسها؟

وشعر حيالها باحتقارٍ شديد، جعله راغبًا في الانتقام منها، لكنه تماسك وتمهل قليلًا، خوفًا من شرها، وانتظارًا لما سيفعله بها العجوز والمرأة والطفل.

تقدم إليها الفلاح، وغمزها في كتفها، فتحت نصف عين، وجلست مكانها، من دون أن تلتفت حولها، وقالت له مهددة:

- هل جئتني بما طلبت؟

هزّ رأسه نافيًا، ففتحت كامل عينيها وصرخت فيه:

- ستظل بناتك عانسات، وستزحف بقع سوداء على وجوههن، ويجدن بين أفخاذهن دمًا لا ينقطع، وألمًا في بطونهن لا يتوقف، وستأتي إليهن بحكماء من كل مكان، فيعجزون عن شفائهن، بل وسيصابون بآلام في

عظامهم، تجعلهم غير قادرين على الرجوع ماشين على سيقانهم مثلما أتوك.

عندها انبرى لها العجوز وقال:

- بئس المرأة أنت.

رفعت وجهها فرأت الواقفين عند الباب، قهقهت فظهرت أسنان سوداء مهترئة في فكها العلوي، وامتلأت عيناها بالغضب، وهددت:

- سأجعلكم جميعًا تعودون زاحفين على بطونكم، ونار الألم تحرقكم.

لكن الرضيع مدَّ إصبعه الوسطى إليها فتهدلت كقطعة قماش بالية، وتكورت، وتمدد جسدها، ثم طارت واستطالت كعِرسة جائعة، ومرقت إلى الخارج، فتبعوها مسرعين، ليجدوها تتقافز حتى وصلت إلى شاطئ النهر، والموج المتتابع يضرب قدميها، ويحدث بقبقة خفيفة.

وفي اللحظة التي كان الطفل يمد إصبعه من جديد، قطع «سمحان» خطوات وسيعة نحوها، والتقمها في حضنه، وداس عليها ليفتت عظامها الهشة، لكن الإصبع جعلتها هذه المرة تطير إلى عمق الماء، وهي تصرخ مستنجدة، وفي طيرانها وقع «سمحان» على بطنه وغطاه الموج، بينما ذابت هي وكأنها جوال ملح أو دقيق، ولم يعد لها ذكر.



# 22

عند شروق الشمس سمع «سمحان» صوتًا رخيمًا يناديه، ففتح عينيه ليجد أمامه فتاة فائقة الحسن، انعقد لرؤيتها لسانه، بينما كانت هي تنظر إليه وفي عينيها دهشة طاغية ووجل أثقل لسانها أيضًا، فانكمشت كقطعة في وجه الثلج، وراق له حالها هذا، الذي جعل ملامحها تتزداد إشراقًا، وسألها:

- أتشبهين عليَّ؟

تنحنحت، وأغمضت عينيها في خفرٍ ودلال، وهمست:

- رأيتك كثيرًا من قبل.

- أنا؟!!

- نعم.

- أين؟

لم تجد بدًّا من المداراة، وقالت في نفسها: «كذبة صغيرة تسترني»، فعادت إلى التنحنح، وقالت:

- لا أعرف، المهم أنك لست غريبًا عني.

مـلأ عينيه مـن وجهها الملائكـي، واسـتعاد وجه السـيدة التي كانت تحمل الطفل على ذراعيها، وقال:

– أنتِ تشبهين القديسة العظيمة المباركة.

– «دميانة»؟!

– لا أعرف اسـمها، لكنها كانت تحمل طفلًا على ذراعيها، يقول لأشياء كثيرة كوني فتكون، صرع السـاحرة الشـريرة، وكان قنديل من السماء ينير له الطريق، وعجوز يجر وراءهما حمارًا نحيلًا.

امتلأ وجهها بدهشةٍ أشد:

– أتدري عمَّن تتكلم أيها المجنون؟

– لا أدري سـوى أننـي مجنـون لا يعرف اليوم الـذي راح من ذلك الذي يأتـي، ولا مـا إذا كان نائمًا طيلة الوقت أم يقظًـا، وهل العيش الحقيقي هو النوم أم الصحو؟

– غريب ما تقول.

– ألا ترين ثيابي المبللة؟

– أراها.

– كنت أمسـك السـاحرة الشـريرة للطفل المبارك، حتى لا تهرب منه في الماء.

ولما وجدها صامتة، سألها هو:



– أيمكن أن تكون هذه أحلام ليل؟

وردَّ على نفسه:

– لكنني أكون في صحـوٍ وعينيَّ مفتوحتين تريان كل شـيءٍ حولي، هذا ما جرى لي هنـا، وما كان يجري لي هناك، وقت أن كنت أحرس آثار الفراعين.

رقَّت لحاله، ورأت أن فيه ما يشبه حالها، فقالت:

– صدقني، هذا ما شغلني أحيانًا، وبحثت عن إجابة عنه في مكتبة الدير.

قهقه، فبدا لنفسه كأنه «فتحي» الذي تركه هناك، وقال:

– إجابات هذه الأسئلة ليست في الكتب.

وتنبه فجأة إلى كلمة قالتها، فسألها مستغربًا:

– أقلتِ الدير؟

– كنت مشروع راهبة وفشلت.

– راهبة!! لا أعرف شيئًا عن هذا العالم الخفي.

– وما حاجتك إلى أن تعرف؟ أتريد أن تكون راهبًا؟

– هذا ليس ممكنًا.

– المسألة صعبة، لكنها ليست مستحيلة.. في بلادنا هناك مئات الرهبان، وكل إنسـان لديه إرادة قوية وعزم شـديد يمكن أن يترهبن إن رغب في هذا.

– الأمر لا يتعلق بالإرادة، إنما بشيءٍ آخر.

– أمتزوج أنت ولك أولاد، أم حبك للعزوبية غلَّاب؟

– عازب أنا، والدنيا لا تشغلني.

– إذا كان هذا حالك، فطريقك إلى الرهبنة مفتوح.

رشـق عينيـه في وجهها، فهزه حسنها من جديـد، إذ راح قلبه يخفق، وشـعر أن صورتها تتسـلل إلى شرايينه، وتسـلبه بعض المكابرة والغرور والقسـوة التـي ألفها طيلة السـنوات الفائتـة، لان وصارت صخرة نفسه عجينًا فوقه ماء، وتملكه إحسـاس واطمئنان إلى أنه يعرف هذه الفتاة منذ زمن بعيد. وفي حاله هذا رد عليها، بصوتٍ مبحوحٍ، عطوف:

– أنا مسلم.

– مسلم؟!

– اسمي «سمحان عبد الباطن».

ضحكت وقالت:

– ليست هناك مشكلة، يمكنك أن تترهبن.

– أتقصدين أن أصير مسيحيًا؟

– لا.. بل تترك الدنيا وراء ظهرك، ويملأ الله قلبك بنور المحبة، وتنشغل بالباطن يا «عبد الباطن».



صمـت برهة، وهو يسـتعيد بعـض ما قرأه ذات يوم فـي كتاب لم يعد يذكر عنوانه، التقطه من صندوق عمه «رشيد»، وقال:

– أصير متصوفًا.. من أهل الطريق.

ابتسمت وردت في هدوء:

– المهم أن يكون هناك طريق.

وعـاد إلـى الصمـت محملقًا في فـراغ نفسـه، التي تجـردت في هذه اللحظة من بعض ما علق بها من ركام، وتكسرت مغاليق أبوابها ونوافذها لتستقبل ريحًا جديدة، مخلوطة بعبق أزاهير وورد ورياحين، نبتت فجأة في المسـاحة الضيقة المحصورة بين مقلتيـه ومقلتيها، قلبه وقلبها. وهي التي كانت قبل قليل مكانًا بائسًا يسكنه الخراب والوحشة والحيرة.

ووجد نفسـه موزعًا بين طريقين وليس طريقًـا واحدًا، وحبين وليس حبًا واحدًا، لكنه آثر الاستسـلام لما جاء إليه بشـتى صنوفه، وآمن للمرة الأولى بأن هناك ما يخطف الروح في لمح البصر، إنه العشـق ولا شـيء سواه، وهو الذي كان قد ظن أن بين نفسه وبين الهوى جدرًا عالية سمكية، وأبوابًا من حديد لها مغاليق ضخمة صدئة.

كانـت هي فـي اللحظة ذاتها تشـعر بشـيءٍ يأخـذ روحهـا مثلما أخذ جسـدها في المنامـات اللذيذة، وجعل نفسـها تتزلزل وتهـوي بعيدًا عن معـارج السـماء، التـي قطعـت فيهـا خطـوات لكنها لـم تفلح في السـير عميقًا.

ولـم يكن «سـمحان» يدري أن الفتـاة التي تقف أمامه مـا جاءت إلى هنا مصادفة، ولم تتواصل خطواتها نحو المكان الذي يحرسـه من فراغ، إنما كانت تلبي نداءً يطرق باب نفسها بلا توقف، ولـم تأتِ فقط إلى مولد العذراء، لتلقي أوجاعها تحت أقدام الزوار المحتشدين، أو لتتبارك وسط النسـوة اللاتي يغطسن في دموعهن عند شـق الصخر وصورة الأم وابنها المبـارك، فالدير الذي عاشـت فيه سـنوات هو في نفسـها بقعة مقدسة، ومكان في الفردوس، وحديقة للخير والسلام.

كانـت تعلـم بينها وبين نفسـها أنهـا جاءت مسـتجيبة لنداء الجسد، الـذي هـا هو يتوارى تمامًا في شـغاف الـروح، فالذي يهتـز الآن ليس ما بين فخذيها، إنما ما في تجويف صدرها الذي راح وجيبه يرن في أذنيها، بينمـا تبخـرت تمامًـا آثار العرق الـذي تفصد من مسـام جلدها وهي تئن تحت وطأة الشبق الذي باغتها مرات ومرات في منامها، وجعل سروالها يتبلل، فتنتفض خجلى، وتذهب إلى الحمام في خفاءٍ من زميلاتها اللاتي يسعين باجتهادٍ إلى طريق الرهبنة الشاق. تغسله وتعود صامتة شاردة وفي عينيها دموع حبيسـة، تنظر في عيون مَن حولها، وهي تشـعر أن جميعهن يعرفن ما جرى لها في عتمة الليل.

مـا إن تبحر فـي النوم إلـى قيعان عميقة حتـى تجده قد أتاها يبتسم، يقتـرب منهـا في هـدوءٍ، ويهمس في أذنيهـا بكلمات تُهيِّـج قلبها الثمل، وحرارة أنفاسـه تلفح جيدهـا، فتذوب قليلًا، ثم يبدأ فـي تقبيلها في وله،



ويمسح وجهها الملائكي بلسانٍ ملتهبٍ حتى يطبق شفتيه الغليظتين على شفتيها الرقيقتين وهو يتنهد، فيما سـاعداه يمتدان ليطوقا جسدها اللين، فتذوب في جيوش النمل التي تسـري في دمهـا، وتصعد إلى رأسـها، ولا تجدها إلا مستسلمة لا تملك صدًّا، ولا حتى أدنى قدرة من التمهل، الذي يسبق الهروب مما تؤمن في صحوها بأنه خطيئة لا تُغتفر.

تطيعـه فـي كل ما يريد، وهما يقشـران سـويًّا ما يكسـو جلدهما حتى يعودا كمـا وُلـدا، بلا حـول ولا طـول، ويمتزجا فـي حرقة ولهفـة ولذة ونشوة، لينتهي ضجيجهما إلى سـكينة، وشـقاؤهما إلى سـعادة، وتجد نفسها ضاجَّة بضحكة لها رنين، يرتد صداها في أذنيها، فتهبُّ من نومها، لينقلب كل شيءٍ، السكون إلى فوران، والراحة إلى تعب.

أتضحك فرحًا أم حزنًا؟ لا تدري إلا حين تفتح عينيها، فتجد دموعها تبلل خديها. أهـي أيضًا دموع السـعادة أم التعاسـة؟ لا تجد سـبيلًا هينًا لتبديد حيرتها، لكنهـا تعي جيدًا أن ما يأتيها في المنـام، يقول لها في ثقة قاطعة:

- هذا المكان ليس لكِ، فأنتِ خُلقتِ لدورٍ آخر له مكانه.

وسـألت نفسـها: «أهـو أيضًـا دور مقدس؟»، ولـم تجد أحدًا تسـأله سـوى أكثر البنات قربًا إلى نفسـها، إنها «سـامية» السـمراء الرقيقة، التي يكاد جسـدها يذوب من طغيان روحها، وهي تمضـي في الرهبنة بخطى سريعة واثقة.

وفي ليلة صافية غسل فيها القمر كل حشائش السماء، راقَ لها أن تبوح بما يمور في صدرها، تنهدت وسألت:

- هل المجاهدة لا تكون إلا بمعاندة احتياجات الجسد؟

نظرت إليها «سامية» باندهاش، وردت في هدوء مخلوط بغيظ:

- هي ليست إلا هذا.

وأطرقت «جميلة» صامتة، ولاذت بروحها فاختبأت فيها، منتبهة إلى شيءٍ واحد، هو عدم وقوع عينيها في عيني «سامية» حتى لا يُفتضح أمرها، لكن الأخيرة لم تدعها هاربة في الصمت والانكماش والانزواء طويلًا، بل اقتحمتها، وجرَّدتها من كل ما تخفيه داخل أشلائها المبعثرة، وروحها المهيضة، وجميع ما كسبته من صبر خلال سنوات قضتها في محاولة يائسة لأن تصبح راهبة. كل شيءٍ سقط خلف ظهرها، وراح يذوب في الريح التي تمرق بين أبنية «مصر عتيقة» وتغمر حي «الفسطاط»، ثم تندفع في الممرات الطويلة التي ينام الزمن في جنباتها الكالحة المتآكلة.

صوبت نحوها سهمين جارحين من مقلتيها، حين قالت:

- أنتِ سقطتِ في هوى غير ما نهوى.

رفعت «جميلة» رأسها محاولة أن تفهم، فلاحقتها «سامية»:

- أنتِ تعشقين رجلًا.



هكذا اقتحمتها ذات ليلة ولم تدعها تلوذ بأي حصن من تلك التي صنعتها على مهل طيلة عمرها لتخفي عوزها وعجزها وشبقها الجارف.

ووجدت «جميلة» نفسها تختصر الطريق:

- كيف عرفت؟

- تنطقين اسمه وأنتِ نائمة.

- ما اسمه؟

- «سمحان».. أنتِ كررت الاسم في ليالٍ عديدة، وناديتيه في لهفة.

- وهل هذا يكفي دليلًا على أنني أعشق؟

- لا.. هناك أشياء أخرى أستحي أن يأتي ذكرها على لساني.

بوجه يكاد الدم ينسكب منه، وعينين جاحظتين من الغيظ، سألتها:

- مثل ماذا؟

ردت «سامية» في هدوء:

- قلت لكِ لن أخوض فيها.

- إذن ليس هناك شيء.

احتقن وجه «سامية» وبرطمت بكلمات لم يُعرف منها شيء، لكن شعورها بالإهانة جعلها تنفجر:

- تنامين معه كل ليلة.

ضحكت «جميلة» بصوتٍ لا يخلو من غنج، وتيقنت في هذه اللحظة أنها قد انقطعت عن طريق الرهبنة التي حاولت أن تمضي فيها بنجاح، فأظهرت كل ما لديها من مخزون التحدي، وردت:

- وهل رأيتيه عاريًا معي؟

تساقط لحم وجه «سامية» من الخجل، واستردَّت أنفاسها المبهورة، وقالت بصوتٍ خفيض:

- سمعتكِ تتأوهين وتطلبين منه المزيد.

وهنا انفجرت «جميلة» أكثر:

- وهل أنتِ لا تحلمين برجلٍ يعطيكِ ما تهربين منه.. وهل لم يأتِ رجل في المنام، ولو مرة واحدة، لأكبر وأقدم راهبة فينا.

لم تستطع «سامية» عليها صبرًا أكثر من ذلك، فقالت لها:

- ما بيننا من صداقة يحتم عليَّ أن أنصحكِ بأن لا تبقين في هذا المكان.

- أتهديد هو؟

- بل نصيحة، كما قلت، فما دام جسدكِ جائعًا فروحكِ لن تنعم بالسكينة والصفاء والسلام.. أنتِ غير راضية، فلا تعذبي نفسكِ أطول من هذا. كانت محاولة منكِ، لكن الرب لم يكتب لكِ أن تكملي طريق القديسين، فلا داعي للتمادي في الخطيئة، واذهبي لتبحثي عمَّن



تسلل روحه إلى مخدعكِ كل ليلة فترينها جسدًا يحتويكِ وتحسين بحرارته.

وحين كانت «جميلة» تجمع ملابسها البسيطة استعدادًا للرحيل عن الدير، اقتربت «سامية» منها وقالت:

- رأيت في منامي أنكِ ستقابلين مَن كنتِ تنادين اسمه، وأنتِ على حافة الخطيئة، في لياليكِ المبللة باللذة.

- أين؟

- في مكان بعيد قريب.

- ألغز هذا؟

- بعيد في المكان، قريب في المكانة.

- أريحيني بتفسيرٍ لكلامك الغامض.

- هذا ما سمعته في رؤيا زارني فيها «مار جرجس»، وذاب الآن أغلبها من رأسي، ولم يبقَ منها سوى ما قلته لكِ، ولا أعرف له تفسيرًا.

وخرجت من الدير دون أن تدري أن لا شيء يملك التفسير سوى قدميها اللتين نهبتا الأرض حتى وصلت إلى «جبل الطير».

# 23

انسحبت «جميلة» من أمام «سمحان» عائدة إلى الحجرة الضيقة التي أجَّرتها في بيت الغرباء، وهي تقول:

- سأعود بعد الظهر فقد أجد الأب «أبنوب».

وحين أتى «أبنوب» وقابلته، كان «سـمحان» قد عاد إلى بيته لينام في انتظار ليلة جديدة من المكابدة. كان وجهه مكفهرًا، وبقايا البلل تنشع من خيـوط ثوبه، وكانت شـفتاه مقددتين من وعثاء الطريـق، وكذلك جلده، لكـن روحـه كانت رطبة بالقـدر الذي منحه قدرًا من البهجة هو في أشد الاحتياج إليه.

سأله أبوه، دون أن يلاحظ ملابسة المبللة:

- لعلك مستريح في المكان الجديد؟

هزَّ رأسه قليلًا:

- الحمد لله على كل حال.

وسألته أمه عن لزوجة هدومه، فمسح ثيابه بعينيه وأجابها على مهل:

- انزلقت قدماي في النهر وأنا أتوضأ.



وابتهجت وأبوه لسـماع كلمة «أتوضأ»، حيث لم يرَه أي منهما يصلي منذ مدة، بعد أن داوم على الذهاب إلى مسـجد القرية فترة من الزمن، ثم انقطع دون أن يسأله أحد عن السبب.

تركهما جالسـين علـى «الدِّكة» الممـددة عند مدخـل البيت، ودخل حجرته، وخلع جلبابه ورماه فوق صندوق يحوي ملابسـه، ورمى جسده فوق الحصيـر، ورأسـه متوجهًـا نحو البـاب الغاطـس في عتمـة رائقة، سرعان ما أشـرق فيه طيف «جميلة» ملفوفًا في محيـط راهبة ومخيطها، فمد ذراعيه وأخذه في حضنه ونام.

حيـن توغـل راحلًا في سـبات عميق، وجد «جميلة» تمـد كفيها نحو وجهه، وتمـرر أصابعهـا على جلـده الملتهب، ثـم تقبله فـي حرقة وهو يحوش بطنها الضامر بوتده الصلب، ويفسـح الطريـق أمامها لتلقي بثقلها عليه. طوقهـا بذراعيه، وداس عليها في لهفـة فتوجعت دون أن تتململ، بل غاصت فيـه أكثـر، وسـاعدها الأيمن يندس تحت رأسـه، وشـعرها يخالط حاجبيه ورموش عينيه، ويتسـلل داخلًا إلى أذنيه. وقبل أن يلجها، وجد نفسه يطوِّق تمثالًا من الحجر، نظر إليه في هلع، فإذا هي واحدة من المنحوتات الجميلات التي كان يحرسها بين الجبل والماء.

كانـت ثقيلة فوقه بعـد أن صارت حجـرًا، فزحف بجسـده منفلتًا من تحتهـا، وهـرول بعيـدًا، ففتح أمامه مسـرب وعـر بين الصخـور، وخلفه تجري وحوش كاسرة، ذات أنياب وقواطع طويلة حمراء، تقذف جمرات متوهجـة، ويصـدر مـن بينها فحيح وزئيـر ترتج له أفـلاق الجبل، ويهيج

الحصى، ويطير فيضرب «سمحان» في ظهره وقفاه، وهو يهرب ملتاعًا دون أن يدري إلى أين يذهب؟ وكيف يفلت من هذه القسوة التي تقبض على قدميه، فتتيبس ساقاه، ولا تحملانه؟ وقبل أن تصل إليه الوحوش، يصرخ: «الحقوني»، فيجد عينيه منبلجتين وهو غارق في عرقه، وعلى رأسه يقف أبوه وأمه، وهما يمدان بوزهما نحوه، ويسألانه:

- ماذا جرى؟

قال لهما وهو يمسح الزبد الذي غطى شفتيه، وساح على ذقنه:

- حلم انتهى بكابوس.

أشاح الأب بيده فشرخ الهواء، وسأله متهكمًا:

- ألا تجد الكوابيس أحدًا غيرك في هذه الدنيا؟

صمت قليلًا وأجاب:

- الدنيا نفسها كابوس طويل.

لم يستطع بعدها أن ينام، فنهض ليمارس طقوس الاستعداد للعمل، التي كان يؤديها بترتيب سريع كأنه آلة جديدة تنفذ مهمتها في همة وصمت.

حين وصل إلى الدير مع الغسق كان حماره يحاول أن يدوس على طيف «جميلة» المرسوم أمامه على الأسفلت، لكن حوافره لم يكن بوسعها أن تنال من واحدة موشومة على صفحة قلبه. طاردته الصور



طوال الطريق، كانت تتراءى أمامه دون أن تبتلعها الشقوق التي تمزع جسم القار القديم، وتمرق لتتكسر فوق القناة الضيقة التي يجري فيها ماء قليل يسقي زروعًا عطشى، ثم تعتدل فوق صفحة النيل، وعلى جدران الصخر لجبل لا يعلم شيئًا عن النار الموقدة التي مدت ألسنتها في شرايينه، وحين كان يهرب منها مغمضًا عينيه قليلًا كان يجدها يقظة تحت جفنيه.

«ما هذا؟»...

راح «سمحان» يسأل نفسه وهو جالس فوق حافة الجبل التي تطل على الفراغ، لكنه لا يعرف أي سبيل إلى الإجابة. وآمن أن هناك في الحياة ما يغلبنا دون أن نسمعه أو نراه أو نلمسه أو نشمه. وأدرك أنه كان قاسيًا حين سخر من حكايات الهوى التي سردها بعض أصحابه على مسامعه، وهم يغسلون كلماتهم المجروحة بالدموع الساخنة على المقهى البسيط.

كان يتعجب من أقوالهم وهو يقاوم جيوش الوحشة واللهفة والحنين التي تهاجمه بغتة. يقاوم على قدر استطاعته ثم يسقط مهزومًا فيلين حتى يظن رفاقه أن بوسعهم أن يعجنوا عظامه العريضة، ويعيدوا تشكيل جسمه على نحو جديد.

الآن فقط أدرك «سمحان» أن الواجب كان يحتم عليه ألا ينساق مع غلاظ القلوب، ويسخر من حيرة صاحبه وضعفه، بل يلملم دموعه

علـى كفيه، ويدلك بها صدره، لعل قلبه الغافل يسـتيقظ، وينعم بالعذاب الجميل.

«جميييييييلة»، هكذا ناداهـا من دون أن يفارق الصوت حنجرته، صـرخ داخلـه بحروف اسـمها ممطوطة وهو يـود ألا تنتهـي، لكن الليل الذي فرش غطاءه فوق الجبل والبيوت والنهر والكنيسـة ابتلع نداءه، فلم يشـاهد أحد اهتزاز جسـده حتى كاد يسقط على السـفح اللزج، أو يسمع الشهقات الحارة التي غرد بها صدره.

«في أي غرفة تسكنين يا خليلة روحي؟»...

عاد يسـأل نفسـه من جديد، وهو يتخيل أنها تسـمعه، لكنـه لم يجرؤ علـى أن يبحث عنهـا، بل مكث في مكانـه، متطلعًا إلى جدران الكنيسة التي يحرسها، ومتمنيًا أن يطل عليه وجه «أبنوب» من طيات الظلام، رغم علمه بأنه قد لا يكون الشـخص المناسب، الذي يمكن أن يبوح أمامه بما غزاه وسـلب إرادته، ومع هذا فيمكن لمسـامرته أن تسـري بعض أحزان نفسـه، التي سببها مباغتة العشـق له. هكذا حدد «سمحان» المساحة التي يمكن أن تجمعه بـ«أبنوب»، وكم هي ضيقة وعابرة!

لـم يـأتِ «أبنوب» وسـرى الليـل، وضغط هـواؤه البارد على جسد «سـمحان» فشـعر بالجوع، ففتح صرة الطعام، وراح يمضغ بعض اللُّقَم، وهو شارد في وجه محبوبته، التي أدرك أكثر أن وجهها يشبه وجه السيدة التـي رآها تحمل طفلها فـي الليلة الفائتة، وعبر معهـا النهر للتخلُّص من الساحرة الشريرة.



وفي عمق الليل الممتد بين الجبل والنهر سمع مَن يناديه:

- سمحاااااااااااااااان..

جفـل، وقام من مكانه مسـتعدًّا للهروب نحو البيـوت، لكن الصوت عاد يقول:

- لا مهرب لك، فلا تضيع وقتًا، وتعالَ طائعًا.

التقط أنفاسه المقطوعة وسأله بصوتٍ مشروخ:

- مَن أنت؟

- واحد يمر على هذه الأرض، ويحاول أن يترك علامة.

نظر «سمحان» إلى قوامه الممشوق، والسيف الواقف منتبهًا في يده، يشق سواد الليل ببريقٍ أخاذ، وقال له ساخرًا:

- تريد أن يحكي الناس عن بطولاتك.

هزَّ رأسه نافيًا:

- لست مشغولًا إلا برب الناس، وما سأذهب به إليه يوم الدينونة.

وبان في يده الأخرى شيء كالكرة تتساقط منه قطرات فتحدث صوتًا خافتًا على الأرض «تق .. تق»، ومده في اتجاه «سـمحان» فتحسسـه بيده في حذر، فإذا هي ملامح آدمي. جبين وأنف وشفتان وذقن، مغروسة في رأس مقطوع، فلما وصل إلى العنق، صرخ بشدة:

- أنت قاتل محترف.

وفكر أن يرفع الشومة، ويضربه بها على رأسه، فيرديه قتيلًا، لكنه تراخى حين لم يسمع منه سوى ضحكة صافية، ثم تنهيدة حادة، أتبعها صوت هامس:

- هذا رأس أبي، وكان رجلًا صالحًا وعادلًا، قتلوه ولم أدفنه إلى الآن.

- متى قتلوه؟

- منذ سنوات طويلة.

- سنوات.. وجثته بدمها لا تتعفن ولا تتحلل؟

- آتي إلى هنا لأضعها في الريح المقدسة المختزنة بين شقوق الصخر منذ زمن بعيد، وأنا أقرأ لها ما جاد به الرب عليَّ، فتظل غضَّة، تفوح منها رائحة المسك.

كان يتقدم وخلفه تسير فتاتان ينادي كل واحدة منهما بـ«أختاه»، وحصان ضخم ذو لجام طويل، فبدا فارسًا مغوارًا نادرًا ما يصادف الناس مثله.

وفجأة هجم عليه جند كثيف من كل ناحية، وأحكموا وثاقه، وأخذوا معه «سمحان»، وهو يصرخ فيهم:

- أنا لا أعرفه، أنا بريء، لم أفعل شيئًا حتى تمسكوا بي.



لكن هيهات أن ينصت إليه أحد. قادوهما إلى سجن عالي الأسوار، وزجوهما في زنزانة ضيقة معتمة كأن جدرانها من ثلج.

«ثلج في الصيف؟»، سأل «سمحان» الرجل الجالس إلى جانبه في العتمة، فابتسم في هدوء وقال:

- نحن في طوبة يا فتى.

- طوبة؟!!

- نعم.

- لكنني كنت قبل قليل في صيف قائظ أتسول نسمة تهب من بين أضراس الجبل.

- بل أنت في شتاء، تتسول فيه لفحة حارة تسري حين يضن علينا النسيم بمدده.. ورغم ضيق الزنزانة التي هجرها النسيم منذ أن شيَّدوها لتقتل الناس ببطء فإنني أكاد أسمع صرير عظامك من البرد.

ابتسم «سمحان» وقال له في لوم ظاهر:

- أنا بريء وأعاني، وأنت لا يضنيك الصقيع.

هزَّ رأسه، وربت كتف «سمحان» وقال:

- الدفء يأتي من هنا.

وأشار إلى قلبه، ثم قبس دفقة من الدفء، ودلك بها صدر «سمحان» وطلب منه أن يأخذ نفسًا عميقًا، ويتأمل ما يدور في نفسه، ولا يشغل نفسه بكل شيء حوله، حتى لو كان الهواء البارد.

ولم يمضِ وقت طويل حتى حضر جند مدججون بالسيوف والخناجر والحراب والرماح، وكأنهم ذاهبون إلى معركة حامية في قلب الصحراء. تقدم قائدهم، وجذب الرجل من ذراعه، ودفعه أمامه، لتلقفه البقية، ويميلون جميعًا بأجسادهم الخشنة عليه، فيندفع إلى الأمام، مائلًا إلى حيث أرادوا. وتنبه أحدهم إلى «سمحان» وهو منكمش في ركن الزنزانة، فصرخ فيه:

- تعالَ يا جربوع.

وحين كانوا يسيرون إلى حيث لا يدري «سمحان» سمع أحد الجنود يقول لزميله:

- المغدور كان فارسًا شجاعًا، حظي بإعجاب الإمبراطور، حتى عيّنه حاكمًا على عدة بلاد، وقيد اسمه في ديوان العظماء، وخلع عليه هدايا كثيرة، وخصص له مقبوضًا شهريًّا مجزيًا، ولكن الأيام دارت عليه وها هو يُساق إلى الموت مصفدًا في الأغلال.

وسمع «سمحان» كلمة موت فخارت ركبتاه، وشعر وكأنه قد تبوّل في سرواله، فمد يده ليتأكد مما جرى، لكن أحدهم جذبه بقسوة، فكاد



وانكب على وجهه، وحين استقام ظهره، وصل إلى أذنه قول الجندي عن الفارس السجين:

- اعترض على تبخير تماثيل آلهتنا وتقديم الذبائح لها، وتذمر من أمر الملك بهدم جميع الكنائس وطرد موظفيها، وحرق كتبهم، ومزق مكتوبًا ملكيًّا بهذا.. كفر بديننا وعصى ملكنا فلا جزاء له إلا القتل، وليأتِ ربه الذي يعبده فينقذه من أيدينا.

وتبادلا قهقهات عالية، ومضيا وأقدامهما تحدث صليلًا من قطع الحديد متفاوتة الأحجام والأشكال المثبتة في أطراف بزتيهما وعلى صدريهما.

أودعوا الفارس بيتًا عاليًا بينما ألقوا «سمحان» في غرفة جانبية معزولة، لها نافذة تطل على البيت، وتكشف جانبًا كبيرًا من ردهته الأمامية. ولم تمر سوى ساعة حتى دخلت فاتنة، تتبختر في لباس يُظهر نصفي وركيها وثدييها، وتقدمت نحو الرجل الحبيس، ثم تمايلت عليه محاولة أن تقبله، لكنه أفلت منها، وأدار لها ظهره، فنقرت على الجدار وأخذت تدور في رقصة بديعة، وتمد أصابعها لتلمسه، ثم تجرَّدت من ملابسها، ورمت جسدها عليه، فأغمض عينيه، وشرد في صلاة، لذا جفلت منه، وصرخت فيه:

- لم يقاومني أحد قبلك.. هل أنت حجر؟!

غرس «سمحان» عينيه في وجه الفتاة وقوامها، وصرخ «جميييييلة»، إذ كانت تشبهها إلى حد بعيد، لكنها لم تلتفت إليه مع

أن صوتـه اقتحـم أذنيها. وغاظـه تجاهلها له، رغم أنها استدارت نحوه وربما رأت وجهه في النور الشحيح الذي يكشف بعض ملامحه.

حـاول أن يخـرج إليها من الباب ليسـألها عما تفعله، لكنـه كان مغلقًا وموصدًا بإحكام شديد. أما النافذة التي يطل منها فمستكينة خلف قضبان مـن الصلب. مد يديه، وحاول أن يهزهـا بعنف، وهو يظن أن فورة الغيرة التـي تغلي داخلـه بوسـعها أن تجعل الحديـد يلين، وينفـرج فيمرق بين الأضـلاع المسـتقيمة، ويخرج ليخطـف فتاته من أمام الرجـل الورع، أو يصفعها على خدها بقسوة، أو يضربها بالشومة على جبهتها فينفجر دمها ويسيح على وجه الرجل الصامت، أو حتى يبكي أمامها ويطلب منها ألا تعطي هذا اللاهي عنها ما يتمنى هو أن يأخذه ذات يوم.

لكنه اسـترد بعض أنفاسه المتلاحقة حين وجد أن الرجل لم يرد على الفتاة، وواصل صلاته، وجلست إلى جانبه تنصت إليه باستغراب شديد، ففتح عينيه وقال لها:

- لا يحق لكِ أن تتمتمي بما أقول وأنتِ على هذه الهيئة.

قامت إلى ملابسها وارتدتها، وجرّت دثارًا وغطّت فخذيها وصدرها، وبدا أنها تكفكف دموعها. وكان هناك رجل يربض في الظلام ليتجسس عليهما من كوة لا يراها مَن بالداخل، فخلع عينيه من الحائط، وراح يعدو حتى ذاب في العتمة.

عنـد الفجر جاء رجل مهيب، تتبعه حاشـية مدججة بأسـلحة مختلفة الأشكال والأحجام تبرق في الظلام، دخلوا بغتة، فوقفت الفتاة مرعوبة،



وأشار كبيرهم إلى أحد الجنـود، فرفعها من مكانها ورماها على الأرض ثم أوثقها وصرخ فيها:

- ستندمين أيتها المحظية المارقة.

وتقدموا إلى الرجل الحبيس، وجردوه من ملابسـه، وراحوا يغرسون الدبابيس المسنونة في جلده، وهو يكز على أسنانه محدثًا جؤارًا مخنوقًا، وبعدها طرحوه على الأرض، وهو موثوق من فوق كعبيه ورسغيه، وفكوه وألقوا جسـده كله في صنـدوق ضخم به طنبـوران ملفوفان تبـرز منهما سكاكين حادة، وأداروا عجلتين فراح الجسـد يتمـزق، والدم يخرج من جروح كثيرة في الجانبيـن، بينما وقف رجل يصـبُّ ملحًا فوق الجروح، وآخر يلسـعها بشعلة طويلة. وزاد جُؤار الرجل، وتحول إلى صراخ حاد، تمزق له نياط القلوب.

أخرجـوه من الصنـدوق وألقوه علـى الأرض مرة ثانيـة وتركوه. بعد وقتٍ قصيـرٍ خفت أنينـه، وحطت على جسـده بقعة من نـور، فتجلطت الدماء، وراحت ضفاف الجروح تتلاقى فتندمل، وعاد الجسـد إلى هيئته الأولى، فلما جاء الرجل المهيب الذي يضع على رأسه تاجًا بعد ساعتين وجده على حاله هذا فاستشـاط غضبًا، وأمر بأن يشدوه على أربعة أوتاد، ويضربوه بالسـوط على ظهره، حتى يسـومونه سـوء العذاب، فتفننوا في تعذيبـه، وقطعوا كفيـه وقدميه وألقوها في الجير الحي فطشّـت وتصاعد بخـار أبيض في الهواء، ثم مزقوا بطنه، وغرسـوا فيـه رمحًا طويلًا، ولفوه

فخرجت أحشاؤه، فتقدم أحدهم وضربها بالسيف فصارت نتفًا من الجلد واللحم ملقاة على الأرض.

ورأى «سمحان» ما جرى، وصرخ كأن الرمح قد انغرس في جسده هو، فتنبه إليه الرجل المهاب، وصرخ في الجنود آمرًا:

- هاتوا هذا الكلب.

فجروا إليه، وقبل أن يمسكوا به سقط مغشيًّا عليه، غارقًا في رعاف تدفق كسيل عرم، دون أن يدري به.



# 24

عند الضحى تنبّه إلى إصبع رقيقة تنقر كتفه، راح يعود إلى الوعي وهو يحس أن النقرات تدق في سويداء قلبه. أزاح جفنيه عن مقلتيه فرآها واقفة أمامه. انتفض كأن ثعبانًا قد لدغه، ورماها بسهمين من مقلتيه، وصرخ فيها:

- أنتِ خائنة.

امتلأ وجهها غضبًا ودهشة، وكظمت غيظها، ثم أطلقت سراح بعض الحروف من بين أسنانها ناصعة البياض:

- ربنا يسامحك.

شعر بخجل شديد، فلاحقها:

- رأيتكِ الليلة الفائتة تعرضين نفسكِ على رجلٍ ورعٍ قتله جنود الملك.

زادت مساحة الاندهاش في صفحة وجهها:

- أيُّ رجلٍ، وأيُّ ملكٍ.. لم يعد في بلدنا ملوك.

تلفَّت حوله، فرأى الجبل والكنيسة وكلبًا يجري وفي فمه عظمة جديدة، وماعزًا تثغو بالقرب من جدار بيت قريب، ويظهر من فتحة الشارع أناس ملفوفون في جلابيب مختلفة الألوان.

عاد إليها ليمسحها بعينيه من أخمص قدمها إلى ناصيتها وهو يسترد وعيه تدريجيًا، فبرق في ذهنه فجأة شيء مهم في هذه اللحظة، جاء بردًا وسلامًا على نفسه التي تشتعل غيظًا، فالفتاة التي رآها في الليل كانت ترتدي زيًّا ليس من زماننا. سلَّط مقلتيه على ملابس «جميلة» حتى غزاها خجل شديد، فاستدارت وقالت له:

- يبدو أنك لا تزال نائمًا، وتسيطر عليك تخاريف حلم ليل، سأترك لك حتى تُفيق وبعدها يمكنني أن أتحدث معك.

كانت مغتبطة لأنه يحلم بها، هكذا أدركت من اللهفة التي تطفح من عينيه، وذلك الاشتهاء الذي جعل شفتيه تتلمظان في اضطراب شديد، واستعادت أحلامها معه، وسألت نفسها: «هل آتيه في الحلم كما يأتيني؟».

بل ذهبت إلى ما هو أبعد من هذا: «هل في اللحظة التي أئنُّ تحت عظامه القوية الساخنة يكون هو ممتطيًا جسدي اللين؟ وهل نفعل كل شيء معًا من المداعبة إلى الانتشاء، ونتقاسم اللذة؟ ومَن الذي يلتقي في عالمٍ لا نستطيع أن نمسك منه شيئًا بأيدينا: روحانا أم جسدانا؟».



وتاهت في دفقةٍ عابرةٍ من اللذة، جعلت خلايا جسدها تنتفض، لكنها سرعان ما طردتها واستعادت وعيها وأعطت ذهنها فرصة كي لا يظل مكدودًا من عناء محاولة الإجابة عن كل هذه الأسئلة.

وتمنَّت وهي تبتعد خطوات عن «سمحان» أن يقوم إليها، وينظر في عينيها عميقًا، فيعرف كل شيء يدور داخلها وتخبئه، وينقذها من عناء البوح، وأن تحط أحلام الليل الطائرة على الأرض، فترمي نفسها في حضنه، وتقول له: «طالما امتزج ماؤنا في عالمٍ غير هذا العالم».

لكن من أين لها بهذه الجرأة؟ كيف تعرِّي نفسها هكذا أمام رجلٍ لا تعرفه جيدًا، رغم أنه الأقرب إليها في هذه الدنيا؟ وكيف لها أن تتخطى حاجز اختلاف دينها عن دينه؟ هي تعرف أن حكايات مماثلة انتهت بعراكٍ ودم. تنهَّدت بحرقة، واجتاحتها أمنيات لا تعرف مصدرها في أن يمر كل شيءٍ بسلام.

ومسحت دمعتين غبَّشتا الطريق أمامها، وقبل أن تنعطف يسارًا، ليختفي جسدها وراء جدران البيوت، ناداها:

- جميييييييلة.

استدارت لتجده قد نهض واقفًا يتوكأ على شومته، تقدَّم نحوها فوقفت مكانها، فلما وصل نظر إليها بعينين منكسرتين، وقال:

- آسف.

ابتسمت وردَّت على الفور:

- لا تعذِّب نفسك، أنا نسيت ما قلته.

أراحه قولها، وشعر أن فرجة بسيطة قد انفتحت أمامه ليقترب منها أكثر، فضرب شبومته في الحصى، وأشار بيده نحو المكان الذي كان يجلس فيه وقال:

- لديَّ شاي وسكر معتبر، فهل تقبلين عزومتي؟

هزَّت رأسها وتبعته راضية.



# 25

مع رشفات الشاي انفتح الطريق أمامها لتقول له مَن هي. كان قد سألها، وانتظر الإجابة، وأقلقه صمتها فترة طالت، وهرب بناظريه بعيدًا، ليحطهما فوق صفحة مياه النهر. لكنه وجدها تتدفق في سرد حكايتها، وكأنها خلال الصمت كانت تحتشد لهذه الانطلاقة العارمة.

تنهدت وقالت:

- كنت أحاول أن أكون راهبة. ووافق الأب اعترافي بالرهبنة، وظللت أرتدي الزي الرمادي أربع سنوات تحت الاختبار، وكنت قريبة من أم الدير، وحفظت المزامير والتسبحة وألحانها، وصليت كثيرًا، والتزمت الهدوء والسكينة والطاعة، وعشت بنصف بطن حتى تصفو روحي، وظننت أن العالم قد مات في قلبي تمامًا، وكان مثلي الأعلى هو القديسة «دُميانة»، أقدم راهبة في تاريخ المسيحية، التي تركت حياة مُنعَّمة، فهي ابنة حاكم البرلس، وخطبها أمراء، لكنها قررت تكريس حياتها لخدمة الرب.. صرت صالحة لحياة البتولية، لكنني لم أقاوم اشتياقي إلى الأمومة، وتركت طريقي بلا رجوع قبل أن يتم ترسيمي راهبة.

مسحت دموعها، ونظرت في عيني «سمحان» لترى وقع كلامها عليه فوجدت فيهما امتنان وهو منصت في إمعانٍ إليها، وعلى ملامحه سكون، وأصابعه مقبوضة ومغروسة تحت ذقنه، وشجعها اهتمامه فواصلت:

- أنا لم أخُن القديسة «دميانة»، فهي نفسها علَّمتنا أن نعتذر، فحين حاصرها الأمير الروماني وهددها بعذابٍ أليم، تركت للأربعين عذراء اللائي كنَّ معها حرية الاختيار في العودة إلى منازلهن، ولكنهن رفضن وقررن البقاء معها مؤمنات، وواجهن التعذيب حتى الموت.

صمتت برهة بلعت فيها ريقها وواصلت:

- قلت لنفسي: افترضي أنكِ كنتِ واحدة من هؤلاء، ولم تتحملي العذاب وعدت إلى دارك، فهل تغضب منك القديسة العظيمة، وهي التي خيرتك؟ ما دامت قد فعلت هذا فسترضى بأي خيار.

وسحبت طرحتها على رأسها، ونبشت في رأسها وقالت:

- كانت أكبرنا سنًّا تقول لنا: مَن غلبها الشيطان، لا مكان لها هنا، باب الدير مفتوح، ومَن لم تُرد البقاء فلتذهب، كيفما شاءت.

ثم تتوقف فجأة، فيشجعها «سمحان»:

- أريد أن أعرف كيف كانت تمضي حياتك هناك؟

أسعدها سؤاله، فردت سريعًا:



ودور كل راهبة في الدير معروف، وكل منَّا لها دفتر مدون فيه اسمها وعمرها، ومكان سكنها الأصلي وتاريخ دخولها الدير، وما تجمعنا في خدمة الرب، وهناك ننعم براحة البال بعيدًا عن هموم الدنيا..

كنا نسكن الدور العلوي، وغير مسموح لأحدٍ غيرنا بدخوله، فالدور الأرضي فقط كان مخصصًا للزيارات الخارجية، ثلاث مرات في السنة، ولأني مقطوعة من شجرة، لم يزرني أحد.. نحن هناك لا نعرف ما يحدث في الخارج، راهبة فقط هي التي تعرف وقد تخبرنا، وأحيانًا نعرف من حديث قريبات الراهبات في أثناء زيارتهن للدير، أو نسمع، دون رغبة منَّا، ثرثرة عمال الدير، الذين يذهبون ويأتون. وفي الدير لا نقود ولا خروج ولا تنزه.. يبدأ يوم الراهبة من الرابعة صباحًا، حيث تدخل طائعة في صلاة التسبحة، وهي تبدأ بالمزامير، ثم تسابيح لا تصحبها أي طلبات من الرب وتنتهي الساعة السادسة والنصف، وبعدها تبدأ فترة صمت حتى الساعة التاسعة.. كنت قد حددت طعامي مع أبي الروحي، واتفقت معه على التأخير في تناول الفطور، والتفرغ أكثر للتنسك، خاصة داخل القلاية، التي كنت أتحمل حرارتها اللافحة والخانقة، وأغرق في الصلاة وأنا أردد:

«أنا بنت الملك، ومعه أغلقت على نفسي»

«في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء»

«سلامي أعطيه لكم ولا يوجد أحد غيري يعطيه لكم»

تنحنح «سمحان» ولملم شتات نفسه، محاولًا أن يهيئها لإطلاق سؤال أجَّله طويلًا من فرط الخجل، ثم نطق به:

- هل كنت تحسين وأنتِ هناك أنكِ أنثى؟

ارتعد جسمها لسؤاله، ثم ابتسمت، وردَّت في هدوءٍ، محاولة أن تضبط خفقان قلبها:

- ليست هناك مرآة في الدير. خرجت بعد ثلاث سنوات لا أعرف شكلي، كل واحدة منَّا قصَّت شعرها، وتركت الزينة التي تتمسك بها البنات، وكل مَن تنتهي محاولتها بنجاح، يصلى عليها في يوم ترسيمها راهبة صلاة الجنازة، ولهذا حين تموت لا يُصلى عليها؛ لأنها ماتت يوم ترسيمها، وتُدفن بجوار الدير حيث قضت حياتها في خدمة الرب.. في السعي إلى الخلاص، والوصول إلى ملكوت الله.

ابتسم وقال لها:

- حياة صعبة، لكنها سهلة؟

- صعبة وسهلة في وقتٍ واحدٍ.. كيف؟

- صعبة في العزلة والجوع والصلاة الدائمة، وسهلة لأنكن تعشن هناك دون أن تحملن همًّا لتدبير معاشكن.

هزَّت رأسها نافية:



نسيت أن أقول لك، إن طالب الرهبنة لا يكتفي بالصلاة والصوم، بل يعمل بيديه، وقد يكون ذلك في مخبز الدير، أو الحوش حيث تربية المواشي وإنتاج الجبن والزبدة، أو في الزراعة، أو ورش الخشب والحدادة.. أنا اشتغلت بأشياء كثيرة، صناعة الأيقونات، وتلوين لوحات العذراء بألوان زاهية، وجمع عسل النحل.

كان يتابعها باهتمام وإعجاب، جعلها توضح له:

هناك أيضًا المكرسات، والمكرسة بتول قررت أن تكرِّس حياتها لخدمة الفقراء والمساكين والمعاقات والمسنات.

وشردت قليلًا في دير «أبو سيفين» للراهبات في مصر عتيقة، حيث ارتسم أمام عينيها مبنى من ثلاثة طوابق، مصمم على الطراز العربي، فالطابق العلوي تحوطه مشربية محفورة في الحائط، أسفلها مشربية أخرى تبرز عليها قضبان خفيفة من الخشب، ووجدت نفسها كأنها هناك منعمة في تلك الواحة المسوَّرة بصحراء منعزلة لا يعكرها ضجيج العالم، فهي بعيدة عن التراب وقطع الخزف الأثرية المكسورة التي تمتد لأميال جنوب القاهرة، حيث لا تستطيع أي مركبة ذات عجلات الدخول إلى هذه المنطقة.

وتذكرت الإسطبل الذي يقع خلف الدير، حيث توجد به بقرة تدير طاحونة الدقيق القديمة، المنقوشة على حجريها حروف عربية، واللذين يدوران في اتجاهين متعاكسين، فيدهسان الغلة بقسوة وينزل الدقيق من جنبيهما.

ولاحظ شرودها فلاحقها:

- إلى أين وصلت؟

ابتسمت، وتجاهلت الإجابة عن سؤاله، وبدا وكأنها تكلم نفسها:

- كنت دائمة التساؤل عن الزواج لكنني لم أسأل أحدًا غير «سامية» صاحبتي بل أختي، التي قالت لي ذات يوم وهي تحملق في السقف، بعد أن حكت عن الراهب الذي يحمل ضبعًا على كتفه والآخر الذي يسكن مع ثعبان ويتقاسم معه الطعام: الراهبة هي امرأة تعففت عن ألف رجل، كان من الممكن أن يتقدموا لخطبتها، بينما تعففت المتزوجة عن ألف إلا واحدًا فقط.. إنه فرق لا يذكر، وهذه ليست دعابة يا صديقتي، إنما هي قلب ما يجب أن نؤمن به، فالرهبنة أكبر من أن تكون مجرد امتناع عن الزواج.

وحين بكيت على حجرها ذات ليلة مما يجري لي، ردت في هدوء كأنها جرَّاح متمرِّس مقبل على إجراء عملية بسيطة:

- الرهبنة لا تصلح بديلًا عن الصدمات العاطفية، بل هي فكر واختيار يغشى الإنسان كله لسنوات سابقة قبل دخوله الدير.

استيقظت كل خلايا مخ «سمحان» لكلمة «العاطفية» التي نطقت بها، فوارب الحديث في هذا الاتجاه وهو يقاوم دقات عنيفة تهز صدره:

- وهل أنت دخلت الدير تحت تأثير صدمة عاطفية؟

ارتبكت لكنها ردت على الفور:



- أنا؟ لا أبدًا.. أبدًا، حالتي غير.. غير..

وبدا وكأنها تدفع عن نفسها أي أثرٍ لقوله، فحرَّكت أصابعها إلى الأمام والخلف وكأنها تهش كلامه بعيدًا، وقالت:

- كانت علاقتي جيدة برئيس الدير وتلميذه، وكنت محبوبة من كل الراهبات، لكن لم أملك عزمًا كي أمضي في الطريق إلى نهايته.. كنت أنظر طويلًا إلى صورة «أبو سيفين» الذي كان ضابطًا في الجيش الروماني وقتلوه لاعتناقه المسيحية وجهاده في سبيل نشرها، أراه وهو يمتطي جوادًا، ويظهر سيفين فوق رأسه، ويدوس قاتله بحوافر فرسه. تعجبني فروسيته، رجولته، سيفاه، وبمرور الوقت، نسيت أنه مات من أجل العقيدة، انتصر داخلي السيف على التبتل.

- وخرجت تبحثين عن فارسك؟

باغتها سؤاله، لكنها تجاهلته من جديد، وراحت تحكي عما فعلته في الدير، حين كانت تمشي خارجة في ممر مستقيم مظلم يؤدي إلى آخر منعرج راقد بين الحيطان العالية، يبدأ بعد الكنيسة الأخيرة.

وصمتت برهة ثم تنهدت وقالت:

- كنت لا أعرف أين أذهب إن خرجت من الدير، فليس لي في الدنيا سوى قسٌّ قريب لي، لكنني لم أكن أعرف إن كان على قيد الحياة أم تنيّح، ولحق بأبي وأمي.

تابعها صامتًا، وشعر أنها تتهرَّب من كل محاولاته دفع الحديث في الاتجاه الذي يريده، وتذكر المقولة التي قرأها وطالما سمعها من صديقه العاشق الموهوم: «يتمنَّعن وهُنَّ الراغبات»، فتشجع واقتحمها:

- أنت تركت الدير لأنك تحلمين بزوج وأطفال.

ارتبكت قليلًا، وهزت رأسها مؤمِّنة على كلامه:

- صحيح.

قالتها بصوتٍ رخيمٍ هامسٍ، فرقصت كل خلايا جسده، ثم تراخت ولانت، وتسللت الدموع الحبيسة إلى شرايينه، فاتسعت حدقتا عينيه، وراح أنفه يسحب هواءً ويدفعه في سرعة خاطفة، وشعر يديه يرتعش، ووجد نفسه يقول لها:

- تتزوجينني؟

زلزلها سؤاله، وصرخت في داخلها: «نعم»، ثم نطقت:

- هل تعرف ماذا تقول؟

- أعرف.

- ديني غير دينك.

- ديني لا يمنع هذا.

- وأهلك؟



- هذه حياتي وأنا حر فيها.

وشعرت أنها قد انزلقت في الاستجابة لطلبه أزيد من اللازم، فاستردت ما أعطته فجأة:

- لا أفكر الآن في هذا الموضوع.

وتراجعت ثلاث خطوات بظهرها، ثم استدارت، ومضت في طريقها، رشيقة كفراشة، تعجز ساقاها عن حملها من فرط البهجة، فأحست وكأنها تطير عند نوافذ البيوت، وتمسك شواشي النخيل التي تلقي ظلالها على جدار الكنيسة.

# 26

غابت بعدها أيامًا، أما هو فكان يأتي قبيل المغرب ويذهب عند الضحى، بعد أن يسلم المكان والشومة إلى «بسخرون» ليحرسه في النهار. وقضى «سمحان» هذه الليالي يتقلب فوق حقل من الأشواك والجمر، ولم يجرؤ على أن يترك مكانه ويزحف خلفها في العتمة كي يصل إليها. لم يكن يعرف أين البيت الذي تسكن فيه، ولم يكن من المستساغ أن يسأل أحدًا عن الغريبة التي سكنت القرية قبل أيام، حتى عند «أبنوب» حبس الكلام على لسانه، وخشي أن يسأله عما دار بينها وبينه. ذات يوم قال له وهو يعلق الفانوس على الجدار بجوار صورة المسيح وأمه العذراء:

- هناك صبية جاءت مرتين لتسأل عنك؟

مرّر بصره من بين حبال النور الخارجة من القفص الحديدي للفانوس، وقال:

- أتقصد «جميلة»؟

نبض قلب «سمحان» بقوة، وسحب الكلمات من جوف نفسه المهيضة ورد:



- أعتقد أن هذا هو اسمها.

قال «أبنوب»:

- بنت غريبة، لجأت إلينا، بعد أن فشلت في إكمال طريق الرهبنة، لكن لديها صنعة جيدة تعلمتها في الدير هناك، يمكن أن تساعدها على أكل العيش هنا.

سهر «أبنوب» في الكنيسة ومعه أربعة شمامسة: «الأبصالتوس» مرتل الألحان الروحية، و«الأغنسطوس» قارئ الإنجيل وشارحه، و«الإبيذياكون» مساعد الشماس الذي يحفظ نظام الكنيسة ويضمن هدوءها، و«الدياكون» خادم المذبح داخل الكنيسة والفقراء خارجها وبين الكاهن. دار بينهم نقاش طويل، وصلت همهماته إلى أذني «سمحان» وهو واقف عند الباب، يحدق في الفراغ والظلام، ويهش بيده الأشباح التي تمرق من أمام عينيه قادمة من النهر إلى الجبل والعكس، وهو يهز رأسه ليستيقن من أنه لا يزال يقظًا.

في إحدى المرات رفع شومته وطوّحها في اتجاه شبح كان يخرج له لسانه، بعد أن تباطأ أمامه، لكن الشومة راحت وجاءت ولم تفعل شيئًا سوى تمزيق الهواء، ثم أفلتت من يده، فدقت باب الكنيسة، ورفع القس والشمامسة رؤوسهم ورأوا ظل «سمحان» منكسرًا في ضوء الفانوس، وساعده ممدود نحو خيط أسود مستقيم، تلتقطه أصابعه، ويعتدل، ويمضي الظل بعيدًا ليختفي في الظلام.

نظـروا في عيون بعضهم البعـض، وانعقدت إرادتهم على أن يطلعوا إلى ما يجري في الخارج، فنادى «أبنوب»:

– سمحاااااان.

التفـت إلـى الخلـف وذهب نحـو الصـوت، الذي ينطلـق من جوف الكنيسـة، اقترب من الباب، وهمَّ ليُدخل رأسه كي يرى فم «أبنوب» وهو يناديه، ويعرف منه لماذا يريده. ضرب الشومة في الأرض، فاندفع نصف خطـوة قبـل الأوان، ومدَّ بوزه ليرى، ليجد خمسـة رجال يجلسـون فوق حصيرٍ من القش راقدٍ على فراش من الرمل الناعم، تداعب الريح جنباته، فيهيـج قليلًا بغبار يدور ثم يهدأ، ليستقر في مكان آخر، مفسـحًا الطريق أمام غلالة غبار أخرى لتمارس اللعبة ذاتها.

اقترب «سـمحان» منهم، وهمَّ بمد عينيه إليهم ليعرف ما إذا كانوا هم الذيـن كان يأتيه صوتهم من الكنيسـة قبل قليـل أم غيرهم، ويعرف كيف تبـدَّل الكليم الذي يجلسـون عليه إلـى حصير، وزالت جدران الكنيسة أو ذابـت فـي الفـراغ، وحـلَّ الرمـل والحصى مـكان القرميـد والحجر، إنها الأسـئلة التي اشـتعلت في ثانية واحدة برأسـه، ولا يعرف سبيلًا إلى إجابتها، ولذا لـم يكن أمامه خيار من تلبية نداء مَن ناداه:

– سمحاااااااااااااااان..

أدرك أن نبرات الصوت هذه المرة مختلفة عن تلك التي سـمعها من حنجرة «أبنوب»، هل يغير «أبنوب» صوته حين يتحدث بحسـم أو يشعر



بالخطر؟ أم أن هذا صوت واحدٍ من الجالسـين معه، والذين لم يسمعهم يتكلمون قبل اليوم، ولأول مرة يرى بعضهم؟ لا يعرف.

استجمع خبرته فـي كل الليالي العصيبة التي مرَّ بها، وسـار نحوهم، فوجد أكبرهم سنًّا يشير إليه بطرف إصبعه آمرًا:

– اركب.

رفع طرف جلبابه، ووضع الشـومة تحت إبطـه، وراح ينقل قدميه في حذر وكأنه مقبل على خوض ماء غزير. ضحك الرجال الخمسـة على ما فعل، لكن أحدهم مدَّ يده إليه، وجذبه ليستقر وسطهم.

ارتفع الحصير عن الأرض، ودار دورتين في الهواء، ثم حطَّ عند سنِّ الجبل. هل هو الجبل نفسـه الذي يعطيه «سـمحان» طوال الليل ظهره أم هو جبل آخر؟ لا يدري، ولا يهمه أن يدري، بعد أن تمتم في سرِّه: «كلها جبـال الله، أوتاده التي يربط بها الأرض، مثل وتد السـنط الذي أربط فيه حماري». لكن ما يدركه جيدًا أنه كان جالسًـا هناك أمام باب الكنيسـة في الليل، وها هو يطير في النهار، وفيه يحط على الأرض.

مـن عـلٍ، رأى الرجال الخمسـة، وقبلهم «سـمحان»، حشـدًا كبيرًا، مرفوع الهامات، وأبصار الناس ذاهبة إلى رجلٍ أعور يأمر الصخر فيطيعه. ونادى رجل بدين يقف عند طرف الحشد على الجالسين: «تعالوا قبل أن ينطبق عليكم الأخشـبان». وشـعروا أن الجبل يهتز من تحت عجيزاتهم، فضربـوا زاوية الحصير فمرق إلى أسـفل وحـطَّ على الرمـل إلى جانب الناس، الذين يتابعون كل شيءٍ في عجب.

كانوا ينظرون مشدوهين إلى الجبل الذي يرتفع من مكانه، ثم تتمايل أفلاقه الضخمة راقصة، يمينًا ويسارًا، وتعلو لتظل الشمس من تحتها، بينما يقف أمامه رجل نحيل، ينتعل حذاءً من جلد البقر المدبوغ، لونه كلون عينه اليمنى المفقوءة، وعلى كتفيه عرق من الخشب، عُلّق في طرفيه دلوان كبيران مملوآن بالماء، الذي يهتز فيسيح نحو الشروخ في الخشب، ويتسلل إلى ملابسه، فتنز بالبلل، وبعض قطرات منها تتساقط فوق رؤوس الرجال الخمسة الجالسين في هدوءٍ فوق الحصير، وهم لا يتحركون مبتعدين، ولا يبدون أي تبرُّم. كان الرجل يقول في تبتل عميق: «كيرياليسون.. كيرياليسون»، وراح الرجال الخمسة ومعهم «سمحان» يرددون معه، محاولين أن يعيشوا حالة الخشوع التي يحياها في هذه اللحظة الغريبة.

كان الرجل النحيل يردد: «لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم». كان يردد وحيدًا، بينما ينصت الناس الجالسون على الحصير إلى أصواتٍ مختلطةٍ تصدر عن رجال يتابعون ما يجري في غيظ، وعليهم كبر وعجرفة ظاهرة، بينما تبصُّ من النوافذ عيون نساء مختبئة وجوههن خلف الطرحة واليشمك.

تحت النوافذ كان يمشي الناس مترنحين من فرط الجوع، وهناك جثث ملقاة إلى جانب الجُدر، بينما غارت مياه النهر الذي يجري خجولًا وراء البيوت، وعلى ضفته يجري درويش يحمل سيفًا من الخشب،



ويهش الناس كي يلتزموا دُورهم لينجوا من الوباء العظيم، وأمامه يمشي قسٌّ يغرس أصابعه في لحيته الكثة ويقول وهو يبكي:

«الله سيخرج من الآكل أُكلًا ومن الجافي حلاوة.. وإذا جربني أخرج كالذهب».

لكن قسًّا آخر ينظر بعينين غاضبتين إلى زميله، ويهشه بيده وهو يتساقط عليه قطرات من عينيه، ويصرخ:

«الكل باطل، وقبض الريح، ولا منفعة تحت الشمس»، ثم يرمق الناس بنظرةٍ عابرةٍ ويقول لهم: «لا تضلوا، فإن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة».

وتلهّى الناس في هذين القسّين العجوزين، وحولوا أبصارهم جميعًا عن الرجل الأعور الذي يراقص الصخر، فلما غاب القسّان عن الأعين في تعرجات الحواري، أعادوا الأبصار نحو الجبل فلم يجدوا الرجل. «لقد اختفى»، صرخ أحدهم في جزع، وسرت همهمات في وسط الحشد حتى وصلت إلى كل أطرافه: «اختفى.. اختفى».

لكن صوتًا كان لا يزال يتردد في الأثير، ويصل إلى أسماع الناس، إنه صوته الذي سمعه الجميع قبل قليل وهو واقف يهز الجبل بعين واحدة.

«الحق أقول لكم، إن مَن قال لهذا الجبل، انتقل، وانطرح في البحر، ولا يشك في قلبه، بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له».

ردَّد المحتشدون ما سمعوه، لكن الجبل ظلَّ على حاله، لم يتحرك ولو عُشر خطوة، فأعادوا الترديد بلهفة وحرقة وأمنيات، إلا أن شيئًا لم يتغير، فوضعوا أيديهم على قلوبهم وهزوها بقوة، لعلها تستيقظ من غفلتها، وأرسلوا عيونهم تبحث من جديد عن الرجل الأعور الذي غاب.

كانوا جميعًا لا يرونه، إلا «سمحان» الذي حملق فيه جيدًا وهو يجري بعيدًا عنهم، وجسمه يذوب في الأثير أمامهم، لكنه لا يزال على حاله أمام «سمحان»، ولهذا صرخ: «إنني أراه»، لكن الجميع طوَّحوا أياديهم في وجهه، وسأل أحدهم: «مَن هذا الغريب المأفون؟»، لكن لم يتلقَّ إجابة فلاذ بالصمت، ودفن رأسه وسط الرؤوس.

خلع «سمحان» نفسه من بين أجساد الرجال الخمسة، وراح يسابق الريح جريًا وراء الأعور، الذي ترك الجميع مذهولين مما فعله، ووسَّع الخطى ليلحق برجلٍ آخر، أشعث أغبر، طويل ونحيل، ثوبه قديم به رقعتان، وفي قدميه مركوب ممزق، تطل منه أصابعه الخشنة، وشقوق في كعبيه مكبوسة بالرمل، وحشرات الطرق. لكن هيئته البسيطة وصفار وجهه لم يفقداه الجلال والمهابة، وزانه هدوء الطبع والتواضع، وحلاوة اللسان، وحرصه على أن يدقق في كل خطواته وأقواله.

صرخ «سمحان» مناديًا عليه:

- يا «عبد العاااااااااطي».

فقد كان يشبهه إلى حدٍّ بعيدٍ.



«هل جاء مرة أخرى مثلما أتى من قبل في ليالي طهنا الجبل؟».

سأل نفسه، لكن الرجل لم يلتفت إليه، بل لملم ملامحه المبعثرة في عيني «سمحان» وسار في طريقه بين ماضٍ وحاضرٍ، وحاضرٍ وماضٍ، وبين حالٍ يمزج الليل بالنهار، والحلم بالحقيقة، ولا يترك الفتى الحائر إلا أشد حيرة.

كان شعر الرجل البسيط مجعدًا ينزُّ عرقًا، يبلل جبينه وينشع على ملحفة بالية راقدة فوق كتفيه، تلملم الظلال العابرة، وتلقيها على رأسه، لعلها تجفف عرقه، أو ترطِّب شفتيه الغليظتين المقددتين اللتين تتمتمان بكلمات حين نطقها قبل قليلٍ أثارت عليه بعض الأساقفة والأراخنة والقساوسة، بينما تابعتها فتيات المدينة منبهرات، ولوَّحن له من خلف النوافذ مبتهجات، لكن الأصوات الخشنة التي أتت من الداخل أجبرتهن على الهرولة إلى الداخل، قابضات على المعاني التي أطلقها صاحب الهيئة المزرية، والعقل الجميل.

- إنه يهز الرؤوس بأقواله العميقة.

هكذا قالت سيدة تمشي أمام «سمحان» دون أن تعيره اهتمامًا، وهي تناجي صاحبتها التي ردت على عجل:

- لكنه يفتح باب الأهوال على الجميع.

وبعدها صمتتا صمت القبور، فتركهما «سمحان» وجرى نحو الرجلين اللذين يمشيان في اتجاه الخلاء.

حين اقترب الأعور من الرجل ذي المنظر الخشن، مدَّ يده ليصافحه وهو يقول:

- لا تنسَ في رحلتك المضنية أن الله محبة.

هزَّ الرجل الخشن رأسه، وردَّ عليه في هدوء:

- من محبته أن يرسم لنا خطوات الطريق إليه، ويترك لنا حرية اختيار الوسيلة التي نمضي بها، على أقدامنا أم على دواب، أو حتى زاحفين على بطوننا، متمهلين أو متعجلين، ولنا أن نقف مكاننا إن أردنا.

مطَّ الأعور بوزه، محاولًا أن يلتقط المعاني البعيدة في هذا الكلام، ومال بعينه السليمة ليرى المدق الضيق الذي يشرخ بداية الصحراء، وقال:

- الله رسمه بالفعل.. الصلاة والصيام، والزهد في الملذات، وإدخال السرور على قلوب الناس، وقول وفعل كل ما يرسي السلام في الأرض.

أمَّن الرجل ذو المظهر الخشن على ما سمعه وأضاف:

- والعقل.. لا تنسَه في زحام الخواطر الطيبة.

ابتسم الأعور، وتساءل في حيرة:

- وهل رفعت هذا الجبل بالعقل؟

نظر إليه في دهشة وقال:



- أنا لم أرك ترفعه، لم أكن هناك، جئت على جلبة، ولمَّا وصلت وجدت الناس يتهامسون بما تقول وعلى وجوههم دهشة، لكنني كنت غائبًا، ولا أعرف ما إذا كان الناس قد رأوا سحرًا، أم هذه شائعات تجري على الألسنة، كما يجري طلع النخيل في الهواء، وحتى لو كنت فعلت هذا، فتلك معجزة، والمعجزات عطاء الرب لقلة من عباده، وهي مؤقتة، وبعضها يراها مَن عاصروها، ثم يضيف إليها التابعون من خيالهم الكثير. أما معجزة الله التي لا تنقضي، ووهبها لجميع البشر بحظوظ متفاوتة، فهي العقل.

صمت الأعور، وترك الكلام الذي سمعه يدخل رأسه بلا استئذان، ويدور فيه بحرية تامة، ليجعله ينطق:

- لا تعارض عندي بين هذا وذاك، فقد قضيت حياتي أستعمل عقلي في حياكة الجلود ودبغها، وأجدد فيها وأجرب على قدر استطاعتي، ومع كل مخرز أضربه على رقعة الجلد السميكة، أترنم باسم الرب، وينبض قلبي مقدسًا له، وحين ارتفع أمامي الجبل، وحطت الشمس البهية على وجهي، خفق قلبي، وأشرق عقلي بنور جديد.

ربَّت الرجل ذو المنظر الخشن كتف الأعور، وقال له:

- أشقيت نفسي حين رحت أقلب السطور الراسخة كالجبال، أزلزلها كما تزلزل أمامك أنت الجبل، وفق ما حكيت لي، أو سمعت الناس يحكون عنك. زلزالك أنت حدث ومرَّ، وعاد كل شيءٍ إلى مكانه، أما

زلزالـي أنا، فالرب راعٍ وحده، وإلا ستُحرق قراطيس، وتُزهق أرواح وتنطلق ألسنة كالذئاب، لتنهش بلا رحمة.

كانا يتبادلان الحديث في محبة بجبينين متطامنين في وداعة وتواضع، وكل منهمـا يحـاول أن يضاهي ما في رأسـه على كل ما سـمعه من أهله ليـدرك طريق الخلاص المبتغـى والمرتجى، ولا يعيـش حياته كخروف ضالٍّ.

وراح «سـمحان» يقلـب عينيـه بينهمـا، وأذنه تلقط كل مـا يصدر عن لسانيهما، بعد أن احتفظ بمسافة كافية تسمح له بأن يسمع كل ما يقولانه، وكلما خرج حرف منهما، أخذه في لهفة، وقبض عليه، ووعاه جيدًا، وهو في حال أشبه بخشـوع الصلاة، ثم أطلق هو الآخر العنان لعقله كي يفكر فيمـا يسـمع، ولقلبه أن يخفق لروعة ما يُقال، وظـل طيلة حياته فيما بعد لا ينسى هذه اللحظة.

حين جاءت لحظة افتراقهما، اختار أن يمشي وراء الرجل ذي المنظر الخشـن، وتابعـه فـي صمـت وهو يبتعد عـن المدينـة، ماضيًا فـي طريق مشـقوق بالصحراء الفسيحة، بينما عاد الأعور من حيث أتى، خطواته مشاها على مهل، ثم دخل أقرب زقاق واختفى.

سمعه «سمحان» وهو يحدِّث نفسه بصوتٍ خفيض:

- سأسـعى بـكل ما أوتيت من قـوة للحفاظ على كمال الله وسـرمديته، والدفـاع عن الـدور الأصلي ليسـوع، على غير ما يدعـي أولئك الذين



نسبوا إليـه مـا ليس فيـه.. أنا مَن ينزع عن الأسـاطير سـحرها لتسـقط صرعى تحت قدمي الحقيقة الناصعة.

وفي بقعة مطلة على ظهر الجبل خرج له أناس شـداد غلاظ، وقالوا له بصوت جماعي جهوري:

- ماجئتنا أيها المهرطق.

فنظر إليهم نظرة شاملة، وابتسم في هدوء، وقال:

- هو كلمة الله، خلقه وأسـماه، ولا يمكن أن يكونا شـيئًا واحدًا، ولا من مادة واحدة.

فانبرى له أكبرهم وصرخ فيه:

- اعترف بالخطيئة وسـنصفح عنك، فما تقوله جعل الوثنيين المدنسـين يسـخرون مـن ديننـا جهـرًا، وقسَّـمنا نحن إلـى ثلاث فـرق، وجعلت أهل السـلطة يستغلون رسالة السـماء في خداع العوام، ومع هذا نحن مسـتعدون أن نتـركك، ولا يغرنـك أن الملك قد انطلـى عليه بعض ما تهـذي به، فأحـوال الملـوك تتبدل، وملك معـك اليوم قـد يعقبه ملك عليك.

ساد صمت، واعتقدوا أنه سيراجع نفسه، لكنه فاجأهم:

- ليس لديَّ كلام آخر.

- ألا ترى أن الغرباء يتبعونك ليفسدوا علينا عقيدتنا.

- لـي أتبـاع هنا، بينكم، حتـى الملاحون يترنمون بأقوالـي وهم يفرغون حمولات السفن.

ودسَّ أصابعه في لحيته ونظر إلى كبيرهم وحذره:

- لا تنسَ مَن أنت، وكيف داهنت كي تصل إلى ما أنت فيه، ولو في قلبك ذرة من إيمان لصارحت الرجال الذين يقفون حولك الآن بحقيقتك.

مصمص كبيرهم شفتيه وقال:

- لتعلـم أن نصـري أمر حتمـي، رغم أنني أصـارع ضد العالـم، والعالم يصارعني.

هزَّ الرجل ذو المظهر الخشن رأسه، وردَّ في ثبات:

- منـذ متـى كان الظـن ينتصـر علـى اليقين؟ أنـا أخاطب عقـول الناس، وأراهن عليها؛ لأن ما يهز القلوب قد لا يدوم وما يقنع الأفهام لا يغلبه الزمن..

قهقه كبيرهم، وقال له قاطعًا:

- سترى الآن هزيمتك بعينيك.

ونـادى مَن وراءه فسـحبوا من خلـف الجبل بغلين سـمينين محمولة فوقهمـا أجولـة مربوطـة، أنزلهـا الرجـال، وفتحـوا فوهاتهـا، ورفعوهـا بأيديهـم مـن أطرافها فتسـاقطت قراطيس على الأرض. نظـر الرجل إلى



الورق العاليـة، وضحك حتى رنَّ صوته بين أضـلاع الجبل، ونظر إلى الرجل الذي يحاججه، وقال:

- هذا كل ما كتبـه المهرطقون عنك، جمعناه من كل البلاد، ولـم يبقَ لك عند أحد شيء، وسنحرقه كله الآن أمام عينيك.

واشـتعلت النـار حامية، وطار الدخـان فأغـرق لحية الرجـل وثوبه المرقع، وغطـى رأس «سـمحان» الذي كان يقـف بعيدًا، بعد أن استتر بصخرة عاليـة حتى لا يـروه، ويظنـوه من أتبـاع مَن يحرقون قراطيسـه، فينقمون منه.

وحيـن غطى الدخـان المـكان، اختفى الرجـل ذو المظهر الخشـن، ولم يعثر أحـد عليه. جرى المحتشـدون يمينًا ويسـارًا، ضربـوا عيونهم في الصحـراء بعد أن تجاوزوا الدخان فلم يروه، رفعوا أحجارًا وقلَّبوها، وركب اثنان منهم البغلتين، وضربوهما بقوة فرمحا إلى الأمام في الاتجاه الذي كان الرجـل المختفـي يرمـي إليـه عينيـه قبـل أن يغطيـه الدخان. باقي الرجال جلسوا يائسين يتلفتون في كل اتجاه.

فجأة أشار أحدهم ناحية «سمحان» وصرخ:

- هذا من أتباع المهرطق.

وجروا إليه جميعًا فرفع شومته، وأطلق ساقيه للريح، وهو يسعل بقوة من بقايا الدخان الذي كان يذوب في موجات الهواء التي تدفقت بقوة.

كان سـريعًا مثل الريـح التي تنفخ جلبابه، ولم يتمكـن الرجال من أن يصلوا إليه، لكن أحدهم مال على الأرض والتقط حجرًا وقذفه بقوة نحو رأس «سـمحان» فصـرخ، ولفَّ صوته أفلاق الجبـل وفجاجه، وتعثر في خطواته فسقط مكانه، وارتطم رأسه بحجر كبير، وأفلتت الشومة من يده فأخذت الريح تدحرجها بعيدًا عنه.



# 27

قبيل الفجر، جاء كلب ضخم من الشارع المؤدي إلى الكنيسة، وراح يتشمم «سـمحان»، ويلعـق خيوط الـدم المتجلـط في رأسـه، لعق بقوة من فرط الجوع، وشـدَّت أسـنانه شـعرًا يقف على ضفـاف جرحه، فتنبه المغشي عليه وفتح عينيه ليجد أذني الكلب الكبيرتين تحطان على خديه، واستدانهما كلما تحرك لسانه ليسحب الدم.

قام مفزوعًا، ففزع الكلب منه وجرى بعيدًا. حطَّ يده على رأسه فوجد جرحه، بينما لم يكن هناك لا الرجل الأعور ولا صاحب المظهر الخشن. وتحسَّس عنقه فوجد الكوفية لا تزال ملفوفة عليه، فسحبها وغطى رأسه، ليحمي الجرح من الذباب وخفاف الرمل التي تحملها النسائم.

مسـح المـكان بعينيه بحثًـا عنهما، فحطَّ ناظـراه على باب الكنيسـة، كان مغلقًـا، وعصفوران صغيران يقفان أمامه، يلتقطان شـيئًا من الأرض بمنقاريهما، ويرمقان وجه «سـمحان» بين حين وآخر، فما إن نهض وهو يتثاءب بصوتٍ مشـروخ، ويفرد ذراعيه متغلبًـا على بقايا النعاس والألم، حتى طارا نحـو النخلـة الواقفة عنـد طرف الكنيسـة، تشـاكس جريدها الطويل نسائم الصبح الطرية.

جلس مكانه، وزحفت يداه باحثتين عن قرطاس الشاي، وعلبة السكر، فلما وجدهما نفض بقايا الحطب ورصها وأشعل فيها النار ودفس براد الشاي، ثم مال بجسده إلى اليمين حيث يضع صرة الطعام فلم يجدها، نفخ متبرمًا بعد أن رآها بين أسنان الكلب، الذي لعق ما قام إليه في حذرٍ ليستردها منه، لكن الكلب تنبه له، فرفعها بين أنيابه وجرى بعيدًا، تاركًا إياه يتميز من الغيظ.

- سأشرب الشاي على الريق.

حدَّث «سمحان» نفسه وكأنه يشجعها على التحمل، وفكَّ غطاء علبة السكر ووضع الكثير منه في الكوب، وهو يتابع بطرف عينه نشيش الماء على النار، كي يخطف البراد قبل أن يفور ما به.

وفي الرشفة الثالثة جاءته تمشي على استحياء، وشعاع شمس الصبح الأليف ينكسر على ظهرها، فيرتمي ظلها على وجهه فينتبه. رفع هامته فوجدها أمامه تبتسم. وقبل أن ينطق بحرف، بدأت هي:

- لم أنم طوال الليل، وانتظرت الصبح بفارغ الصبر، لآتي إليك لأسالك...

قاطعها:

- مطلوب منك إجابة وليس سؤالًا.

- سأجيب بعد أن تجيب.

- سلي ما شئت.



- لماذا طلبت الزواج مني؟

ضم شفتيه، وأصدر بهما صوتًا: «إمممممممممممممم»، ثم هزَّ رأسه، وقال:

- لأكمل نصف ديني.

- فقط؟

- ألا يكفي هذا؟

- قد يكفيك أنت، لكنه لا يكفيني أبدًا.

- وما الذي يكفيكِ إذن؟

صمتت برهة وقالت:

- لا يعوضني عن الرهبنة سوى الحب.

- أستبدلين بهذه ذاك؟

- لا، لكن لأجل هذا تركت تلك.

- كيف؟

صمتت برهة، ثم انطلقت تحكي. لم تقل له بالقطع ما كان يفعله معها في أحلام الليل اللذيذة، إنما اكتفت بأن بينت له أنه قد جالسها وسامرها وهمس في أذنيها بكلام جميل، وأنها من أجل هذا تركت الدير؛ لأن البتولية لا تجوز مع يقظة مثل هذه الرغبة. وتابعها صامتًا، وهو يتذكر

أنها أيضًا جاءته في ليالٍ عديدة قبل أن يقابلها، وسأل نفسه وهو شارد في ملامحها المخلوقة بعناية: «هل كانت تتطابق أوقات لقيانا في أحلام الليل؟».

وأراد أن يبدِّد حيرته فسألها:

- متى كنت آتيكِ؟

فأخفضت عينيها في خجلٍ وردت:

- في أوقات كثيرة.

فابتسم وقال لها:

- وأنتِ أيضًا طالما جئتِ إليَّ وأنا أحرس آثار «طهنا».

ارتبكت وخبأت وجهها في صدرها، وشعرت أنه يعرف كيف كانت تراه في أحلامها، أو أنها قد جاءته في أحلامه بلا شيء يواريها أو يداريها، لكنها لم تلبث أن تغلبت على ارتباكها، وقالت له بصوت رخيم:

- المهم أننا تقابلنا قبل الآن.

مد أصابعه ولاعب الشومة في رزانة، فراحت تشعر أن أصابعه تتحسس جسدها هي، وتوقظ خلاياها الحية بدلًا من خلايا الخشب المتيبسة، بينما يرسل إليها نظرات لم تعتدها من أحد، كانت مصوبة إلى مقلتيها في جرأة هزتها، وكأن «سمحان» قد ادَّخر طيلة السنين الفائتة هذه الطاقة ليخرجها في هذه اللحظة فيغزوا بها نفس مَن قصد أن تكون



له حبيبة أو شريكة حياة. غزاها في الواقع مثلما كان يفعل في الحلم، فاستعادت وهي أمامه كل ملذَّات الليالي الفائتة، ووجدت أن الجدار الأثير الذي تختبئ خلفه ينهار فجأة، وتقول له:

- أنا موافقة على الزواج.

لسعته البهجة فانتفض من مكانه، وخطف الشومة الملساء، وراح يرقص ويطوح رأسه نحو الجبل تارة، ونحو النهر تارة، غير عابئ بالألم، وهي تتابعه ضاحكة. وفجأة سقطت الكوفية عن رأسه، فبان جرحه، ورأته هي فزعت، وقطعت الخطوات بينهما في لحظة، ووضعت يدها على الجرح، وحطَّ صدرها على صدره، دون أن تدري، ووجد وجهه في وجهها، فلثم شفتيها سريعًا، فجفلت وتراجعت، ثم ضحكت، ونهرته:

- لا تستعجل يا مجنون.

كانت ضحكتها خافتة، فلم تصل إلى أذني «أبنوب»، لكن وصلت صورتها إلى عينيه وهو واقف يتثاءب على سطح منزله، ويرسل عينيه ليتأكدا من أن الكنيسة لا تزال في مكانها.

## 28

كعادته رمى «أبنوب» بصره، ثم فغر فاه، فقد رآها تضحك لمَن يرقص، يتمايل وتضم كفيها لتصفق له في خفة، لا تكاد أصابع يدها اليمنى تلمس أصابع يدها اليسرى، لكنها تصفق. وحين كفَّ عن الرقص اقترب منها في خشوع، وكأنه يصلي، بدا لـ «أبنوب» في هذه الحالة كهيئة الجالسين أمام الصليب يتضرعون للرب، وقال لها وهو يمد يديه في خضوع ظاهر كلامًا لم يسمعه لكنه فهم ما يعنيه، وسأل نفسه في غيظ:

– متى تعارف أولاد الأفاعي؟

انتابه إحساس بأنه مكلف بأن يفعل شيئًا ليمنع وقوع خطيئة، وثارت حميته فراح يغمغم، وركل علبة سردين فارغة كان قد أكلها قبل أسبوع وحملها ابنه ليلعب بها على سطح البيت، وارتاح لصرختها «ترررررررررررمب» وهي تصطدم بالسور المنخفض، الذي خطا إليه في قفزة واحدة، وضربه بيده، كي يصرع دفقة ألم شديد هزت قلبه خفيفًا لأنه انهزم لحظة أمام رغباته وهواه.

شعر في هذه اللحظة أن ما نما داخله حيال «جميلة» لم يكن كذبًا، لكنه كان محتارًا في تفسيره، أهو إحساس الأب حيال ابنته؟ أم شعور



راعي الكنيسة إزاء شعبه؟ أو شيء آخر لم يجربه من قبل حتى وهو في بهجة الصبا؟ كان مشغولًا بالكتاب المقدس، والسير بخطى واثقة في طريقه، سالكًا رتب الكنيسة واحدة تلو أخرى بامتنانٍ ورضاء. تزوج من قريبته دون تدبير منه ملبيًا رغبة أبيه ومشيئته، خطبها وأقام إكليله ودخل بها في عشرة أيام لا أكثر، اهتز معها جسده لكن لم تخفق روحه أبدًا. لم يحزنه هذا، بل طالما قال لنفسه مصبرًا إياها أو مقنعًا لها: «أراد الرب أن تكون الروح له وحده».

اليوم وهو يمضي في أول العقد السادس من عمره يشعر بارتجاف قلبه، خفيفًا هو كوخزة دبوس، لكنه راح يغزوه ويتعمق ويكبر، دون أن يعرف له سببًا. كثيرًا ما هز جسده لينفضه، وكأنه شيء علق بملابسه أو حتى بجزء من لحمه، لكنه لم يكن هكذا على الإطلاق، بل كان هو الإحساس الذي لم يعشه في الصغر، قد أتاه على كبر، ولم يكن أمامه من سبيل للمقاومة سوى الإغراق أكثر في الصلوات، ومحاولة إقناع نفسه بأن ما يشعر به هو حدب أب على ابنته.

راح يتمتم محاولًا أن يسري عن نفسه:

«إن غير المتزوج يصرف همه إلى أمور الرب،

والوسائل التي يُرضي بها الرب،

والمتزوج يصرف همه إلى العالم

والوسائل التي يرضي بها امرأته،

فهو منقسم».

ووجد نفسه يتبسم رغم المرارة التي تملأ حلقه من قول «الوسائل التي يرضي بها امرأته»، وتذكر كيف أنه، وإن أحسن معاملتها كأم لولديه وابنته، فإنه لم يقسم قلبه بينها وبين الرب أبدًا. واعتقد في هذه اللحظة أنه هو أيضًا كان عليه أن يختار، إما أن يكرس حياته للمسيح، ويتعبد له متبتلًا، أو يتزوج وينجب البنين والبنات.

ومع هذا كانت لديه ثقة في أن إرادته وتجربته الروحية مع المسيح، وحتى طاقته الجسدية ليست بعيدة عنه، ألا يصوم كثيرًا ويحرم جسده من ملذات الطعام، وألا تصرفه الصلاة في أوقات عديدة عن الجماع، وألا يردد دومًا وعيناه تفيضان بدموع غزيرة:

«مَن أتاني ولم يفضلني على أبيه وأمه وامرأته وبنيه،

لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا.

ومَن لم يحمل صليبه ويتبعني،

لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا».

– لكن ما هذا الشعور بالغيرة الذي انتابك يا «أبنوب»؟

راح يسأل نفسه، وتذكر وجه «جميلة» الملائكي وهي جالسة أمامه، تعترف له بما جرى لها، وتطلب منه أن يساعدها في إيجاد أي سكن هنا في تلك القرية، لتبقى قريبة من المكان الذي جاءت إليه أم المخلص، وتذكَّر كيف سرت في عروقه شهوة عابرة حين حطَّ عينيه على صدرها،



وظلَّ يردد في سرعة بعد انصرافها حتى تيبس لسانه وكاد جلد وجهه يتشقق من فرط الانقباض:

«وقيل للقدماء: لا تزنِ. أما أنا فأقول لكم: إن مَن ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تلقي بك في العثرات فاقلعها، وألقها عنك، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك».

وكان يراها رغم أنها تركت الرهبنة فتاة طاهرة عفيفة، تكره الخطيئة، وتنشغل بالعمل ليوم الدينونة، بل قدر لها أنها متسقة مع ذاتها، لم تخدع نفسها ولا مَن حولها، وكان بوسعها لو كانت سيئة السريرة أن تمضي في طريقها، منقسمة بين المسيح والدنيا، ومملكتها نصفها في السماء ونصفها على الأرض، لكنها في اللحظة المناسبة خرجت في هدوء، دون أن تفقد أبدًا كل ما تعلمته في تجربتها العميقة بالدير من معانٍ روحانية خالصة، وقيم أخلاقية سامية، هكذا بان في كلامها وهي تتحدث معه عن أيامها التي رحلت.

– ما الذي جرى لها؟ هل أغواها هذا الشاب المجنون؟ هل طمع في أن يتلاعب بها وهي بلا خبرة في عالم الرجال؟

سأل نفسه، وهو ينزل درجات السلم الحجري المتآكلة أطرافها، حتى أصبح في غرفته. ارتدى لباسه الأسود على عجل، ومرق إلى الشارع في اتجاه الكنيسة.

حيـن اقتـرب كانت هي تتراجـع بظهرها، ناظرة إلى وجه «سمعان» السـابح فـي نور شـمس الضحـى ودفئها. رفعت رأسـها فحـط عينيه في عينيها وهو يقول بوجهٍ عبوس:

- يبدو أن النوم لم يزُرك الليلة الفائتة؟

هزَّت رأسها:

- صحيح.

- لا ينام مَن انشغل باله.

أربكتهـا العبـارة، وحشـدت كل مـا أوتيـت مـن قـدرة علـى إخفاء مشاعرها، وردت في حيادٍ مزعوم:

- لم أعتد على النوم خارج الدير.

أغاظته كلمتها فنفخ بأنفه خفيفًا، وسألها مستنكرًا:

- لماذا تركت الدير إذا كنت قد لقيت فيه راحة؟

استغربت سـؤاله؛ لأنها كانت قد حكت له عما جـرى لها، لم تُخفِ عنه سـوى أن مَـن كان يأتيها في الأحلام هو هذا الفتـى الجالس أمامها تحمـل الريح إلى أذنيه بعض حروف ما يدور بينهـا وبين القس «أبنوب» مـن كلام. لكنهـا طـردت اسـتغرابها وقـررت أن تجاريـه، ولا تغضبه، فأجابت بصوت هادئ:

- تركته لسـبب أصعب يا أبانا، وقد أعتاد النوم هنا.. لكنني لم أكن قادرة على تعود الصبر هناك.



أطلق صرخة فخرج صوته مشروخًا:

- الصبر على ماذا؟

بحسٍّ أنثوي لم يمت فيها بعد، التقطت من عينيه سرَّ انزعاجه وغضبه، وكذلك من صوته المشروخ المكسور، فردت عليه في ثبات:

- الصبر على ما لا يستطيع كثيرون أن يصبروا عليه ويغالطون أنفسهم.

«من أين أتت هذه البنت الجديدة علـى الدنيا بتلك الحكمة؟»، تردد السؤال داخله، ولا يعرف ما إذا كان مبعث ما هو فيه غيرة شديدة أم حسد أم نخوة دفعته إلى أن يباغتها:

- هل تنتظريـن أن ينعم الـرب عليكِ بالنـوم هنا؟ أم تريديـن وقتًا أطول للتسكع والمساخر؟

لسعها بشـدةٍ ما قاله، وشـعرت أن روحها مجروحة، لكنها تمالكت نفسها وقالت بصوتٍ مخنوقٍ بالبكاء:

- صدقني يا أبا...

لكنه لم يدعها تكمل، بل طوح كامل ذراعه في وجهها، وقال:

- أهـل هـذه البلدة محترمـون ولن يصمتوا علـى هذه المهـازل، فإما أن تلتزمي غرفتك أو.. أو..

- أو ماذا يا أبانا؟

- تمشين.. تمشين من هنا، تفارقينا بالمعروف.

شعرت في هذه اللحظة أنها قد أخطأت حين اعترفت له بما لا يضنيها، وسألت نفسها: «هل كل مَن في الكنيسة صالحون كي يضمدوا أوجاعنا ولا يمسكون منها ما يذلنا؟».

كانت تعلم أن ما فعلته لا يستوجب «الاعتراف» والجلوس في «خورس التائبين» أو تقديم ذبيحة، نعجة أو كبش، ولا أن تصلي صلاة الشكر وتردد المزمور الخمسين وأوشية المرضى، بعد العشية، ولا أن تردد: «خاصم مخاصميَّ، قاتل مقاتليَّ، قم أمسك مجنًّا وترسًا وهلم لخلاصي»، ولا أن تبحث عن شفاء لروحها؛ لأنها ببساطة لم تكن روحها مريضة.

كانت تريد أن تنفذ ما آمنت به لكن بطريقتها بعيدًا عما رتبه من أرادوا أن يجعلوا بين الناس وبين الرب حجابًا أو وسطاء. فقد تعلمت من صديقتها «سامية» التي كانت ابنة لعالم لاهوت تنيح في صمت وترك ابنته على أبواب الصبا، أن باب السماء مفتوح للجميع، وأن الرب ينتظر توبتنا في أي مكان وأي زمان.

وكانت تطابق هذا مع ما قرأته في الكتاب المقدس:

«اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا. طلبة البار تقتدر كثيرًا في فعلها».

«إن اعترفنا بخطايانا فهو آمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم».



في الحقيقة هي لم تعترف بالطريقة التي تعرفها الكنيسة، فما فعلته كان يومًا مع رجلٍ تشق في الزي الذي يرتديه، ويجب أن يعاملها كما يعامل الأب ابنته، والطبيب مريضه، والمعلم تلميذه، ويحفظ لها سرها، ولا يقسو عليها.

لم تعترف لأنها لم تقع في خطيئة، بل كانت مقتنعة أن ما فعلته هو الفضيلة بعينها؛ لأنها لم تخدع نفسها، ولم تحمِّلها فوق طاقتها، ورغم أن سلوكها الظاهري كان يجلب لها رضا مَن حولها ومَن يتابعون تجربتها في الرهبنة، فإن الرب وحده كان أعلم بما يستعر داخلها، ويهز جسدها بعنف، ثم يهدأ ليخطف روحها بعيدًا.

شيء ما كان يقنعها بأن ما تعتزم الذهاب إليه ليس بعيدًا عن طريق الرب، ربما هاتف يأتي من باطنها أو أحد يهمس في أذنها نهارًا أو يتجلى لها في رؤى الليل أو لبصيرتها النافذة، ولا شيء غيرها.

لهذا حين تعامل معها «أبنوب» بتلك القسوة، تركته في هدوء، وأعطته ظهرها وهي تردد في نفسها ما قاله المسيح ذات يوم لمن يتيهون بمكانتهم وموقعهم ويختالون بمظهرهم في نفاقٍ رخيص:

«أيها القادة العميان، الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل.. إنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءُون، إنكم كالقبور المبيضة، خارجها طلاء جميل، وداخلها عظام نخرة».

كانت أقوال المسيح تسري داخلها حين سمعت صوت ارتطام شيء «ترررررن»، التفتت حولها فوجدت «أبنوب» يمسك شومة «سمحان» ويضرب بها الحجر الذي يواجه باب الكنيسة، وكأنه يحذره: «إن لم تبتعد عنها سأهشم رأسك بشومتك البائسة»، ثم دخل الكنيسة، وصفق الباب وراءه. جرى «سمحان» إلى شومته الملقاة إلى جانب الحجر، مال والتقطها، وسار نحو حماره في صمت، ركبه، وانطلق عائدًا إلى بيته.



# 29

حين رجع في آخر النهار، شعر أن هناك شيئًا غير عادي في عيون المرأة التي قابلته وهي عائدة من النهر تحمل فوق رأسها بلاصًا ضخمًا مملوءًا بالماء، نظرت إليه من تحت طرحتها والبلل الذي ينز على جبينها، وقالت كأنها تحدث نفسها:

- بلدتنا طاهرة.

لاذ «سمحان» بالصمت، وسأل نفسه:

- هل أصاب «أبنوب» جنون إلى درجة أن يفضح، بأسرع مما يتصور أحد، مَن لجأت إليه؟

أما هي فقد عاجلته:

- صباح اليوم طلعت فوق سطح داري أُقطِّع الجِلَّة فشفتك تتمسخر مع البنت التي سكنت بلدنا جديدًا.

نغز رقبة الحمار بأظافره حتى يجري بعيدًا عن هذه السيدة، واصطدمت حوافره بالتراب الممزوج بالرمل، وثار غبار أمام عينيها واندسَّ في أنفها، فراحت تسعل بشدة، وتلهث في سعالها، حتى ابتعد عنها.

لم يزُر النوم عينيه حتى أذان العصر، فنهض وأهال حفنات ماء على وجهه، وركب حماره وعاد إلى «دير العذراء».

حين نزل أمام باب الكنيسة، كانت شمس المغيب تنزف بعض دمها على هامة الجبل، فينز على طرف الجدران، ويلقي بقعًا على نفسه المنقبضة، وعلى الصبَّار الذي نبت على جنبات حلقه.

مدَّ يده ليسحب قطع الليل حتى تغطي خجله، وتواريه عن عيون النسوة اللاتي رحن ينظرن إليه طويلًا، وهن واقفات على أسطح البيوت، يلملمن طيورهن المبعثرة، دجاج وإوز وبط وبعض ديوك رومي، تقرقر وتصيح قبل أن تدخل الخنان، وتغلق عليها الأبواب، فلا تصل إليها الثعالب التي تتسلل في مكر من الجبل، ومن الهيش الذي ينبت على بعض قطع الأرض عند شط النهر.

- يبدو أن أيامي هنا ستنتهي سريعًا.

حدَّث «سمحان» نفسه، وشعر بالخزي لأنه سبب لـ«جميلة» مشكلة، لم تكن في حسبانه، ولا يعرف كيف يتوصل إلى حل لها. هي غريبة عن هذه البلدة، ويمكن للنسوة اللاتي ينظرن إليه شزرًا من على هامات البيوت أن يقمن في أي لحظة بفتح باب غرفتها، وجذبها في قسوة، دون أن يتركن لها فرصة جمع ملابسها البسيطة، ثم يقذفنها خارج القرية. ستقف على طريق الأسفلت القديم المتشقق حائرة، وقد تأخذ الباص نحو «سمالوط» إن كان ذاهبًا، ونحو مدينة «المنيا» إن كان آيبًا، وهناك ستبحث عن مأوى جديد.



الآن يتذكر ما قالته وهي تغالب دموعها: «ليس لي أهل»، وكأنها كانت تريد في هذه اللحظة أن تقول له: «أنت أهلي»، فهمها، وعى ما يدور داخلها، عجنه بين كفيه ومسح به روحه، لكن أضناه العجز عن أن يفعل لها شيئًا. هي مسيحية وهو مسلم. ليست هناك مشكلة، هكذا فهم من كتاب وجده في صندوق عمه «رشيد» تصفحه بعد أن عرف «جميلة». ولم يكتفِ بهذا، بل ذهب إلى شيخ الجامع الجديد في «طهنا»، الذي تولى المهمة بعد وفاة الشيخ «عرفان»، فصمت قليلًا ثم راح يتلو بصوتٍ جميل:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾

وسكت، فنظر إليه «سمحان» يستحثه على أن يجيبه بطريقة مباشرة، أو يشرح له معنى الآية التي تلاها على سمعه. لكنَّ الشيخ هزَّ رأسه وقال:

- من ناحيتي أعرف الآن وأنا أمامك أنه لا بأس أبدًا من زواجك من مسيحية.. لكن دعني أعد إلى كتب عندي، وأستخلص لك إجابة مُحكمة.

في اليوم التالي جاء بفرخ ورق وقد كتب عليه كلامًا كثيرًا نقله من كتب قديمة، وراح يقرأ، يضع عينًا في الورقة، وأخرى على وجه «سمحان»:

«قال علاء الدين الكاساني: يجوز أن تنكح الكتابية، وذكر في تنوير الأبصار أنه يصح نكاح كتابية، في حين يقول شارحه في الدر المختار وإن كره تنزيهًا، فيما قال في الشرح الصغير على الدردير: وحرمت الكافرة أي وطؤها، حرة أو أمة بنكاح أو ملك إلا الحرة الكتابية فيحل نكاحها بِكُرْهٍ، وقال محققه: وإنما حكم مالك بالكراهة في بلد الإسلام، لأنها تتغذى بالخمر والخنزير وتغذي ولدها به، وزوجها يقبلها ويضاجعها، وليس له منعها من التغذي ولو تضرر برائحته، ولا من الذهاب إلى الكنيسة، وقال السرخسي: ولا بأس أن يتزوج المسلم الحرة، من أهل الكتاب. وقال النووي: ويحرم نكاح مَن لا كتاب لها... وتحل كتابية، لكن تكره حربية، وكذا ذمية على الصحيح. وقال ابن قدامة بعد أن ذكر أقوال العلماء وناقشها: إذا ثبت هذا فالأولى ألا يتزوج كتابية، أما المحشي فقال: تكره ذمية على الصحيح، لما مر من خوف الفتنة. وقال الخرقي: وحرائر نساء أهل الكتاب وذبائحهم حلال للمسلمين».

وضاع عقل «سمحان» بين تلك الروايات، فنفخ قليلًا، ثم فتح فمه في هدوء:

- وماذا فهمت أنت من كل هذا يا شيخنا؟

مد يده وعدل العمامة على رأسه، ورد:

- هناك من الصحابة من نكح كتابيات، يهوديات ومسيحيات، منهم «عثمان بن عفان» و«طلحة بن عبيد الله»، و«حذيفة بن اليمان»، و«حسان بن ثابت»، رضي الله عنهم جميعًا وأرضاهم.



وصمت برهة وواصل:

- ولماذا نذهب بعيدًا، الرسول الكريم نفسه تزوج السيدة «مارية بنت شمعون» التي أهداها إليه «المقوقس» حاكم مصر، وكانت ابنة واحد من عظماء القبط، وقد أنجبت له ابنه «إبراهيم»، الذي مات قبل أن يكمل عامه الثاني.

- وهل أسلمت؟

- بإرادتها، وصارت واحدة من أمهات المؤمنين، فلا توجد رواية واحدة تبين أن الرسول قد أجبرها على اعتناق الإسلام.. وقد أنزل الله صدر سورة التحريم بسبب السيدة «مارية»، وحين ماتت دعا الخليفة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه الناس للصلاة عليها، فاحتشد الصحابة من المهاجرين والأنصار، وشيعوها إلى مثواها الأخير، ودفنت إلى جانب نساء أهل بيت النبي وابنها.

# 30

استعاد ما جرى بينه وبين شيخ الجامع على مدار ساعات حتى انتصف الليل، وتنهد بحرقة حين تذكر أن كل ما كان يهم الرجل هو أن يتلو كل أقوال السابقين دون اعتبار لما يجري الآن، ولا للمشاعر الجميلة التي تسري بين عاشق ومعشوق.

ولم يجد «سمحان» أمامه سوى قرطاس الشاي وعلبة السكر، كي يخفف من وطأة آلامه في رشفات متمهلة. مدَّ يده وكسَّر الحطب وأشعل النار، ودفس الكنكة، بعد أن سكب فيها الماء، ورمى تلقيمة من الشاي، وثلاث ملاعق من السكر في الكوب، وانتظر أن يسمع نشيش المياه، لكنه فجأة سمع صوتًا يناديه:

- سمحااااااااااااااان..

تمنَّع عن الاستجابة، وتصرف كأصم، منشغلًا بالنار التي لسعت يده، وراح ينفخها لعل الألم يخف، نفخ بقوة كأنه يريد أن يطرد بالهواء الخارج من فمه حروف النداء التي تريد أن تدخل أذنيه. لكن الهاتف عاد قويًا من جديد حتى اهتزت الكنكة، وكاد الشاي ينسكب منها، وشعر أن الرمل والحصى الصغير الذي يفرش فوقه قطعة الحصير يفر في هدوء



إلى هاوية سحيقة، وخاف أن تنفتح حفرة عميقة وتبتلعه، فانتفض من مكانه، ونفض هدومه، وأرسل عينيه لتعانقا الظلام الشامل.

وجد دفقة نور تومض وتختفي، ثم استقرت وكبرت، حتى صارت دائرة وسيعة، وظهر فيها شبح يمشي على مهل، قطع خطوات إلى الأمام ونادى من جديد:

- تعالَ يا «سمحان».

مد يده التي رسمت ظلها في البقعة المضيئة فانفردت أصابعه أمتارًا حتى وصلت إلى صدر «سمحان» ومسَّته، فوجد نفسه منجذبًا نحو النور الأبيض، الذي لم يلبث أن تحول إلى نهار كامل، وزاد حتى غمر جسد «سمحان».

بعدها تحول الشبح إلى رجل يخُطُّ وحيدًا علامات قدميه على الرمل، وهو ينظر بعينين مفتوحتين إلى جوف السماء، ثم يرفع يديه ويبسطهما تحت سحاب عابر، يلقي عليه التحية، بإسقاط قطرات خفيفة على كفيه. كان يلتفت يمينًا ويسارًا وكأنه يبحث عن مكان ظليل يأوي إليه، ولو كان حجرًا يرفع هامته في وجه الشمس.

وفجأة انطلق صوت من مكان لا يعرفه الرجل، ولم يستدل عليه «سمحان» وهو يتابع ما يجري مندهشًا، ليقول بحنجرة جلية كنور الفجر:

- لك ثلاثة أكاليل، واحد للبتولية، وثانٍ للنسك، وثالث للشهادة، فالزم طريقك فهناك مَن ينتظرك في السماء.

دار حول نفسه وسأل:

- أي طريق يا هذا؟

- اذهب إلى الملك وادعُه إلى الإيمان بالمسيح.

هزَّ الرجل رأسه، وسار في اتجاه الشمال فبانت في الأفق أرض زرقاء ممتدة بلا نهاية، إنها البحر، وكان هادئًا. ثلاث خطوات فقط قطعها، ثم اختفى، كأن طائر الرخ قد اختطفه، أو الأرض ابتلعته، أو أن السحابة المتقدمة على مهل مالت بجناحها على الأرض وحملته، وأسرعت في قلب الريح، أو أن البحر مد لسانه وسحبه إلى الأعماق السحيقة.

في هذه الأثناء جلس «سمحان» إلى جانب صخرة كبيرة، وجال ببصره حوله فوجد حجرًا مفرطحًا هشًّا، التقطه ومسح به عرقه. وضربته نسائم طرية فنعس لمدة لا يعرف إن كانت قصيرة أم طويلة، وانتفض على جلبة عارمة فإذا بمجموعة من الرجال يسيرون خلف جوال حين فتحوه ليطمئنوا على ما فيه، ظهر رجل انحسرت ملابسه عن كل جسده إلا عورته، إذ توارت خلف قطعة قماش بيضاء، وقد وضعوه فوق جمل ضخم، على فمه رغاء.

اقترب «سمحان» منهم، حين برك الجمل، ومد بصره بين أذرعهم فإذا الرجل العاري هو ذلك الذي كان يمشي وحيدًا هنا. كان بين الحياة والموت، وعلى جسمه حروق غائرة، وفي مواضع أخرى تقشر الجلد وبان لحم أحمر مسلوخ. كان الرجل يلهث في هدوء، ويرسل عينيه لتغوصا في أرواح كل مَن حوله. كان يودع الدنيا.



أراد الرجال أن يوقفوا الجمل، ليصلوا به إلى حكيم مداوٍ يعيش على مسافة قريبة، لكنه تشبث بمكانه، إذ فرش بطنه كاملًا على الرمل، وزرع أخفافه فيها، وراح يرغي، فيصنع أمام فمه جرة كاملة من الزبد، راحت تسكب في الهواء خيوطًا بيضاء، نزلت على جسم الرجل المحروق، فغطتها، وبردتها بينما هو يحتضر في هدوء تام.

وقبل أن يقفل عينيه في الإغماضة الأخيرة، نظر في وجوههم جميعًا وقال:

- سيأتي الراعي العجوز، وسينام خروفه المريض على هذه البقعة فيبرأ تمامًا، وستصل حكايته إلى كل الأسماع، فيأتي الناس بمرضاهم طلبًا للشفاء، وسيرسل الملك الغريب ابنته مع تجريدة من جيشه العرمرم، لتحفن من تراب هذا المكان وتبلله بالماء، وتدعك به جسمها، فتبرأ من الجذام.

مال أحد أفراد المجموعة المصاحبة للرجل المحتضر والجمل على أذن صاحبه وقال:

- قتله الملك الفاجر، وتركه يهذي.

مصمص الآخر شفتيه في أسى وشرح جانبًا مما جرى:

- ذهب ليدعوه إلى الإيمان، فصرخ فيه: يا بن العاقر، التي أكلها الزمن حتى ولدت شخصًا طريًا مثلك، لم يُطق على الجندية صبرًا.

ثم أمر بإلقائه في النار لتشويه، وأخرجه منها ليموت على مهلٍ متعللًا بآلامٍ لا تطاق.

- لكنه تحملها مبتسمًا.

- وشاء الرب أن يتأخر موته حتى هنا.

نظر إليه الرجل مندهشًا من كلامه، وسأل:

- لِمَ؟

وقبل أن ينطق صاحبه بشيء، جاء صوت «سمحان»: «هذا المكان ناداه ليدفن فيه». كان قد اقترب منهم، وأدهشه أن الرجل النائم في قيامته يشبه «عبد العاطي»، والرجل الذي كان يسير مع السيدة التي تحمل طفلها على ذراعها، والرجل الذي ناداه عند المقبرة ليدخل الحضرة، وذلك الذي طرق باب «الكشك» قبيل الفجر.

التفتوا إليه جميعًا، وتبادلوا النظرات في استغراب شديد، ولسان حال كل منهم يتساءل: «مَن هذا؟ ومن أين أتى؟»، لكنه لم يدعهم غارقين في اندهاشهم، وأكمل:

- هذا رجل مبروك، وتلك بقعة مباركة، فلتحفروا هنا وتودعوا جسده، الذي لن يأكله دود.

- هل تعرفه؟!

سأله أحدهم باستنكار، وهو يطوح يده في الهواء، ثم اقترب منه، وحملق في هيئته، ووجد لباسه مختلفًا عن لباسهم، فظنه بدويًا ضل



طريقه في الصحراء، أو شخصًا متطفلًا جاء إليهم يستعطفهم بكلام معسول لعلهم يعطونه شيئًا.

وانبرى رجل منهم كان يقف في المنتصف، وقال له:

- انتظر مثلك حتى يقول لنا عن بركة الرجل الذي نحمل جثمانه.. لقد رأيناه بأعيننا قبل ساعات قليلة، حين خرجت علينا وحوش بحرية، وهاجمت المركب الذي كنا عليه قبل أن ننزل البر ونضع جثته على ظهر الجمل، واندلعت نار من جسده المحروق، ولفحت وجوه الوحوش، فغطست في الماء هاربة.

لكن «سمحان» كان يرى في هذه اللحظة ما لا يرونه هم، فجسد الميت كانت تتمدد فيه عروق من نور، فقال لهم:

- ضعوا أيديكم على وجوهكم، ولملموا حبات النور المتناثرة عليها.

قهقه أحدهم طويلًا، حتى تذكر «سمحان» ما كان يفعله «فتحي» حين كانا يحرسان آثار «طهنا الجبل»، وسأله في غيظ:

- لِمَ تسخر يا رجل؟

عاد الرجل إلى القهقهة وتقطعت حروف كلامه وهو يرد:

- ألا .. تــــ ترى شـــ شمـــ مس الظهـ ....ـر.

رفع رأسه إلى أعلى فحط الشمس في عينيه ورد عليه:

- نورها غير النور الذي أراه منبعثًا من جسد الميت.

حملق أحدهم في وجه «سمحان» مليًا، فوجد سحنته مخالفة في سحناتهم جميعًا، وكذلك ملابسه، وحروف كلامه تخرج بصورة في أصواتهم، فصرخ:

- هذا ساحر شرير.

انتبه الكل، وملأوا عيونهم منه، وتطلعوا من جديد إلى صاحبهم الذي واصل:

- جاء ليسرق بركة قديسنا.

ارتعشت أيديهم، وأوجسوا منه خيفة، وتقهقروا إلى الوراء، وبدت أبصارهم زائغة، ووجيب قلوبهم يرتفع «تق.. تق.. تق»، وساد بينهم صمت، وجبنوا في مواجهة رجل يقف أمامهم حائرًا، ولا يعرف لماذا وجموا؟ وماذا يدور في رؤوسهم خلال هذه اللحظة البلهاء؟

لكن فجأة تجاسر أحدهم، ورماه بحصاة، وهو يغالب ارتعاشة سرت في بدنه، وانتظروا جميعًا رد فعل «سمحان»، أو الساحر الشرير كما اعتقدوا. وحين لم يجدوا منه ما يدل على أنه يمتلك قوة تمكنه من تفادي الحصاة أو إلحاق أذى بهم، هجموا عليه في ضراوة، فلم يجد أمامه من سبيل سوى أن يطلق ساقيه للريح. جرى، وكان أصغر منهم سنًا، وأرشق بدنًا، فتمكن من الفرار بعيدًا، لكن بدنه خانه من شدة التعب فسقط مغشيًا عليه معجونًا في عرق لزج.



# 31

أفاق على غمزات متواصلة في كتفه. انبلجت عيناه فوجدها أمامه، مشرقة في غبش الفجر. ورغم نبرة الوجع في صوتها إلا أنها كانت تحاول أن تكون متفائلة.

لم نُضع وقتًا، فحين اعتدل «سمحان»، وانتبه إليها قالت له:

- لا بد أن نتزوج في أسرع وقت إن كنت جادًا.

وقف على قدميه لا يعرف إن كان فرحًا أو فزعًا، فرحًا لأن مَن عشقها عشقته، فما أسعده، بعد أن انفتح الباب أمام جسده ليرتوي بالحلال من جسدها الذي ذاق طراوته في أحلام الليل، وكان كلما اقترب من قطف لذته ضاع منه، فتنقلب المتعة إلى عذاب.

وفزعًا لأن ما قالته فتح أمامه بابًا للأهوال، مسلم ينوي الزواج من مسيحية، ما أسهل هذا في الشريعة وأصعبه عند ناس يزعمون دومًا أنهم يتمسكون بها. كيف سيفاتح أباه وأمه؟ الأب سيزم شفتيه في غضب ثم يقتحمها زاعقًا برفض حاد وقاطع. الأم ستدب على صدرها حانقة وهي تقول: «هل انعدمت بنات المسلمين حتى تتزوج نصرانية؟»، وسيسخر منه بعض أصحابه ويسأله بعضهم: «ماذا ستسمي أولادك وبناتك:

جرجس وأبسخرون وإيفون؟»، قلة منهم سيسألونه مندهشين: «هل سَحرك جمالها فأعماك عن أن تتوقف عند دينها؟»، واحد فقط منهم قد يسأله عن الحب، ويقف إلى جانبه حتى النهاية، ويمكن أن ينضم إليه آخر حين يرى جمال روحها قبل جمال وجهها، وثالث سيمشي مع سابقيه حين تمسه أخلاقها. وقد يفهم الجميع فيما بعد، ويعرفون أنه أحسن القرار والاختيار، لكن كم من الوقت يمضي وهو يكابد وجعًا في سبيل أن يقتنعوا بما فعل؟ وما الذي يدريه أن مَن حوله لن يضايقوا «جميلة»، أمه التي قد تصبح لها حماتين في وقتٍ واحد، وأبوه الذي سيلقي عليها بعض قسوته. أما الأولاد فإلى أين يذهبون: المسجد أم الكنيسة؟ أو هذا وتلك في آنٍ؟ وهل هذا يصلح؟

«أنزل الله الدين لإسعادنا فأشقينا به أنفسنا»، لا يتذكر أين قرأ هذه العبارة؟ ومتى؟ نسي تمامًا، ولا يريد في هذه اللحظة أن يمعن النظر فيها أكثر من هذا حتى لا ينكأ جرحه الطري، فهذا ليس وقت الانشغال بمسائل عميقة ووجودية، إنما الجري وراء أي حلول سريعة لمشكلته التي تعشش الآن في رأسه فتوجعه. وقد يكون الحل هو ألا يشغل نفسه بأي أمر ولا أي أحد، إنما يتصرف مباشرة من دون أن يحسب أي شيء، يغامر أو يقامر أو يمضي كطلقة الرصاص التي لا تسأل نفسها أبدًا إلى أين تذهب وهي في اتجاه الهدف.

ليكن إذن طلقة عمياء، تذهب دون أن تكون محملة بذنب القاتل، أو حجرًا يلقيه طفل نحو الترعة ليصنع به دوامات يلهو بها، دون أن يدرك



أنه يلوث الماء. لينطلق إلى ما يريد دون أن يجهد ذهنه بالعواقب، وليكن ما يكون، وليذهب الكل إلى الجحيم، المهم ما يقتنع به هو، ما يحقق صالحه، بل ما يملأ روحه بالسعادة والامتنان.

هكذا حسم أمره، بعد أن طاف رأسه بالجهات الأربع في دقيقة واحدة. وقبل أن ينطق بكلمة واحدة كانت هي قد عرفت قراره من عينيه، اللتين برقتا في حبال النور التي بدأت تتدلى من السماء، وأرادت أن تساعده فنطقت:

- «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله، وأهلك نفسه أو خسرها».

أعاده ما نطقت به من شروده، وألهمه بما كان يبحث عنه، واختصر له الطريق، فقال لها مغتبطًا:

- قرأتِ ما في نفسي.

- نحن نفس واحدة.. أليس كذلك؟

- طبعًا، لكنكِ نطقتِ كلامًا حكيمًا و...

قاطعته:

- ليس كلامي، بل كلام «المسيح» الحي.

سرت موجة طمأنينة في نفسه، وقال في تبتُّل:

- عليه السلام.

هزَّت رأسها مبتسمة، وقالت:

- سلام على كل الناس.

كانت خيوط النور قد تقاربت لتصنع ستارة من الفضة بحجم المكان، ستارة لم تُخفِ شيئًا، بل كشفت عنهما واقفين هنا. مسح «سمعان» بعينيه أسطح المنازل ليتأكد من أنها تخلو من أي بصّاص أو بصّاصة، ثم عاد إليها ليقول:

- يجب أن تذهبي الآن قبل أن يرانا أحد.

مصمصت شفتيها من أسَى وردت:

- لم تقل لي ماذا سنفعل في الأيام المقبلة؟

صمت برهة وأجابها:

- الزمي غرفتك إلى أن أرتب أحوالي.

- أخشى أن أعود فلا أجدها.

- هل تدحرجها الرياح؟ أم تأكلها ذئاب الجبل؟

- بل سيأخذها مني القس «أبنوب»، أو يطردني منها أهل البلد.

- لا أعتقد أن المسألة وصلت إلى هذا الحد، لكنها قد تصل إن رآكِ أحد واقفة أمامي الآن، فاذهبي، وليفعل الله ما فيه الخير.

أعطته ظهرها ومضت صامتة، ولم تكن أي عين قد انفتحت بعد من فوق أي سطح، لتراها وهي تسرع الخطى، لا تكاد قدماها تحطان على الأرض، لكنها ما إن انحنت في الشارع الجانبي حتى وجدت «أبنوب» في وجهها.



كان وجهه متيبسًا عابسًا لم تسقط عليه قطرة ماء. استيقظ من النوم وأتى متسللًا، ليضبطها وهي واقفة عنده، لكن الخطوات كانت قد أخذتها بعيدًا، ومع هذا لم يكن في حاجة إلى أي عناء كي يقول لها:

- هل قضيتِ الليل عنده؟

احمرَّ وجهها، وسرى الدم في عروقها وقالت له:

- ألم تقرأ في أي يوم: «مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر».. ومع هذا لم يقترب ما أفعل من الخطيئة، فبيني وبينها أبعد مما بين السماء والأرض.

نفخ في وجهها:

- ألم تزنِ عيناكِ؟ ألم تزنِ أذناكِ؟ فهل تريدين أن أُذكِّرك بما يجب أن تفعليه الآن؟

- لم أنسَ، لكنني لم أفعل شيئًا يا أبانا يجعلني بحاجة إلى أن أقلع عيني، وأخلع أذني.

- بل فعلتِ، وعليكِ أن تضربي مقتلكِ بمخراز، وتقطعي أذنيك بسكين.

- أنت تقف على ظاهر الأمور، أما ما قاله الإنجيل، فيجب ألا تردده الألسنة فقط، بل يجب أن تقرأه العيون بمحبة، وتدركه القلوب بامتنان.

- إذا كنت حريصة على المحبة هكذا، فلمَ تركت الدير؟

- سألتني من قبل، وقلت لك إنني لا أريد أن أخدع نفسي، واستحسنت هذا وقتها، ولا تنسَ أن المسيح يقول لنا: «أكثروا وأثمروا واملأوا الأرض»، ويقول أيضًا: «ليس حسنًا أن يكون آدم وحده». ولهذا فإن كنت قد تركت الدير من أجل أن أتزوج فأنا لم أخرج أبدًا عن تعاليم المسيح، بل نفذتها بما أستطيع أن ألتزم به.

- إذا كان الأمر كذلك، فلأزوجك من الغد.

نظرت إليه مرتابة، لكنه لم يدع ريبتها تطول:

- لي ابن عم يكبرك بعامين ويبحث عن زوجة.

وجدتها فرصة كي تنجو من مطاردته ولو لأيام حتى يدبر «سمحان» أموره، بل فرصة كي تخلع من رأسه أي شكوك بشأن علاقتها بـ «غفير الغبرة» كما يحلو لـ «أبنوب» أن يصفه، لقد فتح لها نافذة كي تطمئنه، وعليها أن تمرق منها الآن، لكن: أليس الكذب حرامًا؟ ألم يقل الإنجيل: «لَا تَكْذِبُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِذْ خَلَعْتُمُ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ مَعَ أَعْمَالِهِ، وَلَبِسْتُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ».. «وَلَا تَحْلِفُوا بِاسْمِي لِلْكَذِبِ، فَتُدَنِّسَ اسْمَ إِلهِكَ. أَنَا الرَّبُّ»؟ لكن ماذا بيدها الآن؟ عليها ألا تعده بكلمة حتى لا تقع في الكذب، لكن كيف تجعله يطمئن ولو لأيام قلائل. وفتشت داخلها فالتقطت بعضًا من حبات الأنثى، واستجمعت نفسها، واصطنعت الخجل بوجهٍ تورَّد فجأة، وسحبت الطرحة على أنفها وشفتيها، وعادت تلثم الأرض في خفة، وتبتعد.



وقف هو مكانه، واستدار ناحيتها، وتابعها حتى اختفت. عدل وقفته، وولى وجهه نحو الكنيسة، ليصلها بينما يستعد «سمحان» للرحيل. كان يتجه نحو حماره الراقد ليوقظه، ويعودا سويًّا إلى المنزل.

كان «أبنوب» يتخلى مع كل خطوة عن قطرة من المحبة المرشوشة على وجهه، ويستبدل بها أخرى من الغل والغيرة، تقفز داخل نفسه، بينما تجحظ عيناه بالكراهية، وبهذه الحالة واجه «سمحان» بينما كان يقفز على حماره، مثيرًا بقدميه بعض الغبار. فلما رآه وجد من اللائق أن يترجل، ففعل، واقترب منه متوددًا، وقال:

- صباح الخير يا أبانا.

ومن تحت ضروسه:

- صباح الـ.. النور.

تنحنح «سمحان» واقترب أكثر، وازداد صوته رقة وانخفاضًا وهو يسأله:

- هل لا تزال غاضبًا مني؟

ابتسم في فتور ورد بصوت متخشب:

- يزول سبب الغضب قريبًا.

لم يفهم «سمحان» مقصده، لكنه ارتاح قليلًا لكلامه، واعتقد أن غبن الرجل منه آخذ في التراجع، وسيصفو ولو لأيام، يدبر فيها حاله مثلما وعد «جميلة».

وفي اللحظة التي كان «سمحان» يشمر عن ساقه، ليرفعها قليلًا أو يقفز فوق حماره، رشق «أبنوب» سهمه القائل:

- سأدعوك قريبًا لحضور إكليل ابن عمي على «جميلة».

فلت الجلباب من يده، وغطَّى ساقه مرة أخرى، وأعطاه الحمار ظهره، ونهق ليصعد نهيقه إلى هامة الجبل، فارتدَّ عواءً مخيفًا، ازداد معه ارتعاش قلب «سمحان»، وكبت دموعًا، كانت تريد أن تتدفق كشلال هادر، فارتدت إلى شرايينه، وسحب شهيقًا طويلًا كي يمتلك أعصابه.

كان يعرف أن «أبنوب» يكذب لأن «جميلة» لن تقبل غيره زوجًا لها، لكن آثر أن يجاريه فسأله وهو يكتم السخرية منه:

- متى تمت الخطبة؟

- وما لك أنت بهذا؟

نفخ في وجهه، وهو يسير بخطى سريعة نحو باب الكنيسة، وقال:

- اركب حمارك واذهب، ولا تسأل عمَّا ليس لك.

لم يرد، وركب حماره بالفعل، غير راغب في تعميق الخلاف مع «أبنوب»، لكن الأخير، شاء أن يزيد من وجعه:

- ليكن في علمك أنني كتبت شكوى ضدك إلى مصلحة الآثار.



# 32

أقلقته الهموم حتى وجد صعوبة في أن يرفع ساقيه من على ظهر الحمار استعدادًا للنزول. ففي الطريق ضربته آلام نفسه، وتشققت روحه، ولم يبق له سوى جسدٍ خامدٍ، منزوع الهمة، ومستسلم لأي شيء.

ليذهب كل شيء إلى الجحيم..

هكذا قال لنفسه، وهو يتمنى الموت في هذه اللحظة، ليتخلَّص من واقع مقبض، وخيال مفزع، لا يكف كلاهما عن صفعه ليلًا ونهارًا. في الليل تتراقص أمامه أشباح ثم تثبت وتصير آدميين من دم ولحم، تمارس طقوس الحياة كاملة، وتجذبه لتشركه معها في دنياها القديمة. وفي النهار لا يجد أمامه سوى عمل لا يليق بما صنعه صندوق عمه «رشيد» في رأسه، ولا بأحلامه المجنحة التي لا تحط على يابس ولا ماء. الشيء الوحيد الذي ربط لديه الليل بالنهار، والحلم بالواقع، هو معرفته بـ «جميلة». ها هي القسوة تفتح مسربًا جديدًا لتأخذها فيه حتى تختفي بعيدًا، مثل الأشباح التي ترحل من ذاكراته وقت أن يفتح عينيه لتسبح في شمس الضحى.

دخل البيت دون أن تشعر به أمه، بينما كان أبوه في الغيط. ألقى جسده على فرشته، وتقلب يمينًا ويسارًا محاولًا أن يهدهد النوم ليرضى عنه لكنه أبى. كانت تقلباته صاخبة إلى درجة أنها اقتحمت أذني الأم وهي جالسة على الدكة في مدخل الدار. طرقت بابه في هدوء، ودخلت لتجد محجرين مضيئين في العتمة الرائقة، ونفسًا يدخل ويخرج في جلبة. جرت نحوه، وجلست عند رأسه، وأخذته في صدرها، وسألته:

- أي شيء يتعبك يا ولدي؟

أخفى عنها السبب الحقيقي لأوجاعه، رغم أنه قد بكي في حجرها كطفل جائع إلى الحنان، وهدهدته كأنه لا يزال رضيعًا ترتعش شفتاه بعيدًا عن ثديها؟ قال لها فقط إن سهد الليالي قد أجهده، وإن القس «أبنوب» لا يريده هناك، وقد شكاه، وربما يجد نفسه منقولًا إلى مكان آخر عما قريب.

- هذا لا يستحق ما تفعله بنفسك..

قالت لتهون عليه من شأن ما هو فيه، دون أن تدري شيئًا عن السبب الحقيقي لعذابه، وحاول أن يفتح فمه ليقول لها الحقيقة لكنه عجز، وتملكه في هذه اللحظة رعب شديد لأمر لم يرد بخاطره في الساعات الفائتة.

- هل يكون «أبنوب» قد كتب في شكواه السبب الحقيقي؟ أم اختلق أسبابًا أخرى؟



وأجاب عمّا سأله لنفسه في صمت:

لو ذكر «أبنوب» شيئًا عن علاقته بـ«جميلة»، فسيصل خبري إلى قريبي، الموظف الكبير بمصلحة الآثار، والذي سيخبر أبي فورًا. لهذا عليّ أن أفكر في أي شيء يقطع الطريق على كل ذلك، ولتكن كتابة طلب نقل.

طقطق بشفتيه وأسنانه مستخفًّا بهذه الفكرة، فمثل هذه الحيلة لن تنطلي على قريبهم الكبير، الذي كابد زمنًا طويلًا من مكائد الموظفين وحيلهم وألاعيبهم، ولا شيء سيغير من الانطباع الذي سيأخذه عنه من شكوى «أبنوب»، سيصفه وهو ينفخ في ضجر فتهتز رابطة عنقه: «ولد غير مؤدب.. لعوب.. عقله خفيف.. فاجر.. متهور.. جاهل لا يعرف أنه يفتح بابًا للفتنة». ولن يكتفي بالنفخ والسب، بل سيخبر «أبو سمحان»، فهو يتصرف معه، كلما رآه، على أنه كبير العائلة رغم أنه أصغر من الأب سنًا.

- سأصارح أبي ويكون الأمر بيدي..

حدَّث نفسه بصوت مسموع، لكنه بلع لسانه حين جاء أبوه بعد ساعة واحدة. تهته وسأسأ، وغار الكلام في جوفه، ولم يجد شيئًا ينطق به سوى أن قال:

- سأكتب طلب نقل.

رفع ذراعه في وجهه حتى كاد يلطمه بكفه، وقال:

- لا تريد أن تُعمِّر في مكان.

لكنه استعطفه:

- أرى أشباحًا بالليل والنهار.

- وهل يأتي عليك نهار هناك؟

- بين الفجر والضحى يأتيني القس متجهمًا، وقد كتب شكوى ضدي.

- وهل فعلت ما يستحق الشكوى؟

خرس قليلًا، ورد في اقتضاب:

- أنا لا أعجبه.

- وهل سيتزوجك؟

قالها ساخرًا، وهو يقبض وجهه متأففًا، ثم أعطاه ظهره، ليترك العبارة تلسع ابنه، فتقفز في رأسه صورة «جميلة»، ويتمتم في سره: «بل يريد لمحبوبتي أن تتزوج غيري»، لكنه كبت ما دار بخلده، وقال لوالده:

- سأتغيب الليلة.. أنا مجهد ولن أذهب.

- غيابك سيُعقِّد المشكلة.

- المشكلة وقعت ولن يحلها حضوري.

- أنت حر.

قال جملته الأخيرة بضيق، وأعطاه ظهره، ومضى نحو باب الغرفة، فتحه في غيظ حتى كادت الضرفة تنخلع في يده، ثم صفقها خلفه،



أحدثت رجّة، اهتزت لها اللوحة البسيطة المعلقة على الحائط، وعليها أسماء الله الحسنى.

اغتبط لما انتهى إليه في هذه اللحظة، سيتغيب، وسيذهب إلى قهوة «القاسم» ليجلس مع الأصدقاء، يثرثر، وقد يجد لديه شجاعة أن يحكي لصديقه المقرب «عبد الرحمن» عن العشق الذي تربع في صدره، ويحكي لهم جميعًا عن الزمن القديم الذي يأتيه كل ليلة ويستسلم عند أطراف أصابعه، ويتهادى أمامه ليسري فيه على مهل، ويصبح واحدًا من ناسه، يخالطهم أفراحهم وأتراحهم وفمه مفتوح وعيناه منبلجتان من فرط الدهشة.

هل سيصدقونني؟

كان سؤالًا سخيفًا من أساسه، فما الداعي لأن يحكي لغيره ما لا يريد هو أن يصدقه، حتى لا يصاب بالجنون. مَن ذا الذي بوسعه أن يسمع هذه الخيالات، التي لا تحط على أرض، ولا في رأس، دون أن يدرك وقتها أنه مسطول أو محموم يهذي، وكيف يضمن ألا يخرج الصحاب من القهوة وهم يضربون كفًّا بكفٍّ من شدة الأسى على ما جرى لصاحبهم.

حتى «عبد الرحمن» الذي لا يُكذِّبه أبدًا، ولم يكذب عليه في أي لحظة، وهو خزانة أسراره، لن يستطيع البوح له إلا بحكايته عن «جميلة»، فعلى ما فيها من غرابة فهي مقبولة، فكم من فتى رأى فتاته في أحلامه؟ وكم من فتاة رأت فتاها في أحلامها؟ وطالما ساق إليهما القدر لقاءً على غير موعد، ليرى الجسد الجسد، بعد أن عانقت الروح الروح. هذا يجري

كثيرًا، وينتظر كثيرون أن يجري، أما ما لا جريان له، ولا ينتظره أحد فهو هذه الخطوات القصيرة بين عالمين متباعدين جدًّا.

وإذا حكى عن كل شيء فسيدرك «عبد الرحمن» أن خيال صاحبه «سمحان» يكون أشد خصوبة في سواد الليل، وهو سابح في الموت الأصغر، ويمكن لـ «عبد الرحمن» أن يتجاوب معه عند هذا الحد فحسب، وقد يرجع هذا إلى ما في صندوق «رشيد»، ويقول لصاحبه:

- أنت قرأت عن هذا الزمن في كتب التاريخ، وأحببته وتعلقت به وتمنيت لو كانت قدماك تمشيان فيه فأهداه إليك في منامك.

تلاطمت في رأس «سمحان» كل هذه الخواطر، وهو يمشي على مهل إلى المقهى، متطلعًا إلى سهرة يشتاق إليها.

كان الليل قد جاء مسرعًا، وفي عتمته استترت كل الهواجس المضطربة في نفسه، ولم يلحظ أحد من العابرين حيرته وشروده، فكانوا يلقون عليه السلام في حياد، فيرد في فتور غير عابئ بأن يعرف مَن يسلم عليه ولا على مَن قد رد السلام.

وتراءت أمام عينيه على جدران البيوت صور رآها في الليالي الصعبة التي رحلت. لكن الذين كانوا يمرون بأقدام خفيفة تجرح الظلام، يحجبون تلك الأشباح عن ناظريه، أو يمزعون أجسادها التي تمرق ولا تتوقف، غير عابئين بها؛ لأنهم ببساطة شديدة لا يرونها، وإن رآها أحدهم فسيظن أن ظله يتناسل فوق الحوائط الكالحة.



حين وصل إلى المقهى لم يكن الرفاق قد اجتمعوا، ثلاثة منهم فقط جاءوا مبكرين، كان من بينهم «عبد الرحمن»، ذلك العاشق المتيم أيضًا. وصل «سمحان» وسلَّم عليهم، ثم همس في أذن صديقه الصدوق، فقام معه، وانبعثا في خلاء مظلم، حيث يسربل الليل هذه البقعة الخفيضة الممهدة والمملوءة بالرمل والحصى. سارا كمخمورين، يتقلبان بين حرارة تبعثها لوعة الهوى السارية في شرايينهما، وبين برد النسيم الذي يهب من عند أفلاق الصخر العملاق. ثرثرا طويلًا، وكل منهما طفح بما في جوفه، وجرت الساعات كريح عاتية، ووجدا نفسيهما يقفان عند الكلمة التي نطقاها في أول الطريق. دائرة مغلقة لفًّا فيها كل هذا الزمن، وعادا بلا أي شيءٍ جديد، يطرحان الأسئلة ذاتها، ويتخبطان في حيرة أطلقت إبرها المسنونة لتخِز روحيهما.

وفجأة وهما يهبطان نحو بيوت القرية الراقدة في بطن الظلام، أشرق عقل «عبد الرحمن» بحلٍّ بديع:

- انتقل إلى البندر، واستأجر غرفة هناك ولتهرب هي إليك وتتزوجها، دون أن يعرف أبوك وأمك، ولا يمكن لـ «أبنوب» أن يصل إليكما في هذا الزحام.

راقت له الفكرة، لكنَّ يأسًا دبَّ في نفسه سريعًا حين تذكر وجه قريبهم ذائبًا في تجاعيد متلاحقة من شدة الضيق والتبرُّم. ولم يكن هناك بُدٌّ من تحمُّل دقائق سمجة من أجل «جميلة».

لم ينم هذه الليلة، سهر حتى نضح نور الفجر، فخرج تزفه عصافير الصباح. مال على النهر، وهال على وجهه خمس حفن من الماء البارد فاسترد يقظته، وانتظر الحافلة جالسًا فوق حجرين كبيرين يتوازيان عند شجرة عتيقة.



# 33

لم تمر سوى ساعتين حتى كان ينتظر قريبه أمام مكتب رئيس مصلحة الآثار، فلما جاء اغتصب ابتسامة، وأطلقها في محياه، ولمحها «سمحان» فسرت في عروقه طمأنينة، ودخل خلفه، وقبل أن يجلس الرجل على كرسيه العالي، بادره قائلًا، وهو يُخرج ورقة مطوية من جيب جلبابه، ويمدها إليه:

- طلب نقل.

مدَّ أطراف أصابعه والتقط الورقة، مسحها بعينيه سريعًا، ثم وقَّع عليها في صمت. ومع اندهاش «سمحان» من استجابته السريعة، جاء كلامه القاسي:

- أنت ولد مستهتر.

لم يعلِّق، وانكمش مكانه متغلبًا على ارتعاش ساقيه، بينما عيناه تتابعان يد البيك وهي تفتح درج المكتب في هدوء، وتندس داخله لتُخرج ورقة محشوة بسطور كلام مكتوب بخط نسخ رائق. وضعها أمامه وقال وهو يشير إلى مقعد على اليمين:

- هذه شكوى فيك.. اجلس واقرأها.

خطفها في لهفة، ومرَّر عينيه على الكلام باحثًا عن اسم «جميلة» فلم يجده، فتنهد في ارتياح. لقد كتب «أبنوب» أشياء كثيرة إلا الحقيقة «ليس مهما»، هكذا حدَّث «سمحان» نفسه، ولم يعبأ ببقية الاتهامات التي تقول إنه مستهتر، وله أحوال عجيبة، وأطوار غريبة، تجعله يترك مكان الحراسة ويختفي كل ليلة، ليأتي بتصرفات لا أحد يعلم عنها شيئًا، ويتأخر عن موعد عمله، ويتجهَّم في وجه زائري الكنيسة، وينطق أحيانًا أمامهم بكلمات تنم عن سخريته من عقيدتهم، ويتشاجر مع نساء القرية، ثم اختتم سلسلة الاتهامات بقوله: «وخوفًا من أن يؤدي تكرار هذه الأخطاء إلى بثِّ فتنة طائفية في بلدنا، أرجو من سيادتكم التكرم بنقله إلى أي مكان آخر ترونه مناسبًا.. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير».

حين أفاق من القراءة وجد وجه البيك يتفرَّس فيه ويفترسه في آن، إذ كان قد أعاد قراءة طلب النقل بإمعانٍ، ووجد أن «سمحان» قد كتب فيه: «أرجو نقلي إلى مقر المصلحة ببندر المنيا».

أمسك الطلب بطرفي السبابة والإبهام، وراح يعض على حروف الكلام:

- حضرتك عاوز تنتقل إلى هنا؟!

رفع «سمحان» عينيه في انكسار، وأومأ برأسه: «نعم». صمت برهة، فتوحش الخوف، لكنه لم يلبث أن لان من جديد، ربما لم يُرد أن يظهر



مسرعًا أو عابثًا لا يعبأ بالتدقيق في الأوراق التي تُقدَّم إليه لتنال توقيعه، وبالتالي تأخذ طريقها إلى التنفيذ، إلا أن شيئًا لا يعرفه «سمحان» جعله يرده من جديد، ويقول له:

- الشكوى التي قُدِّمت ضدك تم تسجيلها في الدفاتر، ويفترض أن يتم التحقيق معك بشأنها، ثم توقيع الجزاء عليك إن ثبت خطؤك.

انكمش مكانه أكثر، ورد بوجه ازداد صفرة:

- المسألة متروكة لحضرتك.. وأنا تحت أمرك.

هزَّ رأسه وقال:

- الأمر لله وحده.. على العموم، لم يهتم الرجل في شكواه بأن يجازيك، إنما طلب نقلك فقط، لكن الاتهامات التي كالها إليك تستوجب مجازاتك.

ابتسم «سمحان» ورد:

- هو يكذب عليَّ لأمرٍ في نفسه.

- عيب.. لا يليق أن تصفه بهذا وهو رجل دين.

- كما أن هناك شيوخًا يكذبون، هناك قساوسة يفعلون ذلك، وكذب هؤلاء وهؤلاء يخصهم هم، ووزره عليهم، ولا يخص الدين، ولا يحمله وزرًا.

ابتسم للمرة الأولى بعفوية، ولم يغتصب شيئًا من داخله يصنع به ترحيبًا عابرًا أو يكتم غضبًا وعجرفة، وقال:

- سأضع طلب النقل في درج مكتبي إلى أن يتم الانتهاء من التحقيق معك، لكن عليك أن تصدقني القول الآن.. هل ما ورد في الشكوى صحيح؟

- أقسم بالله إنه كذب وافتراء.

- غريبة.. لماذا يرميك الرجل بما ليس فيك؟

لم يجد ما يرد به عليه سوى:

- ربما يريد خفيرًا من دينه.

امتقع لون البيك:

- هذا كلام فارغ، ولا يجوز أن تنطق به، أنت تتحدث مع رجل علّمه دراسة آثار مصر أن يحترم عقائد وتواريخ وثقافات كل الناس، ولا يفكر بهذه الطريقة المتخلفة المعششة في رؤوس الجهلة والمتعصبين.

شعر «سمحان» بالإهانة، لكنه ابتلع ريقه، وحاول أن يخفف من التوتر الذي ملأ المكان فجأة، فقال:

- أنا أحاول أن أخمن سبب شكواه ضدي، لا أكثر ولا أقل، وحين لم أجد سببًا منطقيًّا، أرجعت الأمر إلى ما قلته.

رفع سماعة الهاتف، وتحدث مع أحد، فهم «سمحان» من جريان الكلام أنه مدير الشئون القانونية. والتفت رئيس المصلحة إليه، وقال:

- اذهب إلى التحقيق ثم ارجع إليَّ فور انتهائه.



وحين عاد، وقبل أن يقرأ رئيس المصلحة التحقيق، وجده يمد إليه طلب النقل، بعد أن أمر:

- ينقل إلى «البهنسا».

ثم رفع رأسه وقال له:

- سبقت شكوى «أبنوب» طلب نقلك، ولو استجبت لما تريده أنت، فهذا معناه أنني لم أعبأ بالشكوى، وكافأتك بدلًا من مجازاتك.

ساد بينهما صمت قطعه رئيس المصلحة قائلًا:

- أعدك بالنقل إلى «بندر المنيا» بعد انقضاء فترة العقوبة.

تنحنح سمحان ورد عليه:

- لكنني لم أفعل شيئًا يستحق العقاب.

ابتسم في خبثٍ ورد:

- من المؤكد أنك عملت أشياء ونسيت، أو لا ترى أنت ما فعلته عيبًا، ويراه غيرك كذلك.

وشعر «سمحان» أنه لو بقي أمام هذا الرجل المهيب فترة أطول فسيفتح له بابًا لكشف حقيقة الأمر، وساعتها سيعاقبه مرتين، مرة لأنه قريبه، والأخرى لأنه عامل في مصلحة هو يرأسها، فلاذ بالصمت، بينما ضغط الرجل على زر مكتبه، فدخلت سيدة في منتصف العمر، وأمرها وهو يمد إليها ورقة صغيرة:

- اكتبي أمر نقل بالاسم المتواجد هنا، وهاتيه لأوقع عليه.

وقبل أن يخرج «سمحان» من مكتب رئيس المصلحة وجده يقول له بصوت مملوء بالثقة:

- أنا وعدتك، ووعد الحر دين عليه، لكن من واجبي أن أقوِّمك.



# 34

خرج متأكدًا من أن نقله إلى بندر «المنيا» سيأتي عما قريب، فوعد رئيس المصلحة كان قاطعًا، ولذا كان عليه أن يدبر أموره من الآن، ولهذا قال للساعي على باب المصلحة:

- أريد أن أستأجر سكنًا.

نظر إلى هيئته وقال له:

- اذهب واسأل في حي «أبو هلال» أو عزبة «طه السبع».. هناك ستجد سكنًا رخيصًا.

وقصد «أبو هلال» سالكًا طريقه في شوارع متعرجة تسري فيها روائح أطعمة مختلفة، وهو يسأل عن سمسار عقارات، فدلُّوه على رجل يسند كرشه على فخذيه الملتصقين بمقعد من الخيزران على مقهى صغير عند رأس شارع ضيق، تطل عليه نوافذ بيوت خفيضة ذات جدران كالحة. سحب كرسيًا وجلس في مواجهته وقال:

- عاوز أوضة بحمام.

شفط السمسار نفسًا طويلًا من الشيشة وهو يمسح بعينيه وجه «سمحان»، ولباسه، ورد بصوت أجش:

- فيه شقة صغيرة، غرفة وصالة وحمام ومطبخ.

ابتلع ريقه ورد وهو يروغ بنظره بعيدًا نحو النصبة التي يقف عليها رجل طويل ذو رأس أصلع، تتكثف عليه الأبخرة الصاعدة من المشروبات الساخنة:

- موافق.

رمى الرجل ليَّ الشيشة على المنضدة ذات الأرجل المتداعية، وتدحرج إلى الأمام، ثم انعطف من شارع إلى حارة ضيقة، وطرق باب بيتٍ متهالك، ونادى:

- يا ست «كوثر».

فجاءه صوت رفيع مخنوق:

- ادخل.

طبع راحة يده على الباب وأزاحه ودخل فظهرت عجوز جالسة على أريكة متسخة، تضع كفها فوق عينيها لتعرف مَن أتاها. وحين رأت السمسار ضحكت عن أسنان مثرمة، وقالت:

- أخيرًا جاء الخير.



قهقه بصوت متقطع لاهث، بينما صمت «سمحان» ليستمتع بالراحة التي دبّت في أوصاله، وهو يردد في نفسه: «هذا مكان مثالي لتعيش فيه جميلة ولا يسألها أحد مَن هي ولا من أين أتت؟».

ملأ «سمحان» عينيه من العجوز، وهمس في أذن السمسار:

- هل تعيش وحيدة؟

- مات زوجها وليس لها خلفة.

على الفور أدخل يده في جيبه، ودفع أجرة شهر مقدمًا، وآخر على سبيل التأمين، وتسلَّم مفتاح الشقة البسيطة، وأعطى السمسار ما طلبه في امتنان. وبينما كانا يهمَّان سويا في اتجاه الباب، لسعه سؤال العجوز:

- يا ترى أنت متزوج؟

وجد نفسه يستدير إليها بكل جسده حتى يواجهها ثم ينطق بكل ثقة:

- نعم، وزوجتي اسمها «جميلة».

رفرفت المرأة بيديها، وحركت جسدها يمينًا ويسارًا وكأنها تريد أن ترقص، وقالت بصوتٍ متهدج من الفرحة:

- تؤنسني في وحدتي.

# 35

قبيل الغروب كان «سمحان» يهم في اتجاه «دير العذراء» عازمًا هذه المرة على أن يفعل شيئًا مؤثرًا من أجل «جميلة». حين وصل كان الليل قد أرخى ظلامه فوق الكنيسة، وكانت الساحة الضيقة التي تمتد أمامها ثم تنبعج عند أطرافها فارغة، ليس فيها سوى تيس وعنزة يشتبكان في لحظة تسافد حميمة، وكلب يراقبهما صامتًا. كانت أجساد ثلاثتهم تظهر في الضوء الشحيح الذي تسلَّل من كوة في الجدار غير عابئة بأي عيون تراهم. وكان الظل يفرش صورًا باهتة على الأرض، تمتد تحت الأرجل الهشة من فرط اللذة.

جلس على حجر قبالة هذه الكائنات الثلاثة، وهو يرتجف من الدم الحار الذي تدفق في عروقه، فحرك رغبته، لكنه سرعان ما أطفأها ساخرًا من نفسه. أدار ظهره ناحية النهر، الذي بدا شريطًا أملس داكنًا، وشرد فيما رآه، وما يعرفه. وسأل نفسه: «هل تتحرر الحيوانات من كل القيود وهي تمارس الحب لأنها لا تعرف ما يعرفه البشر، أم لأنها تعرف أكثر منهم؟ أهي الفطرة ونداء الطبيعة المتجدد الذي تسوره الأديان والعادات والهواجس بجدران سميكة؟ أم هي الضرورة كي تنتظم حياة البشر في مسارات واضحة تحول دون الفوضى العارمة؟».



وفرح بنفسه إلى درجة الغرور، ونظر إلى جلبابه، وتذكر قريبهم الذي يلامه من طرف أنفه، وقال متحسرًا: «لو استقامت الأمور وكان هناك عدل في هذه الأرض لكان لمثلي، بعد وقت ليس بالبعيد، مكتب فخيم، وسكرتيرات حسناوات، وأقلام من أثمن الأنواع، وملابس أنيقة مختلفة ألوانها، لكن ها هي الظروف ترميني فوق رمل وحصى ليس معي أي أداة تدل على دوري في الحياة سوى شومة بائسة».

وشعر في هذه اللحظة أنه يمقت أباه الذي تسبَّب في تسربه من التعليم، لكنه طرد هذا الشعور، حين هز جسده في عنف، فتساقطت دمعتان، وحملق في الفراغ، فتراءت له النجوم باهتة، وهي تتصاغر وكأنها قررت الهجرة من فوق رؤوس البشر إلى جوف أبعد سماء كي تدثر بالظلام الشامل، وتنام صامتة.

كان يعرف أن أباه لم يقصد إيذاءه، بل طالما التمس له العذر وقال في نفسه: «ما يدريني؟ لعل أبي يدرك ما هو أعمق وأبعد»، متذكرًا ما كان يقوله له دومًا: «عمك رشيد قتلته شدة ذكائه»، ثم يرفع هامته لتحط في ركن الغرفة، ويرفع إصبعه ويشير: «وهذا الصندوق المنتفخ بالورق».

تخيل أنه الآن يمد يده ليفتح الصندوق، ويدع بابه ذا المفصلات الحديدية الصدئة ينفلت فيصطك بضفته الأخرى، فيحدث احتكاكًا مزعجًا، يبدأ بطرقة هائلة تتبعها طرقات صغيرة تنتهي إلى دبيب، ثم صوت مجروح يصنعه اصطدام المسامير القديمة بالحلية.

ها هو يسمع الصوت الآن، ويستعذبه، لكنه لا يلبث أن ينتبه خائفًا لا يعرف إن كان الصوت يأتي من داخله أم من داخل الكنيسة، لكن الأنات المتقطعة والنشيج الذي كان يختلط بالطرق والدق والدبيب والارتطام، جعله يدرك أن الصوت يأتي من الخارج.

انتفض، وسار خطوات حتى وصل إلى الباب. كان مغلقًا بإحكام، وينام عليه صمت شامل. طبع أذنه اليمنى عند لوح رقيق يعرفه، فسمع أصواتًا في الداخل، جرى نحو النوافذ فوجدها موصدة، ولا ينضح منها أي نور، بل يطل ظلام معتق ومخنوق بين الجدران الصلدة.

نادى بأعلى صوته:

- «أبنوب».

فجاءه الصدى ليرُجَّ أذنيه.

عاد وصرخ سائلًا:

- مَن بالداخل.

لكنه لم يتلقَّ ردًّا. تراجع خطوات، وأرهف أذنيه فسمع هسيسًا وهمهمة بحروفٍ تذوب في الهواء، تتشظى عند شحمتيْ أذنيه، وتتساقط على الرمل قبل أن يلملمها، فلا يتمكن من أن يتبين معانيها ومراميها.

لكنه لم يلبث أن سمع نداء:

- سمحاااااااان.



ورأى يدًا تمتد إليه من الجدار، هكذا تشقه دون أن يتساقط شيء أو غبار غبار، جفل وتراجع، لكن اليد كانت تطول وتطول حتى حطَّت على صدره، ثم انزلقت إلى الأسفل لتمسك بيده، وتجذبه بشدة، فانجذب طائعًا، ليجد نفسه في باحة الكنيسة جالسًا وسط خمسة رجال يرتدون أرياءً سوداء، ولحاهم تنسدل على صلبان ضخمة تتدلى من أعناقهم، بينما امرأة واقفة، شعرها متهدِّل على وجه أصفر كليمونة ناضجة، وشفتاها مقددتان وعليهما دم اسودَّ، فبدتا قطعة فحم شبَّت فيها نار عارمة وانطفأت فجأة. وعلى خديها خطَّان رماديان ينبعان من عينيها اللتين تختبئان خلف رموش غزيرة مبتلة.

كانت صامتة حيال ما تسمعه ويؤذيها، وكان يبدو عليها أنها تكلَّمت كثيرًا، وصرخت فلم يسمعها أحد، ولطمت فلم يمنعها أحد من توجيه تلك الضربات المجنونة إلى خديها. كانت لا تنظر إلى هؤلاء الجالسين يبتون في مصيرها، بل ترسل ناظريها ليحُطَّا على وجه رجل واقف في الركن الأول، يسكن ملامحه خوف ممزوج باشمئزاز، ويكبت طاقة غضب جبارة، تبحث عن أي طريق للانفجار.

كانت على وجه الرجل سحجات وخدوش وتسلخات، ودم تجلط تحت منخريه، وزرقة قاتمة على وجنتيه، ومع هذا في عينيه تحدٍّ شديد، وأصابع يده التي تنام عليها جروح صغيرة تبدو مستنفرة، وكأنه يريد أن يغرس أظافره في رقاب الجالسين.

كانـوا هم لاهين عـن أوجاعه وأوجاعها، بل تتملكهـم رغبة قوية في إذلالهما. والرجل الذي سـبَّ «سمحان» عبر جدار الكنيسة كان لا يزال واقفًا، ينظر إلى كبير الجلسة، ويقول له:

- نسمل عينه اليمنى ونخصيه، فعينه اشتهتها، والناس حين أمسكوا بهما وجـدوا ذكـره منتصبًا تحت ملابسـه. أمـا هي فتُقـذف بالأحجار حتى تموت.

فرد عليه الكبير:

- يُقتلان سـويًّا، ووجهه في وجهها، وعيناه في عينيها، ليعرفا أن الخطيئة لا تنفـع.. إنهمـا يعرفـان كل شـيء، قرآ الإنجيـل ولا يمكـن أن يُعذرا بجهل.

فقال ثالث، مؤمِّنًا على كلامه:

- لا نريد أن نخالف تعاليم يسوع.

ونظر إلى الرجل وسأله:

- ألـم تقـرأ قوله في الإنجيـل: «مَن يغلب يرث كل شـيء. وأكون له إلهًا وهو يكون لي ابنًا. وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسـحرة وعبدة الأوثان وجميـع الكذبة، فنصيبهم في البحيرة المتقـدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثاني»، وإذا لم تكن قد قرأت هـذه، أيها الخاطئ النجس، أفلم تقرأ أيضًا: «سـمعتم أنَّه قيل: لا تزنِ. فأمَّـا أنـا فأقول لكم: مَـن نظر إلى امرأةٍ بشـهوة، زنى بها فـي قلبه. فإذا



كانت عينُك اليُمنى سـببَ عثْـرةٍ لك، فاقْلعها وألقهـا عنك».. ألم تقرأ إلى هذا؟

وأمّن رابع على ما سمع.

والرجل الخامس فيهـم كان نحيفًا، حاول أن يجد مهربًا من الموقف العصيب، فأغمض عينيه وتلا: «إنَّه هكذا يكون فرحٌ في السَّـماء بخاطئٍ واحدٍ يتوب أكثر من تسـعةٍ وتسعين بارًّا لا يحتاجون إلى توبةٍ»، ثم توجَّه إلى الرجل المتهم بالخطيئة وقال له:

- يا بني.. حياة القداسـة، مع الذين يدعون الـرب من قلبٍ نقي، ويرثون ملكوته؛ لأنهم يحبون رب المجد الذي جمعهم بهذا الرباط المقدس، وكان عليك أن تتزوجها، والآن يمكنك أن تفعل.

لكنَّ الرجل المجروح أشاح بيده، وقال:

- أنتم جميعًا آخر مَن يتكلم عن يسوع.

أما المرأة فأغمضت عينيها وراحت تتلو في تبتُّل: «أمَّا يَسُـوعُ فمضى إلى جبلِ الزَّيتُون، ثم حضر أيضًا إلى الهيكل في الصُّبحِ، وجاء إليه جميع الشَّـعبِ فجلس يُعلِّمهم. وقدَّم إليه الكتبة والفَرِّيسِيُّونَ امرأةً أُمسِكَت في زِنًى. ولما أقاموها في الوسط قالوا له: يا مُعَلِّمُ، هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل، وموسـى فـي النَّامُوسِ أوصانـا أنَّ مثل هذه تُرجَمُ، فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليجرِّبوه، لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه. وأمـا يسُـوعُ فانحنى إلى أسـفل وكان يكتب بإصبعه علـى الأرض. ولما استمرُّوا يسألونه، انتصب وقال لهم: مَن كان منكم بلا خطيَّةٍ فليَرْمِها أوَّلًا

بحجر! ثمَّ انحنى أيضًا إلى أسفل وكان يكتب على الأرض. وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تُبكِّتُهم، خرجوا واحدًا فواحدًا، مُبتدئين من الشُّيوخ إلى الآخرين. وبقي يَسُوعُ وحده والمرأة واقفة في الوسط. فلمَّا انتصب يَسُوعُ ولم ينظُرْ أحدًا سوى المرأة، قال لها: يا امرأةُ، أين هم أولئك المشتكون عليكِ؟ أما دانكِ أحدٌ؟ فقالتْ: لا أحدَ، يا سيِّدُ، فقال لها يَسُوعُ: ولا أنا أَدِينُكِ، اذهبي ولا تُخطئي أيضًا».

فنظر إليها كبيرهم باستهانةٍ، ثم أطلق غضبه نحو مقلتيه، فاتسعتا وحدق فيها بقرفٍ وقال:

- لا يحق لمثلك أن تنطق بحرفٍ واحدٍ أيتها الغارقة في الخطيئة، المطرودة من رحمة الرب وملكوته.

ارتسمت على جانب شفتيها ابتسامة ساخرة، وردت في تحدٍّ:

- أنا متواجدة في الملكوت وأنتم تروني.

- يوم الدينونة ستُطردين منه شرَّ طردة.

- وهل أنتم تعلمون ما سيجري يومها.. ولماذا تظنون أنكم في مأمن من غضب الرب؟

صرخ أحد القساوسة:

- يبدو أنكِ لست زانية فحسب، بل مهرطقة أيضًا.

ارتفع صوت صاحبها في غضب:



- الهرطقة الحقيقية هي ما تفعلونه بي وبهذه المرأة المسكينة، التي اخترتها من كل نساء الدنيا.

نهروه جميعًا، وتطوَّع أحدهم بالنيابة عنهم:

- بل أنت الذي فعلت بها.. وطأتها وهي لا تحلُّ لك.

- لم أطأها كما تتوهمون.. قبلتها بحرقة واحتضنتها بلهفة وتبادلنا حرارة جسدينا المخبئين تحت ملابسنا الثقيلة.

- وهل هذا قليل أيها الجاحد بكلام الرب؟

- قليل على عاشقين تعاهدا أن يكونا معًا روحًا وجسدًا إلى الأبد.

- أنت تتحدث عن العشق، ونحن نتحدث عن الزواج، طريق الرَّبِّ إلى السكينة والذراري الصالحة، ألم تقرأ يومًا ما قاله بولس الرسول: «لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل. غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب. لأنه كما أن المرأة هي من الرجل هكذا، الرجل أيضًا هو بالمرأة، ولكن جميع الأشياء هي من الله».

- أنا لم أخالف هذا بل وافقته، وأنتم الذين تخالفون.. وزواج بلا عشق لا قيمة له عندي.

- لكنك لم تتزوجها بعد.

- وكيف أتزوجها من وجهة نظرك؟

- تسير في الطريق الذي سار فيه كل المؤمنين بأسرار كنيستنا.

- لكن السر الذي بيني وبينها لا يعرفه أحد غيرنا.

- هذه هرطقة.

- ولِـمَ لا تعتبرها اعترافًا أمامكم.

- أنتما لـم تأتيـا إلينا لتعترفـا وتطلبـا الغفـران.. الناس وجـدوك تقبّلها وتحتضنها تحت جدار بيت قديم كما تفعل كلاب السكك.

وهـمَّ «سـمحان»، الـذي كان يتابع كل شـيءٍ باندهـاش وخوف، أن يتحدث عن التيس والعنزة، لكنه آثر الصمت، ابتلع لسانه ودموعه، وترك عينيـه تعانقـان وجهي المرأة والرجـل المنفطرين حزنًا، ثـم انتفض حين صرخ أحد القساوسة في الرجل المتهم:

- لا تجادل حتى لا نُغلِّظ العقوبة.

وسأل «سمحان» نفسه: «لماذا يخضع العاشقان لهؤلاء، ويأتيان معهم إلى جوف الكنيسة ليواجها مصيرًا أسود»، لكنه حين لمح في الركن كومة من الجنود مدججين بالسيوف والخناجر، عرف الإجابة.

وجاء صوت القس الثالث:

- لو كنت قد تزوجتها ما كان بوسعنا أن نفرِّق بينكما أو نعذبكما أو حتى نلومكما، بل كنا سنخضع لمشيئة الرب، فـ«مَن زوَّج عذراءه فحسنًا يفعل» و«ما يجمعه الله لا يفرِّقه بشر».



سخر الرجل منه ولم تمنعه جروحه وقيوده من أن يشيح برأسه ساخطًا بالقس، وقال:

- أنت لا تعرف إلا ظاهر الأمر، أما باطنه فيقول إن الرب يجمع الروح على أختها، أما أنتم فتباعدون بين الأرواح، وتدفعون الأجساد لتلتصق وتعرق وتمتزج بينما الغربة تقيم في النفوس كالبوم.

غضبوا جميعًا هذه المرة، غضبة واحدة، كأنهم اتحدوا في شخصٍ واحد، وصرخ كبيرهم بعد أن أدار وجهه ناحية الجندي:

- اغمس سهمك في النار وهاته لنسمل عينيه، واجْلُ خنجرك لنقطع خصيتيه.

ثم التفت إلى جندي آخر:

- وأنت هاتِ كومةً من الأحجار نقذف به هذه الخاطئة.

ونظر إلى وجوه بقية القساوسة في ارتياح، ورمى وجهه بقرفٍ ناحية المرأة وهو يردد: «وكان من هوان زناها أنها نجَّست الأرض، وزنت مع الحجر ومع الشجر».

وأكمل زميله وهو مغمض العينين في خشوع: «ليكن الزواج مكرمًا، والمضجع غير نجس. وأما العاهرون والزناة فسيدينهم الله».

واقترب الجنود، أحدهم يحمل رمحًا سنه أحمر ينبعث منه دخان، والآخر يقلب خنجره في يمينه، والثالث معه قفة مملوءة بالأحجار. ورآهم الرجل ورأتهم المرأة، وأدركا أن النهاية التعيسة آتية لا محالة،

فراحا يرددان سويًّا، انطلقا في لحظةٍ واحدةٍ وكأنهما قد اتفقا على هذا:
«روح الرب مسحني لأبشر المساكين. أرسلني لأشفي منكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالانطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية».

ورأى «سمحان» ما يجري فصرخ: «حرام.. حرام»، وكانوا لا يحسون بوجوده، وكان القس الخامس النحيف الطيب قد أتى به ليشهد ما سيجري، حين لمحه جالسًا على الصخرة شاردًا، والشومة ملقاة إلى جانبه، والتيس والعنزة يمتزجان دون أن يعبأ به. ربما عرف وقتها أنه يفكر في معشوقته «جميلة» فأراد أن يريه ماذا يعني اشتهاؤها دون أن تحلَّ له.

صرخ «سمحان» لأنه آمن بأن ما بين الرجل والمرأة لا يبرر قتلهما، وتساءل وهو يجري بشومته ليضرب الرمح والخنجر فيسقطهما:

- ماذا سيفعل هؤلاء بـ«جميلة» إن عرفوا أنه كان يأتيها في أحلامه ويفعل بها أكثر مما فعل هذا الرجل المسكين بتلك المرأة؟

جرى نحوهما، لكن الرجل الذي يمسك قفة الأحجار عاجله بحجرٍ شجَّ رأسه، وأسقطه مغشيًّا عليه، وكان آخر ما سمعه هو صوت القس الطيب الذي كان يقول:

- الذي قال لا تزنِ، قال لا تقتل.



# 36

أفاق عند منتصف الليل، وهو يشعر بألم شديد في رأسه، مدَّ يده وتحسس جرحه الذي نشفت حوافه، وتأوه بإفراط، فسمع طرقات على باب الكنيسة، قام يجر ساقيه، وسحب المزلاج فانفتح الباب على «جميلة».

خلص له وجهها في طيَّات العتمة مجهدًا، وكانت تلهث. مدَّت يدها وصافحته، وهي تقول:

- عزمت على الرحيل.

لم تكن قد رأت جرحه بعد، وتمنى ألا تراه. تماسك ورد عليها:

- هذا ما كنت سأطلبه منك.

مدَّ يده في جيبه وأخرج مفتاح الشقة التي استأجرها، وورقةً صغيرة مكتوبًا فيها العنوان، وقال:

- اذهبي إلى هذا المكان، وأخبري صاحبة البيت أنكِ زوجتي.

اتسعت حدقتاها، وجفلت قليلًا، فسارع إلى طمأنتها:

- أنا أفهمتها أنني متزوج وأن زوجتي ستأتي غدًا.. هي تتوق لمَن يؤنس وحدتها، وأنا سأجيء إليكِ بعد العصر بصحبة صديقين، لنعقد قراننا.

انتبهـت إلـى الخيط الأسـود المنحدر من رأسـه، ووضعـت أطراف أصابعهـا عليـه، ومررتهـا عليـه حتـى وصلـت إلـى مجـرى الجرح، وصرخت:

- مَن فعل بك هذا؟

مدَّ يده وكتم فمها:

- تماسكي حتى لا يسمعكِ أحد.. سأحكي لكِ كل شيء فيما بعد.

تلفَّت حوله، فلم يرَ أحدًا، حتى التيس والعنزة والكلب رحلوا. استرد أنفاسه المبهورة، وقال:

- تم نقلي إلى «البهنسا».. سنرحل سويًّا من هنا. وقد جئت اليوم لآخذك، اذهبي وجهزي حاجاتك، وسأنتظرك على رأس طريق الأسفلت.

انصرفت مسرعة، وبعد نصف ساعة كانا ينبعثان في الظلام، متقدمين فـي هدوءٍ نحو الجنوب، غارقين في النسـيم الطري الذي هبَّ من النيل، ولا يطل عليهما سوى نجوم زاهية، وضفادع تنقُّ عند الشاطئ في إلحاح، والبوم الذي ينتظر فرائسه فوق أفرع أشجار السنط، وجنادب وجراد ينط بين حين وآخر، عابرًا الطريق في سلام.

وبدت منارة كنيسة العذراء هناك تشق الظلام، وتحرس بيوتًا خفيضة، ينبعـث منها شـخير، وأنفاس حارة، وصراخ رُضَّع اسـتيقظوا باحثين عن أثـداء أمهاتهم، يختلط بنباح كلاب تجري نحـو الجبل متعقبة عواء ذئب جائع.



# القسم الثالث

# 37

وصل «سـمحان» إلى «البهنسـا» عند العصر قابضًا بيسراه على ورقة النقل الممهورة باسـم المدير العـام وعليها خاتم المصلحـة، بينما تحن يمناه إلى شومته الملساء التي تنزلق عليها الريح، متحدية وجوه العابرين، ليسلمها هي ودفتر الحضور والانصراف لتبدأ أيام أخرى.

والنسـوة اللاتـي وقفن أمـام البيوت رحـن يرمين عيونهـن من تحت الطرح السوداء لتطالع الشاب الغريب، الذي تضيف خطواته الوئيدة إلى سنه الصغيرة أعمارًا.

شـق طريقـه في هـدوءٍ كأنه يدرك مـاذا يريد، رغم أن أحـدًا لم يخبره بشيء. سـأل عن إمام مسـجد «علي الجمام» ليُعرِّف الناس عليه ويطلعه على خريطة المكان، فقيل له:

– سيأتي قبيل المغرب.

فوجـد أمامـه وقتًا ليفحص المكان الذي سيحرسـه ليـلًا. ومضى في شـوارع عتيقـة، تطـل عليها بيـوت تنطق بأصالـة التاريخ الغابـر، وبيوت أخـرى بُنيت على عجـل في زماننـا، وتلاصقت بلا ترتيـب، فاختلطت الطرز المعمارية، وزحف القبح على الجمال.

وزار مقام «سيدي محمد عقبة بن نافع» وامرأته وأولاده الثمانية وهم من البدريين، ومقام «سيدي عبد الله التكروري»، الأمير المغربي الصالح الذي جاء لزيارة «البهنسا» فوقع في غرامها واستقر بها إلى أن وافته المنية. ومقام «سيدي أبو سمرة»، الجراح المغربي الذي جاء ومكث وذاع صيته زمنًا، ثم توارى اسمه ولفه الجهل والنسيان. ورأى «مجرى الحصى» و«مجرى السيل» ومقام «السبع بنات»، ووقف خاشعًا عند صخور ضخمة جاثمة منذ مئات السنين، تتجول تحتها ثعابين عجائز، وتمد ذيولها ورؤوسها بين حين وآخر.

ووصل عند شجرة ضخمة متشابكة الفروع ومنحنية، على يمينها بئر، فسأل عنها، فقالوا له: «شجرة مريم، التي جلست تحتها أم المسيح في رحلة هروبها.. منكبة على الأرض لأنها انحنت للطفل وأمه، وتظلل البئر التي شربا منها».

وقادته قدماه إلى مكان مترب، يختلط فيه الطمي بالرمل والحصى، وتحط عليه الشمس الراحلة فتكسبه حمرة، تبعثر غبارًا كالشرر على ملابس نسوة ورجال يتدحرجون مغمضي العيون في تبتُّلٍ عجيب، وهم يحتضنون في شغفٍ لفافاتٍ على هيئة أطفالٍ رُضَّع، وألسنتهم تلهج بدعاءٍ تناثرت حروفه على أُذني «سمحان»، وفهم منه أنهن نساء عاقرات، ورجال لا ينجبون، يرجون أن يمنحهم الله فلذات أكباد، وزينة الحياة الدنيا.



وظهر رجل فارع الطول يبدو أنه قد جاء من بلاد بعيدة، وراح يخلع ثيابه، حتى لم يبقَ على جسده سوى سرواله، ورمى نفسه فوق التراب وهو يقول: «يا لكِ من بقعة طالما طار غباركِ في سبيل الله».

وبعد أن انتهى وقف وسط المتدحرجين وراح يخطب بصوتٍ جهوري، بان من لكنته أنه غريب، وعلى قدر من المعرفة لا بأس بها: «هناك مَن جاءوا إلى هناك من أقصى الأرض مشيًا على الأقدام، وشاهدوا عيانًا بيانًا الكثير من الفضائل العميمة، والبركات العظيمة، والأمور العجيبة».

وتابعه «سمحان» صامتًا، وداخله سؤال يتردد:

- كيف تحل البركة مع الدم والنار؟!

واشرأبت إليه الأعناق مستفهمة، فمَن جاءوا ساعين وراء الخلفة والشفاء والبركة لم يسألوا أنفسهم عن التاريخ الراقد فوق هذه الأرض، فمسح الوجوه بعينيه، وواصل: «هنا قبور الشهداء من المجاهدين والصحابة والتابعين، وراهبات سبع كُنَّ في خدمة الجيش.. آلاف ضحوا هنا بنفوسهم الزكية، وسالت دماؤهم على هذا التراب وسقته بالبركة والمعجزات».

وكان يقف على رأس المتمرغين في التراب رجل طويل القامة، يرتدي جلبابًا فضفاضًا، وعلى رأسه طاقية بيضاء تكاد تغطي أذنيه، وتحط على فودين غزيرين يعلوان لحية مشذبة، طقطق فيها البياض، ويناديه الناس بـ «خادم البير».

يميل الرجل بجسده حتى تحسب أنه سيلامس التراب مع المتدحرجين، ثم يرتفع ليشمخ في الهواء، وهو يتلو تعاويذ وأدعية ويطلب منهم أن يرددوها خلفه، وأن يحتضنوا «الحجر المبروك» ويقول:

- هذا الحجر يبكي في كل يوم جمعة على شهداء روت دماؤهم هذه الأرض.

ثم يرفع هامته لتحط عيناه على آخر جسد يتدحرج هناك، ويقول:

- اغسلوا ذنوبكم، وأزيلوا كروبكم، وداووا أمراضكم التي عجز الطب عن شفائها.

وحين يقرر الرجل متى ينهضون يأمرهم فيقومون إليه، ويدسون في يده ما يجودون به، ثم يوزعون النذور من مختلف الأطعمة والحلوى، ويمضون دون أن ينفضوا ملابسهم، وتتراءى أمام عيونهم صور لأطفال رضع يبحثون عن أثداء أمهاتهم ليلقموها، ويمصوها في رضا؛ ويرسلون نظرات باسمة إلى آباء يتطلعون إلى وجوههم في امتنانٍ عميق.

وتتراقص هذه الصور فوق بئر قديمة يعلوها سور حجري خفيض ليصد عنه زحف التراب والرمل، ويتقدم المتدحرجون ويخطون فوق البئر سبع مرات بقلوب تنبض بدعاء ورجاء.

وحين رأى الرجل «سمحان» واقفًا يتفرج، صرخ فيه:

- تعالَ.



تقدّم إليه صامتًا، فمدَّ الرجل يده وأخذ منه الشومة، ثم دفعه نحو المتدحرجين، فشعر أن قوة جبَّارة تأخذه إلى حافة الكون، وليس بوسعه أن يتوقف أو يتراجع، فتوحَّد مع طالبي الخلفة والبركة والغفران.

وقام ينفض جلبابه، وهو يسمع أصواتًا تطالبه بأن يترك الغبار عالقًا بثوبه، فتوقف، ومدَّ يده واستردَّ شومته، وهو يقول للرجل:

- أنا الخفير الجديد هنا.

جفل الرجل منه للوهلة الأولى، وتفحصه من قدميه إلى رأسه، وقال:

- أي خدمة؟

فهز «سمحان» رأسه وطلب منه:

- عاوزك تعرفني على المكان.

بلع ريقه في غيظٍ وردَّ في اقتضاب:

- حاضر.

وطاف به في جنبات المكان، وعرَّفه على كل شيء هنا، الحجر والبشر، ما يراه تحت قدميه والمدفون في بطن التاريخ البعيد. وهما يعودان من حيث بدآ عند البئر، سأله الرجل:

- من أي بلد أنت؟

- من «جبل الطير».

- بلدكم بعيد.. صعب أن تعود إليه وتأتي إلى هنا كل يوم.

- فعلًا صعب.

تنحنح وشخص ببصره نحو المسجد وقال:

- يمكنك أن تنام في ساحة مقام «سيدي على الجمام».

- لكن أنا خفير ليلي، ولا يجب أن يغفل لي جفن.

أطلق الرجل ضحكة خجلى، ثم خطفها وهو يقول:

- أقصد يمكن أن تستريح من بعد صلاة الفجر إلى صلاة الظهر.

وضع «سمحان» يده على كتف الرجل، وداس بلطف، وقال:

- هذا معقول.

ولان لـه الرجل، وشـعر أنه قـد يصاحبه، فيغض الطـرف عما يفعله ويتركـه يلتقـط رزقـه من جيـوب الغلابـة الباحثين عـن الخلفة والشفاء والبركة. نظر في عينيه عميقًا، وقال بصوتٍ لفَّه في حنان وشفقة:

- حصير الجامع موجود، لكن يلزمك بطانية ومخدة.

- سأحضرهما معي غدًا.

- لا.. هذه عندي، سأحضرهما لك من بيتي.. أنا مثل أخيك الكبير.

هزَّ «سمحان» رأسه موافقًا، وشد على يده وهو يقول:

- ربنا يديم الأخوة.



# 38

عند منتصف الليل تركه «خادم البير» بعد أن احتسيا سويًّا أربعة أكواب من الشـاي الأسـود كالحبر، على راكيـة نار هادئة. نظر إلـى النجوم التي تلألأ في سماء صافية، وشعر بارتياح شديد. إنها المرة الأولى التي يجد نفسه فيها سعيدًا منذ أن تسـلَّم العمل. ولم يدرِ إن كان منبع هذه السعادة هو هذا المكان السـاحر الذي يغـرس قدميه في عمق التاريـخ البعيد، أم لأنه أخيرًا ظفر بـ«جميلة»؟ أصبحت معه بعـد أن أوصلها عند الصباح إلى الشـقة التي استأجرها، واستقبلتها العجوز بفرح طفولي غامر، وقبيل العصر لاذ بصديق العمر «عبد الرحمن» الذي استعان بقريبٍ له من بندر «المنيا»، فصارا شاهدين، وجاء المأذون وعقد القران الموعود.

اشـترطت عليـه ألا يدخـل بهـا حتى يعـرف أهله بزواجـه ويرضون، وقالت له وهي تمسح دموعها:

- لا أريـد أن أفقدك في أول الطريق، وأن يأتي يوم قريب يكون عليك أن تختار بيني وبين أمك وأبيك.. هذا لا يرضيني.

حاول معها، وطمأنها على قدر ما يستطيع، لكنها أصرَّت:

- لا أريد أن أكون سببًا في إفساد علاقتك بأبويك.

وحين غمز لها بعينه، ومدَّ يده وأمسك أطراف أصابعها وبثَّ فيها كل حرقته واشتياقه، ابتسمت له وقالت:

- لا تنسَ أنني كنت مشروع راهبة، ويمكنني التحمُّل، لا تقلق.

وعدها أن ينجز كل شيء في الشهر الذي سيقضيه بـ «البهنسا»، وها هو يعاهد النجوم التي تطل عليه من عليائها ألا يفقد «جميلة» ولا يغضب أبويه.

لم يكن يدري وقتها كيف يعبر هذه الخطوات التي لا تجعله يبتعد عن أيٍّ من أحبته؟ لكنه ترك كل شيء للأيام، فالزمن طالما تكفل بإزاحة الصخور الضخمة القاسية التي تثقل رؤوسنا ونعجز عن مواجهتها حين تسقط علينا بغتة، وتجثم على صدرونا وتخنقنا.

كان قد أفهم والديه أن نقله إلى «البهنسا» لن يمكِّنه من العودة كل يوم إلى بيتهم في «جبل الطير»، وأصبح لديه وقت طويل كي يفكر في أناة وهو بعيد عنهم، ويلملم أشتات نفسه ويتشجع ليطلق أمامهما الخبر مرة واحدة، وفي إصرار.



# 39

رمى الصمت حمولته الثقيلة على المكان، وعانق السماء الصافية، وأطلق أفواه الضفادع التي نقت على ضفتي «بحر يوسف» حتى تعبت وخرست، لتعطي دفقة ريحٍ فرصةً عابرة كي تدوي وتروح لتموت خلف البيوت الخفيضة.

وترامى همس يأتي من ظهر المقبرة، فأوجس «سمحان» خيفة، وغرس أظافره في البطانية التي فردها على ساقيه. صار الهمس كلامًا، فنهض وسار خطوات، مسترجعًا في هذه اللحظة كل ما كابده في «طهنا الجبل» و«دير العذراء»، وانفتح المدى عن رجل يحط القمر على وجهه، بعد أن بزغ قبل دقائق باحثًا عن وجوه الساهرين ليغمرها بنوره. وخلَّص جسده في الضوء الشحيح، وهو يتقدَّم في هدوءٍ. فلما اقترب صاح «سمحان»:

- عم «عبد العاطي»؟!

لكن الرجل لم يرد، واكتفى بفرد ذراعه، فأصبح أطول من شومة «سمحان»، وقال له:

- بدلًا من جلوسك هنا لتحرس زمنًا فات، تعالَ واكدح مع الرجال.

أعطاه يده في استسلام، لا يعرف كيف سيطر عليه، فجذبه في هدوء، ليجد نفسه أمام آلاف من الرجال يتقاطرون فلا تصل العين إلى آخرهم، يقبضون بأياديهم على فؤوس تلمع في صهد الشمس العفية، وعلى أزاميل تمزع الهواء، ثم تدق رؤوس الأحجار المدفونة في الرمل فتخلعها، ليحملها بعض الرجال على أكتافهم، ويلقونها بعيدًا. وتقضم الفؤوس الرمل، وتزيحه إلى مقاطف من خوص ملقاة بين السوق والأقدام، وما إن تمتلئ تخطفها الأيادي، وتذهب بها لينكشف مسرب يكبر تباعًا.

قال الرجل لـ «سمحان»:

- خذ فأسًا واحفر معنا.. أو مقطفًا وأبعد الرمل عن الشق الكبير.

تردد قليلًا، فغمزه الرجل في كتفه، وراح يشجعه:

- فرصة لتجمع حسنات تبدد بها ذنوبك، وتنفعك يوم الحشر الأعظم.

- حسنات؟!

سأله «سمحان» متعجبًا، فلم يتركه الرجل حائرًا:

- هنا سيجري الماء، وينبت القمح والبقل، وترعى الأغنام والماشية، ويطن النحل فرحًا بشهده اللذيذ، ويفوح الورد، فينعم الناس بالخير، وكل آدمي أو بهيم تستقر في بطنه لقمة من حصاد الزرع، أو تملأ أنفه رائحة طيبة، سيدعو الله أن يرحم من شق الطريق أمام الماء ليأتي إلى هنا في قلب الرمل والصخر، فيغور الموت وتبزغ الحياة.



تهلل وجه «سمحان» ولم ينطق، بل جرى وحمل مقطفًا على كتفه، وسار في همة زائدة وألقاه، وعاد مقبلًا على العمل بنفس مفتوحة، حتى أخذ العرق ينز من جبهته، ويتساقط على الرمل ويزركشه. ونظر حوله فإذا بكل الجباه والوجوه تبرق في الشمس، والصدور تعلو وتنخفض، والأفواه مفتوحة تطرد التعب، وتلتقط النسائم العابرة.

وظهر شاب على تبّة عالية، يرى الواقف عليها كل الرجال، وتحرك في تؤدة ورفع يده فتوقف العمل ونظر إليه الحفارون والشيالون والخولي واجمين في انتظار ما سينطق به، ونطق:

- أصلّي ليل نهار من أجل أن يبارككم الله، ويساعدكم في إنجاز ما بدأناه، فنخرج من هذه السنوات العصيبة، ونسترد أبقارنا السمينة وسنابلنا الخضراء.

كان أبيض اللون، ريان الساقين، وخميص البطن، بشرته صافية وعلى خده خال أسود، وبين عينيه شامة، فبدا كالقمر ليلة البدر، وكأنه قد أُعطي نصف الحسن الذي منحه الله للعالمين، حين غامت الشمس تلألأ نور وجهه على الرمل، وانعكس قروشًا من ذهب على وجوه الرجال، كان إذا تكلّم ظهرت أسنانه تضوي، وانبسط خدّاه وفاضا بالراحة والامتنان. مدّ يده والتقط تفاحة لم تسقط من شجرة، فلما ازدردها في هدوء، رأى «سمحان» فتافيتها وهي تدور في حلقه، ثم وهي تنزل في مريئه، حتى وصلت إلى بطنه. ورفع يده مرة أخرى إلى عمق السماء، وقال: «أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض، وليستبقي لكم نجاة عظيمة».

ووجد «سمحان» نفسه يشرد بعيدًا عن طابور الرجال ويقترب من الواقف على التبة، فإذا ببصره يرتد إليه كسيرًا من روعة ما رأى في محيا الشاب من جمال أخاذ، لا ينقص من رجولته شيئًا. وتعجب وهو يسأل نفسه: «كيف لمثل هذا الشاب أن يقود كل هؤلاء؟ أهو ملك أو أمير؟ أم هو ثري يعملون عنده؟ أم ابن وجيه يملك تلك الأرض وما عليها؟»، لكن حين صعد إليه، وسط دهشة الواقفين، أدرك أنه غير كل هذا.

انبرى الخولي الكبير، ونادى على «سمحان» أن يعود، فالتفت إلى الخلف، وأصبح ظهره للشاب، ولم يرَه وهو يقترب منه، ويلمس رأسه، لكنه شعر بأن طاقة عجيبة تتسرَّب إليه، فيتوهج مخه، ويرتج قلبه، وتفيض دموعه، وتكاد ساقاه ترتفعان عن الأرض، وتطيران به في الهواء.

ووجد قوة تجذبه إلى الوراء، فعاد ليقف مع طابور الرجال، ويتطلع إلى الخولي وهو يشكو:

- الرمل كثيف، والصخر القاسي يكسر الفؤوس، ويثني الأزاميل، وآذان المقاطف تمزقت.. الرجال كَلُّوا لكنهم لا يريدون أن يتوقفوا، إخلاصهم عميق، لكن ظروفهم صعبة.

هزَّ الشاب الجميل الواقف فوق التبة رأسه وأنصت طويلًا إلى الهمهمات التي انطلقت في الطابور، تعلو وتنخفض، ثم يموت الكلام على الشفاه ويحل الخرس، حين يأتي صوت الشاب وهو يرفع كفيه إلى السماء، وينادي:



- يااااااااا رب.

ويجثو على ركبتيه، ثم يسجد ويتمتم بكلمات لا يسمعها الناس، ويقوم ليغمس عينيه في عمق السماء، ويترك مقلتيه تتجولان في صفحتها الزرقاء الرائقة. فلا تمضي سوى دقائق حتى تهب الريح، وتزجي سحابًا كثيفًا، يحجب الشمس، فيجف عرق الرجال، ويستردون أنفاسهم المبهورة.

ويصرخ الخولي بصوتٍ متهدج:

- بارك الله فيك يا سيدنا.

يبتسم الشاب ويقول:

- لا تتعجل فنعم الله كثيرة، وهي آتية.

وأشار إلى الرجال:

- أريحوا ظهوركم.

وقف بعضهم مكانه، وآخرون استلقوا على الرمل مستمتعين برذاذ المطر والنسائم الطرية التي لم تُثر أي غبار، وفجأة انتفض المستلقون والواقفين، وسقط الواقفون على الأرض، حين رأوا طيورًا ضخمة تنشق عنها السحب، وتهبط إليهم سريعًا، كانت كثيرة فحجبت ندف القطن الأبيض العابرة في الفضاء، ولما اقتربت منهم، وجدوا أن لها مناقير يصل طولها إلى ذراع، ولها أجنحة أطول من جريد النخل، ولها مناشير في طرفها.

مـا إن اقتربت من الأرض حتى وزَّعت نفسـها في صفين، الأول عند الضفة الغربيـة للرمل المحفور قليلًا، والثانية عند الشـرقية منه، وراحت تضرب الصخر، فانشـقَّ فلقات ضخمة، دقَّت عليها بالمناقير فتفتتت إلى حصى صغير.

ونادى الشاب على الرجال:

- لـوذوا بخيامكـم بعـد أن تثبِّتوا أوتادهـا في الأرض، وضعـوا صخورًا ضخمة على أطرافها، وأغمضوا عيونكم.

رفع الخولي الكبير رأسه إليه ونادى:

- وأنت يا سيدنا.

ابتسم وقال:

- أنا سأظل في مكاني لأرحب بالعاصفة.

وجرى الرجال ومعهم «سـمحان» واندسـوا تحت الخيام، وأرسـلوا آذانهـم لتلتقط خبر الريـح العاتية، فلم تكذب خبرًا، إذ جاءت قوية، حتى إنهـا خلعت بعـض الخيـام، وكوَّمتها فوق أجسـاد مَن فيها، فاسـتجاروا بها متشـبثين بأطرافهـا وبدنها وخرومها وعروقهـا المدقوقة في الأرض، فحمتهم من أن تجرفهم الريح.

وانخفـض الصفير رويدًا رويدًا، وسـكن الغبـار، وخفَّت وطأة الهواء على أجسـادهم، وشـعروا أن الجو قد راق، فرفعوا الخيام عن رؤوسـهم



لتداعبها نسـائم طرية، وأرضًا قد اسـتوت وتسـاوت. قامـوا يبحثون عن الشـق الذي كانوا يفلقونـه، فوجدوه قد انحفر عميقًـا، وتباعدت ضفتاه، وصـار نُهيرًا، لاسـيما أن المـاء كان يتدفق فيه من الجنوب إلى الشـمال، بينما نبتت حشائش على جانبيه.

رأى «سمحان» كل شيء، ونظر إليهم جميعًا وسأل:

- إذا كانت العاصفة قد شـقت النهر، فمَن جـاء بالماء، وإذا كان الماء قد انبجـس مـن الحجر أو تدفق من جـوف الأرض، فمَن الذي جعل هذه الحشائش تنبت في أقل من ساعة؟

فنظـروا نحو الشـاب الذي كان واقفًا على التبـة، فوجدوه قد غادرها.

لكـن الرجـل الـذي نـاداه من عنـد مقام «سـيدي علـى الجمـام»، تطوع بالإجابة:

- هناك سراديب من هنا تصل إلى النيل.

- النيل؟!!

سأل «سمحان» متعجبًا، فلملم الرجل كلماته وأضاف إليها:

- وهنـاك مـاء فـي قيعـان الأرض البعيـدة، فلمَّا نقـرت الطيـور الصخر وتشقق، وكنست الريح الركام، ظهرت المياه وتدفقت.

هزَّ «سمحان» رأسه، واقتحمت أذنيه عبارة الرجل التالية:

- ستقوم هنا بلاد، وستخرج المرأة بمقطفها ومغزلها في يدها وتمضي إلى جنايين يانعة فلا ترجع إلا وقد حصدت من جميع الثمار من غير أن تمسَّ شيئًا بيديها.

ورفع كفيه إلى السماء:

- ربنا أوزعنا أن نشكر لك كرمك.

ثم وضع كفه على كتف «سمحان» وقال له:

- هنا سيدفن سيدنا حين يموت، هو قال لي هذا، وسيكون ذلك حلًا لتنازع الناس على جثمانه الطاهر.. سيقترح أحدهم أن يلقى في النيل، فيذوب جسده في الماء فتحل البركة في كل أرجاء البلاد، لكن رجلًا حكيمًا مثله سيشير عليهم أن يضعوه تحت مياه هذا المجرى الأصغر، وسيظل هنا حتى يأتي رجل ترعاه السماء، فينبش عليه، ويجد التابوت الذي يطوقه، فيخرجه، وسيحمله وهو خارج من مصر مع أهله.

وقبل أن يستفسر «سمحان» عن شيء، واصل الرجل:

- سيأتي إلى هنا ملك، في أصله كاهن على دراية كبيرة بعلوم الهندسة، سيبني قصرًا من الرخام على ضفة النيل، ويسحب منه بركة صغيرة يطوقها النحاس من شتى أطرافها، ويضع على حافتها صقرين من نحاس أيضًا، ذكرًا وأنثى، فإذا جاء أول الشهر، دعا الكهنة، وفتح الماء نحو البركة حتى تمتلئ، فيندفع في أوصال الصقرين، فإن صفَّر الذكر كان في هذا إشارة على أن منسوب المياه مرتفع، وإن صفَّرت الأنثى



كان المنسوب منخفضًا. وفور أن يصفر الذكر يأمر ببناء جسور وقناطر تزينها نقوش جميلة على النهير، الذي شقته الطيور العملاقة. وسيبني قصرًا لابنه غرب النهر، وسيحفر سردابًا يصل بين القصرين تضيئه الشموع الكبيرة، وهو واسع وعالٍ إلى درجة أن أتباع الملك سيمشون فيه راكبي أحصنتهم المطهمة.

فتح «سمحان» فمه بعد أن أنصت جيدًا:

- لكنني لم أرَ شيئًا من كل هذا حين أتيت إلى المكان الليلة.

ابتسم الرجل ورد عليه:

- كما ذهبنا نحن ذهبت هي.

وربَّت كتف «سمحان» وقال:

- الكل ذاهب، البشر والحجر، ولن يبقى إلا وجه الخالق العظيم.

ثم جلس على ركبتيه، ورفع رأسه إلى السماء البعيدة وتلا في خشوع: «وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم فارتعت في روضة، ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطئ النهر، فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة واستيقظ فرعون، ثم نام فحلم ثانية وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحدة سمينة وحسنة، ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون وإذا هو حلم».

استمع «سمحان» إلى ما تلاه الرجل، وقال له:

- لا أفهم شيئًا.

ابتسم ورد عليه في هدوء:

- أتعرف جدار بيت الله الذي كنت تسند إليه ظهرك وقت أن ناديتك؟

- أجل.

- ادخل وستجد كتابًا تحت المنبر، افتحه واتلُ مثلي، وستعرف كل شيء.

واقتحمت جلبة أذني الرجل، فنظر ليرى ما يجري، فوجد الحفارين والشيالين والخولي يجرون يمينًا ويسارًا، ويصنعون هرجًا ومرجًا، ثم اشتبكوا في شجار عنيف. هرع الرجل إليهم، وهو يصيح:

- لا تستبدلوا بالماء الدم.

لكن أحدًا منهم لم ينصت إليه، واستمروا يتلاكمون ويتعاركون، واستُعملت الفؤوس والأزاميل في غير ما أتوا بها له، وانفتح جلد ولحم، وسال دم فوق الأرض التي تكالبوا على خطفها، وكل منهم يضرب فأسه، مرة على ضفة النهير ليجذب الماء إلى أرضه، ومرة على رأس مَن يصارعه.

كان «سمحان» يجري إلى جانب الرجل لاهثًا، ولا يدري ماذا يفعل، ودفعته الأكتاف بقوة، فسقط على الأرض وداسته الأقدام بلا رحمة، وفقد وعيه.



# 40

في الصباح وجده الساعون على رزقهم في البكور مُلقًى على الضفة الشرقية لـ «بحر يوسف»، وأنفه مدموغ في التراب، وينزف دمًا خفيفًا، بعضه تجلَّط على خديه. ترجَّل اثنان من على حمارين وتركا بهائمهما تسرح على الطريق، ومدَّا يديهما ونغزاه في كتفه، وشعر بهما وهو يعود من الموت إلى الحياة، وسمع أحدهما يقول للثاني:

- يبدو أنه ميت.

- لا، إنه يتنفس، وجسمه ينبض في يدي.

- أتعرفه؟

- لا، هذا رجل غريب.

وأمسكاه من كتفيه وهو يتوجَّع حتى قام على قدميه. نظر إليهما بعينين مجهدتين، ونطق لسانه:

- أشكركما.

ونفض ثيابه، ومشى صامتًا، وسط استغرابهما مما فعل، فبدا في نظريهما درويشًا غير مسئول عما يفعل.

حين وصل إلى ساحة مقام «سيدي على الجمام» وجد «خادم البئر» ينتظره، وفي يده قرطاسان من الشاي والسكر، وعلبة صفيح مملوءة بالدخان، لمَّا رآه صاح:

- أنا هنا منذ ساعة ولم أجدك.

اقترب «سمحان» منه وقال:

- كنت أتجول في هذه المقبرة العتيقة.

ملأ عينيه من وجهه، وردَّ:

- يبدو أنك قد قابلت موتى، فعلى وجهك صفرة، وعيناك زائغتان.

لم يتكلم، وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى، فواصل الرجل:

- في الليل يخرج الشهداء الذين رووا المكان بدمائهم، ليتسامروا تحت شواهد القبور، ثم ينصرفوا في صمت إلى حيث جاءوا.

انتبه «سمحان»:

- وكيف عرفت؟

- كل أهل البلد يتكلَّمون عن هذا.

ودفس البراد في بقايا الحطب التي كان قد تركها ليلة أمس، وأشعل النار، وأخرج صرة من سيالة جلبابه، وفردها على الأرض، لتطل منها أربعة أرغفة وبضعة أقراص من الطعمية وقطعة جبن، وقال:



- بسم الله، افطر معي.

غادرته الشهية، فعافت نفسه الطعام، إذ كان تائهًا فيما رآه قبل ساعات لا يعرف عددها، ومهمومًا بالإجابة عن الأسئلة التي برقت في رأسه حين رأى المنظر الأليم. ما الذي جعل هؤلاء المتوحدين في مواجهة الجدب والعطش وسطوة الرمل الأصم يتشرذمون هكذا على عجل، ويتناطحون كالتيوس الغبية؟ ما الذي جعل رؤوسهم المسكونة بجلب الخير تنبت لها قرون صلدة طويلة مصمتة لا تكف عن النطح؟ ومَن هذا الرجل البنور الذي كان كلامه يُذهب عنهم النصَب والسغب والحيرة، لم تحولوا فور رحيله، وبعد أن انبثق الماء وترعرع العشب، إلى سكاكين طويلة لها عيون تقدح شررًا؟

شرع «خادم البئر» في قطع رغيف، وهشَّم قطعة جبن ووضعها في لقمة، ورماها في فمه، من دون أن يدري شيئًا عن دوائر النار التي تتلاحق في نفس «سمحان». لقمة وأخرى، وصمت يسود، والرجل الذي يزدرد الطعام الذي أحضره، انتبه بعد وقتٍ إلى أن الجالس إلى جانبه لا يشاركه الأكل، مثلما هو لا يشاركه الهم والحزن.

تذكر «سمحان» في هذه اللحظة ما قرأه ذات يوم في ورقة كانت مطوية في كتاب رقد سنين في صندوق عمه «رشيد»، يبدو أن العم هو الذي كتبها، فالخط خطه، الذي تكرر في الملاحظات التي كان يكتبها على هوامش السطور التي يلتهمها.

شعر في هذه اللحظة أنه يرغب في مطالعتها، فقد فهم ما فيها، وضاهاه بما رآه عند ضفتي النهير الذي يمزع الصحراء، فوجد أنه يصيب كبد الحقيقة المرة التي نهرب منها في دوائر البهجة المصطنعة، والتفاصيل الصغيرة التافهة التي تنهمر على رؤوسنا كالمطر، وتطارد خطواتنا التي نحسبها دومًا تتقدم إلى الأمام.

كانت مكتوبة على مهل، وبسن قلم رصاص، وبعض الكلمات كان يبدو أنها قد تم مسحها بممحاة خشنة، وحلّت مكانها كلمات أخرى، ربما حاول أن يكتب مقالًا فلسفيًا أو خاطرة عميقة، ربما كان في لحظة تفكير، أو يقاوم طوفان حزن بالكتابة، بل إنها لحظة يأس قاسية، كان يعافر فيها من أجل اختطاف ابتسامة واحدة من أيدي الكآبة.

شاعرًا كان أو إنسانًا مجروحًا، لا يهم الآن فقد ذهب بسر هذه اللحظة، لكن المهم هو أنه قد وضع يده على ما تنساه الأغلبية الكاسحة من الناس، وهي تخطف بأيديها أوراقًا هشة لحياة عابرة، وتلقيها فوق الحقيقة الأصيلة لتغطيها ولو إلى حين، ظانة أنها قد نجحت في طردها من الأذهان، بقصد ووعي، في محاولة للنجاة من آثار المواجهة.

كان «سمحان» قد قرأ ما كتبه عمه مرات ومرات حتى حفظه، لكنه قبل أن يرى الرجال المتعاركين عند النهير الرائق، لم يفهم ما قرأ على الوجه الأكمل، والآن وجد نفسه راغبًا في أن يردده بصمت، دون أن يسمعه الرجل الذي يلتهم الطعام البسيط في تلذذ عجيب.



«نحن من صناعة الخطيئة، ألم يُطرد أبونا آدم من الجنة العليا، ويهبط إلى الأرض السفلى؛ لأنه عصى، حين استسلم لوسوسة الشيطان فمدَّ يده ليأكل من الشجرة المحرَّمة، راغبًا في الخلود، ليكون حيًا لا يموت، قيومًا لا ينام، أي يصير إلهًا، وهو ما كان مستحيلًا؛ لأن الكون لم يكن ولن يكون له سوى إله واحد، لكن آدم كما هي ذريته، كان ظلومًا جهولًا، لم يدرك في بلهنية العيش في الفردوس أنه مجرد عبد مخلوق. واكتملت الخطيئة حين قتل قابيل أخاه هابيل، من أجل إطفاء الشهوة في فرج الأخت الجميلة، فمات الطيب الذي تقبَّل الله قربانه، وعاش الشرير الذي رفض الله قربانه، وتزوَّج ونسي جريمته، وضاجع وأنجب، ومن نسله جئنا نحن جميعًا، لنكون أبناء وأحفاد القاتل الشرير، وبذا يظل الشر في هذه الدنيا هو الأصل، والخير هو الاستثناء.

فنحن الناس جُبلنا على الفجور، ولا تدوسه إلا قلة في طريقها إلى التقوى، والبقية تمارس عشقها للافتراس والقنص طيلة الوقت، شأنها شأن الحيوانات البرية في الغابات. وطيلة الزمن يظل من بيننا الأسود التي تلتهم بلا رحمة، والضباع الخسيسة التي تنتظر البقايا لتلتهمها بلا تحسُّب، ومنَّا الثعالب الماكرة، والأرانب المذعورة، والنعاج المطيعة، والتيوس النطيحة، ومنَّا الذئاب الغادرة الفاجرة، والفيلة الضخمة الطيبة، والدببة البليدة، ومنَّا النسور الجارحة، واليمام الوديع.

وإذا كنا نتميز عن حيوانات الغابة بأن لنا عقولًا، فإن العقل قد يذهب في سورة الغضب أو بالسكر الذي يخلقه الإفراط في احتساء الخمر، وإن

كنا ندرك أن لنا تاريخًا فقد قتلنا إدراكنا هذا بإيماننا الجازم بأن هذا التاريخ يعيد نفسه، لنسقط في فخ الدائرة الجهنمية التي ما إن تبدأ حتى تنتهي، وما إن تنتهي حتى تبدأ. وداخل إطارها المغلق بإحكام نتصارع نحن بلا هوادة على كل شيء، ونظل في رحلة بحث دائم عن القوة والجاه، ولا يوقفنا عن هذا إلا الموت، الذي لولا إدراكنا أنه آتٍ لا محالة، لتحولنا إلى حيوانات أشد فتكًا من الأسود والنمور والضباع والذئاب.

لهذا وزع الحُصفاء وعلماء الفِراسة وضباط أجهزة المخابرات البشر على سبعة حيوانات، فما إن يروا شخصًا حتى يحيلوه إلى حيوان من تلك السبعة، ليمسكوا بمفتاح سليم لمعرفة الكثير عنه، إنها الحكمة أو الرغبة أو الحاجة، لا يهم، فالكل يدرك في لحظات الصفاء والاتساق مع الذات، أو لحظات الخطر والحرج، أن الخطيئة التي لازمت وجودنا، والجريمة التي صاحبت إنجابنا، ضالعتان في صناعتنا من المهد إلى اللحد».

لفت انتباه «خادم البئر» أن الشاب الذي يجلس إلى جانبه غارق في التفكير، ولا يمد يده إلى الطعام، فغمز كتفه:

– ما لك.. «أزرعتها بُنًّا فغرقت»؟

– لا بنًّا، ولا شايًا، أنا متأثر بما رأيته الليلة الفائتة.

– وماذا رأيت؟



حكى له كل شيء، والرجل يتابعه من دون أن يتوقف عن الأكل، ولما انتهى وجده يقهقه، ويسعل، ويجؤر حتى يطرد اللقمة التي انزلقت إلى قصبته الهوائية، و«سمحان» لحقه بالماء، ثم ضربه على ظهره، حتى انزلق الطعام إلى بطنه. بعدها نظر إلى البعيد وقال:

– طالما سمعنا حكايات عجيبة في هذا المكان.

– مثل ما حكيته لك؟!

– وأعجب من هذا.

لم يفعل «خادم البئر» معه ما فعله «فتحي» حين سمع أولى حكاياته في «طهنا الجبل»، بل لم يسكن أي قدر من الدهشة ملامحه، وهو يتابعه. وبات «سمحان» هو مَن يسيطر عليه الاستغراب مما يراه، فقال في غيظ مكتوم:

– يبدو أنك لم تسمعني جيدًا، أنا قلت إنني شاركتهم الحفر، وسمعت كلام رجلهم الوقور الجميل، وداستني أقدامهم وهم يتعاركون.

– حفرت معهم، وداسوك؟!!

– نعم.

وضع الرجل يده على جبين «سمحان»، فطوح رأسه بعيدًا، وهو يقول:

– لست محمومًا، ولا مجنونًا.

فصمت «خادم البئر» قليلًا، ثم نطق:

- الناس هنا يرون خيالات ترقص أمام عيونهم.. يمر كل شيء كأنه فيلم، والبعض يحلم وهو يظن أنه يرى، وتختلط الحكايات، ويرددها الناس ويضيفون إليها من خيالهم، ولا تعرف بعد حين الصدق من الكذب، اعتدنا هذا في بلدنا، ونعيش معه ليل نهار، والناس يجيئون إلينا من ال البلدان بحثًا عن التبرك بحكاياتنا وآثار مَن صنعوها في الزمن القديم.

ومسح يده في طرف المنديل الكبير الذي يستقر الطعام في منتصفه وقال:

- ألم ترهم وعيونهم معلقة بفمي وأنا أردد الأدعية، نسوة يسعين الى الحَبَل، ورجال يحاولون رفع الخزي بتحبيل نسائهم، ومرضى أتعبهم انتظار الشفاء.

- رأيتهم عند وصولي.

ووجدها «خادم البئر» فرصة ليستميل «سمحان» فيستمر في مأمن من العقاب لقاء كسبه من إيهام الناس وخداعهم، فقال له بوجهٍ متهلل:

- يمكنك أن تشاركني، ونقتسم ما نحصل عليه.

امتلأ وجه «سمحان» بالغضب:

- أنا خفير ولست...

لم يكمل، فبدا الأسف على وجه «خادم البئر» وأكمل هو له:



- دجال؟ هذا ما كان على لسانك وبلعته.

- لم أقصد هذا بالضبط، فأنت تبيع لهم الأمل.

- وكثيرون يقبلون على الشراء.

- لا يكف الناس عن طلب الأمل، وفي الطريق تهجم عليهم الأوهام.

ضحك «خادم البئر»، وقال:

- العجيب أن بعض النساء يعدن بعد سنين ليخبرنني أنهن حوامل.. ورجال يأتون ليقولوا إن الله قد منَّ عليهم بالخلفة التي انتظروها طويلًا.

- ربما كان مقدورهم أن ينجبوا في هذا التوقيت المحدد، لكنهم استعجلوا، وربما الأمل والرجاء الذي ملأهم في هذا المكان سهَّل لهم الطريق، وربما يكون الأمر حقيقيًا.. فمَن يدرينا، فالدنيا مليئة بالعجائب.

قهقه «خادم البئر»:

- بغض النظر.. فالله يمن علينا بالرزق في كل الحالات.

- أتسمي هذا رزقًا؟

- وهل تراه أنت شيئًا آخر؟

- لا أدري.

- ليكن في معلومك، حتى ما تأكله من السرقة هو رزق لك، لكنه رزق حرام.

- وهل رزقك حرام؟

- لا طبعًا.. أنا لا أمد يدي في جيوب الناس لآخذ منها، فهم يعطونني عن طيب خاطر، ولا أحدد لهم ما يدفعونه، ولا أفاصل فيما يمدونه إليَّ.

مصمص «سمحان» شفتيه، ولم يُرد أن يكسر بخاطره أكثر من هذا، لا سيما أن تواجده في هذا المكان مؤقت، ويريد أن يترك فيه ذكرى طيبة وإن كان قد ظنَّ أن صمته هذا قد يكون تخاذلًا عما يجب عليه فعله. شعر بغُصَّة في حلقه، ونغزة في قلبه، صنعها سلطان العقل عليه، في هذه اللحظة، لكن ما رآه الليلة الفائتة، وفي كل الليالي التي ولَّت جعلت ما في رأسه يهتز، ويفسح بابًا وسيعًا لمشاعر مضطربة تسيطر على وجدانه، فيسأل نفسه: «وهل كل شيء ابن العقل؟».

أفاق من شروده وقام من مكانه، ونفض ملابسه، وسحب شومته، وألقى السلام على «خادم البئر» وقال له:

- ألقاك عند المغرب.



# 41

حين وصل إلى شقته الصغيرة بحي «أبو هلال» وجد «جميلة» منهمكة في التنظيف. كانت ترتدي جلبابًا خفيفًا وقد ربطته عند ركبتيها، وجذبت ربلتاها الريانتان عيني «سمحان» فغرس فيهما مقلتيه، وسرى في عروقه اشتهاء. وأحست به، ففكت وثاقها، فتدلى الجلباب ليغطي كل شيء.

جلس على كنبة متهالكة وهو يكتم غيظًا مما فعلت، ولم يتمالك نفسه إلا وهو يقول لها:

- أنسيتِ أنني زوجك؟

التفتت إليه، والممسحة في يدها، وماء قليل يجري تحت كعبيها، وقالت:

- لم أنسَ، لكنك تعرف ما اشترطته عليك.

صمت قليلًا، وقال:

- إذن، لا داعي لمجيئي إلى هنا.

- هذا بيتك، وتأتيه في أي وقت تشاء.

قهقه، وضرب قورته بكفه:

- بيتي مع وقف التنفيذ.

ابتسمت، ودلفت إلى المطبخ الضيق لتواصل تنظيفه وهي تقول:

- التنفيذ مشروط، فلا تضيع وقتك.

ثـم وهي تميل على الأرض لتمسـح المزانق الزلقة التي يعشـش فيها العنكبوت وطفيليات لا تعرف أسماءها:

- ربنا يعلم قدر اشتياقي إليك، لكن ما أطلبه هو عين العقل والضمير.

حكَّ ذقنه في هدوءٍ وأطلق عبارته التي اختزنها في نفسه أيامًا:

- ادخلي الإسلام وستُحل المشكلة.

صمتـت، وجاء صوت الخرقة وهي تحك الأرض المبتلة، وأدرك أنه باغتها، فقال لها:

- لا أقصد أن...

لكنها قاطعته:

- هل تعتقد أن إسلامي هو الذي سيُرضي والديك؟

- ربما.

- أنـت واهـم، حتى لـو كنت مسـلمة فإن غربتـي، وفقدان أهلـي، الذي جعلني مقطوعة من شـجرة، سـيدفعان أباك وأمك إلى الاعتقاد في أن ابنهم يسعى إلى الزواج من لقيطة، ولن يرضوا أيضًا.



ضحك بصوتٍ رنَّ في الماء الشـحيح الزاحف فوق البلاط المتآكل، وقال:

- أنا أيضًا مقطوع من شجرة، فلا أعتقد أن لنا في قريتنا أقارب.

- لكـن لكم جيران ومعارف، وهـؤلاء أهلكم، الذين سيحسـب والداك حساب موقفهم من زواجنا.

أمَّن على كلامها:

- صحيح.

راحت تعاتبه:

- ألم تكن قاسيًا عليَّ؟

- فيمَ؟

- في خروجك على ما اتفقنا عليه من أن أبقى محتفظة بديني.

سحب كلامه:

- كنت أداعبك.

- تداعبني!

- فـي الحقيقـة كنت أريد أن أفتح بابًا يخفف عني عبء مفاتحة أهلي في شأن زواجنا.

سحبت شهيقًا طويلًا ثم زفرت، وكان وجهها مقتربًا من الأرض فاهتز المـاء القذر، وضرب جانب الماسـورة الصدئة التي تدفـع الماء النظيف

إلى حوض الخزف المتهالك. كانت متخوفة من كلامه، وحاك شك في صدرها من أن تتغير معاملته لها بعد أن يدخل بها، ويصبح لديهما أولاد، وتغرقهما تفاصيل الحياة مثلما تغرق كل الأسر البسيطة في هذا البلد، ولم تستطع على شكوكها صبرًا، فقالت له في حزم:

- لا تعُد إلى هذا الموضوع أبدًا.

كسا صوته بجدية شديدة، ورد عليها:

- خلاص، انسِ ما قلته لكِ.

عضَّت على الكلام، وبلعت دموعها:

- أنت لا تعرف ما ضحيت به من أجلك، ولا تدرك أن مَن كنت بينهم لو اكتشفوا أمري لقتلوني.. أنا أخاطر بحياتي وكل هذا حتى أبقى إلى جانبك، وأنت لست مشغولًا سوى بحل مشكلة، لا تحتاج منك إلا إلى شجاعة أو حيلة تستدِر بها عطف مَن لا يكرهون لك السعادة والهناء أبدًا.

كان يدرك ما تقوله، وأفزعه أن تتصور أنه شخص أناني، لا يريد أن يقدم شيئًا من أجل محبوبته. وفي الحقيقة فهو لم يكن يعني حين طلب منها الدخول في الإسلام أن يضمها إلى كنف الدين الذي يعتنقه، بقدر ما كان يبحث عن مخرج من المأزق الذي هو فيه، إذ يعلم جيدًا أن الإسلام لا يحرِّم الزواج منها وهي على دينها، ولا تزال الآيات التي قرأها له شيخ



المسجد تتردد في أذنيه، لكنه يريد أن يتجنب مصير الشاب الذي كان حديث قريته على مدار سنين.

حكاية محفورة في ذهنه سمعها وقت أن كان طفلًا، ولا يزال أولاد قريته يرددونها، كما يرددها الكبار بعد أن أضافوا إليها من خيالهم الكثير، فغرق الواقع في الأساطير، وتعتقت المخاوف، لكن حتى العقلاء لم يسلموا من الإتيان عليها. فهو حين فاتح «عبد الرحمن» في نيته الزواج من «جميلة» قال له:

- أنسيت حكاية «شوقي عبد العليم»؟

امتقع وجه «سمحان»، وردَّ عليه:

- وهل هذا يُنسى؟

ضحك «عبد الرحمن» وواصل:

- إذا كنت لم تنسَ فما الذي يدفعك إلى تكرار المأساة؟

هزَّ «سمحان» رأسه وقال:

- «جميلة» ليس لها أهل سيخطفونني ويخصونني ويكسرون ساقي فأُصاب بعرجٍ دائم، ويسملون عيني، فلا أتحمل ما جرى لي فأقتل نفسي.

ضغط «عبد الرحمن» على كتفه مداعبًا إياه:

- ولا تنسَ أن الناس سيجدونك ملقًى على جانب طريق الأسفلت تنزف وتعوي وتتمنى الموت فلا يأتيك. أما محبوبتك فستنشق الأرض وتبتلعها، ولا يعرف أحد مَن خطفها؟ وأين ذهبت؟

سحب كتفه من يد صديقه:

- قلت لك إنها بلا أهل.

- أنت واهم، أهلها كل مَن نبذوك في «دير العذراء».. كل مَن يعرفهم «أبنوب» ويستمعون إليه ويصدقون ما يقوله وهو يعلن نبأ اختفاء «جميلة»، وكذلك كل الراهبات والمكرسات اللاتي كانت بينهن في الدير قبل أن تتركهم وتأتي لتبحث عنك.

الآن يستعيد كل هذا وهي أمامه منشغلة بتنظيف الشقة البسيطة المتسخة، وتحدثه عن تضحياتها، دون أن تدري أنه أيضًا مقبل على تضحيات أشد وأنكى. فكل ما سيجري لها هو أنهم سيخطفونها ويعيدونها إلى الدير مرة أخرى، ويكتمون الخبر، أما هو فقد يناله ما نال «شوقي عبد العليم» الذي كان شابًّا مليحًا لم تنجب قرية «جبل الطير» أحدًا في وسامته. وستكون الطامة كبرى لو اكتشفوا هروبها معه بعد أن يكون قد أنجب منها فلذات أكباده. فماذا سيقول لأولاده إن بقي هو على قيد الحياة؟ وكيف يمكن لها أن تطيق الابتعاد عنهم إن تحملت إبعادها عنه هو؟ «إنه كابوس مرعب»، هكذا وصفه «سمحان» لنفسه وهو في صمت، وزفر في ألم، فوصل ريح نفخته إلى أذنيها.



استدارت وقالت له:

- كل هذا الألم؟! يبدو أنني أصبحت عبئًا عليك.

استدعى ابتسامة من زمن الضحك، وطمأنها:

- أنا أفضفض معكِ.. مع نفسي؛ لأنكِ نفسي.

نفضت يديها من البلل، واقتربت منه، وأخذت رأسه على صدرها، وتركت أصابعها تتسلل إلى شعره، ويدها تربِّت كتفه وهي تقول:

- لا تخفِ عني أي شيء أبدًا يا طفلي الكبير.

# 42

عاد إلى «البهنسا» قبيل الغروب، وتوجَّه فورًا إلى ساحة «علي الجمام»، ركن الشومة إلى يمينه وصلَّى المغرب جماعة، وجلس يعد على أصابعه تسعة وتسعين تسبيحة، وعيناه ذاهبتان إلى القبة ذات الطراز العثماني البسيط، على هيئة مربع تعلوه في الأركان أربع حنايا، حوَّلته إلى مثمَّن، يحمل خوذة القبة الدائرية، ويحوي في جوفه كل ما تبقى من أدعية الزائرين.

ولحق «خادم البئر» بالركعة الأخيرة، وبعد أن أنهى صلاته اقترب من «سمحان» وقال له:

- بعد صلاة العشاء ستكون هنا حضرة معتبرة.

استعاد الحضرة التي شهدها عند مقبرة «طهنا الجبل» ووجد جسده يرتعش، ولاحظ الرجل تغيُّر سحنته فسأله:

- ألا تحب الحضرات؟

صمت برهة وأجابه:

- أحبها.



تمتم بكلمات لم يسمعها «سمحان» ثم قال:

- ستطير مع المنشدين، وقد تنجذب وتصير مريدًا، ولا تفوِّت هذه الحضرة أبدًا.

بعد صلاة العشاء جاء ثلاثة رجال يرتدون جلابيب بيض، رفعوا حُصُر الديس والقش والحلفا، وأحضروا ثلاثة جرادل مملوءة بماء قراح، ورشوا الأرض برذاذ خفيف، ثم فرشوا الحصر، ووضعوا سجادة خضراء ذات عقد وشراشيب بنية، على هيئة قباب مساجد عتيقة. وجاء رجل رابع يحمل مجمرة، ونفخ فيها وضوع البخور، وعطَّر المكان.

ووزع خامس كتاب «دلائل الخيرات» على الحصر في صفوف، وعلَّق سادس مزيدًا من الفوانيس بعد أن ملأها بالكحول، ودس في جوفها رتائن جديدة، ففجَّ النور الأبيض وتلألأ، وحوَّل ليل المكان إلى نهار.

وهلَّ الشيخ أخيرًا، رجل بهيُّ الطلعة هو، يخبُّ في بياض الثوب والعمامة واللحية الشهباء القصيرة التي تطوِّق وجهًا قمحيًا تتوسطه عينان وسيعتان. وكانت تمشي خلفه أخلاط من الرجال، بدناء ونحفاء، طوال وقصار، سمر وبيض، شباب ورجال وكهول وشيوخ، كان أحدهم يمسك دفًّا محفورة على جوانبه بعض أسماء الله الحسنى، يهزه فيُحدث شخللة وصهللة، فتتراقص البهجة، وإلى جانبه رجل ذو وجه مثلثي يمسك نايًا يتلوى بين أصابعه، فتتقاطر منه آلام محبوسة من أنين الحضرة الفائتة.

جلس الرجل المهيب في الصدارة وتوزَّع القادمون معه على الحصر، ولحق بهم آخرون، وقعد كل منهم أمام نسخة من الكتاب، ومدوا أيمانهم وأمسك كلٌّ بكتابه، وبدأ الشيخ في القراءة وأصوات مريديه تصاحبه، فتصنع لحنًا شجيًّا. وأول ما قرأوا كان أول الكتاب الذي بأيديهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إني نوَيتُ بالصلاة على النبي، امتثالًا لأمرِكَ، وتصديقًا لنبيِّكَ محمد، ومحبَّة فيه وشوقًا إليه، وتعظيمًا لقدره، ولكونه أهلًا لذلك فتقبَّلها مني بفضلك وإحسانك، وأزل حجاب الغفلة عن قلبي، واجعلني من عبادك الصالحين. اللهم زِده شرفًا على شرفه الذي أوليته، وعِزًّا على عِزِّه الذي أعطيته، ونورًا على نوره الذي منه خلقته، وأعلِ مقامه في مقاماتِ المُرسلين، ودرجته في درجاتِ النبيِّين، وأسألك رضاك ورضاه يا ربَّ العالمين، مع العافية الدائمة، والموت على الكتاب والسنَّة والجماعة، وكلمتي الشهادة على تحقيقها، من غير تبديل، ولا تغيير، واغفر لي ما ارتكبته بفضلك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ خاتم النبيِّين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلام على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين».

بعد أن انتهوا من القراءة قام أحد المريدين وفي يده مشنة من الخوص، وراح يوزِّع قراقيش معجونة بالملح والكمون على الذاكرين، كل منهم التقط واحدة، وقضمها متلذذًا. ودار عليهم بعده رجل يحمل



إبريقًا مملوءًا بماء الورد وكوبًا صغيرًا من النحاس، فشربوا وذاب الطعم في حلوقهم.

وقام الشيخ فقاموا في صفين متوازيين، وهم يهزون أكتافهم في أطلب حتى تعتدل الجلابيب عليها، وصوَّبوا عيونهم نحو شيخهم، فحطَّ عينيه عليهم في نظرة واحدة وهو يبتسم، ثم ضرب كفيه، وراح يطوح رأسه يمينًا ويسارًا وصوت يخرج من قلبه: «الله حي.. الله حي»، فطوح المريدون رؤوسهم ورددوا وراءه، ثم دق الدف مختلطًا بنشيج الصدور، وناح الناي، فانجرحت النفوس، وتخلَّت عن مشاغل الدنيا، وتجلَّت بأنفس ما فيها.

وجاء صوت المنشد عذبًا مشحونًا بمعانٍ سامية:

والله ما طلعت شمس ولا غربت    إلا وحبك مقرون بأنفاسي
ولا خلوت إلى قوم أحدثهم    إلا وأنت حديثي بين جُلَّاسي
ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا    إلا وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ    إلا رأيت خيالًا منك في الكاسِ
ولو قدرت على الإتيان جئتكم    سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراسِ

وطارت القلوب في روعة الشعر والتذوق، متأرجحة بين مسرة الدُّف ووجع الناي، وصفت السماء فوق الرؤوس، وراحت تسحب روائح البخور الزكية، وتنصت إلى عذب الكلام الذي تشدو به حنجرة ندية،

تفيض العيون لسماعها، ويصل الخشوع إلى ذروته.

ووجد «سمحان» نفسه، بعد أن راقب من بعيد ما يفعله الذاكرون، يرمي شومته بلا عناية، ويجري ليدفن رأسه بين الرؤوس الخاشعة، ويجعل كتفيه تحاذيان أكتاف الذاكرين. كان مجذوبًا بالفعل، كما قال له خادم البئر، وكان مأخوذًا بكل شيء، شخللة القلوب ونشيجها، وصوت الناي والدف اللذين يوزعان الأسى والفرح معًا ممزوجين في كأسٍ واحدة، لذة للشاربين، وعمق المعاني الكامنة في الشعر الذي يصدح به المنشد، وفوق كل هذا اسم الجلالة الذي تنطق به القلوب: «الله.. حي».

وقف يراقب أولئك المنقطعين عن الدنيا، وهو يستعيد كل شيء عرفه أو قرأ عنه أو كابد منه في الليالي الفائتة، توابيت الساعين وراء الخلود، والنسوة الباحثات عن العيال في أصلاب الرجال، والقادمون من جوف الزمن البعيد. كل شيءٍ حلَّ برأسه مكثفًا في دفقة واحدة، ثم وجد نفسه يخلع نعليه، ويجري نحو الحضرة المباركة.

«هل صرت الآن مريدًا لهذا الشيخ ذي الطلعة البهية؟»، ربما برق هذا السؤال في رأس «سمحان» وهو يقطع المسافة القصيرة بين المكان الذي يتابع الحضرة منه وذلك الذي يتطوح فيه الذاكرون منفصلون عن أي أحد وأي شيء. لكن ما إن دخل بينهم حتى نسي الأسئلة والإجابات، وتملَّكه، وهو ذاهب من الحضور إلى الغياب، إحساس بأنه قد وجد الآن ضالته، فمع هؤلاء يمكنه أن ينعم بالاطمئنان والسكينة اللذين يفتقدهما في حياة مترعة بالشقاء، ويلقى حُسن الصحبة بعد أن فقد صديقه «عبد



الرحمن»، فمكان عمله القادم، وربما الدائم، هو «بندر المنيا»، لكنه أيقن أيضًا أنه سيفتقد هذه الحضرة حين يُنقل من هنا.

«لكن الحضرات هناك أيضًا».. حدَّث نفسه في فرحٍ طفولي، وقال باسمًا: «يوجد أيضًا شيخ ومريدون»، وقرر أن يبدأ الطريق، فرمى شومته وحرَّر قدميه من الحذاء وصرخ هاتف داخله، مرددًا مع المنشد:

ولو قدرت على الإتيان جئتكم ... سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراسِ

وانتقل المنشد إلى قصيدة أخرى، داعبت النفوس، وطمأنت الطيبين على سلامة الطريق الذي اختاروه:

ألا قل لمَن بات لي حاسدًا ... ألا تدري على مَن أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ... لأنكَ لم ترضَ لي ما وهب
جزاؤك أن زادني في العطا ... وأغلق دونك باب الطلب

ونسي «سمحان» نفسه بعد أن أسلمها لنهر الوجد الجاري، يأخذه إلى حيث شاء، ولم يعرف كم مرَّ من الوقت وهو غارق في الذكر، حتى خرس الدف وصمت الناي، وكفَّت صدور المريدين عن التهدج والنشيج، وعادت العقول من السُّكر إلى الصحو، وانبلجت العيون المغمضة، ورأى الشيخ مريديه فرأوه. وذهبوا إليه واحدًا واحدًا، يُسلِّمون عليه، ويطبعون قبلة امتنان على يده، وبعضهم يقبِّل جبينه، أو مسبحته الطويلة. ويمكث بعضهم وقتًا بينما يد الشيخ موضوعة فوق رؤوسهم ويتمتم بقراءات لا يسمعها أحد.

وتقدم «سمحان» في خجل، ورآه الشيخ مترددًا، فمد يده إليه وأخذ كفَّه، وسحبه في لُطفٍ حتى أجلسه أمامه، ونظر في عينيه فارتجف قلبه، خفق خفقة مدوية زلزلت كيانه، وشعر أنها نقلته من دنيا إلى أخرى، ووجد نفسه ساكنًا مطيعًا في يد الشيخ، كالميت بين يدي مغسِّله، وقال له في وداعة:

- بركاتك يا سيدي.

فمد يده مفردوة، ثم قارب بين أصابعها وحطها على رأس «سمحان» وراح يقرأ أدعية، فلمَّا فرغ منها، قال له:

- قدماك على أول الطريق.

فتساقط دمع على ركبتيه، ومدَّ يده ليأخذها الشيخ بين كفيه، ثم يخبره:

- أتعاهدنا يا بني أم تبقى بعيدًا؟

ردَّ مغمض العينين:

- أعاهدك يا شيخنا.

أدخل الشيخ يده في جيب جلبابه وأخرج نسخة من القرآن الكريم غلافها أخضر فاتح، وأعطاها له وهو يقول:

- أنت تجيد القراءة.. فلا تنسَ نصيب هذا مما تقرأ.

فأخذ المصحف منه وقبَّله، ووضعه في جيبه مسرورًا. وقام الشيخ



فقام المريدون، وطويت الحصر، وأخذت النسائم ما تبقى من البخور، وانطفأت الفوانيس، وتقاطروا على الطريق عائدين إلى البيوت، وتركوا خلفهم الظلام الذي زحف ولفَّ المكان، والوحشة التي حلَّت به، وراحت تسحب الأمان والألفة من نفس «سمحان»، فنهض باحثًا عن سومته، وأرسل عينيه في المدى المفتوح على نجوم الليل الزاهية، وحفيف النخل في وجه الريح، وعاد نباح الكلاب، وماءت قطة جوعانة فشاطرتها أختها المواء، ولم يكن أمامه من سبيل لاستعادة الحياة الزاخرة التي كان يحياها قبل قليلٍ سوى باستعادة كل شيءٍ، الغرق في الحضرة، ويد الشيخ الحانية، وكلماته التي تمس شغاف الروح، والأمل في أن يعيش هذه الحالة مرات أخرى في الحضرات المقبلة.

كان «خادم البئر» قد انصرف بعد المريدين بقليل، بعد أن لثم كف «سمحان» في سلام متعجل، وهو يقول له:

- يبدو أن فيك خيرًا كثيرًا.

ابتسم دون أن تضيء أسنانه البيضاء في العتمة، وسأله:

- لمَ؟

فأمسك كتفه وقال:

- لا يمد الشيخ يده إلى أحد، ولا يضع كفه على رأسه، ويقرأ له أدعية، إلا إذا كان قد شعر أن فيه خيرًا.. هو رجل مكشوف عنه الحجاب، وله كرامات يشهد لها الناس هنا.

سرت فرحة في نفس «سمحان» ورد عليه في امتنان:

– ربنا يسمع منك.

بعدها انصرف «خادم البشر» وهو يجر قدميه من التعب، فيثير غبارًا زادت به العتمة سوادًا، وكان يسعل ويبصق في طريقه، حتى خفت الصوت، فوجد «سمحان» نفسه وحيدًا، ليس معه سوى شومته، وليس أمامه سوى المقبرة العتيقة التي تحاول أن تظهر في النور الشحيح الذي ترسله النجوم إلى شواهد، تمتشق في وجه الزمن.



# 43

حين خلا «سمحان» إلى نفسه راح يسألها:

- هل انفتح لي الليل باب حياة جديدة؟

لم يكن قادرًا على أن يأتي بإجابة شافية، فهو لا يزال على البر، وبحر المحبة الذي وقف الليلة على شاطئه وسيع وعميق، هكذا أفهمه الشيخ وهو يودعه، ويشد على يده، وعيناه تبتسمان في وداعة شاملة.

- هل هناك نافذة تفتح ما كابدت منه في الليالي الفائتة على ما عشته الليلة؟

سؤال آخر قفز إلى رأسه. حاول أن يجيب، إلا أنه لم يفلح، رغم أن نفسه صافية وعقله متوقد في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى. لكنه تملكه إحساس أن هناك شيئًا ينتظره، ولن يصادف غيره، فهو لم يسمع من قبل أي أحد في قريته ولا في الأماكن التي عمل فيها قد رأى أناسًا من الزمن القديم في غير الأحلام، ولم يكتفِ برؤيتهم، بل خالطهم تدابير الحياة كأنه واحد منهم، يعيش في أيامهم الغابرة.

الوحيد الذي قيل له إنه مرَّ على هذا الدرب هو «عبد العاطي»، لكنه لم يسمع منه، بل سمع عنه. «فتحي» هو الذي حكى، وعلى عجل،

والأيـام لم تُتحْ فرصـة أن يلتقي بالرجل الذي كابد مثلـه، يلتقيه في عالم الشـهادة، يسـمعه ويراه ويلمسه، كما كان أيام حراسته بـ «طهنا الجبل»، وليس شـبيهًا له من رجال الزمن الذي ذهب بعيدًا، يظهر له مع كل واقعة يمر بها، وتنتهي بسـقوطه في إغماءة يفيق منها ليجد نفسه يعيش في أيامه تلك، وكل ناس وصور وتدابير وأماكن القرون الغابرة قد ماتت، وشبعت موتـًا، وليس أمامه سـوى أناس زمانه، الذيـن لا يقدر على أن يحكي لهم كل ما يعيشه، حتى لا ينعتونه بالجنون، وكل ما كانت تفعله به رحلاته إلى الأزمنة الغابرة هو التسرية عنه، ومنحه فرصة للهرب مما يكابده خوفًا من أن تضيع منه «جميلة».

وبينمـا هـو غـارق فـي الأفـكار والحيـرة، جـاءه صـوت مـن طرف المقبرة:

- سمحااااااااااان.

كان يعرف ما هو مقبل عليه، فجفل وتحصَّن بنفسه، وانكمش مكانه، ثم خطر بباله أن يهرب، فرفع الشومة الملقاة إلى جانبه، وحاول أن يطلق ساقيه للريح، لكنهما كانتا ثقيلتين كجبل أشم، رفع قدمه فتحركت بوصة واحـدة، ثـم تناقصت المسـافة إلـى أن ثبت فـي مكانه، رغـم معافرته أن يدفعهـا إلـى الأمام. وعندها أدرك أنـه ذاهب إلى ما ينتظـره، ولا حيلة له في هذا، فاستسلم.

اسـتدار إلـى الخلـف، وكان صاحب الصـوت يقترب، ويسـتمر في النداء، وبان في الظلام شيء أبيض يتمدد نحوه، فلمَّا اقترب منه أدرك أنه



ذراع مفرودة لشـخص لحيم يمتطي صهوة جواد أبيض، وفي يده سـيف مصقول.

وقـف أمامـه، وأرسـل لـه نظرة بـاردة غطته مـن أخمـص قدمه حتى ناصيته، وقال له بصوتٍ مُشبَّع بالحزم والغطرسة:

- ملكنا أمر بإحضارك.

ارتعش، ووضع يده على عنقه، فابتسم الرجل ليطمئنه وقال:

- كان يمكـن أن تخـاف لـو أن أخاه هو الـذي طلبك، فقـد كان جبارًا لا يُطاق، منشغلًا بالسحر الأسود.

- ومَن أخاه هذا؟

- ابن الملك الذي حكم إحدى وتسـعين سـنة، واجتمع عنده مال وفير، وجواهر لا حصر لها، وهو الذي بنى المدن، وقسم خراج مصر، فأخذ ربعه لنفسه، وربعه لجنده.

- وهل يختلف الملك الذي دعوتني إلى مقابلته عن هذا وذاك؟

- طبعًـا، إنـه كاهـن فاضل، لكن هـذا لم يمنعه مـن أن ينشـغل بالعمران وزيادة الكنوز.

تهلل وجه «سمحان»:

- كنوز.. ربما يكون لي نصيب.

- ليس هذا طريقك.. الملك استدعاك لترى ما تتعلَّم منه.

واستدار الرجل وأمره:

- اتبعني.

سار خلفه هابطًا في الزمن نحو القرون البعيدة، إلى أن بلغ مدينة عند سفح جبل، لها أربعة أبواب، تتوزع على الجهات الأربع، وعلى كل باب صورة طير أو حيوان، فالباب الشرقي عليه صورة صقر، والغربي صورة ثور، والجنوبي صورة كلب، والشمالي صورة أسد. وتحت كل صورة منها كُتبت طلاسم غريبة، ويقف حارس شديد غليظ، لا يسمح لأحد بالدخول إلا إذا جاءه الأمر.

ووصل الرجل الذي يقود «سمحان» عند الباب الشرقي، فلما رآه الحارس، تقدم وانحنى وحيَّاه، وفتح الباب، الذي أحدث صوتًا غريبًا وهو يتحرك ليفسح الطريق لهما. ضحك وقال للرجل:

- صوت الباب يشبه النواح.

ربَّت كتفه وقال:

- هذا أسعد باب في الدنيا؛ لأنه يقف فوق كنزٍ ثمين.

ثم أرسل ناظريه ليطوفا بأسوار المدينة وقال:

- كل باب تحته كنز، ولا يجرؤ أحد على أن يبحث عنه.

فلما دخلا من الباب لفتت نظر «سمحان» شجرة عجيبة عليها أصناف عديدة من الفاكهة، فمد يده ليقطف تفاحة، فقال له الرجل:



- هذه شجرة تولَّدت من أشجار فاكهة عديدة برعاية ملكنا، ولا تستعجل في القطف، فعند مولانا كل ما لذَّ وطاب.

وبانت أمام عينيه منارة شاهقة، تعلوها قبة ملونة، فوقها صليب كبير، بدت رائعة وخطفته، فوقف ولم يتحرك إلى الأمام، بينما تقدم الرجل خطوات، فلمَّا انتبه إلى أن صوت قدمي «سمحان» لا يتبعه، التفت إلى الخلف فوجد فمه مفتوحًا في دهشة، عاد إليه، وأمسكه من كتفه وهو يقول:

- هذه القبة تتلون كل يوم بلون مختلف.. سبعة ألوان على أيام الأسبوع، تتسربل المدينة بواحد منها كل يوم، فهي زرقاء وخضراء وصفراء وحمراء، وهذا التجدد يقتل الملل.

ومرَّا بشق من النيل على هيئة قادوس طويل مملوء بأسماك ملونة، مختلفة الأشكال والأحجام. نظر «سمحان» إليها طويلًا وقال:

- غريب أمر هذا المكان.

ضحك الرجل وتابع:

- هذه مدينة السحر، في كل جانب منها طلسمات على هيئة أُناس لهم رؤوس قردة، ويسكنها السحرة، ويمارسون فيها كل طاقة يمتلكونها على إتيان الأعمال الخارقة.

- وهل الملك يسكنها؟

- الملك له قصور في مدن عدة، لكنه جاء إلى هنا الآن، ورآك وهو مارٌّ على فرسه الضخم الأسرع من الريح، وأنت تجلس حائرًا حزينًا، فأمرني أن أحضرك إليه.

وملأ عيني «سمحان» قصر فخيم، فتهيبه، لكن الرجل جذبه من يده وأدخله من بابٍ عالٍ عليه حراس في أيديهم حراب مسنونة، وعلى رؤوسهم خوذ من حديد، مطلية بلون أصفر فاقع، يزغلل العيون، وفي مقدمتها صلبان بنية اللون، كأنها مصنوعة من خشب.

ودخل بهوًا وسيعًا ينام وسط أعمدة كأنها صُنعت من ذهب، فوجد بقرة بيضاء عليها نقط سوداء تقف في منتصفه، فوق سجادة فخيمة، وفوقها لوح عريض من خشب مكتوب عليه: «في هذا الحيوان المسالم تجلَّت الربتان نوت وحتحور والرب بتاح كي يمدوا البشر بالأمل والنماء في الدنيا، وفي الآخرة، يخففون من وطأة الرحلة على الرعية».

وما إن رآه الملك حتى بادره:

- أنا مَن أسس هذه المدينة التي كنت تجلس منذ قليل على أطلالها، كانت درة مملكتي الممتدة من شرق النيل إلى برقة، ومن البحر المالح إلى أخميم. هنا أثر من كل زمن: الفراعنة، والإغريق، والرومان، والقبط.

هز «سمحان» رأسه، وقال:

- والمسلمون أيضًا.. توجد مساجد وأضرحة.



رفع وجهه ولم يظهر عليه أنه قد فهم شيئًا، وتخوف «سمحان» من إغضابه، فغطى حديثه السابق بذكاء:

- الحمد لله، لا أزال في مصر، فأنا حين دخلت القصر ووجدت البقرة تقف في خيلاء، وحولها رجال يحنون ظهورهم نحوها في خضوع، ظننت أنني هذه المرة في بلاد الهند.

- الهند.. أسمع عن هذا البلد، لكن لماذا دار هذا برأسك؟

- لما وجدت البقرة مقدسة في قصركم.

ضحك فبانت أسنانه المطلية بالذهب، وردَّ بصوتٍ خفيض:

- أنا من القبط، وكثيرون ممَّن حولي يسيرون خلف المسيح، الذي جاءت أمه به ذات يوم ليس بالبعيد إلى مكان قريب من ذلك الذي كنت تجلس عنده. لكنني أصبحت مقتنعًا بعبادة البقرة الحية، وليست تلك التي صنعها من ذهب مَن خالفوا تعاليم موسى.

وبدا على وجه «سمحان» أنه لا يفهم ما يُقال له، ويستغربه، فنادى الملك أن يأتوه بما لديهم من التوراة، فجاء الخدم برقعة مطوية من الجلد الرقيق وعليها حزام أصفر من حرير. فكَّ الحزام فانفرطت الرقعة، وراح يقرأ:

«وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. فَقَالَ

لَهُمْ هَارُونُ: انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأْتُونِي بِهَا. فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ».

وبعد أن فرغ من القراءة تنهَّد في عمقٍ، وقال:

- أنا لا أعبد عجلًا من ذهب، رغم الكنوز المدفونة بمعرفتي في أرض ملكي، بل أقدس روح حيوانٍ طلبًا للسلامة والوفرة والنماء، واستمرار الحياة.. أُقدِّس خالقه فيه.

تنحنح «سمحان» سعيًا وراء أي لحظة من الشجاعة، فجاءته متعثرة ومكَّنته من أن يقول:

- لكن هؤلاء عصاة.. تركوا نبيهم، وأسف هو لما جرى لهم بعد أن تركهم.

هزَّ الملك رأسه وسأله:

- هل سمعت عنهم من قبل؟

- نعم.. هذا ورد في القرآن.

- القرآن؟!

- كتاب أنزله الله على نبي الإسلام «محمد».

قهقه حتى اهتزَّ الكرسي من تحته، وردَّ في استهانة:



- لا علاقة لي بما تقول، ولم أسمع عن هذا الدين وذاك النبي والكتاب الذي تقول إنه مُنزَّل عليه من السماء، أنا اخترت ما أعبد، وانتهى الأمر.

تمتم «سمحان» بكلماتٍ لم تصل إلى أذني الملك، لكنه شعر من حركة شفتيه أن الذي همس به لنفسه لا يروق له، وكذلك من وجهه الذي اكتسى بمسحة غضب سقطت على ملابسه البيضاء الفخيمة، فتشربت حمرة بانت فيها وفي عروق الذهب التي تصنع خيوطًا متوازية مطرزة على الصدر. وسرى خوف في أوصال «سمحان» وحاول أن يخفف من وطأة الموقف ويتجنب العقاب الأليم:

- مولاي له أن يعتنق ما يشاء.

فصرخ فيه:

- وهل مشيئتي تنتظر إذنًا منك؟

- عفوًا يا جلالة الملك.. أنا عبد فقير يهذي، فلا تعتبر لكلامه.

- فقير أم غني لا يهم، المهم أنك عبد.

قال في سرِّه ليجرب قدرته على نطق ما ينوي أن يُسمع الملك إياه، ثم تفوَّه به:

- عبد لله.

هز الملك رأسه وقال:

- الجميع يبحثون عن الله، كل بطريقته.. حتى مَن لا يؤمن بوجوده هو مشغول بما ينكره.

وسأل «سمحان» نفسه: «هل جاء بي الملك إلى هنا ليحدثني في هذا الأمر؟»، لكنه لم يجرؤ أن يرفع صوته بالسؤال، وإن كان قد فوجئ بأن الملك يقول له في حصافة:

- لا تشرد بعيدًا عني.. طلبتك لأقول لك أمرين.

- تفضل يا مولاي.

- أنت وآباؤك وأجدادك أهنتم المدينة الجميلة التي بنيتها، تركتم الصحراء تزحف عليها والزمن يأكلها، حتى صارت أنقاضًا، وبنيتم فوقها هذه القرية البائسة التي رأيتها تقف وراء ظهرك. لكن ليس بيدك حيلة في هذا. أما ما يمكن أن تكون لك فيه يد وحيلة هو أنني أردت أن أنبئك بأن هذا البلد العريق له دور في كل شيء على هذه الأرض.. حتى عبادة الأبقار. فمن هنا بدأت معتقدات وتصورات كثيرة ساحت في الأرض من مشرقها إلى مغربها.

وأيقن «سمحان» من كلام الملك مغزى كل ما كابده طيلة الليالي الفائتة، فاغتبط كثيرًا، وشعر في هذه اللحظة أن كل ما يجري له يجهزه في هدوء وعلى مهل لطريق سيسلكه فيما بعد، وربما إلى آخر نفس في حياته.

أراد أن يتقدم خطوات حتى يمس كرسي العرش، ويقبّل رأس الملك، أو يحضنه في امتنان، لكن لم يكن مسموحًا له أن يتقدم عن المكان الذي



حدده له الحاجب في حزم. وشعر الملك بما يدور في نفسه، حين أمعن النظر في ملامحه التي بدأت تنبسط بعد انقباض، فنادى بصوت جهوري:

- أريد البهجة والغياب.

ولم يفهم «سمحان» ما يقصده الملك، لكن كل شيء بدا واضحًا أمامه، حين دخل الخدم بخوانٍ عليه قوارير بها سائل أحمر، وآخر مملوء بفاكهة غريبة لم يرَها من قبل، وثالث عليه كسور خبز يابسة وجبن وحزم مغسولة من حشائش الأرض، وآنية ضخمة من خشب الأبنوس الأملس مملوءة بالبلح والفول السوداني والحمص.

وضعوا ما يحملونه في مجلس جانبي مفروشة فيه بسط مزركشة وثيرة ووسائد لينة. ونزل الملك من على كرسيه ومشى نحو المكان الذي حلَّت به الأخاوين الثلاثة، وأشار إلى «سمحان» فتبعه. جلس الملك وأمره أن يجلس إلى جانبه، لكنه تردد، فأمره في حسم: «اقعد». فقعد، وغاص جسمه في خيوط السجاد.

فتح الملك واحدة من القوارير وقال له:

- معتقة من عرق تمور نخل لا مثيل له، زرعته في واحة تبعُد عن هنا مائتي ميل.

اهتزت يد «سمحان» وسأل:

- ما هذا؟

فقال الملك:

- خمر من أجود ما يكون.

جفل «سمحان» وردَّ هامسًا:

- لكن.. لكن.. يا مولاي.. الخمر.. الخمر...

قهقه الملك:

- حين يجلسك ملك إلى جانبه ويفتح لك قنينة خمر ويملأ كأسك، فليس أمامك خيار سوى أن تشرب وتشرب. وإذا كان الملك يريد أن يعانق هذه الخمر حتى يغيب فلا تملك إلا أن تغيب معه.

هزَّ «سمحان» كل جسده موافقًا، وجاءت جوقة يمسكون في أيديهم آلات موسيقية وترية كالجنك والقيثارة، وآلات ينفخ فيها مثل المزمار والناي والأرغول، وصنجًا نحاسية تُحدث صهللة، وظهرت في الخلف راقصتان رشيقتان، تتمايلان في خفة وروعة.

وظل الرقص والشراب قائمين ساعات وساعات، لا يملك «سمحان» فيها ردًّا للكؤوس التي يمدها إليه الملك، ولا يكف الملك عن مدِّ يده، حتى لم يعد يحس بأي شيء، لا الملك ولا الخمر ولا الموسيقى ولا الرقص. ترنح في مكانه حيال الغياب، وطار ببهجة عارمة شعر أنها تطلق دفقات من نسيم في شرايينه، وتخطفه إلى غاية الأنس والانبساط.

ودون أن يدري حاول الوقوف، وهو يهتز يمينًا ويسارًا، إلى أن تمالك نفسه فسار خطوات، يتقدم ويتراجع، حتى وصل عند الراقصات، وهن



لاهيات عنه يتمايلن أمام الملك الذي لم يعد يتابعهن وهو ملقًى إلى الخلف يفحُّ ببعض النار الخارجة من جوفه.

ولما أصبح وسطهن، بين عودي خيزران يدوران في ريح عاتية، خلع جلبابه، وحذاءه، وهمَّ أن يخلع سرواله، فجرى الحرس إليه، وأمسكوا يديه، وأحكموا وثاقه، وذهبوا إلى الملك يستأذنونه ماذا يفعلون بضيفه، لكنهم وجدوه غائبًا تمامًا عن الوعي، فجاءوا بشريطٍ من حرير، وقيدوه من معصميه، وركنوه على جانب الفراش، وأسندوا رأسه إلى وسادة، وتركوه على حاله حتى يفيق الملك.

وفي الصباح وجد الفلاحون رجلًا مكورًا، كجنين جائع، ملقًى في قطعة أرض بور يستفيق على مهل، وأمام فمه المغموس في التراب قيء حار.

لم يوقظه أحد هذه المرة، فحين وصل الذاهبون إلى حقولهم إليه، وقبل أن يترجَّلوا عن حميرهم ويغمزوا كتفه، كان هو يسعل في وهن، ويحرك يديه المربوطتين محاولًا أن يفك قيده، وينطق بصوتٍ خفيض:

- حاضر.. حاضر.

كانت مَن أيقظته هي أمه. رآها في حلمٍ قصير تقف أمامه مثلما كانت تفعل حين تريد أن تقول له شيئًا، لكنها هذه المرة كانت تمد يدًا مرتعشة، وعلى وجهها أسًى ولوعة، وتقول له:

- أبوك يريد أن يراك، فلا تتأخر عليه.

# 44

حين ألقته معدية «بني خالد» شرق النيل سار على الطريق الأسفلتي نحو قرية «جبل الطير» بخطوات هادئة، وضربه النسيم، وتزاحمت الذكريات فأطلق عقيرته بالغناء. ونسي نفسه، واستغرق مع صوته الذي استعذبه، حتى اقترب من القرية.

كان يطوح جسده كالمجنون، يريد أن يطير ويبتعد عن كل شيء، ويريد أن يقيم ويلتصق بالأرض لا يبرحها، شعوران يتصارعان داخله، فلا هو يطير ولا هو يرتمي ويتمرغ في التراب، فوقف مكانه، شاردًا في مياه النيل التي تتدفق في هدوء، كما رآها منذ آلاف السنين، مع أولئك الذين التقاهم في الزمن القديم.

ورآه رجل يركب حماره سائرًا إلى حقله فقال له بصوتٍ مبحوح:

- جئت في الوقت المناسب يا بني، المرض اشتد على أبيك، خذه إلى المستشفى الأميري، حالته لا تنتظر.

هكذا جاءته الفرصة أن يطير، فأطلق ساقيه يلثمان الأسفلت، ثم انعطف على مدق اختلط فيه الرمل بالتراب والحصى، تعثر في جلبابه فسقط وتغبر وجهه، لكنه قام وأكمل الجري، حتى وصل إلى البيت،



ليجد عند أمه نسوة كثر، يجلسن في صالتهم الضيقة، بعضهن قابعات على الدكة وأخريات تجلسن فوق حصير، وكلهن ناظرات نحو باب الغرفة التي يرقد فيها الأب.

ما إن رأين «سمحان» حتى قامت اللائي يقدرن على القيام، وسلّمن عليه، وفي عيونهن دموع حبيسة، قرأ هو فيها كل شيء، قبل أن يحط بصره على أبيه وهو مسجّى فوق حصيرٍ بالٍ، ورأسه خامد على وسادة قديمة، وصدره يرفع الغطاء ويخفضه، وعيناه ذاهبتان إلى البعيد.

تقدم وجلس إلى جانبه وتساقطت دموعه على وجهه، وحين طبع قبلة على جبينه، لسعت شفتيه حرارة الجسد الذي يئن تحت وطأة الحمّى، جرى إلى الخارج وقال لأمه:

- كيف تركتيه حتى تمكّن المرض منه؟

فقالت وهي تغالب وجعها:

- سقط فجأة، ولا يجدي ما تطلبه.

واندهش لردها، لكن امرأة متشحة بالسواد قالت:

- أبوك في النزع الأخير، ادعُ له بالرحمة.

صرخ فيها:

- أبي لا يزال حيًّا.

قامت ومشت نحوه وهي تقول:

- دخل الموت إليه من ساقيه.

جرى إلى الداخل فوجد ساقيه باردتين، دعكهما بقوة فلم يحرِّكا ساكنًا، قرصهما بأظافره فلم يئن، ناداه:

- ألا تشعر بما أفعله في رجلك يا أبي؟

حرَّك عينيه رافضًا، وتمتمت شفتاه بما لا يُسمع، وانبلجت عيناه وراح يشهق، ويرفع إصبعه طالبًا شيئًا، وقرب «سمحان» أذنيه من فمه، فطلب جرعة ماء. هرع إلى الخارج وجاء بالقلة المركونة إلى جانب الزير الواقف في الصالة غير عابئ بما يجري لمَن نصبه قبل سنين، وزرع تحته نجيلًا ينتظر الشمس التي تدخل إليه من كوة في الجدار عند الضحى ليستمر على قيد الحياة.

رفع رأس أبيه وأخذه على فخذه، ومد إليه بوز القلة، فقرقر الماء البارد بين شفتيه، وساح على صدره. مدَّ يده وأمسك ساقه مرة أخرى، وزحفت أصابعه على فخذه من تحت الجلباب، قرصه بلطف، فلم يحرك ساكنًا، ثم بعنف فلم يتغير الوضع، فأدرك أن الموت صعد، وسيزحف بعد قليل إلى جذعه ثم صدره ورأسه، وبعدها سينتهي الأمر.

في هذه اللحظة مال على أذنه وقال:

- في حياتي سرٌّ لا أريدك أن ترحل دون أن تعرفه، فأنا لم أُخفِ عنك شيئًا من قبل.

حرَّك رموشه طالبًا منه أن يتكلم، فنطق:



- أنا تزوجت.

حركت الدهشة عينيه، وشهق في عمق، وحاول أن يستعيد أي قدر من قسوته الغاربة بلا جدوى، فهبط شعوره إلى اللوم والعتاب ثم امتلأت عيناه بتسامح عجيب، ومدَّ يده التي كانت لا تزال قادرة على الإمساك بالشيء، وأخذ يد «سمحان» وداس عليها، ففتح أمامه فرصة كي يبوح له بالبقية:

- بنت طيبة وجميلة.. وو.. ممـ.. سسسـ... ـيحية، مسيحية.

عادت الدهشة إلى عينيه من جديد، وترك يد «سمحان» ثم فتح عينيه عن آخرهما دون أن يظهر فيهما أي رد، وسحب نفسًا عميقًا، وارتجف كل بدنه، وتمتم بحروفٍ لم تصل إلى أحد، وسبح في بحر النور الذي لا حدود له.

مد يده وسبل جفنيه، والتفت خلفه فوجد أمه قادمة على الباب، ألقت نظرة عليهما ففهمت كل شيء، وصرخت من أعماقها، فهرعت النسوة إليها مولولات، وتوالى الصراخ والنواح، وفرش الحزن رداءه على كل أركان البيت.

# 45

«أيمكن أن يكون الموت حلًّا؟»، سأل «سمحان» نفسه وهو جالس وسط المعزين الذين يتقاطرون بلا انقطاع، يدسون أياديهم في يده: «البقاء لله».. «ربنا يجعلها آخر الأحزان».. «البركة فيك».. «البقية في حياتك».. «ربنا يرحمه ويحسن إليه». كانوا يعددون ما يقولونه، أقوال معتادة طالما تفوهوا بها عشرات المرات من قبل، وكان يرد عليهم بكلمات مقتضبة وهو شارد في الإجابة عن السؤال، متقلب بين عذاب ورضا.

هو يشعر أحيانًا أن ما باح به لأبيه عجَّل برحيله، لكنه سرعان ما يتذكر شيئًا يرطب ضميره، فأبوه كان يموت على مهل حين دخل عليه، كانت الساق قد التفت على أختها، والمرأة العارفة بأحوال كل موتى القرية، والتي تغسِّل كل النساء الراحلات، وتلقي نظرة أخيرة على الرجال الراحلين، أبلغت أمه أن أمر الله قد جاء، وأمه أخبرته بهذا فور رجوعه، وأصابعه التي حطت على فخذ أبيه، ولدغته بقرصة شديدة، كان يتمنى أن يتألم لها، ويفز من رقدته ويصفعه على وجهه، لكنه كان عاجزًا تمامًا، بل لم يشعر بشيء.



وأحيانًا يشعر بأن ما جرى هو ترتيب إلهي حتى ينفتح الطريق باتساعه إلى «جميلة»، ثم يلوم نفسه على هذه الخسة التي تريد أن تغلبه، فيطردها، ويحاول أن يطمرها بدموع حارة، تسح على خديه، وهو يستعيد كل ذكرياته مع أبيه على مهل، ممسكًا بتفاصيلها واحدة تلو أخرى، وكأنه يكرر حياته كلها وهو جالس وسط الذين جاءوا من كل البيوت ليطيِّبوا خاطره.

وبعد انقضاء اليوم الثالث من العزاء قرر أن يصارح أمه بزواجه، لكنه لم يلبث أن تردد وآثر أن ينتظر إلى ما بعد الأربعين، وحين اختليا سويًّا بعد رحيل المعزين، من الرجال والنساء، رمت نفسها في حضنه، وبللت كتفه بدموعها وقالت له:

- لم يعد لي الآن غيرك في الدنيا.

# 46

فـي اليوم الرابـع ركب إلى حي «أبـو هلال» ليطمئـن «جميلة» عليه حين وضع المفتاح في الباب اقتحمت أنفه رائحة طبيخ شهي، ولما دخل وجدهـا جالسـة في الصالة على كرسـي متهالـك وإلى جانبهـا العجوز صاحبـة البيـت، وأمامهمـا أطباق بها فاصوليـاء بيضـاء وأرز وقطع لحم وسلطة خضراء ومخلل لفت، ودورق ماء وكوبان زجاجيان.

ما إن رأته «جميلة» حتى وقفت متهللة، بينما قالت العجوز:

- جئت في وقتك.

غرف ابتسامة من بئر أحزانه العميقة ورشَّها على وجهه، وهو يقول:

- فعلًا، أنا واقع من الجوع.

لم يكن الموقف مناسبًا كي يقول لـ «جميلة» لماذا تأخر عليها أربعة أيـام؟ وراق له أن زوجته قد وجدت مَن تؤنسـها فـي غيابه. لاك لقيمات وتباطأ في مضغها وبلعها حتى يطيل جلوسـه إلى جانبهما، وهما مقبلتان علـى الأكل بشـهية مفتوحـة، ولاحظت «جميلـة» أنه لا يـأكل على قدر حاجته وشبابه، فقالت له:



- يبدو أن طبيخي لا يعجبك.

مدَّ يده وربَّت كتفها وقال:

- الله ما ذقت طيلة حياتي، لكن ضرسي يؤلمني.

دقت العجوز صدرها:

- وجع الضروس بشع، طالما طيَّر النوم من عيني ليالي طويلة.

فضحكت «جميلة» وقالت:

- لو الموضوع واقف على النوم كان هان.. ألم الضروس يطيِّر المخ من الرأس يا أمي.

راق لـه أن تنـادي زوجتـه صاحبـة البيـت بأمي، واغتبط حين سـرت البهجة فـي وجه المرأة، فبرقـت عيناها الضيقتان، وصغر سـنها، ومدت يدها المرتعشة، ووضعتها على كتف «جميلة» في امتنان، ثم قامت تنفض ملابسها، وزحفت بقدميها الحافيتين نحو شبشب جلد قديم، وقالت:

- موعد نومي جاء.

ومـا إن أخـذت البـاب في يدها وصفقتـه الريح المتدفقة مـن النافذة الجانبية الضيقة حتى ألقى «سمحان» رأسه في حضن «جميلة» فجفلت، لكن حين شـعرت بدموعه السـاخنة علـى جيدها، مـدت يديها وأخذت بكتفيه ثم بوجهه بين أصابعها العشر، وأبدت انزعاجها وسألته:

- ما لك يا حبيبي؟

هزته الكلمة، فلان صوته، وقال في تهدج:

- أبويا مات.

دقت على صدرها، وجذبته إلى حضنها ولفّت ذراعيها حوله، وشاركته دموعه، ونطقت بكل كلام المواساة. ومر وقت عليهما، وهما ذائبان في الأسى، وشعر كلاهما أنه أقرب إلى الآخر أكثر من أي وقت مضى.

لم يكن لها أحد في هذه الدنيا، إلا هو، فصار حبيبها وزوجها وأباها وأخاها وابنها أيضًا، أما هي فليست أبًا له بالطبع، أو تعوضه عن فقد أبيه، إنما شعر أنه سيجد في كنفها الحنان الذي حُرم منه حتى وهو بين ذراعي أمه. فقد كانت كلما أخذته في حضنها وهدهدته خلعه أبوه منها، وهو ينهرها: «لا تفسديه بالدلع»، ولأنها كانت تخافه دومًا ضمت ذراعيها على فراغ، وبقي هو خارجهما يئن في صمت.

لا يعرف الآن إن كان يبكي حزنًا على فقد أبيه، الذي لم تخلُ أفعاله معه من حنان وحدب وإن كان قليلًا، أم يبكي فرحًا لأن «جميلة» تحضنه، والمسافة إليها قد قصرت، فأمه لن تصمد طويلًا أمام دموعه إن بكى أمامها وقال لها: «أحببتها ولا أستطيع الابتعاد عنها»، وقد تجد فرصة في أن تعوضه عن الحنان الذي ضنّت به عليه مجبرة في حياة أبيه، فتدوس على يده: «مبروك عليك عروستك الحلوة». وهو في كل الأحوال يثق في أن «جميلة» قادرة على أن تلين قلب أمه إن قسا، بوجهها الرائع، وعينيها الدافئتين، وحديثها العذب، وأدبها الجم.



«عزائي أن غيابه يقربني منك»، نطقها فجأة، ثم وجم، ولا يعرف كيف يمكن أن يلملم الحروف التي طارت ويعيدها إلى حلقه. اندهشت هي لما تفوه به، وبان عليها عدم رضا، وقالت:

- لست أنا مَن يبني سعادته على تعاسة غيره.

حاول أن يصلح خطأه:

- لا أقصد ما فهمتيه، فهو أبي وإن كان قد ظلمني، لكنني أردت أن أطمئنكِ على حالي، وكيف باستطاعتي أن أجد حتى في أحزاني أي شيء يفرحني أو يقلل منها.

أخذت كفه بين يديها وهمست:

- المرحوم تصرف على قدر فهمه، وهو يعتقد أنه يعمل ما في صالحك، فلا تفتش في الماضي.. لا تجوز عليه الآن إلا الرحمة.

ونظرت في السقف وتلت بصوت لين:

«الخير والشر، الحياة والموت، الفقر والغنى، من عند الرب»

«تُوجَدُ طَرِيقٌ تَظْهَرُ لِلإِنْسَانِ مُسْتَقِيمَةً، وَعَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ»

«إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ»..

تابعها صامتًا، وكلامها يرن في قلبه. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، التي لم تلبث أن تقاطرت على كفيها المبسوطتين في وجه

سماء لا تحجبها الأسقف المتتابعة لطوابق هذا البيت القديم، وراحت تدعو للميت. فلما انتهت، سألته:

- هل معك مصحفك؟

دسَّ يده في جيبه وأخرج المصحف الذي أهداه إليه الشيخ ليلة الحضرة. ووضعه إلى جانبه، ثم قام فتوضأ وعاد، ليفتش عن كل آيات الموت كما يتذكر موضعها في الكتاب، وراح يتلو بصوتٍ غارقٍ في الخشوع والشجن:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وبعدها قرأ سورة «يس» على روح أبيه، كي يهون الله عليه حياة البرزخ، وقام وصلى الظهر، ودعا طويلًا في السجود، وما إن سلم عن يمينه وعن شماله حتى انخرط في البكاء: «سامحتك.. سامحتك».

ورأته يبكي فأقدمت عليه، وجلست عند أطراف السجادة، وزحفت بجذعها فطوَّقت رأسه، وقالت له:

- هل لحقته قبل أن يموت؟

- مات على يدي.

صمتت برهة، وعادت تسأل:

- كان يجب أن تخبره بزواجك.



تراجعت شفتاه إلى الخلف منفرجتين في ابتسامة مكتومة، ورد:

- هذا ما فعلته.

- غير ما فعلت.

وساد بينهما صمت لم يطل، إذ لم تلبث أن قطعته هي:

- وماذا كان رد فعله؟

- كان عاجزًا عن الكلام، لكنه داس على يدي، وغرقت عيناه في تسامح لم أعهده فيهما من قبل، ففهمت أنه قد بارك ما فعلت.

عادت إلى الصمت، وقامت إلى منضدة من خشب الصفصاف، ورفعت دورق المياه، وصبَّت في كأس من الزجاج الرخيص، وراحت تمص المياه في بطء، وعيناها ذاهبتان إلى وجه «سمحان» وفيهما قول مكبوت، ففهم هو ما يجول بخاطرها، فواصل كلامه:

- وقلت له إنكِ مسيحية.

أزاحت الكوب عن فمها وقالت:

- طبعًا المفاجأة جعلته يتكلم، وربما نهض من فرشته وجرى وراءك ليضربك.

هزَّ رأسه نافيًا:

- لا.. أغمض عينيه وسكت إلى الأبد.

- المهم أنه عرف قبل رحيله، ولو لم تصارحه، كان سيعرف فور خروج الروح من جسده، وعندها كان سيظل عاتبًا عليك أو غاضبًا منك إلى يوم الدينونة.

ضحك، وكانت المرة الأولى التي يضحك فيها منذ أن عاجله الرجل الذي التقاه عند مدخل القرية بنبأ مرض أبيه، لكنها لم تشاركه الضحك، بل اكتسى وجهها بجدية واضحة، وقالت:

- أمك يجب أن تعرف.

مدَّ يده وأخذ يديها بين كفيه وردَّ عليها:

- أمي أسهل بكثير.

- أسهل، أصعب، شرطي لا يزال قائمًا.



# 47

كانت القرى في ظهره وهو يمضي نحو عين الشمس التي تذبل، بعد أن تلقت طعنة المغيب، وسرى الدم في محيطها المشتعل. كان يمشي وخطواته تسبقه، وشيء يجذبه ليتقدم إلى الأمام، وشيء آخر يهز فؤاده فيتوزع بين طرب وخشوع، وقد فتح أنفه للنسيم الساري فوق الزرع، وسحب منه على قدر ما يستطيع، وحلَّت في رأسه صورة الشيخ الذي قاد الحضرة المباركة، فشعر باشتياق جارف إلى صحبته.

وما إن وصل إلى مشارف «البهنسا» حتى رأى نسوة تتمرغن بمجرى الحصى في التراب الأحمر ملفوفات بالشفق الأزرق والغبار، و«خادم البشر» يقف على رؤوسهن يتلو أدعيته وتعاويذه، ويلملم القروش الخارجة من جيوبهن.

اقترب منه، وهمس في أذنه:

- أريد أن أرى شيخ الحضرة.

ضحك وقال:

- أسميته شيخ الحضرة؟ هذا شيخ الزمام كله.

- ارتبط اسمه ورسمه معي بالحضرة، وتهفو نفسي إلى مثلها.

- لا تتعجل، بعد غدٍ ستكون هناك حضرة، وسترى الشيخ.

- لا أطيق الانتظار.

- إلى هذه الدرجة؟!

- فوق ما تتصور، شيء ما يكاد يقلعني من مكاني لأطير إليه.

هز «خادم البئر» رأسه وقال:

- هو يناديك.

وقبض على كتف «سمحان» بقوة، وطارت حروف ضخمة ممطوطة من بين نوبة سعال حاد اجتاحته:

- هذه علامة.

صمتا معًا وتطلعا إلى آخر امرأة كانت تنسحب من مجرى الحصى وفي فمها تسابيح ودعوات، وقد بدا عليها الإجهاد، وحين جاءت ووقفت قبالة «خادم البئر» لتعطيه نفحته، بان تحت طرحتها السوداء شعر أبيض خفيف، تراقص في النسيم الجاري، وحين تنبهت إليه انتابها خجل، ومدّت يدها سريعًا ودسّته تحت الغطاء الأسود الثقيل، ومضت صامتة.

تابعها «خادم البئر» بعينيه وقال:



- لولا الأمل لقتل كثيرون أنفسهم من الفقر والخوف والملل واليأس.

ابتسم «سمحان» وردَّ عليه:

- كأني أسمع «حسان اليماني».. من أين جاءتك الحكمة يا عم؟

- من طول الإنصات إلى صاحب الحضرة التي خطفتك.

ورمى بصره هناك، ثم سحب «سمحان» من يده، ومضيا سويًّا إلى مقام «الشيخ التكروري»، الذي بانت قبته تتقدمها سقيفة بسيطة مضفورة من الجريد الذي يحط على أفلاق النخل، وعلى زمن طويل من الرجاء. وحين وصلا إليه، نظر «خادم البئر» إلى باب المقام الذي طالما فتحه الساعون إلى البركة، وقال:

- إذا دخلت المقام قبل صلاة الجمعة ومدحت الرسول يظهر لك الشيخ على الحائط أعلى يمين المحراب، راكبًا فرسه، وشاهرًا سيفه، يرمح وأنت تتابعه حتى تجده وسط معركة رهيبة، حيث تثير حوافر الخيل الغبار، وتلمع السيوف في صهد الشمس، وتحمر الأرض من غزارة الدماء.

وحلَّت في عيني «سمحان» أسئلة، قرأها الرجل وواصل:

- أمير مغربي جاء لزيارة «البنهسا» للتبرُّك، فوقع في هواها وأقام هنا حتى مات، ويحكي أهل البلد عنه كرامات عظيمة.

حط «سمحان» كفه على الجدار، وشرد فيما يسمع، منكرًا على الشيخ سيفه، بينما أفصح «خادم البئر» عما يريد:

- جئت بك إلى هنا لتتبارك بالغائب الحاضر، وتصبِّر نفسك إلى بعد غد.. سنصلي المغرب والعشاء داخل المقام، وسنجلس بعدها عند جداره نأكل لقمة ونشرب كوبين شاي أسود يعدل الدماغ.

- ليس لديَّ رغبة في أكل أو شرب.

- واضح أن الغداء كان ثقيلًا.

- لا علاقة للأمر بغداء أو عشاء، إنما أشعر بعدم رغبة في الطعام.. كل ما أريد يتجه إلى شيخ الزمام كله.

- انجذبت يا «سمحان» وانقضى الأمر.

- وجدت طريقي، على ما يبدو.

- ليس بهذه البساطة، أنت لا تزال على أول الطريق، فلا تتعجل.

- تتكلم وكأنك من مريديه.

- يا ليت، أنا أراقب البحر من بعيد لكن لا أستطيع نزوله.

- تخاف من الغرق؟

- بل أخاف من العجز عن السباحة.

تنهد «سمحان» وواصل:

- أما أنا فلا أجيد السباحة ومع هذا أريد أن أجد نفسي الآن في عرض البحر.



دفعه في كتفه:

- ادخل المقام واجلس صامتًا، وفكِّر فيما أنت جئت من أجله إلى هنا.. بعثوك خفيرًا على هذا المكان لكنك نسيت شغلتك وانشغلت بأشياء أخرى.

- وهل يوجد هنا ما ينتظر مني حراسة؟

- طبعًا.. أنا أصاحب بعثات أثرية وبعض أفواج سياحية تأتي بين حين وآخر، وأسمعهم يقولون إن «البهنسا» باب الزمن، ففيها آثار فرعونية ويونانية ورومانية وقبطية وإسلامية.. تاريخ مصر كله هنا، تحت أقدامنا وحولنا.

- لم يبقَ مما تتحدث عنه سوى أطلال، قيل لي فور صدور قرار نقلي إنها كانت مدينة عظيمة في الزمن البعيد ولم يبقَ منها سوى أكوام من الأحجار، راحت وبنى الناس على خرائبها بيوتهم التي لا تساوي شيئًا.

- هناك مَن يأتي ليفتش في هذه الخرائب عن أحجار وتماثيل وورق بردي أو قطع ذهب منسية.. وهناك مَن حاول هدم الأضرحة وشواهد القبور القديمة.

- هدم الأضرحة والقبور!

- ولدنا هنا فوجدناها أمامنا ولم نستغربها، ولم نعبدها.. لكن ظهر في بلدنا شباب يرتدون جلابيب بيضاء قصيرة، ويطولون ذقونهم، ويحكُّون

جباهم في الحصر حتى يرسموا فيها ما يدل على أنهم يسجدون ليل نهار، أما ألسنتهم فمبارد حادة، لا ترحم أحدًا، هذا فاسق، وهذا كافر، وهذا جاهل، وهذا غافل، وهذا يجب أن يحضر أمامهم ليعلن توبته، تحمَّل الناس بلواهم، لكن المشكلة أنهم نادوا عصر يوم جمعة بأن يحمل الناس فؤوسهم ويذهبوا ليهدموا مقام «التكروري» والمقابر، ومن يومها والحكومة تنبهت وعينت خفراء على المكان.. جاء كثيرون قبلك، آخرهم توفي فجأة وهو متكئ على شومته.

- وأنا سأرحل قريبًا، ويأتي غيري.

- ترحل قريبًا؟!

- نعم، فأنا منقول إلى هنا لمدة شهر واحد.

تنهد بحرقة، ورفع بصره نحو المدى المفروش برداء المغيب المفضض، وقال:

- كلما عاشرت أحدكم، وبات بيننا عيش وملح نقلوه.

- التجديد حلو.

- بل مر، العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام.

- العشرة أم المصلحة؟

- قد تكون مصلحتي هي ألا يمنعني أي خفير من التقاط رزقي بأي شكل، لكن هناك مَن هم مثلك، تطيب عشرتهم، وفراقهم يضني.



صلّيا المغرب والعشاء تحت قبة التكروري، وأتيا على حكايات كثيرة مع أكواب الشاي الساخنة الثقيلة، وانتصف الليل، فنفض «خادم البئر» ثيابه ومضى نحو بيته، وبقي «سمحان» مكانه، يستدفئ ببقايا النار في وجه نسائم باردة دفعتها الزراعات القريبة.

سكن الليل، فكفَّت الزراعات عن إرسال النسيم، وخمدت أنفاس الناس في البيوت، وبلعت الكلاب والقطط حناجرها، حتى نقيق الضفادع وصرير الجنادب اختفى، وصفا الجو وراق، فوجد «سمحان» نفسه مشبوبًا بالغناء، فأنشد ما كان قد سمعه من المداح بالحضرة، وأطال في إنشاده ونسي نفسه، انخلع عن الزمان والمكان وذاب في صوته الندي، وهو مغمض العينين.

فجأة سمع دبيبًا قويًّا، توقف عن الإنشاد وفتح عينيه فإذا بفارسٍ طويلٍ يركب حصانًا أبيض كطلعة الفجر، كان بياضه غريبًا، شيئًا ما بين لوني القطن والفضة. رمح على الحائط، والحائط لا ينتهي، كأنه تحول أمامه إلى طريق طويلة أو ميدان فسيح لا تُحِط العين بمداه. إلى الأمام رمح وعاد إلى الخلف ثم تقدم مرة أخرى، وعنده وقف وناداه:

- سمحاااااااااااااااااان.

قام إليه، مستعيدًا كل ما قاله له «خادم البئر» عن صاحب المقام، وكان راكب الحصان قد التفت إلى الناحية الأخرى فلم يرَ وجهه، لكن حين التفت له اهتز قلب «سمحان» حتى كاد ينط من صدره، فقد كان الرجل يشبه «عبد العاطي»، ولذا لم يملك غير أن يذهب إليه طائعًا.

أشار إلى ظهره، ثم مدَّ ذراعه وجذب يد «سمحان» فركب خلفه على الحصان، ورمح نحو خلاءٍ مفتوح، كان فيه شيء يتحرك يمنة ويسرة تحت صهد الشمس، فلما اقتربا سمعا صليل سيوف، وصهيل خيول، وصرخات حناجر تمزع الفراغ.

كانت معركة حامية، سار الفارس حتى وقف عند حافتها وقال لـ «سمحان»:

- انزل.

ردَّ عليه:

- ليس لي مكان هنا.

فابتسم وقال:

- انزل لترى، وما تراه لا تنسَه أبدًا.

ورأى رجالًا شدادًا على رأس كل واحد منهم خوذة على شكل بيضة، وأمام الوجوه والأعناق سلاسل حديد لم تصدأ بعد أن تم صقلها وترقيدها في خليط من الغبار والزيت وروث الجمال، وفي أقدامهم صنادل جلدية سميكة، وعلى سواعدهم دروع من جلد الإبل والبقر، وفي أياديهم السيوف والدروع والقسي والنبال، يقفون أمام أسوار مدينة لها أربعة أبواب وخلفهم أبراج شاهقة عليها خلق كثير. وخرج لهم من أحد الأبواب كردوس من فرسان يركبون جيادًا عفية وفي أياديهم سيوف



وحراب وعلى رؤوسهم خُوَذ من حديد مصقول، ودار قتال بين الطرفين على أصبح الدم على دروعهم كقطع أكباد الإبل.

وبعث أمير الجيش فرقة إلى باب الجبل، وثانية إلى باب قندوس، وثالثة إلى الباب الشرقي، وحمي الوطيس عند كل باب، فطلب كل طرف المدد، فجاء رجال من هذا الفريق ومثلهم من الفريق المضاد، وتراموا بالنشاب والسهام والمقاليع والمجانيق، واقتتلوا بين الجبل والباب قُرب التل الأحمر قتالًا كبيرًا، فسقط رجال، وجُندل أبطال، واختلط الدم بالتراب، فصار عجينًا أحمر.

وسمع «سمحان» وهو يقف على طرف المعركة فارسًا يقول لزميله:

- قطعت رجل فرسك، فكيف تقاتل عليه وهو على حاله هذا؟

ردَّ عليه:

- أشفقت عليه، فطأطأت رأسي لأنظر إلى قوائمه، وأطمئن عليه، فضربني العدو بالسيف ضربة قوية قطعت الخودة والرفادة.

نهره في حزم:

- لا تنفعه شفقتك وأنت تجبره على أن يبقى في ساحة القتال، اخرج واذهب إلى خيامنا وابحث عما يخفف ألمه.

لكن حوارهما ضاع وسط صراخ رجل يقف في ميمنة الجيش المهاجم الذي يسعى إلى فتح أي ثغرة تمكنه من اقتحام المدينة الحصينة:

أتيناكم على خيلٍ عتاقٍ  شبيه الريح يوم الاستباقِ

عليها كل صنديدٍ همامٍ  شديد البأس يوم الحرب راقِ

نذل حماتكم بالسمر لما  نجول بها مع البيض الرقاقِ

وسمعه مقاتل آخر من الطرف الأيمن للمعركة، فرفع سيفه إلى أعلى، وتنحى جانبًا، وأطلق حنجرته مدوية لتحميس المقاتلين:

سأضرب في العلوج بكل عضبٍ  شديد الباس ذي حدٍّ صقيلِ

وأضرم في علو الباب نارًا  وأرمي القوم بالخطب الجليلِ

وأترك دارهم منهم خرابًا  ولم أمهل بذي شبح كفيلِ

وانتهت جولة القتال تلك بلا حسم، سقط الآلاف من الجانبين، وجرت دماء غزيرة وجرفت أمامها الحصى، وعاد ما تبقى من الفرسان الذين خرجوا من المدينة إلى مدينتهم، وأُغلقت الأبواب، وبقي جنود الجيش المهاجم حائرين.

جاءوا ببرجٍ خشبي هائل يجري على عجلات ذات ارتفاع كبير، وحاولوا أن يصلوا إلى أعلى السور فما استطاعوا، فجاءوا بمجموعة كبيرة من الأكباش القوية القرناء، ودفعوها لتنطح السور بعنف، دون جدوى. جروا إلى غابة قريبة. وقطعوا منها فروع خشب وجاءوا بأحجار، وربطوها في حبال طويلة، ثم لفوها بغرائر مملوءة بالقطن، وأشعلوا النار، وقذفوا المدينة، لكن كثيرًا من منجنيقهم كان يسقط عند السور، أو يقع داخله مباشرة دون أن يحدث أثرًا.



وحامت طلائع الجيش المهاجم حول سوق التمارين وسوق الصابون وسوق العطارين، حتى وصلوا إلى «بحر يوسف»، باحثين عن أيّ كوّة في السور يرمون منها شيئًا حتى يدخل بعضهم منها ويسارعوا لفتح أحد الأبواب، لكن السور كان مصمتًا وسميكًا وعاليًا، ولا توجد أي فرصة لاقتحامه سوى بمعجزة أو حيلة لم تخطر على بال أحد منهم.

وأمر أمير الجيش قائدي الأقسام وأمراء العشرات والعرفاء أن يطلبوا من الجنود الانسحاب إلى الخلف بعيدًا عن مرمى نبال المتحصنين داخل السور، وتقدم الأطباء ومعهم علب من صفيح فيها سوائل صبوها على جروح المترنحين والجالسين على جنوبهم في ميدان الوغى، بينما جاءت خيول من المدينة مربوطة فيها زحافات ورفع الجنود رفاقهم ووضعوهم على الزحافات، وعادت لتدخل أسوار المدينة.

أما جثث الجيش المهاجم فقد بقيت إلى اليوم الثاني مكانها، ينز منها دم، ثم جاء نجارون من «الفيوم» ليضربوا مناشيرهم في أشجار الغابة، ودقوا مسامير من حديدٍ وأوتادًا من خشب بقواديمهم حتى صنعوا عربات. وطلب قائد الجيش إحضار ثيران وأبقار عفية، لتسحب العربات، وعليها الجثث، وحين وصلوا إلى مكان الدفن وضعوا كل عشرة في حفرة ومعهم ثيابهم ودروعهم، وأهالوا عليها الرمل فاستوت بالأرض، وأحضروا ألواحًا من حجرٍ، وكتبوا عليها أسماءهم وغرسوها فوق تربتهم.

ولاحت عن بعد سبع بنات يحملن جرارًا ضخمة، فسمع «سمحان» أحد العرفاء يقول لزميله:

- جاءت الراهبات الطيبات.

فجرى نحوهن حتى وصل إليهن، وقال لهن:

- اتخذنني خادمًا.

ابتسمت كبيرتهن وردت:

- نحن نخدم أنفسنا، وغير مسموح لنا بأن نتخذ عبيدًا أو خدامًا.

وحين تطلع «سمحان» إليها صرخ في لهفة:

- «جميلة»؟!

فقد كانت نسخة من زوجته التي تركها في «أبو هلال» عند العصر، فابتسمت وردَّت عليه:

- نشكر الرب.

شعر بالخجل، وسألها ملهوفًا:

- هل تعرفين راهبة، لا.. لا.. كانت تريد أن تكون راهبة، اسمها «جميلة»؟

هزت رأسها:

- كل الراهبات جميلات الروح.



وحين تلفت حوله أفاق من دهشته، عندما وجد أن كل شيء هنا لا يمت بصلة إلى دنياه هو وزوجته، فلاذ بالصمت، لكنه وجد نفسه يمشي خلفهن في طاعة تامة.

ونظرت إحداهن إلى هيئته واستغربته وسألته:

- من أي بلد أنت؟

سكت برهة ورد عليها:

- عابر سبيل من بلد غريب، وأخاف أن يعتقد الجنود أنني جاسوس فيقتلونني.

- ما الذي أسكن هذا الوهم في رأسك؟

- رأيت أحد الجنود ينظر إليَّ مليًا، وأنا واقف بالقرب من ساحة القتال، ويهمس في أذن أحد العرفاء، الذي بدوره سار نحو قائد القسم.

هزت رأسها وابتسمت، وبدا عليها أنها قد اقتنعت بما يخاف منه، فأشارت إلى الأمام وقالت:

- تعالَ معنا.

اقترب «سمحان» منهن أكثر، وحمل جرة عن أضعفهن جسمًا، فتمتمت له شاكرة. ووزَّع الماء على الجنود ليقتلوا ظمأهم، وطلبت إحداهن أن تقابل أمير الجيش.

وسـار «سمحان» خلف التي طلبت لقاء الأمير، حتى دخلت خيمته، فافترق عنها ووقف في الخارج يتنصَّت عليهما، وسمعها تقول له:

- المدينة لها باب سـرِّي تحت الأرض من تحت باب الجبل من عند تلٍّ هناك يظن كل مَن رآه أنه مغارة أو جب عميق، وما هو كذلك.

وسـمع الأميـر يطلـب منهـا أن تجلـس، فانقطـع كلامهـا برهـة، ثم تواصل:

- ملـك المدينة التـي تعتزمون اقتحامها يرسـل عيونه لتعـرف عنكم كل شـيء من هذا الباب السـري، ومنه يأتي إلى المدينة الطعام على ظهور الخيـل فـلا ينفع حصاركم لها. وفي الليل يشـقون طريقهم في المغارة بعـد أن يوقـدوا الشـموع والفوانيس. ولا يعرف هذا البـاب إلا الملك ومعه بعض البطارقة الأشداء.

نظر أمير الجيش إليها، وابتسم وقال:

- تقفين معنا، رغم أن مَن في داخل أسوار المدينة مسيحيون مثلكم.

ردت في هدوء:

- هم مسـيحيون لكنهم ليسـوا مثلنـا، فقد اضطهدونا قرونًـا، وولغوا في دمنا، ليجبرونا على ترك ما نحن عليه، فأبينا ودفعنا آلاف الشـهداء في سبيل عقيدتنا. ولا تنسَ أن كبيرنا هو الذي اتصل بكم كي تدخلوا مصر وتنقذونا منهم.

هزَّ رأسه، وقال:



- الظلـم لا يتوقف علـى هـذه الأرض، والعصبية العمياء أفسـدت على الناس حياتهم.

وقفت لتستأذن في الانصراف وهي تقول:

- نتمنى ألا نستجير بمَن يرفع عنَّا ظلم غيره فيفعل ثم يظلمنا هو.

وقف الأمير احترامًا لها وقال:

- أمـا عنـي ومَـن معي فأنا أضمـن لكِ هذا، وقـد لا يجري فـي زماننا ما يضيمكم، لكن لا أعرف ما سـيأتي بعد، فقـد يخرج من أصلابنا مَن لا يسيرون على دربنا، ولا يربطون أنفسهم بما فهمناه والتزمناه.

وحيـن خرجت من الخيمة ذهبت ومَن معهـا إلى الدير الصغير الذي يقمن فيه، وحوله أشجار وارفة الظلال، ونخل باسق، وله سور منخفض مـن حجر مرصوص بعضه فـوق بعض على عجل، وداخله بئر ماء عذب لا تكـف عـن العطاء. أما هو فاتجه نحو خيام سـرايا الجيش التي رابطت بعيدًا عن مرمى نبال الروم وسهامهم.

وقبيل الفجر تسـلَّلت سـرية من جنود أشـداء إلى المغـارة التي دلَّت عليهـا الراهبـة، وانتظروا عند مدخلها حتى جاءت لهـم إحدى الراهبات بشـمعات ضخمة، واثنان منهما حملا شـعلتين، واختفوا في مغارة حتى وصلوا إلى الباب السـري وفتحوه، فتدفق الجنود مهللين ومكبرين حتى دخلـوا قصر الملـك ومقاصير علية القوم، فوجـدوا فيها صناديق مملوءة بالحلي المشغول في أشكال بديعة، والجواهر وسبائك الذهب والفضة،

وبساط الملك كان سداه حريرًا وذهبًا مرصعًا بمعادن نفيسة وأحجار كريمة، وهناك بُسُط مصنوعة من صوف الغنم والملونة بألوان زاهية، والنمارق والمساند والوسائد التي اندسَّ فيها قطن وريش نعام وتدثرت بأكياس من أجود أنواع الحرير، وأوانٍ من الذهب والفضة، وأباريق وكؤوس وأكواب وسكاكين، وتماثيل وأقانيم وصلبان من ذهب وخشب محفورة عليها آيات من الإنجيل.

وتمكن بعض أعيان المدينة من تهريب أموالهم على بغالٍ، بعد أن هدموا جزءًا من السور الجنوبي بأجنات مسنونة، ولحق جنود من الجيش المهاجم ببعضهم فأخذوا ما معهم غنيمة، وهناك مَن أفلت وسارع هاربًا في اتجاه أخميم والنوبة.

ورأى أحدهم «سمحان» يمشي عند السور بجلبابه البلدي الفضفاض، فصرخ فيه:

– تعالَ لتحمل معي هذا الصندوق ونضعه فوق ظهر الحمار.

كان الرجل فرحًا بغنيمته، ويحرك شفتيه في نهمٍ كأنه مقبل على وجبة شهية، وأعماه طمعه فلم يلاحظ أن الصندوق تنز منه دماء، وتتساقط على الرمل، وأنها لطخت الجزء الأيمن منه.

تردد «سمحان» قليلًا، لكن الرجل رفع الرمح في وجهه، ولم تكن معه شومته، وخاف إن جرى أن يُطعن في ظهره، فتقدم إليه، وقال له:

– أتدري ما في هذا الصندوق؟



صرخ في وجهه:

– هذا ليس شأنك؟

حط «سمحان» كفه على الجزء الملطخ بالدم فتخضبت أصابعه، ورفعها حمراء في وجه الرجل، وقال:

– إنه قتيل.

كان الرجل قد رفع جانبًا من الصندوق فرماه على الأرض، ومدَّ يده في حذر وفتحه، فأطل وجه امرأة مذبوحة. ما إن أرسل «سمحان» عينيه إليها حتى صرخ:

– إنها كبيرة الراهبات.

كانت إلى جانبها رقعة جلد مطوية، وفوقها خيط من قماش أسود. التقطها «سمحان» وفك قيدها، وفردها وقرأ: «هذا جزاء الخائنة التي باعت نفسها ودينها للغزاة العرب، قتلناها هي والراهبات الست اللاتي كنَّ يتبعنها كنعاجٍ ضالة، حتى يَكُنَّ عبرة لكل مَن يقف ضد الروم، فينصر أعداءهم، أو يتآمر عليهم».

ترك الفارس الغانم الصندوق، الذي بدأت تفوح منه رائحة زكية، وجرى إلى داخل السور بحثًا عن غنيمة حقيقية، بينما وقف «سمحان» محملقًا في الوجه الملائكي الساكن في سلام. كانت هي التي اصطحبتها إلى خيمة أمير الجيش، ودلّته على الباب السري.

- هل وصل إلى الروم خبر ما نقلته إلى القائد فساعد على حسم المعركة فانتقموا منها؟ هل كان هناك جاسوس في الخيمة ينقل ما يدور فيها إلى الملك الجالس على أكوام من الذهب؟ أم أن الواقفين على أبراج المدينة رأوها وصاحباتها توزعن الماء في همة متناهية على الجنود العطشى؟

أسئلة كثيرة دارت في رأس «سمحان»، ولم يكن لديه وقت ليفكر في إجاباتها، بل لم تكن لها إجابات لديه أصلًا في هذه اللحظة، ولا في كل لحظات حياته المقبلة.

كان الرجل قد سحب حماره خلفه واختفى، ونظر «سمحان» حوله فلم يجد أحدًا، فشمر جلبابه وربطه على وسطه، ومال على الصندوق ورفعه والدم يتقاطر على ظهره، وسار بخطوات وئيدة، حتى وصل إلى تبة رمل ناعم رسمت الريح عليها خطوطًا متعرجة، فأنزل ما على ظهره، وفتح الصندوق مرة أخرى، ليطل على وجه الراهبة المتنيِّحة، فلمح في رقبتها خيطًا معلقة فيه قطعة خشب محفورة عليه حروف لم يتمكن من قراءتها، لكنه مدَّ يده وقطف الخيط، ودسَّ الخشبة في جيبه، ثم حفر ودفن جثة الراهبة، ومضى.



# 48

حين خلع جلبابه أمام «جميلة» وجدت بقعة عريضة من دماء جافة على غياره الداخلي، فصرخت:

- دم.. دم.

أمسك «سمحان» زمام نفسه، وملأ عينيه بما هدَّأ من روعها وقال:

- لا تقلقي.. ليس دمي.

وأخرج من جيبه الخشبة المربوطة في الخيط، ومدَّها إليها. نظرت فيها طويلًا ثم غزت الدهشة ملامحها:

- من أين جئت بهذه؟

- من «البهنسا».

- ليس غريبًا.. فالعذراء ذهبت إليها وعلى ذراعها المسيح، وجلست هناك تحت شجرة لا تزال حية، وشربت من بئرٍ طالما سقيت الناس سنين طويلة.

- أتعرفين هذا؟

- قرأتـه في كتب، والدير الذي قضيت فيه سـنوات نظَّم لنا رحلة إلى كل البلاد التي مرَّت بها العائلة المقدسة.

قلَّب قطعة الخشب بين أصابعه، وسألها:

- ما هذا الكلام المحفور عليها؟

- هذا كلام باللغة القبطية يقول: «الربُّ راعيَّ فلا يُعوزُني شيءٌ».

استعاد صورة الراهبة الراحلة وسألها من جديد:

- وهل قيل لكم إن سبع راهبات سـاعدن جيش المسـلمين على اقتحام أسوار مدينة «البهنسا» الحصينة، وأنهن قُتلن في المعركة؟

- نعـرف هذا.. في كل مكان كان آباء الكنيسـة يسـعون إلى التخلص من ظلم الرومان، وقد ساعدوا العرب على قدر استطاعتهم.

- لكن «خادم البئر»..

بدا عليها الاستغراب، وسألته ملتاعة:

- هذا الذي جرحك وأسال دمك؟

ابتسم وهز رأسه نافيًا:

- رجـل تعرفـت عليه هناك يقـرأ الآيـات والتعاويذ على رؤوس النسـاء اللاتـي يتدحرجن في التراب سـعيًا وراء الخلفة.. هذا يقول إن البنات السبع هُنَّ نساء مسلمات جئن مع الجيش من جزيرة العرب.



واختلط عليه الأمر فبدا وكأنه يهذي:

- الراهبات السبع، والحتحورات السبع، أهذه مصادفة أم هو التاريخ الذي يعيده الناس في هذا البلد بطـرق مختلفة مع تعاقب الأديان والأزمان، مثلمـا أعادوا حكايـة إيزيس وأوزوريـس مع المسـيح وأمه، وطقوس المعبـد الفرعونـي القديم في مولـد «أبو الحجاج الأقصـري».. هكذا قرأت في أحد الكتب التي نامت في بطن صندوق عمي «رشيد».

كان يتكلـم فـي صـوتٍ خفيـضٍ فلم يصل شـيء ممـا قال إلـى أذني «جميلة» التي أخرجته مما هو فيه حين واصلت حديثها في طريقه:

- الكل يروي وفق هواه أو مصالحه، لكن ما فعله مسيحيو مصر لمساعدة جيش المسلمين أصبح حقيقة تاريخية لا تقبل الشك.. فلِمَ نستكثر أن تكون السبع بنات راهبات؟

ثم أتبعت سؤالها بآخر:

- أتتهرب من الحديث عن الدم الذي لطخ ملابسك؟

حكَّ ذقنه وابتسم وقال:

- هذا دمك.

بدا عليها قلق وغيظ بان في كلامها:

- لا تلوعني يا «سمحان» هذه بداية مخيفة.

- لا أُلوِّعك ولا أُحيِّرك، إنما أقول الحقيقة.

- أي حقيقة؟

تنحنح وسألها:

- هل تعود جذورك أنت إلى «البهنسا»؟

- لا أعرف.. أنا ولدت في حي شعبي بالقاهرة، وأبي كان يقول لي إن أباه من الفيوم.

قهقه على قدر ما استطاع وقال:

- يقولون «الدنيا ضيقة» على تقارب الأمكنة.. أما أنا فدنياي ضيقة لتقارب الأزمنة.

صمتت برهة وسألته من جديد:

- لا تراوغ يا «سمحان» وأخبرني عن الدم الذي لوَّث ملابسك.

- لم يلوثها.. بل طهرها، إنه دم شهيدة من الراهبات السبع، كبيرتهن، ومَن يراها يوقن أنها هي أنتِ، وأنتِ هي، ليست شبيهتكِ بل قرينتكِ.

- الشهيدة التي تتحدث عنها ماتت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، فهل بقي دمها رطبًا ولوثك؟

لم يُجب، فتذكرت شيئًا كانت قد قرأته في كتابٍ قديمٍ ذات يومٍ، وقالت:

- آه، فهمت، أنت كنت مع بعثة آثار تنقل رفات موتى «البهنسا» ووجدتم أن لحم الراهبة الشهيدة لا يزال حيًا، ودمها مسفوح كأنها ماتت الآن..



هكذا يكون الشهداء دومًا.

- لا بعثة ولا رفات ولا يحزنون.

- اللغز هو؟

- لا أعرف إن كان لغزًا أم كابوسًا.

مدَّت يدها إلى الفانلة، وفركت الدم الناشف، فصار غبارًا أحمر، وقالت له:

- ادخل غيِّر هدومك لأغسلها.

- في الحقيقة ما تحتاج الغسيل هي روحي.

- لا أفهمك هذه المرة.

جلس على الكرسي الإسفنجي الضخم الهش، وتنهَّد وردَّ عليها:

- تحدث لي أشياء لا بد أن أحيطكِ بها خبرًا.

وحكى لها كل شيء منذ أن ناداه الرجل الشبح عند مقبرة «طهنا الجبل» ليذوب في حضرة ذِكر من عالم آخر، إلى اللحظة التي دفن فيها الراهبة الشهيدة.

تابعته «جميلة» صامتة، وهي تتقافز من الدهشة، كبقلة رموها في نار هادئة، أو زغب ألقي في وجه ريح طليقة.

# 49

ترك رأسها على حافة الجنون، وذهب إلى «البهنسا». أسئلة وهواجس وخواطر تدفقت كشلال ولم يتمكن عقلها المكدود من أن يصد شيئًا.

- وَليٌّ هذا أم مجنون؟

كان هذا هو السؤال الكبير الذي انطلقت منه وتفرقت بها سبل الإجابات المفتوحة على العجز والفراغ. لكن السؤال الذي كان مغلقًا بالنسبة لها وإجابته لديه هو وليست لديها: «لماذا أخفى عني هذا الأمر؟».

لو كانت امرأة أخرى مكانها في هذه اللحظة لكانت كل فئران الدنيا قد لعبت في عبِّها، لكنها كانت مطمئنة، هل هو الحدس والفطرة الطيبة هي التي تمنحها السكينة والثقة؟ أم هو الحب الجارف الذي يغفر كل شيء؟ المهم أنها خرجت وهي أكثر إيمانًا بتفرُّد مَن أحبت، ودليلها هو تلك الحكايات التي حكاها هو بصدقٍ تام، وكأنه يسرد وقائع جرت له قبل قليل في الشارع الذي تنبت منه الحارة المؤدية إلى البيت الذي يقطنه.



وأكثر ما جعل حواديته الأثيرة تغزو قلبها هي الدموع التي طفرت من عينيه وهو يقصُّ ما جرى له، لم يكن يحكي بفمه، بل بكل كيانه، يهتز وهو يجلب الكلام من أعماقه. فرحًا به كان، هكذا تبدلت مشاعره وهو جالس أمام «جميلة» من الخوف إلى الابتهاج، وانطلق كفرخ يمامٍ عفي، وديع وصلب.

كانت قد سمعت كثيرًا في الدير عن معجزات القديسين، فهذا كان حديثًا مألوفًا على ألسنة الراهبات. كل منهن كانت تحكي وهي تتمنى أن يكون لها مثل مَن تروي كراماتهم ومآثرهم، فغاية أي إنسان مقطوع للعبادة أن يمنحه الرب شيئًا، ولو يسيرًا، من قدراته المطلقة.

سمعت عن أفعال فوق النواميس، ولم تكذبها، بل زادتها إيمانًا بأن الرب اختار بين الذين كرَّسوا حياتهم للبتولية مَن يستحق أن تكون لديه طاقة روحية فائقة، تعينه على قهر العجز الذي يواجهه الإنسان العادي حيال سطوة الزمان والمكان.

ولأول مرة تشعر أن الرب هو الذي ساق «سمحان» في طريقها لتكمل معه الطريق الذي اعتقدت أنها قد انقطعت عنه حين تركت الدير.

«دير ولكن في الخلاء أو في سويداء القلب الذي لا يكف عن النبض»..

هكذا حدَّثت نفسها وهي تصف ما هو فيه الآن، أو ما هي مقدمة عليه في المستقبل. ثم تعيد ترتيب الأمور وتقول لنفسها:

بل ربما ساقني الرب أنا أمام هذا الفتى لأن له طريقًا عليه أن يسلكه حتى النهاية..

واقتنعت بعد أخذٍ وردٍّ مع نفسها أن كليهما قد خُلق للآخر، وأن المحبة التي تجمعهما لا تقف عند حدود العشق الإنساني الذي يعيشه الناس حولهما، بل هي محبة هابطة من السماء كشعاع الشمس، جلية كهذا السراج الوهاج الذي ينير الدنيا بأسرها ويمنحها الدفء والألفة.

- هل يعود غدًا بحكاية جديدة؟

تساءلت في شغف، وتمنت أن يأتيها بما هو أغرب مما قصه على مسامعها قبل أن ينصرف مستريحًا، بعد أن صارحها بما ضنَّ به عليها في الأيام الفائتة، أو ما لم تأتِ فرصة كي يحيطها به خبرًا. وجلست تتخيل ما هو مقدم عليه، وتتمنى لو شاطرته هذه اللحظات المدهشة.



# 50

كان هو يمشي تائهًا، وصورة «جميلة» تملأ رأسه، وطيفها يمشي أمامه. رآها في كل أحوالها، وهي تصدقه وترتمي في حضنه، وهي تكذبه وتعطيه ظهرها، ساخطة وراضية، تضحك وتبكي، تغني وتولول، تقول له في ثقة وهدوء: «أنت صادق، أنت لا يمكن أن تكذب أبدًا»، أو تجأر في قلق وصخب: «أنت كاذب، أنت لا يمكن أن تصدق على الإطلاق».

لم يدرِ بكل الذين يسيرون إلى جانبه أو يقابلونه وهم سائرون في اتجاه مدينة «بني مزار»، بعضهم كان يلقي عليه السلام، فيرد دون أن يخرج من شروده، حتى حين قابل «خادم البئر» عند مدخل «البهنسا» لم يكن قد أفاق بعد.

مشى إلى جانبه يثرثر و«سمحان» لا يشاطره ثرثرته، فلما استغرب صمته الطويل، غمزه في كتفه، وقال:

- إيييييه.. خليها على الله.

لم يضع وقتًا:

- أريد مقابلة شيخ الزمام.

- ألم تعرف اسمه بعد؟

- لم أسأله، ولم أسألك، انشغلت بأحواله وليس باسمه.

- الشيخ «سعدون».. هذا اسمه.

- أريد أن أطلعه على وجعي.

قهقه «خادم البئر» ما وسعه، حتى كاد الشعر الراقد فوق شفته العليا يطير من مكانه، وقال وهو يسعل:

- تحمَّل ألمك إلى ما بعد العشاء.

وما إن هلَّ الشيخ «سعدون» وخلفه مريدوه حتى جرى «سمحان» إليه، ومال على يده وقبلها، فوضع الشيخ أصابعه على رأسه، ودعا له في صمتٍ، ثم تأبطه وسارا سويًّا، وأتباعه في دهشة من الأمر، فالشيخ لا يتأبط إلا مَن رأى أن فيه خيرًا كثيرًا، أو مَن يكون قد قطع شوطًا على طريق الولاية. وفي حياة الشيخ لم يتأبط من مريديه غير اثنين، أحدهما انتقل إلى جوار ربه، والثاني هو منشد الذكر.

وأشار إلى جانبه وقال لـ «سمحان»:

- اجلس هنا وكن قريبًا مني.

ثم نظر في عينيه وقال:

- تريد أن تبوح بشيء، أنا أنتظرك، فلا تتأخر.

ومدَّ أذنه، وواصل:



- اهمس فيصلني صوتك.

ولم يهمس فقط، بل همس وباح بما وسعه، وكان الشيخ «سعدون» يُنصت بإمعان، بعد أن طلب من مريديه أن ينهمكوا في قراءة «دلائل الخيرات»، وطال إنصاته؛ لأنه سمع كل شيء عن حكايات «سمحان» الغريبة، فلما انتهت، قال الشيخ في هدوء:

- ما عرفته يا ولدي أن أولياءَ لله مكنهم المولى من أن يطووا الأرض طيًّا، كأنهم برق أو طيف، ومنهم مَن مشوا على الماء كأن السفين تحت أقدامهم، وبعضهم طار في الهواء كاليمام الطيب، وهناك مَن يَطَّلع على دخائل الواقفين أمامه ومَن تُذكر أسماؤهم أمامهم أو يردون على خاطره، ومنهم مَن يمد يده فيأتيك من الهواء بطعامٍ لذيذٍ وماءٍ عذبٍ، أو بثمار في غير أوانها، ومنهم مَن إن ضرب قدمه في الأرض انبجس ماء طهور يتوضأ منه، ويوجد مَن إذا رأى قحطًا ومحطًا ورفع يده إلى السماء لتنفرج الغمة، نزل المطر، واخضرَّ الشجر اليابس، ومنهم مَن يسخِّر حيوانًا أعجم فيفعل ما يأمره به في الخير وللخير، وبعضهم يصبر على الجوع والعطش أيامًا طويلة يكفي قليل منها لهلاك مَن لا يرعاه الله بمددٍ من عنده.

- إذن ما أنا عليه ليس بكرامة ولا معجزة.

- ما أنت عليه هو أغرب ما سمعت.

وأغمض الشيخ «سعدون» عينيه قليلًا، وأشرق وجهه بنورٍ عجيبٍ وقال:

- لكن كل هذا لا يساوي شيئًا أمام مَن يصلون إلى عين اليقين، وهم يعرفون الله ويخشونه، ويداومون على مراقبته، ويتوكلون عليه حق توكله.

ثم أغمض عينيه من جديد وأنشد في تبتل:

قلوب العاشقين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بأسرار تناجي ... تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا
وترتع في رياض القدس طورًا ... وتشرب من بحار العارفينا
فأورثنا الشراب علوم غيب ... تشف على علوم الأقدمينا
شواهدها عليها ناطقات ... تبطل كتل دعتوى المدعينا
عباد أخصلوا في السر حتى ... دنوا منه وصاروا واصلينا

ولما انتهى من إنشاده، وضع كفيه على كتفي «سمحان» ونظر في عينيه من جديد، وأطال النظر هذه المرة من دون أن ينطق حرفًا واحدًا، وسأله:

- سأحدثك عما لم تقرأه في صندوق عمك «رشيد»..

قاطعه «سمحان»:

- كيف عرفت عمي «رشيد» وصندوقه؟



ابتسم، وربَّت كتفه:

- لا تسلني: كيف عرفت، إنما سل: لمَ عرفت؟

لم يرد، وشرد في ملامح الشيخ التي كانت تفيض بنورٍ عجيبٍ، وقال:

- لن أسأل، فكل ما أريد أن أستفهم عنه أنت تعرفه، فلأوفر الكلام من أجل أن أسمع في حضرتك وأعي.

- سأحدثك عن «أبو حيان التوحيدي»، فرغم أنه كان قانطًا مغبونًا، لكن عشمه في الله قبل الخلق، وتواضع حاله ورقته، جعلني من المعجبين به وإن افترق الطريق بعد حين، وطالما أراجع كتابه «الإشارات الإلهية» وأجد فيه زادًا متجددًا، فارفع يا «سمحان» كفيك إلى السماء وادعُ معي بما دعا به هو قبل قرون: «اللهم إنا نسألك ما نسأل، لا عن ثقةٍ ببياض وجوهنا عندك، وحسن أفعالنا معك، وسوالف إحساننا قبلك، ولكن عن ثقةٍ بكرمك الفائض، وطمعًا في رحمتك الواسعة. نعم، وعن توحيدٍ لا يشوبه إشراك، ومعرفةٍ لا يخالطها إنكار، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة، فنسألك ألا ترد علينا هذه الثقة بك، فتُشمت بنا مَن لم تكن له هذه الوسيلة إليك، يا حافظ الأسرار، ويا مسبل الأستار، ويا واهب الأعمار، ويا منشئ الأخبار، ويا مولج الليل في النهار، ويا مصافي الأخيار، ويا مداري الأشرار، ويا منقذ الأبرار من النار والعار، عُد علينا بصفحك عن زلّاتنا، وأنعشنا عند تتابع صرعاتنا، وحط حالنا معك في اختلاف سكراتنا وصحواتنا،

وكـن لنا وإن لم نكن لأنفسنا؛ لأنك أولى منَّـا، وإذا خفنا منك، فامزج خوفنـا منـك برجائنا فيـك، وإذا غلب علينا بأسـنا منـك، فتلقَّه بالأمل فيك. بشِّـرنا عند توجهنا نحوك، بالوصـول إليك. متعنا بالنظر إلى نور وجهـك. أسبغ علينا نعمتك بما وهبت لنا من توحيـدك. ولا تهجرنا بعـد وصلك، ولا تبعدنا بعد قربـك، ولا تكربنا بعد روحك. قد عادينا أعـداءك فيك، فلا تشـمتهم بنا لتقصيرنـا في حقك، وواليـنا أصفياءك لك، فلا توحشـنا منهم لسـهونا عن واجبك. قد كدرنا لك فأرحنا بك، ورفعنا أيدينا إليك فاملأها من برِّك ولطفك».

«مـن برك ولطفـك.. من بـرك ولطفك.. مـن برك ولطفـك»، كرَّرها «سـمحان» مرات وغسـل الكلام بالدموع، وشـعر أن صدره يتسـع حتى صـار أعرض من الأرض البـراح التي تطل على «الحضرة»، وأن كل هذه المسـاحة الكبيـرة تغطس في نور فوقـه نور، وتحته نـور، حتى غابت فيه الأشـجار وأطلال الأخصـاص وعشـش الفلاحين وزرائبهـم. ذاب كل شيء فلم يعد في حضور النور سوى النور.

وأغمـض عينيـه ليرقـب انفسـاح شـرايينه لدفقـة قويـة مـن الارتياح والغبطـة، جعلتـه راغبًـا في أن يرفـرف كطير فرحان، فرفـع ذراعيه، لكن الشيخ «سعدون» مدَّ يديه وأمسك بأصابع «سمحان»، وقال له:

- لـن تطيـر وروحـك حبيسـة في جسـدك، ولـن تقطـع الطريـق كله في خطوتين وذنوبك أثقل من ساقيك.

ونادى من أعماقه:



- علِّمني يا مولانا.

فحط كفه على رأس «سمحان»، وقال:

- يؤنسـنا وجودك معنا، لكن أيامك هنا معدودة، وشـيخك الذي مرَّ من هنـا، يجلس الآن هناك، في مسـجدٍ فسـيح، تحت ضريـح الذي جاءنا على الماء.

- شيخي هناك؟!

سأل «سمحان» مندهشًا، وانتظر الإجابة، فجاءت لتزيد دهشته:

- شيخك تعرفه كثيرًا، قابلته مرة واحدة في زماننا هذا، ومرَّات في الأيام البعيـدة التي تسـافر إليها وحيـدًا، فاذهب إليه، واجلس عنده، واسـمع منه، ولا تتعجَّل حتى تذوق، فمَن ذاق عرف.

- أعرفه.. مَن هو؟

- شيخك هو «عبد العاطي» وينتظر الآن قدومك إليه.

- «عبد العاطي» الذي..

- هو، ولا أحد غيره.

- هو.. الآن عرفت، لكن أين سأقابله؟

- كل شيءٍ قد تم ترتيبه، فلا تشغل رأسك، ستأخذك ظروف عصيبة إليه، والشـمس الحمراء الذابلة تحط على رأسـك، وأنت تجري من شـارع إلى حارة.

وقام الشيخ «سعدون» فتبعه كل المريدين، وصنعوا صفين متقابلين، وانطلق أنين الناي وصهللة الدُّف، وجاء صوت المنشد يلين له الحجر الصوان:

فلا والله ما طابت حياة ... سوى بالقرب من كنف الحبيب
فلا تختر سوى دارٍ لسعدي ... وعُد عن الأجارع والكثيب
وما لاقى الأحبة مثل ... بعد تفتت من حبات القلوب
ومَن يعشق معززة شرودًا ... فلا يسأم مقاساة الكروب



# القسم الرابع

# 51

لم يرَ «المنيا» على هذا النحو قبل اليوم، فكم من مرة أتى إليها غريبًا، يمر بشوارعها خفيفًا كحصاة تتقاذفها أقدام البشر يمنة ويسرة ولا تترك خلفها علامة. كان يلملم غربته ويجلس على واحد من المقاعد الحجرية التي تتعاقب على كورنيش النيل، ليرقب الماء المسافر على مهل إلى «جبل الطير».

كان يتمنى أحيانًا أن يخلع ملابسه ليعود كما ولدته أمه، ويرمي جسده في النهر، ويترك الموج يدفعه حتى يرسو هناك على الشاطئ المطروح في وداعة، تحت أشجار السنط ذات الجذوع المشققة التي يطل منها الصمغ كسبائك الذهب الأحمر، أو تحت جذوع النخل الباسق الذي يوزع تمره على العابرين، وكل مَن رمتهم المراكب القادمة من الشط الغربي.

اليوم يشعر أنها أصبحت موطنه، ففي الصباح ذهب لاستلام عمله في هيئة الآثار، حارس أيضًا على الباب، لكن هذه المرة من دون شومة، لا جبل ونهر، أو صحراء وزرع، هنا شارع مغلق يصب في شارع أكبر، ينتهي بميدان يوزع الشوارع على الجهات الأربع، والكل يمكن أن يوصل إلى هذا الحجر الممدد فوق حشائش الكورنيش، وشجره المشذب، ونخله القصير ذي الأوراق العريضة الذي لا يعطي بلحًا لأحد.

وهـذا الجبـل الذي يـكاد يلثم خد المـاء هنا، يبتعد عنـه هناك ليعطي فرصـة لبيـوت خفيضـة أن تنمو وتصنع قريـة يقطنها أنـاس موزعون بين القسوة واللين، لا ينتظرون شيئًا سوى أن تمر أيامهم بسلام.

مشى على الكورنيش مارًّا بـ «مسجد الفولي» الذي يقف في جلال، نظـر إليه، وهمّ أن يعبر الشـارع إليـه، لكنّ قدميه تحولتـا إلى جوالين من الرمـل، وسـمع هاتفًا يقول لـه: «لم يحن الوقت بعـد»، فوقف مكانه، ثم أكمل طريقه حتى شـارع الحبشي، الذي أخذه يمينًـا، ثم أدخله إلى حي «أبو هلال» الزاخر بالبشر المكدودين.

وحـان الوقت لكن بعـد ثلاثة أيام، فقبل المغرب نـزل هو و«جميلة» للنزهـة والتسـوق، دارا فـي شـوارع «الحبشـي» و«الحسـيني» و«ابن خصيـب»، ووقفا عنـد محل عصير قصـب يرويان عطشـهما. كانت هي تعلّق في كتفها حقيبة صغيرة من الجلد الطبيعي، ورثتها عن أمها، وتسير إلى جانب «سـمحان» خفيفة كفراشة، وكان هناك لص يتابعهما منذ مدة، فلما تلهيا بشـرب العصير، قفز هو كقرد وخطف الحقيبة وفرّ إلى شـارع جانبي، وطار «سمحان» خلفه، بعد أن قال لـ «جميلة» وهو يجري:

- عودي إلى البيت.

كان اللص سـريعًا مدفوعًا بخوفه مما سيناله من عقابٍ إن تمكن أحد من الإمساك به، وكذلك طمعه فيما اعتقد أنه شيء ثمين في بطن الحقيبة. وكان «سـمحان» سـريعًا أيضًا تقويه الرغبة في ردّ الإهانة التي تعرض لها حين سُـرقت زوجته وهو إلى جانبها، وعزمه على ألا يدع اللص يستفيد



من جريمته. ولهذا كانت أطراف أصابعه تكاد تلمس كعبي اللص، وقبل أن يمد يده ليمسـك قميصه الضيق الملتصق بجسمه يروغ يمينًا وشمالًا، حتى خرج نحو الكورنيـش، وفجأة وجد الملاذ أمامه، ولم يكن سـوى «مسـجد الفولـي»، فدخل وانـدسّ بين صفـوف المصلين، الذيـن كانوا مستغرقين في صلاة العشاء، فلم يجد «سمحان» بُدًّا من الانتظار.

كان المصلون في الركعة الأولى، وكان صوت الإمام نديًّا جليًّا يبعث على الخشـوع، فوجد «سمحان» نفسه يمشـي نحو دورة المياه ويتوضأ، ويأتي ليقف في صفٍّ يلي ذلك الذي اندسّ فيه اللص بلا وضوء.

كان يفتـح نصف عينيه ليتابـع اللص، والنصف الآخـر أغلقه ليمنحه خشـوعًا، وظل وقتًا منقسـمًا بين متابعة اللص والاستسـلام لقلبه، الذي أخذ وجيبه يرتفع، فيصعد النبض من صدره إلى رأسـه، ليرتجّ جفناه، ثم ينغلقا تمامًا، ليشـعر أنه مغمور في نورٍ سـاطع، لا يجعله قادرًا على رؤية أي شيء.

انخـرط فـي الصلاة، ونسـي لِـمَ أتى إلـى هنا، ولم يعد يـرى اللص، الذي غافله أثناء السـجود، وتسـلل من الصف، وانسـحب إلى الباب في حذر، حتى وجد نفسه يمشي في البهو المستطيل، الذي تقف في واجهته ثلاثة عقـود محمولة على عمودين يحملان مظلة، تطل على الكورنيش. فلمّا أصبح في نهر الشارع، أطلق ساقيه للريح.

أما «سمحان» فوجد نفسه جالسًا وسط مصلين قد انتهوا من صلاتهم وتفرغـوا للتسـابيح وهم مأخوذون بسـحر المكان، حيث الحوائط التي

بُنيت بالطوب الأحمر المبطن من الخارج برقائق الحجر الصناعي، والتي تقف شامخة تحت غطاء منقوش بحليات عربية مزخرفة بخليط من الألوان، وتؤدي إليها أبواب خشبية سميكة محشوة بزخارف من النحاس، وإلى جانبها نوافذ من الخشب الصهريجي المخروط، ويطل الكل على أرضية من الموزايك، الذي يرتفع ليطوق الجدران من الداخل بمسافة تعلو على وسط كل مَن يقف في صفوف الصلاة أو في مواجهة الضريح، المفتوحة عليه شبابيك من الجص المفرغ المحلى بزجاج ملون، والراقد تحت منارة مربعة الشكل تلحقها دورة ينطلق منها صوت المؤذن، ليبدأ مربع آخر، ينتهي بمظلة خشبية يغطيها القرميد الأحمر، وبعدها شطف تتبعه أعمدة تحمل الخوذة التي يمتشق وسطها هلالًا.

لكن «سمحان» كان منشغلًا بشيءٍ آخر، إنه الرجل الذي يجلس تحت المنبر المصنوع من خشب متين مُعشَّق بحشوات من الزان، تتجمع في حليات، لتأخذ أشكالًا هندسية بديعة. فرك «سمحان» عينيه، وعصرهما بشدة، ومدَّ بوزه ثم اتسعت حدقتاه عن آخرهما. لقد كان «عبد العاطي» يجذب بأصابعه حبات المسبحة في هدوءٍ، ويتمتم بكلمات لا يسمعها غيره، ويرسل وجهه ليعانق السقف، دون أن ينشغل بزخرفته.

تذكر «سمحان» ما قاله له الشيخ «سعدون»، واقترب من الرجل الجالس في وداعة، حتى تماسَّت الركب، وتلاقت العيون، ونطق اللسان:

- إزيك يا عم «عبد العاطي».



رفع رأسه وانداحت ابتسامة في وجهه:

- أهلًا يا «سمحان».

تهلل، وسرت طمأنينة في نفسه:

- أتتذكرني؟

- أنا أنتظرك.

- منذ متى؟

- منذ اللحظة التي رأيتك فيها أول مرة، قبل أن أسلمك الشومة والدفتر والكشك، وأعطيك ظهري وأمضي.

تنهد «سمحان» وقال بعينين دامعتين:

- أنت لم تفارقني، رأيتك وسط الذين هبطوا علىَّ من الزمن البعيد في ليالٍ قاسية، ولم تنقطع عني الحكايات التي حكاها «فتحي» عنك أيام «طهنا الجبل».

مصمص شفتيه:

- لم أخدم مع «فتحي» طويلًا، لكنه وجدني مرتين ملقًى على الأرض وفي فمي رغوات بلَّلت الحصى، وحين سألني لم أكذب عليه، لكن أجبته باختصارٍ شديد. أما مَن خاض معي الليالي الغريبة هو «محجوب»، الذي أكله المرض ودفنَّاه في مقبرة «طهنا»، كان طيبًا وبسيطًا فحكيت له أسراري، وقبل أن يرحل بأيامٍ حكى لـ «فتحي»، فحكى لك، وأرجو منك ألا تحكي أنت لأحد غير زوجتك الراهبة والشيخ «سعدون».

بهـذا رمـى «عبـد العاطـي» العلامـة، فهـو يعـرف أن «سـمحان» حكـى لزوجتـه، ويعـرف مَـن تكـون، وكذلـك الشـيخ «سـعدون»، الـذي كان قـد جهَّـز «سـمحان» ضـد الاندهـاش، فلـم يفغر فـاه أمام ما سـمع، وكأن الرجـل الجالـس تحـت المنبـر لا يقول سـوى إن العشـاء أربـع ركعـات، وإن المسـجد الـذي يجلـس فيـه يُنسـب إلـى العـارف باللـه «علـي بـن محمـد بـن علـي المصـري»، الـذي يسـميه النـاس «الفولـي»، مـن علمـاء الأزهر الشـريف، والذي ولد سـنة 990 هجرية، وصاحـب المؤلف الشـهير «تحفـة الأكياس في حسـن الظـن بالناس»، وإن مولـده يأتيـه النـاس من كل مكان، بـل إن هذا البلد كله يُنسـب إليه، فيقول الناس «منيا الفولي».

ووسط صمت «سمحان» رمى علامة أخرى:

- خطف اللص جزءًا من قوت جسدك، ليقودك إلى كل قوت روحك.

ثم أخذ وجهه بين كفيه، وواصل:

- فـي «طهنـا» وارب الباب أمامـك، وفي «دير العـذراء» انفتح بما يكفي لمـرور روحـك، وفي «البهنسـا» دخلت، وأنت الآن جالـس في بيتك الذي لن تبرحه.. هذا مقامك الطيب فلا تبرحه.

تلفَّـت حوله، فوجـد المصلين منهمكين فـي نافلة «الشـفع والوتر»، وبعضهـم أخذوا المصاحف وجلسـوا يتلون بأصـواتٍ خفيضة، تتجمع وتتلاقـى في منتصف المسـجد وتحـدث طنينًا عذبًا جليلًا، يسـري نحو النوافذ المفتوحة، وينطلق منها إلى الشوارع.



عـاد إلـى «عبـد العاطي» فوجـده تائهًـا في تسـابيحه، وعيناه اتسـعتا وتلألأت فيهما أنوار المصابيح، وارتسـمت على شـفتيه ابتسـامة عذبة، وراح يكلِّم نفسـه، وكأنه جالس بمفرده، لا يشـغله مَن يقعد أمامه متشوقًا إلى التقاط كل حرف يخرج من فمه. وبعد طول شرود نطق: «إن رغَّبتك البدايـات زهَّدتك النهايات، وإن دعاك إليها ظاهر، نهاك عنها باطن، إنما جعلها محلًّا للأغيار ومعدنا لوجود الأكدار تزهيدًا لك فيها».

وتحير «سمحان» فيما سمع، وسأله:

- أهذا كلامك يا عم؟

فنظـر إلـى باب جانبي، ينتهـي إلى طرقة مبلطة ينفتـح في آخرها باب آخر، ورد:

- إنه من حكم «ابن عطاء الله السكندري».

ومدَّ إصبعه إلى الخارج:

- هنا مكتبة عامرة فاقرأ على قدر ما تسـتطيع، فالمعرفة أوسـع بكثير من صندوق عمك «رشيد».

تهلـل وجـه «سـمحان»، وانتفـض واقفًا وقطـع خطوة نحـو الطرقة، وعينـاه تطالعـان الكتـب التي تبـص كعوبها علـى الرؤوس، لكـن «عبد العاطي» جذبه من جلبابه إلى أسفل فجلس، وقال له:

- اعلـم أولًا مـا علَّمنـي إياه «ابن عطـاء»: «العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شـعاعه، وينكشـف عن القلب قناعه»، و«خير علم ما كانت الخشية معه، فالعلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك».

- وهل مثلك في حاجة إلى ما في الكتب يا عم؟

- لا يكتفي بما لديه إلا جاهل.

- غايـة ما نطلبه من القراطيس أن نعرف، وأنـت عرفت قبلها، فلمَ تضيع وقتك؟

- لو كان الأمر كذلك ما كتب أصحاب الأحوال أحوالهم، ولا أصحاب المقامات مقاماتهم، والأذواق والمواجيد تعجز الكلمات عن وصفها لكـن أي اقتراب منهـا بتدوينها ينفع أهل الطريق، وكل مَن أراد التشبه بهـم، كي يفلـح. ولو كان الأمر لا يحتاج إلى كتـب ما كانت أول كلمة قالها الله إلى رسـوله هي: «اقرأ»، وكان سبحانه قادرًا على أن يكشف عنه كل الحُجُب، ويُغنيه عن كل الكتب.. العلم الوهبي لا يضره العلم الكسبي.

ضحك «سمحان» وضرب على ركبته وقال:

- والناس ظنت أنك قد عرفت سحر الفراعنة أو مسَّتك لعنتهم.

ضم شفتيه المنفرجتين، وهزَّ رأسه، وردَّ:



- كل هذا جرَّته عليَّ الكراسـة التي تركتها لك، كانوا يرونني أحملق فيها باندهاش فظنوا أن حروفًا وأرقامًا معينة بين سطورها، تحمل سرًّا دفينًا مَن يفكه يمكنه أن يطوي الزمان والمكان، ويرى ما لا يراه الناس.

- قرأتها مرات ومرات، ولـم أجد فيها ما يدل على سحر أو لعنات، لكنها كانت تخط بعض معالم ما اعتقد فيه أجدادنا.

تنهد «عبد العاطي» ومطَّ حروف الكلام على امتداد الأيام الآتية:

- آن لك أن تقرأ علومًا أخرى.

ضحك «سمحان» ساخرًا من نفسه:

- مهما قرأت لن أكون سوى خفير بائس.

شـعر «عبـد العاطـي» بإهانة؛ لأن هـذا الكلام يخصه، فسـرت موجة غضـب فـي وجهه سـرعان ما انحسـرت وحـل مكانها صفاء وتسـامح، وقال:

- لا توجـد مهـن بائسـة ومهـن سـعيدة، بل توجـد مهن شـريفة وأخرى منحرفـة.. ويكفي في هذا الزمن العجيـب أن بطون أولادنا لم يدخلها مثقال ذرة من حرام.

وأراد «سمحان» أن يصحح خطأه، فرد:

- الحال من بعضه يا عم، لكن كان مثلك جديرًا بأن يكون له نصيب على قدر علمه.

- نصيـب من مـاذا؟ من الدنيا، كلها تحت قدمـيَّ، ويجب عليك أنت أن تكون هكـذا، لا تجعل زخارفها وملذاتها وشـهواتها تغلبك، فمسافة العمر أقصر بكثير من المسافة التي تشغلها المياه بين شطي النهر الذي يجري على بعد خطوات من مجلسنا هذا.

وأسـند ظهره إلى الحائط، ومدَّ سـاقيه حتى مرَّتا من أمام «سـمحان» الذي كان يجلس القرفصاء، وأشرق وجهه بنورٍ عجيب، وقال:

- سأعلمك أول درس الآن.

تهلل «سمحان»:

- أنا جاهز يا شيخي.

أغمض عينيه وقال:

- ردد ورائـي كل مـا سـأقوله، وهو ما اخترته لك من كثير، ثم سـأعطيك وقتًا لتتدبره صامتًا، ثم تشرح لي ما استقر في يقينك منه.

وراح الشيخ «عبد العاطي» يتلو:

- ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ ..

وتلا عددًا آخر من الآيات والأحاديث ،ثم رقَّ صوته، وانبلجت عيناه، وطلب من «سمحان» أن يردد وراءه على مهل أشعار الإمام الشافعي:



وَمَنْ يَذُقِ الـدُّنْيَا فإني طَعمتُهَا ... وَسِيْقَ إِلـيْنَا عَـذْبُـهَا وَعَـذَابُهَا

فَلم أرَهَـا إِلَّا غُـرُورًا وَبَاطِـلًا ... كَمَا لَاحَ في ظَهْرِ الفَلاةِ سَرَابُهَا

وَمَـا هِـيَ إِلَّا جِـيْفَةٌ مُسْـتَـحِيْلَةٌ ... عَـلَيْهَا كِـلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا

فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْـتَ سِلْمًا لأَهْلِهَا ... وإنْ تَجْتَذِبْهَا نَازَعَـتْكَ كِـلَابُهَا

ولمـا انتهـى أخـذ كفي «سـمحان» بيـن أصابـع يديه العشـر، وداس عليهما، وسأله:

- هل تسمع نبض قلبي؟

- أشعر به؟

- وهل يتبع نبضك نبضي؟

- يأتي بعده.

- الآن سـيتوحد النبـض.. سـيدق قلبك مـع قلبي، فإن جـرى فتلك هي البداية.

ولم يمر وقت طويل حتى دقَّ القلبان معًا.

# 52

ما إن فتح «سمحان» باب الشقة حتى اقتحمه صوت «جميلة»:

- هل وجدت الحقيبة؟

ابتسم وردَّ في يقين:

- بل وجدت الحقيقة.

وجلس إلى جانبها على الكنبة المتهالكة، وسألها:

- هل تذكرين ما حكيته لكِ عن الرجل الذي ظل وجهه يطاردني في كل مرة أذهب فيها إلى الزمن القديم؟

- لم أنسَ شيئًا مما قلته لي.

- إنه يتابعني كظلي.

ابتسمت وداست على ركبته التي كانت ترتعش وقالت:

- ظلك خارجك أما هو فداخلك.

- والآن صار داخلي وخارجي، أراه بعيني، يجلس أمامي، لكنني أشعر أنه يجلس في قلبي ويتربع.



ليس هو سوى سبب لما يريده الرب بك، وما رتبه لك.

وتاه في كلامها وامتلأت عيناه بفيض مشاعر لم ترها هي من قبل بهذا الدفق، فتحركت داخلها غريزة الأنثى وسألت نفسها في صمت: «هل سيجذبه الطريق الآخر بعيدًا عني تمامًا؟»

وأقلقتها أن تكون الإجابة بـ«نعم»، وسخرت من ذاتها دون أن يسمعها: «تركت الرهبنة لأقترب منه وها هو يترهبن ليبتعد عني».

وزحفت نحوه حتى لمس فخذها فخذه، وتلاقت حرارة جسديهما، ومدت ذراعها فطوقت رأسه، وكان هو يتنهد بعمق تحت أطمار كوابيس اليقظة التي سقطت على رأسه فجأة، وهو يتذكر ليالي الخوف التي مر بها، إلى أن بلغ ما جرى له قبل ساعات قليلة في مسجد «الفولي»، وسأل نفسه: «هل هي صفحة جديدة نقلتني من عالم الغيب إلى الشهادة؟».

كان عاجزًا عن الإجابة، وهو مأخوذ بسكر من دون خمر، نحو شيء جعل بينه وبين «جميلة» حجابًا في هذه اللحظة، كان في حضنها، الذي تمنى كثيرًا أن يقر فيه ولو ثانية واحدة، لكنه لا يفعل ما حلم بأن يفعله حين تمنحه هي هذه الفرصة التي تاق إليها طويلًا، وهو يتحايل كي تلين لكنها كانت تصده وتقول: «لا شيء قبل أن يعلم والداك بزواجنا ويباركاه»، وبعد أن غيَّب الموت أباه، قالت له:

- أمك تعيش فأبلغها وارجع إليَّ بقبولها.

هذه الليلة شعرت هي أنه ليس هذا الفتى الذي يروض رغبته وشهواته وأشواقه المحمومة حتى لا يغضبها، وكان يسعدها إقباله الشديد عليها ويشبعها تمنعها وهي الراغبة. الليلة تساقطت قطع الثلج الثقيلة على جسده الساخن وطمرته، فتحول إلى طفلٍ وديعٍ، بل إلى ما هو أهدأ بكثير، فالطفل تنتابه لحظات من الميل إلى الجنس الآخر، بحكم الطبيعة، يعمقها بمرور الأيام وهو يتقدم نحو فتوة الشباب، ليمارس دور «هو» في وجه «هي».

أما «سمحان» فتحول في هذه اللحظة إلى رجل منزوع من أي ميل إلى الأنثى، فتركها تطوقه وتدوس عليه وتجعل رأسه يحك صدرها الناهد، وأنفاسها الملتهبة تهب على شعره فاحم السواد وعنقه القمحي النحيل الذي يشبه كوز ذرة مشوي على نار هادئة، وهو ملقى على كتفها كالميت، وعيناه ذاهبتان إلى البعيد، وبهما استسلام ودعة.

«يجب أن أسترده الآن قبل أن يذهب مني إلى الأبد».

حدَّثت نفسها، وهي تستعيد ما عاشته في الدير مع الراهبات، وما سمعته عن الرهبان، الذين كانوا يجاهدون لقتل شهوات أجسادهم، ويُمعنون في بذل كل جهد مستطاع في سبيل أن تذوب الأجسام في حضرة الأرواح. هي خارت قواها في الطريق، وانتصرت الحاجة على الزهد، أو لم تنسَ حاجة الجسم في حضرة الروح، وكان هذا الشاب، الذي انزلق رأسه حتى استقرَّ على فخذها الآن، هو الذي فتح جسدها على نوافذ الرغبة المحمومة.



رفعت رأسه، ونظرت في عينيه وسألته:

- متى ستُبلغ أمك بزواجنا؟

واجه سؤالها بالصمت، إذ لم يكن قد خرج من الحال الجديدة التي آل إليها، وطال صمته فزاد قلقها، وضمَّته إليها بقوة، لكنها أبعدته حين وجدته قطعة من صخر، فنزلت إلى الأرض وجلست تحت قدميه، ونادته بعينين دامعتين:

- ما لك يا حبيبي؟

لم يرد، وأخذ جسده يرتعش، وحين أمسكت كتفيه اهتزت معه، لكن أسنانها لم تصطك كأسنانه، ولم تسرِ في عروقها تلك الدفقة التي أورثته هذا الغياب. هرعت إلى غرفة النوم، وخطفت بطانية، ودسَّت جسده تحتها، لكن ارتعاشه لم ينقطع. جرت إلى المطبخ وأتت بـ«وابور الجاز»، وأشعلته وقرَّبته من الكنبة، فصنعت أزاهير اللهب دفئًا وسكينة، لكن الارتعاش لم يذهب.

جرت إلى دولاب الملابس وجاءت بالإنجيل، وجلست تحت قدميه، وجذبت طرحتها فوق رأسها، وراحت تقرأ في تبتلٍ آيات من سفري «المزامير» و«الحكمة» علموها في الدير أنها تزيح الخوف والقلق، وتجلب السكينة والراحة:

«عنايتك أيها الآب هي التي تدبره؛ لأنك أنت الذي فتحت في البحر طريقًا، وفي الأمواج مسلكًا آمِنًا، وبيَّنت أنك قادرٌ أن تُخَلِّصَ مِنْ كل خطر»..

«الرَّبُّ يَحْفَظُكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ. يَحْفَظُ نَفْسَكَ. الرَّبُّ يَحْفَظُ خُرُوجَكَ وَدُخُولَكَ مِنَ الآنَ وَإِلَى الدَّهْرِ»..

كانت تقلب الصفحات وهي تبكي، ودموعها تتساقط على الورق، ووجهها ازداد احمرارًا من الدفء والخشوع معًا، وعيناها تتابعانه في قلق ورجاء. وبعد أن انتهت من القراءة مدّت أصابعها إلى شعره، وغمستها فيه ومرّرتها بهدوءٍ وحنانٍ، ثم مالت على جبينه وقبّلته، وتركت بعض رحيقها على جلده، وهو لاهٍ عنها.

ومرت ساعة وهو على حاله هذا، وإن كانت رعشته قد خفّت قليلًا، فقامت إلى الحمّام وملأت كوزًا من الماء، وجاءت بطست فارغ، وسألته:

- هل لا تزال على وضوء العشاء؟

هز رأسه خفيفًا بالإيجاب، فمدت ذراعيها وعدلته، وقالت:

- إن أردت أن تتوضأ فها هو الماء، ومصحفك في جيبك فاقرأ منه ما يزيد اطمئنانك.

مرر الماء على يديه ووجهه، ومسح رأسه، وغسلت هي له قدميه، وأمسك المصحف بيديه، وراح يقلب ويقرأ آيات من سور «الفتح» و«يونس» و«الرعد» و«الشرح» و«الفلق» و«قريش».

كان صوته قد ازداد عذوبة وهو يتلو، وكما دمعت هي دمع هو، وتقاطر خشوعه على الورق، وبلل كفيه، ومعه أخذ الارتعاش يخف، لكنه لم ينتهِ.



ودقت صاحبة البيت الباب، فقامت إليها «جميلة»، فتحته واستغاثت بها: «الحقيني يا ست كوثر»، ولم يكن بمقدور المرأة أن تهرول، إنما اكتفت بهز جسدها أكثر لعله يمنحها خطوات أسرع، حتى وصلت إلى «الكنبة» فوجدت «سمحان» ممددًا عليها وهو متدثر بغطاء ثقيل رغم دفء المكان، وروعة الطقس الربيعي في الخارج.

«زوجك محموم»، هكذا جزمت المرأة العجوز، واقترحت أن يُنقل إلى مستشفى الحميات، حاثّة «جميلة» على أن تسارع في هذه الخطوة:

- المستشفى قريب من هنا.

لكن «سمحان» رفع سبابته رافضًا، وحرّك شفتيه بصعوبة:

- أنا بخير.

وطلب كوبًا من الماء البارد، وشربه حتى آخره، وتساقط عنه الارتجاف تباعًا، فرفع البطانية، وجلس مكانه، وتثاءبت العجوز فطلبت منها «جميلة» أن تذهب لتنام، ففعلت. وتابعت هي تحسّن حال «سمحان» وإن كان ذهنه ظلّ شاردًا، ووجهه لم يزايله الاصفرار، كما لم يذهب عنه الزهد في «جميلة» باعتبارها من ملذات الدنيا، التي آن الأوان أن يفارقها إلى غير رجعة.

ولهذا حين استرد وعيه بعد ساعة، وعاد إلى الصحو، سألها على الفور:

- هل متاح لكِ أن تعودي إلى الدير؟

ضربت صدرها من الفزع وامتقع لونها، وردَّت عليه بصوتٍ لا يخلو من حدة:

– لا أعرف أن الإبحار في الدين يورث صاحبه النذالة.

ابتلع الإهانـة، وشـعرت هـي أنهـا جرحتـه، فحاولـت أن تلطِّف الأجواء:

– سمعت كثيرًا شيوخًا يقولون: «لا رهبانية في الإسلام».

وقبل أن يرد عليها طُرق الباب من جديد.

نظـرت «جميلة» إلـى الخارج، وتمتمت: «السـت كوثر قلقة وعادت لتـراك»، لكـن حين فتحت البـاب وجـدت أمامها صاحـب الوجه الذي طالمـا وصفه زوجها. كان «عبد العاطي»، دخل بخطوات وئيدة، وعيناه علـى الكنبـة، حتى اسـتقر إلى جانـب «سـمحان». تمتم في سـرِّه بكلام كثيـر، ثم مدَّ يده ووضعها على رأس الـذي كان يرتعش فثبت، وراح عنه الاصفرار، وشعر بقوة جبارة تسري في أوصاله.

اعتدل «سـمحان» في جلسته، حتى اسـتقام ظهره، ولمح بطرف عينه ابتسامة على وجه «عبد العاطي» فأدار عنقه إليه، وسأله:

– لِمَ تبتسم؟

– مأمورون بالابتسـام في السـراء والضراء، وليس أمامنا من سبيل سوى الرضا بالقضاء، فعلامَ نحزن، ولِمَ نبتئس؟



رد «عبد العاطي» ثم صمت.

لكن «سمحان» الذي كان قد خرج مما هو فيه واستيقظت كل حواسه، رأى أن هذا الرد لا يعبر عما فهمه هو من ابتسامة الرجل، فقال له:

– لم تقل لي حين كنَّا معًا في المسجد أنك ستأتي إلى بيتي.

لم تفارقه الابتسامة:

– كنت أنتظر أن تسألني سؤالًا آخر: كيف عرفت بيتي؟

ضرب «سمحان» جبهته بيده:

– فاتتني هذه.

وتذكـر أنه لم يقل لـه أين يقطن، ولا هو طلب، لكـن فطنته منعته من السـؤال حتى بعـد أن نبهه الرجل، فمثل هذا لا يسـأله أحد، وكان ما يهم «سمحان» في هذه اللحظة هو أن يعرف سر ابتسامة «عبد العاطي»، ودار بخلـده أن الرجل يعـرف ما كان يجري في هذه الشـقة الضيقة قبل قليل. وتأكد لديه هذا حين أشار الرجل إلى «جميلة» وقال:

– أشرب الشاي بلا سكر.

دخلت إلى المطبخ وانفرد هو بـ «سمحان»، وقال له:

– حب الناس هو المحطة الأولى في طريق حب الله.. وحب النسـاء من صفات كمال البشر.

لم يرد «سمحان» وانتظر المزيد، فلم يبخل الرجل عليه:

- المرأة يجتمع فيها كل جمال الكون، وهي عندنا معبر للتسامي، ولمسها في الحلال يراه الناس العاديون طريقًا لحفظ النسل ويحبونه لذاته، وهذا لا مشكلة فيه، لكن من بين شيوخنا الكبار مَن رأى أن معاشرة النساء، طريق للفناء في ذات الله.

وصمت قليلًا، ثم قال:

- قرأت ذات يوم ما شهد به «ابن عربي»: «مَن عرف قدر النساء وسرهن لم يزهد في حبهن، بل من كمال العارف حبهن فإنه ميراث نبوي وحب إلهي». وهو الذي أنشد:

انتهى الحسن فيك أقصى مداه ما لوسع الإمكان مثلك أخرى

- هذا «ابن عربي»، وليس أنا.

- التشبه بالرجال فلاح.. ولا تستهن بما أنت عليه، وما ينتظرك أكثر.

- صدتني حين كانت الرغبة تأكلني، والآن ترغبني وفي نفسي صد.

- لا يجب أن يكون هناك صدٌّ بين زوجٍ وزوجته، فما بالك لو كانا متحابين مثلكما.

- شيء في نفسي يخمد رغبتي.

- وهل في نفسك ما هو أسمى من أنفس الأنبياء والأولياء، تزوجوا هم وأنجبوا ذراري وحفظوا نسلهم.

وساد بينهما صمت، وتاه «سمحان» في حاله، بينما أخذ صوت «عبد العاطي» يرتفع شيئًا فشيئًا: «اعلم أن الفقد والوجد يتعاقبان علينا



تعاقب الليل والنهار، ومدار هذا الأمر على أربعة: كن شاكرًا لأنعم الله إذا وجدت، وراضيًا عن الله إذا فقدت، وباذلًا للفضل إذا رزقت، وأسلم وجهك إلى الله في كل أمر قصدت، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله، ولا تكن عابدًا مكابدًا، ولا زاهدًا معاندًا، ولا عاصيًا متمردًا، ولا مفتريًا جاحدًا، فإن حظيت بالأربع الأول فقد حظيت بثناء الله تعالى».

وراق الكلام لـ«سمحان» وسأل عن صاحبه فأجابه «عبد العاطي»:

- كلام سيدي «أبي الحسن الشاذلي»، وهو يقول لك بوضوح: لا تكن عابدًا مكابدًا ولا زاهدًا معاندًا، فامتثل، فهؤلاء سادتنا، الذين رسموا لنا الطريق.

هزَّ «سمحان» رأسه متضجرًا:

- لو كان أحدهم في مثل حالي ربما فعل ما أفعل، وما وصل إلينا عنهم هو أحسن ما فيهم، وربما أفعال وأقوال أخرى ليست على هذا النحو تم إخفاؤها.

كان كلامًا جديدًا على أذن «عبد العاطي»، فنفر منه، وقال:

- لا تجعل عقلك يغلب قلبك في مقام المحبة.. الكمال لله وحده، لكن لا تنسَ أن هؤلاء هم قدوتنا، وصلاح أمرنا بالسير خلفهم، وما كانوا عليه شهد له كثيرون، ولا يزال يذكر حتى الآن، وسيظل إلى قيام الساعة.. لا نقلدهم كالعميان، لكن نقتدي بهم على قدر الاستطاعة.

ومد يده إلى كوب الماء المستقر أمامه على بلاط الأرض، وسحب جرعات متتابعة، ثم وضعه مكانه وواصل حديثه:

- أنت تهرب مني في موضوع آخر، لم أقصد سوى تبيان أن ما أنت عليه ليس هو الطريق الذي سلكه الأنبياء والأولياء.. دعك من كل شيوخنا، ألم تقرأ في أي كتاب، أو تسمع في أي خطبة جمعة قول النبي للذين تشددوا مثلك: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»؟

ونادى بأعلى صوته على «جميلة» فجاءت تمشي على استحياء، اقتربت منهما، وأشار إليها أن تجلس فجلست، وهي ترقب وجهيهما، وفطنت إلى ما كان يدور بينهما، مما لم تسمعه، أما ما سمعته في هذه الشقة الضيقة التي تصد جدرانها أي همسات فيها فتعلو وتصير صخبًا، وكان الحديث يروق لها، وبلغ بها الامتنان مبلغًا عظيمًا، فدعت الرب في سرها كثيرًا أن يمن على «عبد العاطي» بالبركة والسلام والسكينة.

طالع وجهها الصبوح وسألها:

- هل تذكرين ما جاء في الإنجيل عمّا للزوج عند زوجته؟

أغمضت عينيها وراحت تتلو: «أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب. لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضًا رأس الكنيسة وهو مخلّص الجسد، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء



لرجالهن في كل شيء.. أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدسها، كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم. مَن يحب امرأته يحب نفسه. فإنه لم يبغض أحد جسده قط بل يقويه ويربيه كما الرب أيضًا للكنيسة. لأن أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه. من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدًا واحدًا. هذا السر عظيم ولكني أنا أقول نحو المسيح والكنيسة».

فلمّا انتهت، ابتسم وقال لها:

- اخضعي لما أمر به ربنا، ولا تكابري.

تدلى وجهها في خفرٍ، وتاهت على لسانها الحروف، ثم قالت بصوتٍ خفيض:

- خضعت يا عم، لكنه هو الذي يعاند.

انتفض «عبد العاطي» واقفًا، ومشى بهدوءٍ نحو الباب، فتحه وقال:

- سيكون كل شيءٍ على ما يرام.

وأغلق الباب، وكركب حذاؤه على سلم الحجر القديم، فتتابعت دقاته في رأسي «سمحان» و«جميلة» حتى خفتت تمامًا، فالتقمها في حضنه، واعتصرها على قدر اشتياقه إليها، وأصبح كل شيءٍ أعلى وأحلى مما يرام.

# 53

كان عليها أن تخلع سوار الفضة قبل أن يضاجعها، ذلك الحزام العريض ذو البريق الذي يختبئ خلفه صليب يدها. هكذا اقترحت على «سمحان» لتعفيه من فضول الناس، لكنها لم تُبدِ أي مرونة في ضرورة مكاشفة أهله بكل شيء. عرف أبوه والموت يرقص بين عينيه، أما أمه، فقد اكتفى «عبد العاطي» باختصار الطريق إليها، وهو يلحق الراهبة قبل أن يشرد منها خليلها وحليلها إلى الأبد. وعاد إليها، وأخذ معها نصيبه من الدنيا.

واستقرت حياته على نحو طيب في الشهور التي أعقبت الزواج، ووجد فرصة في الطريق أن يفاتح أمه بعد أن انتفخ بطن «جميلة»، ووعدها أن يسمي ابنه: «عبد الباطن» على اسم أبيه. وحين عاتبته قال لها:

- لم أقترب منها حتى أمرني رجل صالح له كرامات بأن أفعل، وأخبرني بأنك سترضين.

واهتز جسدها لسماع كلمة «كرامات»، وابتسمت قائلة:



- لم يصادفني أحد في الدنيا له اسم أبيك.. جدتك سمته هذا الاسم الغريب حتى يعيش.. الناس تفعل هذا دومًا.

هزَّ رأسه وشاركها الابتسام:

- الناس لها الظاهر، أما الباطن فلا يعلمه إلا الله، ومَن وهبهم العلم به.. فلتكن مشيئته، ولنصل انقطاع الاسم، ولا ننشغل بأحد.

- فعلًا، أبوك مثلًا كان في الظاهر رجلًا خشن الطبع، لكنه في الباطن كان عطوفًا طيبًا، ولم ينم ليلة واحدة وهو يضمر شرًّا لأحد.

لم يرد عليها، وبدا عليه استغراب كلامها، فعاجلته:

- كان يقسو عليك حبًّا فيك.

زفر في ألمٍ وقال:

- أخرجني من المدرسة وضيَّع مستقبلي.

- أكله الندم على ما فعل، لكن وقتها لم يكن لديه خيار في أن يصحح خطأه، وكثيرًا ما خلَّاك راقدًا إلى جانب صندوق عمك تقرأ، وذهب إلى الغيط وحيدًا، في وقت كان في أشد الحاجة إليك.

- هو في دار الحق، ونحن في دار الباطل، وأنا سامحته على كل شيء.

- اسم على مسمى يا ولدي.

- طالع لك يا أمي.. أنتِ أيضًا متسامحة.

ووجدها فرصة ليؤكد ما يريد أن يحصل عليه منها، فتنحنح وواصل:

- وطبعًا مسامحة في أنني تزوجت دون علمك.

هزَّت رأسها وغالبت الدموع في مقلتيها، وردت:

- ما يسعدك يسعدني، وقلبي راضٍ عنك إلى يوم الدين.. وأحلى يوم في عمري هو الذي أرى فيه ابنك وألاعبه ليل نهار.

- ربنا يبارك لي في عمرك يا أعظم أم.

وآثر أن يؤجل إخبارها بدين زوجته حتى تلد، وقال في نفسه: «قد لا تعذر، ولا لوم عليها، فنفسها لا تخلو من تعصب صنعه ما توارثه الناس من فهم سقيم للدين، ورسخته أيام الفتن». وتذكر في هذه اللحظة ما جرى قبل سنوات قليلة، حين تشاجر رجل مسلم من «جبل الطير» مع آخر مسيحي من «دير العذراء»، ونادى كل منهما أهل دينه، فخرج الفلاحون بالشوم والفؤوس وأفرد الخرطوش والبنادق القديمة، وفرقع رصاص، وارتفعت عصي وهبطت على رؤوس، وشجت سنون الفؤوس والمدى الثلمة والمناجل أذرعًا وأكتافًا وبطونًا، ورميت أحجار فمرقت واصطدمت بلحم سخين، وسال دم على الرمل والتراب، وزعقت النساء على أسطح البيوت وخلف الرجال الغارقين في الشجار، وجاءت الشرطة فحالت بين الفريقين، وقبضت على أناس من هنا وهناك، واستقبل المستشفى الأميري جرحى، وستر الله أن طاش التصويب،



فطابت الجروح، وخرج المتعاركون بلا قتلى، فلم يجد الحكماء صعوبة في أن يتنادوا لتجاوز ما جرى، فكان الصلح، لكنه لم يفلح في الإجهاز على كل ما في النفوس تمامًا، أو يئد الحكايات الكريهة التي وصلت إلى ألسنة الأطفال، لاسيما مع تجدد الاحتقانات والاشتباكات في بلدات أخرى مجاورة بين حين وآخر.

لهذا لم يكن من الحكمة أن يرمي أذن أمه بخبر مزدوج: الزواج، وكون الزوجة مسيحية، خاصة بعد أن رضيت «جميلة» له أن يقضي منها وطره، ويغرس في رحمها بذرة نسله المنتظر.

لكن المشكلة التي تم حلها أو تأجيل حسمها هنا، سرعان ما ظهرت في مكان آخر، وبصورة ضارية، لم ترحم «سمحان» في كل أيامه المقبلة، منذ أن امتد خبر زواجه بسيدة مسيحية إلى عيني صاحبة البيت، وحتى اللحظة التي فتح فيها النافذة فلم يجد الجبل مكانه.

وهو أمام أمه فرحًا برضاها لم يكن كل هذا يدور بخلده، إذ كان مشغولًا فقط بالكراسة التي تركها له «عبد العاطي» في «طهنا الجبل»، فبحث عنها في صندوق عمه «رشيد» ووجدها راقدة بين كتابين، فالتقطها وعاد بها إلى بندر «المنيا».

# 54

ذات يوم طرقت صاحبة البيت باب شقة «سمحان» وكانت «جميلة» في الحمَّام تغرف من «بستلة» مملوءة بالماء الساخن، وتصب على جسمها الأبيض الممشوق الناعم، مستسلمة للدفء والسكينة. كانت قد تجردت من حليها البسيط، بما فيه سوار الفضة، فلما سمعت الطرقات المتلاحقة، واربت باب الحمام، وأجابت: «مَن؟»، فجاء صوت العجوز المبحوح معلنًا عن قدومها بلا موعد، كما اعتادت:

- أنا كوثر.

لفَّت جسمها بفوطة طويلة عريضة، وخرجت إليها، فتحت الباب مرحبة بها، ودعتها لتدخل، ثم هرعت إلى الحمام فارتدت جلبابًا فضفاضًا، وجاءت لتجلس في مواجهتها. سعلت العجوز بحدة، فمدت «جميلة» يدها إلى دورق الماء وصبَّت لها على عجل، وفردت ساعدها لتناوله لها، عندها حطَّت عينا المرأة على الصليب الأزرق الموشوم في معصمها، وقبل أن تأخذ الماء، كفَّت عن السعال، وسألتها بحروف متقطعة:

- أأنتِ مسيحية؟



بُهتت «جميلة» من السؤال، وتابعت ناظري العجوز فحط بصرها على صليبها، ولاذت بصمت، وهي تداري وجيب قلبها. وباغتتها المرأة بالسؤال الثاني:

- هل «سمحان» مسيحي؟

هزت رأسها نافية:

- مسلم.

كانت المرة الأولى التي تمر فيها العجوز بهذه الحالة، ولم يكن لديها ذلك الرصيد الذي ألقاه شيخ الجامع ذات يوم في أذني «سمحان» وهو يجيبه عن سؤاله الكبير في حياته كلها، لذا سرى في ملامحها عجب، لكن «جميلة» استوعبتها:

- في شريعتكم يجوز للمسلم أن يتزوج مسيحية.. والنبي محمد تزوج «مارية» القبطية.

- أنا تفاجأت فقط، لا مشكلة عندي في هذا، فقد كان لنا جيران منكم دامت بيننا عشرة طيبة سنين طويلة.. كان هذا قبل أن يتغير الزمن، ويظهر في حياتنا ما يعكر الصفو.

- الزمن لا يتغير، الأيام والشهور والسنين، كما هي، لا تزيد ولا تنقص، إنما تتغير الأحوال ومعها تتغير النفوس فتظهر الآراء المريضة.

وفعلًا لم يكن لدى صاحبة البيت مشكلة، إذ لم تغير معاملتها لـ«جميلة»، وداومت على طرق باب شقتها، والجلوس معها، للسمر

والتسرية والطعام والشراب. لكن المشكلة بدأت حين سألت السمسار بعد ثلاثة أيام:

- هل كنت تعلم أن زوجة «سمحان» نصرانية؟

والسمسار الذي يجلس على المقهى ساعات طويلة لم يحفظ السر، ثرثر ما وسعه مع الرائح والغادي، وكان كلما مرَّ «سمحان» من أمامه في ذهابه وإيابه، يشير بطرف خفي إليه ويقول لهم: «هذا هو الشاب الذي كلمتكم عنه».

وبينما كان خبره يسري من غرزة إلى مقهى، ومن حانوت إلى شادر، ومن حارة إلى شارع، انغمس «سمحان» في العمل والعبادة حتى ناصيته. ما إن يؤذن الفجر حتى يستيقظ، يصلي، ويتناول إفطاره ويحتسي بعده كوبًا من الشاي الأسود، ويدب في الشوارع حتى يصل إلى المصلحة. عند الثانية ظهرًا يخرج في صمت، ويقطع الطريق نفسه إيابًا، ليتناول غداءه، وينام ساعتين، ثم يهبط ليصلي المغرب والعشاء في مسجد «الفولي»، ويجلس إلى «عبد العاطي»، أو في مكتبة الجامع يُنقِّل بصره بين سطور الكتب.

حين عاد ذات يوم إلى شقته عند الظهر، فوجئ بـ «جميلة» تقول له:

- كأنني عجب في هذا البلد.

نظر في عينيها طويلًا، وسألها:

- لِمَ تقولين هذا؟



- أشعر أن كل العيون تتابعني في الذهاب إلى السوق والإياب، وأرى أصابع تشير إليَّ، فترتفع وجوه على أعناقها وتمسح جسدي المستور من أسفله إلى أعلاه.

أقلقه كلامها، لكنه حاول أن يطمئنها، قائلًا:

- ربما لأنكِ غريبة على المكان.

لكنها صارحته بما جرى بينها وبين صاحبة البيت، ولم يكن قد أحاط به خبرًا، ففهم كل شيء، إلا أنه استمر في محاولة طمأنتها:

- لا تشغلي بالك، ولا يجب أن نهتم بكلام الناس.

ابتسمت وهزت رأسها وهي تجذب شفتيها المزمومتين إلى الخلف ممتعضة:

- يبدو أنك نسيت سريعًا.. قد لا يهمك أنت، لكن إن تناثر الخبر ووصل إلى الكنيسة هنا، سيستقصون عني، فإن عرفوا مَن أنا، قد لا يمر الأمر بسلام.

أغضبه كلامها:

- «هيَّ البلد سايبة»، فيه حكومة، وضبط وربط.

لوت شفتيها في امتعاض وردت:

- كانت الحكومة موجودة أيضًا وقت أن جاءتنا ثلاث سيدات إلى الدير، خطفهن أهلهن من أزواجهن المسلمين، وكان هذا حلًا جيدًا بدلًا من قتلهن.

لكن السهم هذه المرة جاء سريعًا من الجهة الأخرى، التي لم يحسب «سمحان» حسابها أبدًا. كانت تزخر حوله بحركة دءُوبة، وتسبح فيها أفكار تأكل الرؤوس، إلا أنه كان يمضي غير حاسس بما تلقيه من أعباء ثقيلة على حياة الناس، وإن شعر بها من بعيد، فلا يعبأ، ويتجاهلها كأنها تجري في كوكب آخر. كان مكتفيًا بما لديه، ما رآه وما ينتظر أن يراه أو يتوقع أن يمر به في ليالٍ جديدة حافلة بالغرائب. إلا أن هذا الابتعاد لم يدُم طويلًا، فقد جاءه الشر الذي تحاشاه حتى باب داره.

كان يوم جمعة، صلى في مسجد «الفولى» كعادته، ومرَّ في طريقه إلى البيت بالمخبز فاشترى أرغفة ساخنة، ثم بالسوق فاشترى حزمًا من الجرجير والكرات والبقدونس ونصف كيلو من الطماطم، حتى يجلس في هدوء يجهز السلطة، فاتحًا أنفه لروائح الطبيخ التي تنبعث من أوانٍ تقف «جميلة» إلى جانبها في يقظة.

ما إن وضع ما اشتراه على الطاولة المتآكلة جنباتها حتى طُرق الباب فقام وهو يظن أنها العجوز، لكنه فوجئ برجل فارق الأربعين، تطل عيناه الضيقتان وأنفه الأفطس من بين تهاويم لحيته الكثة غير المشذبة، ويسكن ملامحه تجهم مستديم، يحاول أن يكسره بابتسامات باهتة، سرعان ما تذوب في الهواء، ولا تبعث في قلب مَن يراها أي قدرٍ من الطمأنينة، على النقيض مما يتوهم هو.

مدَّ يده وأخذ يد «سمحان» وداس عليها، ثم جذبه والتقمه في صدره وضغط بقوة، وهو يقول:



- أريدك في أمر مهم يا أخ «سمحان».

أفسح له الطريق، فدخل إلى الصالة، وجلس على الأريكة، وبعث عينيه تجوسان المكان، وكأنه قد جاء ليبحث عن شيءٍ يعرفه. ودون مقدمات، قال:

- سمعنا أن زوجتك نصرانية.

نظر إليه بارتياب وسأله مستنكرًا:

- سمعتم.. مَن أنتم؟

ابتسم في خبثٍ وأجابه:

- لم أشأ أن أرسل في طلبك، وآثرت أن أجيئك بنفسي، ولو كنت تعرف مَن أنا ما سألت.

استعان بجزءٍ من مخزون الصبر الهائل الثاوي في قرار نفسه، وجاراه ليعرف مداه:

- لا تؤاخذني، مَن لا يعرفك يجهلك.

خطف ابتسامة تمددت لها وجنتاه سريعًا ثم عادتا إلى حالتهما، كبروزين يتمددان بمحاذاة اللحية، وقال:

- أنا الأمير.

لم يفهم «سمحان» للوهلة الأولى، فهو يعرف أن زمن الأمراء في مصر قد انتهى بسقوط الملكية، لكنه فوجئ بالرجل الجالس أمامه، يسأله:

- ألم تسمع عن «الجماعة الإسلامية»؟

كانت وقتها على أول الطريق، ولم يكن صيتها قد ذاع، ولا خبرها وصل إلى جموع الناس كما جرى بعد هذا. لكن «سمحان» كان قد سمع بهذا التنظيم، دون أن يجمع في ذهنه أي تفاصيل عنه؛ لأن التفاصيل التي تناسلت فيما بعد كما يتكاثر البق، لم تكن قد ظهرت إلى الوجود، ولم يكن أهل الريف قد وجدوا إليها أي سبيل، ولا اعتنوا بأن يعرفوا شيئًا عن هؤلاء الشباب ذوي الجلابيب البيضاء واللحى الطويلة والوجوه العابسة.

- سمعت القليل.

هكذا رد «سمحان» في تحفظ، فوجد مَن أمامه يقهقه في صخب:

- ستسمع الكثير من الآن فصاعدًا.

وللمرة الثانية لم يُضع وقتًا وذهب مباشرة إلى ما يريد:

- عرفنا أنك مداوم على الصلاة، ولذا جئت لأنبئك بفريضة عليك وهي دعوة زوجتك إلى الإسلام، فإن اهتدت فهو خير لك من حمر الأنعام.

لاذ «سمحان» بالصمت، وغرف حفنات أخرى من بئر صبره، لكنه لم يُطق أن يقول له الرجل:

- إذا ركنت أنت إلى دعة، وتغاضيت عن الكفر، سنكون مضطرين إلى أن نرسل لك من بيننا مَن يجلس إليها ويهديها.



انتفض واقفًا، وصرخ في وجهه:

- كُفر؟! من أين أتيتم بهذا الكلام الذي لا يوافق ما يقوله القرآن، ولا ما فعله الأولون؟

غضب ذو اللحية الطويلة، وملأ شدقيه بسؤال:

- هل لمثلك أن يسأل الأمير عن أمرٍ في الشرع؟

مشى «سمحان» نحو الباب وفتحه وهو يقول:

- لست أنت فوق السؤال، ولست أنا بلا إجابات.

امتلأت عيناه بالشر وعضَّ على الحروف الخارجة غضبًا من بين أسنانه:

- أتطردني؟

- بل لا أريد أن يزيد الأمر بيننا حدة إلى ما لا تحمد عقباه؟

لم يرد، وقطع الخطوات المطلوبة ليصل إلى الباب، وخرج في تمهل، ثم استدار ونظر إلى «سمحان» وضحك في تشنج، وقال:

- لك عندنا اثنتان أخريان، لننهيك عن منكر، ونأمرك بمعروف، فإن لم تستجب فيهما، سنغير كل شيء باليد.

وهو يطرقع حذاءه السميك على السلالم القديمة، جاءه صوت «سمحان»:

- أعلى ما في خيلك اركبه.

لكـن الأمـر لم يكـن بحاجة إلى خيـل، ففي اليـوم التالي جـاءه على دراجة شخص آخر ذو لحية، ركنها تحت البيت، وطرق الباب، فلما فتح له، قال على الفور:

- جئت طائعًا للأمير كي أعيد عليك ما سبق له أن طلبه منك، وأمنحك فرصة جديدة.

ورمى بصره إلى داخل الصالة، وواصل كلامه:

- لا حاجة لي بمجالستك، والخوض في حديثٍ معك، فبعد كلام الأمير ليس لديَّ ما أقوله.

وأدار ظهره له وانصرف.

ومكـث «سـمحان» فـي البيت محزونًـا، وهو يـداري عـن «جميلة» مـا طُلـب منـه، وتملكه شـعور بأن الأقـدار ستجعله يقضي حياتـه كلها مطـاردًا مـن بلد إلى آخر. ففي كل مـكان، هناك متربصـون ومغرضون، تختلف أسـبابهم لكن فعلهـم واحد. حتى في مكان عملـه الجديد تُلقى أمامـه منغصات كل يـوم، ويقابلها بصبـر جميل، متعاليًا عـن الوقوع في الصغائر.



# 55

أتـى «عبـد العاطي» ليلًا وعلى وجهه انزعـاج، طرق الباب، وقبل أن يجلس، قال لـ «سمحان» في عتاب:

- مثلك لا يجب أن يمنعه شـيء عن الصـلاة، والحضرة التي أعقبتها في المسجد كان لك فيها مكان، وغيابك لا يبرره شيء.

نظر في عينيه وقال بانكسار:

- إنه سبب قاهر يا شيخ.

ابتسم، ونظر إلى السقف وهو يقول:

- الله وحده هو القاهر فوق عباده، ومَن يتوكل عليه لا يخشى أحدًا.

وبـان مـن كلامـه أن كل شـيء قـد وصله بلا وسـائل ممـدودة، فبنى «سمحان» على هذا، وواصل كلامه:

- إنهم غلاظ قساة لا يرحمون، وأنا في هذا المكان وحيد وغريب.

طوح يده وكأنه يهش الكلام الذي سمعه وردَّ عليه:

- بل هم في وحدة وغربة رغم أنهم يتكاثرون كالجراد.

ساد صمت فسمع «عبد العاطي» دقات قلب «سمحان»، الذي أشركه في همِّه قائلًا:

- حتى لـو نجونا من هؤلاء، فإنَّ ما يفعلونه سيجعل خبر «جميلة» يصل إلى الكنيسة وأهل دينها، ولن يفهموا ما فعلته، ولن يرحموها.

حكَّ «عبد العاطي» ذقنه، وقدم تفسيره لما يجري:

- هـم يريـدون أن يصنعوا ضجة عارمة بحكاية إسلام «جميلة»، تجذب إليهم مزيدًا من الشباب، خاصة المتعصبين.. لقد فعلوا هذا من قبل، وسمعت بأذنيَّ، ورأيت بعينيَّ، تلك الزفة التي جابت شوارع وحواري أحياء «طه السبع» و«المنصورة» و«الحبشي» ووصلت حتى «ماقوسة» لفتاة صغيرة قالوا إنها كانت مسيحية وهداها أمير الجماعة للإسلام.. هـم يريدون أن يأخذوا «جميلة» في هذا الطريق، وسيتمسكون بالأمر أكثر إن علمـوا أنهـا كانت ذات يوم تسعى إلى أن تصير راهبة، وقد يفكرون في خطفها وإجبارها على أن تبدو وقد امتثلت لهم، ويشيعون هذا في المدينة.

وصمت برهة وواصل:

- البنت التي أعلنوا أنها قد أسلمت، وزفوها في الشوارع، زوَّجها أميرهم لواحدٍ منهم.

- أوغـاد، ولديهم تبرير عجيب لكل شـيء، وكأن اللـه لم يخلق غيرهم، وأعطاهم إذنًا مفتوحًا بأن يتصرفوا مع الناس كيفما شاءوا.



- ...هم.. سيزهون قليلًا، وسيذهبون كما جاءوا.

- لا قليلًا ولا كثيرًا، في البلد حكومة.

ابتسم «عبد العاطي»، وقال:

- هـم الآن ظهيـر للحكومـة، نشـأوا وترعرعـوا في حجرها، وشـكاوى الناس ضدهم تُمزَّق في مركز الشـرطة، ومَن يُقبض عليه منهم سرعان ما يُفرج عنه، ويعود لينتقم ممَّن تجرأ وشكاه.

وضرب كفًّا بكفٍّ، ولوى شفتيه ممتعضًا:

- بعـض النـاس يلجئون إليهم ليقضـوا فيما بينهم، وكأن البلد لا شـرطة فيهـا ولا قضـاء. أنت جديد على هذه المدينة، ولـو كنت رأيت الرجل الذي ربطوه إلى سارية بالسوق، وقطعوا يديه ورجليه من خلاف؛ لأنه كان يفـرض إتـاوات على بائعـات ريفيات، لفهمت مَن هـؤلاء، وماذا يريدون؟ بائعة ذهبت إلى أمير الجماعة ولم تذهب إلى مأمور القسـم، والأول حكـم في نصـف دقيقة، وأمر أتباعه أن ينفـذوا حدَّ الحرابة في الرجل، ولم يُعطِه فرصة للدفاع عن نفسه، أو يُنصت إلى شهود.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، هؤلاء ليسوا بشرًا.

- بل هم صنف من البشـر، تُرِك لهم الحبل على الغارب، وتملكهم وهم بأن اللـه يقف إلى جانبهم، وأنهم فقط جماعـة المؤمنين، وما عداهم، إما جُهَّال أو كفَّار أو منافقون، فاستحلوا الدماء والأموال بلا حدود.

كانا يتحدثان بصوتٍ خفيضٍ حتى لا تسمعهما «جميلة» المنهمكة في إعداد الشاي، راضية بحياتها البسيطة الهانئة. وكان «سمحان» يختلس النظرات إليها، فيجدها لاهية بما في يديها، لا تدري شيئًا عما يدبر لها.

فحين سألته عن سبب زيارة الرجل ذي اللحية الطويلة، قال لها:

- يريدون مني أن أصلي في مسجدهم.

استغربت وسألته:

- أليست كلها بيوت الله؟

ردَّ عليها باختصار:

- يقولون إن مسجد الفولي به ضريح ولا تصح فيه الصلاة.

لم تعلق يومها على ما سمعت، ورأت أن الأمر برمته لا يستحق أن يتعب الرجل نفسه ويأتي إلى شقتهم ليخطف زوجها من مسجد إلى آخر.

وبرق حل في رأس «سمحان»:

- سأترك المكان وأستاجر سكنًا في حي آخر، وأترك لهم الجمل بما حمل.

قلَّب «عبد العاطي» في رأسه ما سمعه، وردَّ عليه بثقة:

- لهم عيون وأتباع في كل مكان، وسيصلون إليك بأسرع مما تتصور.



أطرق صامتًا لفترة غير قصيرة، ثم أشرق وجهه بابتسامة رائقة، لا تناسب ما فيه «سمحان» من كرب، وواصل كلامه:

- لا تُضع وقتك في البحث عن حلول خارجك، الحل داخلك، وعليك الصبر والثبات.

أما هم فقد أمهلوه ثلاثة أيام ثم أرسلوا رجلًا ثالثًا بالطلب نفسه. جاء ماشيًا في تمهل، ووقف عند الباب، وكرَّر على مسامعه الكلام الذي أطلقه لسان أميره، لكنه هذه المرة طلب من «سمحان» ردًّا يعود به، فقال له:

- بلِّغه أنني أتفهم ما يريد، ومعه فيما يذهب إليه، لكن الأمر يحتاج وقتًا، فالهداية لا تأتي غصبًا وعلى عجلٍ.

لكنه لم يكتفِ بهذا الكلام العام، المفتوح على زمنٍ غير محدد. سعى إلى أن يربط موعدًا، فاكتسى وجهه بغضبٍ، وقال وهو يشد على الحروف:

- لا تطوحنا، فمهلتك يجب أن تكون محددة، وما قلته لا يصلح أن أنقله إلى أميرنا.

- المشكلة أنني كنت قد وعدتها قبل الزواج ألا أجبرها على شيء، خصوصًا ما تطلبونه.

ضحك، وأخرج سواكًا من جيب جلبابه الأبيض، ودسَّه في فمه، وكأنه سيجلي به الكلام:

- إن لم تكن قادرًا، فنحن قادرون.

- هل يكفيكم شهر؟

- هذا وقت طويل.. لك أسبوع واحد من الآن.

وأدار ظهره، وانصرف، وترك «سمحان» تضيق عليه الأرض بما رحبت، وتغيم في عينيه معالم المكان، ويشعر أن قدميه غير قادرتين على حمله.

رمى جسده فوق الأريكة فأزّت، وكأنها تشاركه الهلع والضجر، ووصل صوت الارتطام والأزيز إلى أذني «جميلة» التي كانت جالسة أمام طست الغسيل تدعك ملابسه وملابسها، فنفضت يديها من الصابون وجاءت مسرعة. وقفت أمامه، ونظرت في عينيه، وسألته:

- ما الذي ضايقك إلى هذا الحد؟

لم يكن أمامه سوى التهرب من الإجابة، فنظر إلى المطبخ، وقال:

- أريد كوبًا من الشاي.

زاد تهربه من قلقها، فواجهته:

- أنت تخفي عني شيئًا؟

نظر طويلًا في عينيها، وأعطى نفسه فرصة ليفكر في الرد، ثم نطق:

- سأخبرك بكل شيء بعد عودتي من المسجد.



وأدخل قدميه في حذائه، وخرج دون أن ينتظر الشاي. مرَّ بشوارع وحارات، حتى خرج إلى شارع «الحبشي»، وانعطف يمينًا إلى الكورنيش إلى أن وصل جامع «الفولي» وهو غارق في همومه وظنونه، وعاجز عن إيجاد مخرج مما هو فيه.

وبعد الصلاة مثل بين يدي «عبد العاطي»، وقبل أن ينطق قال الرجل:

- الكذب صفة خسيسة قبيحة، وهو من باب النفاق، ويفضي إلى الفجور، والمؤمن يجب أن يكون صادقًا في القول والفعل، لا خبًّا ولا خداعًا.

ثم أنشد وهو مغمض العينين:

لا يكذب المرء إلا من مهانته ... أو عادة السوء أو من قلة الأدب

لعضُّ جيفة كلبٍ خير رائحة ... من كذبة المرء في جد وفي لعب

ارتعش «سمحان» لما سمع، واصفرَّ وجهه، وشعر أنه يصغر وينكمش حتى ظن أن جسده كله يمكن أن ينفذ من سَمِّ الخياط، بينما لحم وجهه يتساقط، ورائحة كل الجيف تزكم أنفه، وحجر ضخم انحشر في فمه، فلم يعد قادرًا على النطق.

وأُلقي في روعه وهو يسمع «عبد العاطي» يقرعه من جديد:

- قل الصدق ولا تخفْ، قله لخليلتك ومجافيك، ففي الصدق يتساوى أن نتحدث مع مَن يحبنا ومَن يبغضنا، قل ولا تخف، فالله خير حافظًا، قل فالصدق نجاة.. أنت تطلب السلام وهم يقرعون طبول الحرب،

تطلب السكينة وهم يزرعون الحيرة والقلق، وتسعى وراء المحبة وهم يوالون الكراهية والبغضاء.

ومدَّ يديه وأخذ بهما وجه «سمحان» ونظر في عينيه وقال:

- جاءتك اللحظة التي ترى فيها كل شيء فلا تضيعها بالهرب.

وتوافد المريدون على شيخهم «عبد العاطي»، بعد أن انتهوا من صلاتهم، وجلس بينهم يوزع عليهم ابتسامات مشرقة، ثم أخذوا جميعًا وفي وقت واحد يتلون آيات متفرقة من القرآن، وأدعية مرتبة، حفظوها عن ظهر قلب من كثرة ترديدها، ثم وقفوا معًا في صفين، وتصافحت الوجوه، وتطلعت العيون إلى المنشد، الواقف في صدر الحضرة إلى جانب الشيخ، فلم يخيب ظنهم، حين انطلق بصوت ندي:

ليل بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري

والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

أُغمضت العيون، وشُنفت الآذان، وتطوحت الرؤوس فوق الأعناق، بعدها ذهب الوعي، فأخذ بعضهم يرغي ويزبد حين أخذته الجلالة إلى أقصى مدى. ومرَّت ساعات لا يدرون عنها شيئًا، وكلَّت الأجساد لكن تعافت الأرواح. وكما بدأ «عبد العاطي» بضربة من كفيه، أنهى بضربة أخيرة، فسكت الإنشاد، وعادت الرؤوس تنتصب فوق الرقاب، وجفَّ الرغاء، ولم يبقَ منه شيء، وتفتحت العيون، ونظر كل منهم إلى مكان حذائه على «الجزَّامة» وداخلها، فلما أشار لهم الشيخ بالانصراف،



خرجوا من الباب، ليلفحهم هواء الكورنيش البارد، وتفرقوا يمنة ويسرة، ثم دخلوا شوارع عدة، كل إلى مخدعه.

كان «سمحان» آخر مَن خرج، تباطأ حتى يختلي بالشيخ، وكان له ما أراد، حين ناداه بعد الحضرة، وبادره قائلًا:

- لا تخف، الحل داخلك، وستنتصر عليهم، ولتكن ضربتك الأولى هي الصدق.

## 56

مـا إن عاد «سـمحان» إلى شـقته حتى أجـاب قبل أن تسـأله، وحكى لها كل شـيء، من الألف إلى الياء، وهي تتابعه مشـمئزة من هؤلاء الذين يريدون أن يشقوا الصدور، ويغرسوا فيها ما يريدون، ويقتحموا النفوس، ويسيطروا عليها.

لكنهـا، على أي حال، لم تكن متعجبة مما سـمعت، فقد رأت مثلهم في الجهة المقابلة، بعض شـباب كانوا يأتون إلى الدير، ونفوسـهم تغلي بالكـره، يحـاول الرهبان شـفاءها، وينجحون فـي زرع المحبة في قلوب بعضهم، ويفشلون مع آخرين، فيخرجون كما دخلوا، يرعى التعصب في ضمائرهم الخربة، ويتمنون لو أغمضوا عيونهم وفتحوها فلم يجدوا كل مَن يخالفونهم في الطائفة والدين يدبون على وجه الأرض.

هـي قـرأت أيضًا في كتـب التاريخ التـي وجدتها بمكتبة الدير أشـياء كثيرة عن الدماء التي سـالت أنهارًا، بينما يظن القتلة أنهم يعملون للرب. وطالما سألت نفسـها في صمت: «كم عدد الذين يستجيبون حقًّا لتعاليم يسوع الناصعة: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ،



وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ».

ووجـدت نفسـها تنظر إلى «سـمحان» بعـد أن أفاقت من شـرودها، وتردد في لهفة: «اللَّـهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ يَثْبُتْ فِي اللَّـهِ وَاللَّـهُ فِيهِ»، وهي تبكي وتقول: «لن أكرههم، لكن سـأطلب من الرب أن يجنبنا أذاهم، ويصرفهم عنَّا في سلام».

وتذكـر هو ما قاله الشـيخ «عبد العاطي»: «جاءتـك اللحظة التي ترى فيها كل شـيء فلا تضيعها بالهرب»، فربط جأشه، وتملكه شعور بأن يده فوق أيديهم، وإن كثروا.

وكرَّت الأيام كحبات المسبحة، وجاءوا بعد صلاة الجمعة، أميرهم في مطلعهم، وهم وراءه يسـدون الشارع، قاصدين البيت الذي يقطن فيه «سـمحان»، ولا يعنيهم أن يكون في أيديهم أي دليل من شـرع أو أخلاق علـى ما ينوون فعله، فكل ما رأوه هـو أن يصنعوا جلبة تزيد من أتباعهم، وربما هناك هدف خفي عشش في رأس الأمير حين وصف له أحد أتباعه «جميلـة» قائلًا: «سـمعت أنها آية في الحسـن.. لا مثيل لهـا في كل هذه المدينـة». وحمل آخر وصف السمسـار لها: «تقـول للقمر انزل لأجلس مكانـك». كانوا يصفونها، بينما الأمير يتلمظ وهو غارق في التفكير، نادم على ذهاب زمن السـبايا والجواري ومِلك اليمين.

حيـن وصلـوا إلـى البيت، طلـب الأمير من أحدهـم أن يصعـد إلى «سمحان»، وقال له:

– إذا وجدتـه قـد هداها، فلينـزل بها، ونزفهما معًا، وإن لـم يكن، فأخبره أن بعض أخواتنا ستصعدن لاصطحابها، وأخذها إلى بيتٍ آمن، حتى تسمع كلام الله وتهتدي.

كان النـاس قد تابعوهم وهـم قادمون في جمعهم الغزير، فوقفوا أمام المقاهـي وحيَّـوا الأميـر، والكارهون لهـم أداروا وجوههم إلـى الناحية الأخـرى أو دخلـوا ودسـوا أنفسـهم خلـف الجـدران، أمـا النسـوة فقد تابعـن مـا يجري من النوافذ، وسـمع بعضهـن ما كان الأميـر يطلبه. وبدا وكأن النـاس قـد تهيئـوا لهذه اللحظـة، بعد أن شـاع أمر ما سـيجري في الحـي، وثرثر به الجالسـون على المقاهي، والمتسـوقون من الحوانيت، والسـيدات الراجعات من السوق، ومعتادو المسجد الذي يؤم الأمير فيه الناس للصلاة.

وسـكن الخوف العيون، وبلغـت القلوب الحناجر، وأشـفق كثيرون علـى مَن قصـدوه. بعضهم كان يعـرف حكايته، وبعضهم اعتـاد أنه كلما رأى هـذا الركـب يقطـع الشـوارع وسـحب الغضب تخيـم علـى رؤوس الماشين فيه يتوقعون أن شيئًا سيئًا سيجري.

ورآهـم رجـل يجلس على المقهى يدخن في سـكون، فرفع الشيشـة بسرعة ودخل ليحتمي بالجدار، وهو يتمتم:

– تركتنا الحكومة لهم وانتهى الأمر.

ومسـح الحلاق بسـرعة ذقنًا نابتـة لرجلٍ في منتصـف العمر، وطلب منـه أن يبتعـد قليلًا عن كرسـي الحلاقة حتـى لا يهاجم المـارُّون دكانه،



أما حاسـرات الرؤوس من السيدات فقد دخلـن في خفة إلى الشـوارع والحـارات الجانبيـة، تتبعهـن هـؤلاء اللاتـي ترتدين جونـلات قصيرة. وأفسـح الرجال العابرون لهم الشـارع، فملئوه عـن آخره بجلابيب بيض لا تجد أي ريح تهدهدها.

ونفَّذ التابع ما أمر به الأمير، وهمَّ ليصعد السـلم الحجري حتى شـقة «سـمحان»، لكنَّ شـيئًا على باب البيت أمسـك قدميه فتوقف، ونظر إلى أسفل فلم يجد مَن يمسك به. دفع ساقه اليمنى إلى الأمام لكنه شعر بأنها تحولـت إلى كيسٍ ضخمٍ مملـوءٍ بالرمل، وحرَّك اليسـرى فوجدها على الحال ذاته. مدَّ يده ليسـتند إلى حاجز السـلم ويصعد، لكنَّ يده لم تصل، دفعهـا بـكل ما أُوتي من قـوة، إلا أنها تجمَّدت مكانهـا. نظر خلفه فوجد أصحابه ينظرون إليه باستغراب.

صرخ الأمير:

– لا تشفق عليه، واصعد ففي هذا خير له ولنا.

ورد واحد منهم يقف إلى جانبه:

– ليس إشفاقًا، لكن ربما يفكر بإمعانٍ فيما سيقوله للرجل.

عندها تدخل الأمير:

– هو يعرف ما سيقوله، ولا حاجة به للتفكير.

لكن مَن أراد الصعود التفت إلى الخلف وراح يصرخ:

- شُلَّت ساقي ويدي.

تراجع إلى الخلف فتحرك فيه كل شيء، ولم يكن هناك أي أثر لشلل، فاستغرب ما كان فيه، وقال في نفسه: «ربما شيء طارئ وذهب بلا رجعة»، وعاد إلى التقدم، وهو ينظر في عيني الأمير، لكن ما إن وصل إلى فوهة السلم حتى أصبحت ساقاه أثقل من جبلٍ، وكذلك يداه، فأيقن أنه لا مفر من الإحجام عن إتمام المهمة.

رماه الأمير بنظرةٍ قاسية، وأشار إلى واحدٍ غيره أن يتقدم ليقوم بالمهمة بدلًا منه، لكن الثاني لم يكن أحسن حالًا من الأول، وحدث هذا للثالث والرابع، ولعنهم الأمير جهرًا، ومشى هو مزهوًّا بقوته، لكنه توقف عند الباب، ولم يستطع أن يحرِّك حتى رموش عينيه، وشعر بثقلٍ في لسانه.

ورآه أتباعه على حاله هذا فمدوا إليه عصا طويلة ليمسك طرفها ويجذبوه، إلا أنه عجز عن القبض عليها. تشجَّع بعضهم وتقدموا إليه وحملوه خشبة مسندة، وتراجعوا إلى الخلف في سرعة، والأسى يقطر من عيونهم.

وقفوا حوله، وهو ساكن لا ينبس ببنت شفة، سألوه ولم يجب، رشوا فوق رأسه الماء البارد، ووسعوا دائرة حوله ليدخل الهواء إليه، فراح يسحب أنفاسًا عميقة، حتى استرد وعيه، ونطق أخيرًا:

- اذهبوا.



وكأنهم سجناء منذ سنين في أقبية ضيقة مظلمة أُفرج عنهم فجأة، تسابقوا في الخروج إلى براح الشارع وغابوا، وزغاريد النساء اللاتي أرسلن عيونهن من خلف النوافذ، تمطر فوق رؤوسهم، وتجرأت بعضهن ورمين طوبًا وحجارة صغيرة، وأخريات جرين إلى الداخل وحملن الفوط الملونة ولوَّحن بها.

ورأى «سمحان» كل شيء فراح يتمتم في هدوء:

- اللهم احفظنا من الأشرار، وأسل مددًا من عندك يقينا بأسهم.

وصار «سمحان» و«جميلة» حديث الحي كله، بل شاع الخبر في المدينة عند المساء كما تسري النار في الهشيم. وجاء ناس كثر وتجمعوا تحت البيت، فاضطرا إلى أن يخرجا إليهم، ويقولا معًا:

- لا حيلة لنا فيما حدث.

لكن الناس أبوا أن يقبلوا تواضعهما، وحكوا عن كرامات الشاب الطيب وزوجته الحسناء. وكان الأمر جللًا إلى درجة أن قريبه رئيس المصلحة استدعاه بعد أيام، وقال له:

- هل صحيح ما سمعت؟

طأطأ رأسه إلى الأمام وأسفل، وعيناه عند حذائه، كأنه ارتكب جُرمًا، فقال له الرجل:

- بقيت أيام على إحالتي إلى المعاش، وأخشى عليك كثيرًا في الأيام المقبلة.

وصدقت نبوءته، فالرئيس الجديد للمصلحة راح يلاينه، ويطلب منه كل يوم الدعاء، وأن يكتب أحجبة لابنته العانس، حتى يفك الله نحسها. وأهل الحي هرعوا إليه كل يوم بعيالٍ مرضى، وبناتٍ عوانس، ورجال عقماء، وسأله بعض الناس عن كنوز مطمورة تحت الأرض، ونفوس سكنها الجني، وقرائن غضبن على نساء فأورثوهن اكتئابًا وصراخًا دائمًا، وحاجات عند الحكومة لم تُقضَ رغم بيان الحق وطول الأمد، ووظائف تفادت مستحقين لها وذهبت إلى أصحاب الحظوة في بجاحةٍ منقطعة النظير.

وحين يكون هو في المصلحة أو المسجد، تصعد النسوة إلى «جميلة» وبعضهن يفتحن كفوفهن ويطلبن قراءتها، أو يلقين في حجرها أغطية الرأس: عصائب وحرادي وطُرح وقُنط، ويقلن:

- فيها عرقنا ونريد أن نعرف ما ينتظرنا وننتظره.

وكان رجال ونساء يفتحون الجيوب ويخرجون ما فيها ويعرضونه عليهما، وهما يصدان في إصرار وصرامة، ولا يفعلان شيئًا سوى الدعاء للجميع. أدعية عامة من القرآن والإنجيل والأثر من كلام الرهبان والمتصوفة والنُّساك والعبَّاد والزُّهاد. وكان طالبو الدعاء أو الكشف مسلمين ومسيحيين، رجالًا ونساءً، عواجيز وشبابًا.



# 57

لم يستسلم أتباع الأمير لما جرى لهم، فأشاعوا في الحي أن «سمحان» وزوجته ساحران عتيدان، وأن جيرانهم ضجوا من دخان البخور المنبعث من نافذة شقتهما، وأرسلوا لصاحبة البيت مهددينها بأن تطردهما، ودفعوا رشوة للسمسار وعامل النصبة في القهوة القريبة كي يملأ آذان الزبائن بهذا الكلام.

لكن كل هذا لم يمنع الناس من القدوم إليهما، تتملكهم الرغبة، ويحدوهم الأمل في أن يجدوا حلًّا ناجعًا لمشكلاتهم العويصة. ولذا ظل كثيرون منهم يتسللون تحت جناح الظلام إلى شقة «سمحان» وهم يتلفتون خلفهم خائفين.

ولمَّا وجد الملتحون أن شائعتهم لم تفِ بغرضها، أبلغوا الشرطة عن ساحرٍ وساحرةٍ يقطنان شقة ضيقة في حارة متعرجة، ويفعلان ما يؤذي الناس.

والأقسى من البلاغ هو اللجوء إلى اللعبة المحببة لديهم، والتي كانت نتائجها دومًا مذهلة. فقد خطب الأمير على منبر الجمعة غير مرة عن السحرة الفُجَّار الذين تنتظرهم جهنم وبئس المصير، ووزع أتباعه منشورًا

في كل شوارع وحواري وبيوت الحي، بدأوه بحديث منسوب للرسول: «مَن أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم». ثم كلام آخر يقوله «الحسن بن علي»: «الساحر ليس له دين»، ويقول «ابن عباس»: «ليس له نصيب من إيمان».

ثم طرحوا حجتهم فوق هذه المرويات، بعد أن دعموها بأقوال فقهاء ومفسرين: «كل هذا يدل على أن الذهاب إلى السحرة حرام، وأن الساحر كافر، ويجب أن يُستتاب وإلا قتل، وقد يُقتل مباشرة من دون استتابة»، ولم ينسوا أن يقدموا نصائح للناس: «عالجوا السحر بالإكثار من قراءة القرآن، والأدعية المشروعة، والرقية والتعوذات الشرعية، وكل ما ورد عن السلف الصالح في إجازة النشرة».

كتبوا هذا على الحوائط وصنعوا ضربتهم الجديدة بالطريقة ذاتها التي اعتادوها وأثمرت لهم منافع جمة.

وقال لهم أميرهم:

- ما إن تقع عيون الناس على كلام يبدأ بـ«قال الله، وقال الرسول، وقال الصحابة» حتى يخروا طائعين.

كان «سمحان» يعرف لعبتهم لكنه يدرك أن كشفها يحتاج إلى علماء مختصين، وليس أولئك البسطاء الذين يزحفون على بطونهم بعقول خاوية، وسأل نفسه:



- هل بوسع سكان حي «أبو هلال»: ربة منزل وفرّان أو نجار أو سباك أو حتى مدرس إلزامي ومهندس وطبيب لم يقرأوا في حياتهم أي كتاب خارج المقررات الدراسية البائسة، أن يجدوا ردًا على هذا التلاعب؟

وضرب «سمحان» جبهته وقال لنفسه في حرقة:

- إنه الفخ الذي وقع فيه مليارات المسلمين عبر تاريخ طويل، ولدوا ودبوا على هذه الأرض وقضوا نحبهم، وهم لا يدركون أنهم كانوا قشة ينفخ فيها المدلسون والكاذبون وتجار الدين ليل نهار، فتتراقص كبندول ساعة خربة وهشة، ولا تستقر على حال، ولا تتقدم إلى الأمام أبدًا.

وود لو وقف وراء النافذة وصرخ في العابرين:

- اخرجوا من هذه الحجرة دامسة الظلام التي حُبستم فيها كل هذا الزمن الطويل، فاعتدتم العتمة، وكلما برق أمامكم نور أغلقتم عيونكم الكليلة خوفًا من انخطاف البصر، مع أنكم لو تريثتم وتحملتم قليلًا سترون هذا النور أول الطريق الذي يأخذ أقدامكم التي تيبست من كثرة الوقوف في مكانٍ واحدٍ إلى الأمام بعد أن تجري فيها سوائل الحياة وطاقاتها المتجددة.

ثم سخر من نفسه:

- من يفهم كلامي هذا الذي أحفظه عن ظهر قلب بعد أن قرأته في كتاب نسيت الآن عنوانه.

«إن وجدتموهم قد أطرقوا مفكرين فيما تقولون أسرِعوا إلى الاستعانة بآية أو حديث، لتسندوا به ما أردتم أن تقنعوهم به، وتأخذوهم إليه».

هكذا قال أمير الجماعة لأتباعه وهو ينصحهم كيف يحشدون الناس، ويقطعون الطريق على خصومهم الذين يحشدون في الاتجاه المضاد.

يعرف «سمحان» أن هذه اللعبة وتلك الغرفة المظلمة وهذا الفخ هو الذي ساعد الأمير وأتباعه على أن يأسروا عقول الناس، ويقنعوهم بأسرع ما يكون، بأن الذين يتصدون للأمير وأتباعه، مارقون وفاسقون وخارجون عن الدين، ومَن يمشِ خلفهم، بل مَن يقف برهة لِيُنصت إليهم، فسيَصلى سعيرًا.

ولأنهم جربوها وجلبت لهم منافع جمة، فقد مدوها إلى أقصى حد، وبها أمسكوا كل شيء في أيديهم، وأعطوا أنفسهم حق الفصل في مصير الكل، ليس في الدنيا فحسب، بل في الآخره أيضًا. هذا سيفوز بالجنة ونعيمها، وهذا سيخلد في النار وجحيمها. هذا رجل صالح على حق، وهذا رجل طالح وعلى باطل، هذا يجب أن يُثاب، وهذا يمكن أن يُستتاب، أما ذلك فيقام عليه الحد، هذا حاكم مسلم وجبت طاعته، وهذا حاكم كافر وجب الخروج عليه وقتله.

وطالما رأى «سمحان» في المساجد التي صلى فيها مشهدًا متكررًا فتيقن من أن هؤلاء إذا قام أحد في وجههم وأراد أن يبين لهم أن ما يفعلونه لا يقره دين ولا عقل ولا أخلاق، تجهموا في وجهه، وأمطروه بآياتٍ قرآنية، وأحاديث نبوية، وآراء فقهية، ثم جروها إلى الحكم الذي أصدروه مسبقًا، أو الرأي الذي تعصبوا له، معتمدين على أن عوام الناس



سيكونون معهم حين يسمعون الآيات ويقولون: «هذا كلام ربنا ولا يمكننا مخالفته».

وكانوا قد فتشوا في ماضي «سمحان» فعرفوا أنه عمل خفير آثار فرعونية، فوجدوا في هذه المعلومة فرصة سانحة لإطلاق الشائعة: «جلس طويلًا إلى المساخيط وتعلّم السحر من كتب الفراعين».

وحين كان بعض الناس يُبدون اندهاشهم يردون عليهم في ثقة:

- اذهبوا إلى مصلحة الآثار واسألوا هناك ستجدون أنه موظف بها.

وهكذا أصبح «سمحان» و«زوجته» في نظر الناس ساحرين يتبعان خطوات الشيطان الرجيم، ولا بد لكل مؤمن من وقفة جادة، تعيد الشر إلى جبه الأسود، وتتركه محاصرًا مخسورًا إلى الأبد.

# 58

في الوقت الذي كان فيه كيد الأمير وأتباعه يسري، ويجذب إليه بعض ضعاف النفوس، والذين يعبدون الله على حرف، كان «سمحان» يواصل حياته في سكينة وسلام، غير عابئ بما يحاك له. يذهب إلى عمله صباحًا، ويعود بعد الظهر ليضع طعامًا في بطنه الفارغ، وينام قليلًا، ثم يستيقظ بعد العصر يحتسي الشاي، ويقرأ الكتب التي يستعيرها تباعًا من مكتبة المصلحة، ويذهب ليصلي المغرب والعشاء في مسجد «الفولي»، وإذا وجد حضرة ذكر مع الذاكرين.

وذات ليلة حين خرج من مسجد «الفولي» لم يجد الكورنيش، والتفت خلفه فلم يرَ المسجد نفسه الذي تركه قبل ثوانٍ. كان النهر منبسطًا، وعلى شاطئه الغربي فرش النجيل جسده واستراح، والموج يصنع ثبجه على مهل، فيصنع قطعًا بيضاء، تشاكس مثيلتها التي تدفعها النسائم في بطن السماء، وبينهما كان يمرق حمام أبيض يضرب الهواء بأجنحته فينفض رذاذ الماء الذي صنعته قزعة داكنة وسط أخواتها البيضاوات.

لم تكن هذه الأبنية الشاهقة قد ولدت بعد، ومكانها كان خلاء، وبعيدًا جدًّا تطل بيوت خفيضة من الحجر، أعلاها لا يزيد على ثلاثة



طوابق، وأناس يخرجون من فوهات شوارع غير تلك التي كان يمشي فيها قبل ساعات قليلة، يحملون المقاطف المملوءة بمختلف أنواع الخضراوات، ويسيرون إلى جانب عربات الكارو المحملة بالخضار والفاكهة، وتجرها حمير متعبة.

وظهر دوكار تجرُّه خيول مطهمة، يحاول أن يشق طريقه وسط الزحام، وكانت مراكب ضخمة تحمل الناس من الشرق إلى الغرب، وتعود بغيرهم في الاتجاه المضاد. قبل أن ترسو على الشاطئ تُلقي «الهلاب» الضخمة فتمزع الرمل والطين، وتدفن معها خصلة من نجيل، تسقط زهوتها. وتمد السقالات فينهض الناس ويمشون في حذر.

فجأة اختفت المراكب، كأنها أسماك طفت وغاصت إلى القاع البعيد. وظهر هناك بساط أخضر كأنه اقتُطع من أرض عفية مزروعة بالبرسيم.

- هل هي قطعة من جزيرة نحرها الماء، وحررها وأطلقها حسبما يسير الموج؟ أم شيء آخر؟

سأل «سمحان» نفسه وهو يقف مندهشًا.

حين اقتربت أيقن أنها ليست حشائش ولا برسيمًا أو قمحًا، إنما رداءٌ مفروشًا على الماء، يجلس فوقه رجل عجوز، على رأسه عمامة خضراء، تنيخ على وجه يستدير فوق لحية بيضاء، وقد رسم الزمن عليه تجاعيد متلاحقة بانتظام عجيب، وعينين متألقتين بنورٍ فياض، ينعكس على صفحة الماء الجاري، فيكاد يضيء، ويحط على ركبتيه يدين، في إصبعين منهما خاتما زمرد يذوبان في لوني العمامة والبساط.

اقترب الرجل الجالس فوق الماء على مهل، ونادى «سمحان» ومدّ يده اليمنى، فشمر جلبابه وخاض إليه حتى أمسك بأطراف أصابعه وشدَّه في لطفٍ، إلى أن رسا على الشط. لم يقدر على الوقوف، إذ البساط طار من فوق طين الشاطئ وحط على النجيل، وحين مال الرجل تدلى من صدره قرطاس رفرف مع النسيم، وبانت فيه سطور مكتوبة بخط أسود غليظ، تتناثر الحروف على الكلمات، وتتوزع على ثلاث حالات: استقامة، وميل إلى أسفل، وارتقاء إلى أعلى.

اصطادت السطور عيني «سمحان» ورآه الرجل مشدودًا إليها فابتسم وقال:

- لا تتعجل، فبعد أن تعرفني سأتلو على مسامعك ما في قرطاسي، أو أوجزه لك.

رفع «سمحان» رأسه، وهو يتنحنح، ويلملم ما تناثر من شعوره بالأسف، لكنه داوى كل شيء:

- حضورك يا عم طغى على كل الأسماء والأفعال.

ابتسم الرجل، ورفع إحدى إصبعيه فشعَّ الزمرد في ضوءٍ خافت أهدته الشمس الغاربة، وقال:

- لم تخلق الحيلة لمثلك، ولا حتى المجاملة.

دخل «سمحان» في نفسه، وعاد إلى الطريق الذي كان عليه أن يسلكه:



- مَن أنت يا سيدي؟

ضحك الرجل في صفاء وقال:

- أنا عبد فقير يا ولدي، ولست سيدًا لأحد.

ومدَّ يده وأمسك بكتفي «سمحان» حتى التقت العيون الأربع، ثم قال الرجل الذي كان يمشي على الماء:

- سأعلمك ما لا تعلمه، حتى يكتمل ما تعرف، ومن دون هذا فلا خير فيما حصلت مما وهبه الله لك، وما كسبته من سعيك.

- قل يا عم.

- سوء الظن بالله يورث فساد المعتقد، ويدعك قانطًا من رحمة ربك وقدرته التي ليس لها حدود، ولا تظن بكلمة سمعتها شرًّا، ولا تجد لها في الخير محملًا، ولا تعرض نفسك للتهم لتقع في الملامة. ومَن أساء الظن بقدرة الله لم يخفْ منه، ومَن لا يخشاه يصاب بالكبر، ولا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فيفسد أكثر مما يصلح، والمسيئ الغارق في الكبائر حتى أذنيه ممنوع من حسن الظن بمَن خلقه، ولذا لا يحسن قولًا ولا عملًا.

والكيِّس يا ولدي مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله، والمؤمن مَن وضع حسن الظن موضعه، والرجاء موضعه، والمغرور مَن وضعه في غير محله، فلا تدعْ أماني المغفرة تُلهكَ حتى تخرج من الدنيا بغير توبة، ولا تظن أنك

ستكون أعلم أهل زمانك بغير طلب للعلم وحرص عليه، فإن غير هذا يجعلك سفيه الرأي مخبولًا.

- زدني يا عم.

- اشتغل بعيوبك لتُريح قلبك، فأنت بهذا تعذر الناس على عيوبهم، وتغافل في البحث عن الشر لدى غيرك، ليشفى صدرك، وتصفو سريرتك، وتنقى طويتك، وتقر عينك، ويستريح بدنك، وتنجو من قصد الناس لك بأي سوء.

وبدا صوته واهنًا في نهاية كلامه، لكنه كان جليًا كفجر قلب الصيف، وأشار بيده إلى جانب الطريق، وسأل:

- هل ترى الحجر المستدير الذي يحط بعد الشاطئ تحت النخلة المائلة؟

التفت «سمحان» إلى الخلف:

- أراه.

- سأذهب إلى هناك وأنتظرك.

وطار البساط فوق النجيل حتى وقف عند الحجر، وراح يتحول إلى نسائل لا يربطها رابط، ثم بدأت الخيوط تذوب واحدًا تلو الآخر، حتى لم يبقَ منها شيء، فصار الرجل يجلس على النجيل، وبعدها أخذ اخضراره يضيع، إذ رقص بعنف، وسرت في عروقه صفرة، وانخلعت



جذوره، فصار قشًا يابسًا، لم يلبث أن تفتت إلى تبن، دار في النسيم العاطر مسافرًا إلى البعيد.

أما خاتما الزمرد فقد انطفأ ألقهما، وبهت لون العمامة الخضراء، وازدادت اللحية بياضًا، وذابت في بياض العينين اللتين ضاع بريقهما، وصارت تجاعيد الوجه شقوقًا غائرة، كأرض طالتها التحاريق.

نظر الرجل إلى «سمحان» وقال له:

- زحزح الحجر.

امتثل لطلبه، وشمر عن ساعديه، ودفع الحجر فزحف إلى اليمين، وطلّت من تحته حفرة مستطيلة متساوية، كأن يد حفارٍ ماهرٍ قد شقتها في تؤدة وإتقان. كان قاعها مفروشًا بترابٍ أخضر داكن، انبعثت منه رائحة الحناء الطيبة، ورغم عمق الحفرة إلا أن نورًا أبيض كان يفج من جنباتها.

مال الرجل على جانبه الأيمن، ورمى بصره نحو الحفرة وقال في ثباتٍ وهو يبتسم في عذوبةٍ ناضرة:

- هذا قبري، محفور منذ سنين طويلة، وناداني فجئته.

وعاد ليطلب من «سمحان»:

- اغتسلت قبل قليلٍ في ماء النهر، فساعدني على الرقود، ثم أعِد الحجر إلى مكانه، وافرش حوله ترابًا نديًا.

تـردد، وبدا عليـه الهلع، وعاد خطوتين إلى الـوراء، وهو يفكر في أن يترك كل شيء، ويطلق ساقيه للريح. لكن الرجل باغته:

- لا تفكر في الهرب؛ لأنني أعرف أنك مَن سيفعل ما طلبت.

لم ينتظر الرجل، بل دفع جسمه برشاقة كأنه لاعب وثب طويل، حتى انطـرح في الحفـرة، وراح يغـرف من الحنـاء والنور ويرش على نفسه، وأطلت قراطيسـه من تحـت صدريتـه، وحروفها تلمع في لجـة الضياء، ثم أغمض عينيه، وسكن، وكان إصبعاه يشيران إلى الناحية التي كان بها المسجد.

ناداه «سمحان»: «يا عم». نادى غير مرة، وخطف جريدة يابسة كانت ملقاة هناك، وعاد فنغزه في كتفه، لكنه لم يتحرك. جلس إلى جانبه يراقبه، وهـو يتلفَّت حوله لعله يرى أحـد العابرين فيأتي ليتأكد معه أن الرجل قد فارق الحياة، لكن المكان كان خاويًا. أدرك وقتها أنه لا بد فاعل، فذهب إلى الحجر وحرَّكه حتى غطَّى الحفرة، فعاد كل شيء إلى هيئته الأولى.

ووجد «سـمحان» بللًا يضرب قفاه، فالتفت فإذا بخيط ماءٍ يرتفع من النهر، ويغسـل الحجر، ويسيح على جنباته، فتبتـل الأرض، ويظهر فيها شيء أخضر كالإبر، سرعان ما ارتفع وصار صبارًا مختلفة أنواعه، وطلع منـه ورد بنفسـجي وأبيض، وآخـر بلون العقيـق. وجاء نحل وفراشـات وسـكنت الـورد، وتسـاقطت مـن النخلـة رطـب تحـت أرجـل الصبار، فجذبت النحل، ليترك الورد للفراشات تمرح فوقه في أمان.



- ما أجمل موتك يا غريب!

تعلق «سمحان» وهو يتمنى أن يجد في آخر أيامه ما يمنحه هذه الميتة الهينة.

كان يعتقد أن أوان حكايات الليل قد انتهى برحيله عن «طهنا» و«جبل الطيـر» و«البهنسـا»، لكن ها هـي تأتيه في المكان الـذي كان به قبل قليل مدينة عامـرة، تـوزع الضجيـج والضنـى على الـزروع التـي تحيطها من جهات ثلاث.

وتأكد من هذا حين سمع مَن يناديه في ليلة من ليالي الأسبوع التالي:

- سمحااااااان..

وذهب خلف مَن يناديه، وكان رجلًا بدينًا، على رأسه عمامة، وفي يده مذبَّة يهش بها الفراشات والنحل المتجمع فوق الأزهار التي تعلو هامات الصبـار النابت حـول الحجر الذي دُفن تحته الرجـل الصالح. طوح يده في كل الاتجاهات لكن الحشـرات رائقة الحسن لم تستجب، فجثا على ركبتيـه، ورفـع كفيه إلى السـماء، وراح يدعو مغمضًـا عينيه، وطال وقت دعائـه، فلما انتهـى تجمَّع النحل صفوفًا، صانعًا نصـف دائرة، وتقاطرت فراشـات وواجهـت النحل، فانغلقـت الدائرة، وتخالـط الطنين وصوت الرفرفة، ثم راحت الدائرة تزحف في هدوءٍ حتى غابت فوق مياه النهر.

قام الرجل البدين ووقف عند الحجر، وأمره:

- ازحف نحو اليمين.

فزحف، فانكشفت الحفرة المفروشة بالحناء، وطلَّ منها جسد الرجل على هيئته التي رآها «سمحان» يوم دفنه، كان وجهه لا يزال مبتسمًا وعيناه مغمضتان في سلام، وسط هالات النور التي تنبعث من جنبات الحفرة، وكانت القراطيس لا تزال تطل من تحت صدريته النظيفة، التي لم يلحقها غبار، ولم تُرقِّشها الحناء.

وظهر هناك على بعد أمتار خلف الطريق الترابي العريض رجال كثر يشيِّدون سورًا من الحجر المستوي، ويحفرون إلى جانبه قبرًا عريضًا، وفي سرعة خاطفة انتهوا مما عزموا على بنائه، وأشار الرجل البدين إلى الجثة الراقدة بإصبعيه، فارتفعت من مكانها، وطارت في هدوء حتى حطت فوق الحفرة الجديدة، وخلع البدين جلبابه وربطه من كميه، وحفن كل الحناء حتى امتلأ، وحملها فوق ظهره، ورشها في الشق العميق الذي صنعته فؤوس الرجال، ونظر إلى الجثة، فحطت في المكان المخصص لها، بينما كان الحجر يمشي عارفًا طريقه.

وستر الجثمان، وامتدت أيدي الرجال وقوست فوق القبر ضريحًا مطليًا بالأخضر الفاتح، وفرشت حوله حصر الديس والبوص والحلفا، ووزع المشتغلون أنفسهم في صفين، وتقدم البدين وصار في المنتصف. ورفع كفيه وصفق بهما، وراح ينشد: «الله حي.. الله حي»، وغرق الجميع في الحضرة المباركة.



خلع «سمحان» نعليه، وغرق مع الغارقين، منقطعًا عن الزمان والمكان، فلما أفاق لم يجد أحدًا منهم حوله، وقبل أن يجري نحو بُلغته ويدسها في قدميه، ظهرت في عرض النهر سفينة ضخمة، ترفرف فوقها رايات، ويقف على سطحها رجال يحملون بنادق طويلة وسيوفًا تلمع في صهد الشمس الذي يرش فوق الماء آلاف الجنيهات الذهبية.

اقتربت السفينة من الشاطئ وتوقفت، وبرز رجال أشداء يرتدون بذلات يتوزع فيها الأحمر والأسود والأصفر، ورموا سقالة عريضة، لثمت الأرض وجرى بعضهم نحو طرفها وثبتوه جيدًا، وجاء رجال غيرهم من داخل السفينة ووقفوا صفين، عن اليمين وعن الشمال، منتصبين كأنهم نخل باسق، وهتف صوت فخيم: «مولاااااااانا»، فبان رجل ممشوق على وجهه آثار العزة والصرامة، وراح يمشي في هدوء، وهم ينحنون في إجلال، صانعين قوائم من لحم تستوي فوقها قدور الماء فلا تهتز.

ولما وصل الرجل المهيب إلى الشاطئ أشار إلى الضريح الذي يبان من السور الحجري، وقال:

- ابنوا هنا مسجدًا كبيرًا.

ودلف داخل السور، وخلع حذاءه، وأناخ رأسه حتى دخل الضريح، وجعل وجهه شطر القبلة، وانخرط في الصلاة، بينما رجاله وزعوا أنفسهم في مسافات متساوية خارج السور، وبنادقهم مصوبة في وجه الهواء والماء. فلما انتهى من صلاته خرج كما دخل، وتوجَّه نحو

السفينة، وتبعه الحراس، الذين أخذوا أماكنهم على السطح، كما كانوا، وراح آخرون يلملمون السقالة الممدودة، حتى استقرت في مكانها الأول، وأطلقت الأعيرة في الهواء، ولمعت السيوف، واندفعت السفينة نحو قلب النهر، بينما الناس واقفون هناك في صفوف، يرفعون الرايات الملونة وجريد النخل، وآذانهم تكاد تصاب بصمم من زغاريد النسوة المختبئة وجوههن خلف البراقع السود، وأيديهن تمتد يمينًا ويسارًا، لتهش الأطفال الذين كانوا يمرحون في رقص وغناء.

حين استدار «سمحان» إلى الخلف بعد أن تابع السفينة حتى اختفت عن ناظريه، وجد بيوتًا من الأحجار قد انتصبت على الصفين في الأرض القريبة جدًّا التي كانت زرعًا، فشقت شوارع، ونبتت منها حواري، وبانت أبواب ونوافذ، وضج المكان بصوت آدميين، يسعون بإخلاص نحو الحوانيت التي علِّقت لافتات مختلفة الأحجام والأشكال والألوان: مخبز، عطارة، حلاق، علاف، حلواني، لبَّان، خضري، فكهاني، سمسار عقارات، قمَّاش.

ووجد المكان الذي صلى فيه الرجل المهيب قد صار مسجدًا وسيع الأركان، وسطه ضريح العبد الصالح الذي انحفر له القبر وفُرش بالحناء، فخلع «سمحان» نعليه مرة أخرى، ودخل مسبحًا بحمد الله، وركع وسجد وقرأ واعتبر.



## 59

وهو عائد إلى شقته تائهًا فيما رأى، لا يكاد يرى الناس الذين يعبرون إلى جانبه، وبعضهم يضرب كتفه عند منتصف المساء، جاءه صوت السمسار خشنًا مخنوقًا ملهوفًا:

- اهرب، الشرطة في بيتك.

نظر إليه وذهب الدم من وجهه فأصبح كليمونة في أوان القطاف، ثم جرى ما وسعه نحو الشقة، فوجد بابها مفتوحًا، على أشياء مبعثرة، ووجه «جميلة» قد ازداد احمرارًا رغم شح الضوء والظلال التي تصنعها أجساد جنود وضابطين، أحدهما يمسك بكلتا يديه الكراسة، ويطالع سطورها بسرعة خاطفة، ويقلب صفحاتها، بينما شفتاه مزموتان في ضيق.

ما إن رأى «سمحان» حتى صاح في جنوده:

- اقبضوا عليه، وهاتوه هو والساحرة إلى القسم.

في القسم شعر كلاهما أن النية مبيتة للتنكيل بهما. لا يوجد دليل على إدانتهما بهذه التهمة، لكن الضابطين وجنودهما ذهبوا إلى البيت لإحضارهما بغض النظر عن أي أدلة ثبوت. قلبوا الأثاث البسيط، ورموه

على الأرض، فتحوا الدولاب ومرروا عيونهم في ضُرفه المتداعية، ونظروا تحت السرير الذي ينخر السوس في عظمه، ورفعوا أغطية الأواني، ولم يجدوا شيئًا لافتًا سوى الكراسة، فأحضروها معهم.

تركوها هي جالسة على أرضية صالة المركز، يلسعها البلاط البارد والنظرات القاسية، ورموه هو في غرفة الحجز الضيقة المظلمة التي يسكنها عطن وعفن وقلوب جفَّت فيها المشاعر. لصوص، ونشالون، وهجَّامة، وقتلة، ومشردون، ومتهربون من الضرائب، ومطففون في الكيل والميزان، وعاجزون عن دفع الأموال الأميرية عن أراضيهم، وهاربون من تنفيذ أحكام.

وكان خبره قد وصل إلى كل هؤلاء، فالتفُّوا حوله يتفرَّسون في ملامحه. في البداية تهيبوه، لكنهم لم يلبثوا أن تجرأوا عليه حين وجدوه منكمشًا في نفسه، سبُّوه ولعنوه في سرهم أولًا، ثم علت الأصوات بالسباب واللعنات، وكان هو يتلقى هذا صابرًا.

أحدهم رقَّ لحاله، فاقترب منه، وغافل المحابيس، وهمس في أذنه:

- لا تغضب منَّا، فالضابط أمرنا بأن نهزأ بك.

لم يرد، ولاذ بصمته، فانتهز الرجل فرصة ثانية وقال:

- الكل هنا متواطئ مع أمير الجماعة، بينه وبينهم الكثير، وأنت لا يسندك أحد.

هذه المرة ابتسم وردَّ عليه:



- الله حسبي.

قبيل الفجر غرقوا في شخير وغطيط، وتقلبوا على البطاطين المتسخة الملتصقة بالبلاط الكالح المتشقق، فاختلى هو بنفسه، وراح يدعو الله سرًّا، منفصلًا عمَّن حوله، وعن زمانه ومكانه، ولم يدرِ أن دعاءه قد صار جهرًا:

«يا مَن نجيت يونس في بطن الحوت، وحفظت موسى في التابوت، وأمَّنت محمد ببيت العنكبوت، سبحانك أنت الحي الذي لا يموت، يا أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، أدعوك بكل أسمائك الحسنى، أن تبدِّل بعزتك وقدرتك خوفي أمنًا، وانكساري نصرًا، وهواني على الناس عزة وإباءً، احمني من أيدي الأشرار، وقوني على الفجار، واجعل ليلي نهارًا، وفرِّج همي، وأزل كربي، وأظهر براءتي، وألقِ اللوم في قلب مَن ظلمني، لعله يؤوب إليك، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يا رب العالمين».

وتسرَّب صوت دعائه إلى أحلام النائمين وكوابيسهم ففتحوا عيونهم، وأنصتوا إليه، وكان سابحًا في الرجاء، وتائهًا في التسابيح، ومادًّا كفيه إلى الحائط الأسمنتي الأجرد، يحكُّه في خفة، ويدعك وجهه ورأسه وقدميه، ثم يقف للصلاة وقد أغمض عينيه.

استيقظوا وجلسوا حوله، فلما انتهى من صلاته، طلب اثنان منهم أن يسامحهما، فطلب هو منهم أن يجلسوا في صفين، فنفذوا ما أراد، وبدأت الحضرة، وأنشد هو بصوتٍ أعطاه الوجع أثرًا هائلًا في النفوس:

أحنُّ بـأطراف النهـار صبـابـةً      وبـالليل يدعوني الهوى فأجيبُ

وأيامُـنـا تفـنى وشـوقـي زائـدٌ      كـأنَّ زمـان الشـوق ليس يغيبُ

وصرخ أحدهم، ودموعه أغرقت خديه:

- أعدها ولا تكف عن الإعادة.

وأعادها مرات ومرات، وهم يتطوحون في جلستهم، وتكاد رؤوسهم يضـرب بعضها بعضًا، والنـور ينضح من فتحات الباب، وصوت ضجيج في الخارج يأتي ويذهب، لكنهم بعد مدة ليست بالطويلة لم يعودوا دارين بمـا يجري على بعد خطـوات من الجدران التي تقبض على أجسـادهم، بعد أن انطلقت الأرواح، وزاد الهيام حين أنشد:

بكيتُ ودمع العين للنفس راحـة      ولكن دمـع الشـوق ينكى به القلبُ

وذكـري لما ألقاه ليس بنافـعـي      ولـكنـه شـيء يـهـيـج بـه الكربُ

فلو قيل لـي مَن أنت قلت معذبًا      بـنـار مـواجيـد يضرمها العتبُ

بُليـت بمَـن لا أستـطيع عتـابـه      ويـعـتبـني حـتـى يُقـال لي الذنبُ

وهتف من سـويداء قلبه: «الله حي»، فرددوا خلفه، وشـبكوا أيديهم، وتماسـت أكتافهـم، وتحررت أنفسـهم مـن الخـوف والأرق، فارتفعت وهـزت البـاب والجدران، وتدفقت إلـى غرفة الضابـط النوبتجي، فجاء مسـرعًا ومعـه جاويش وجنديـان، وانفتح البـاب عليهم فلـم يلتفتوا إلى مَـن فتحه، وصـرخ الضابط فلم يسـمعوا صراخه، وانطلق يسـب آباءهم



وأمهاتهـم وأيامهـم فلـم يعنهـم الأمـر، ليجـد نفسـه مضطـرًّا أن يدخل ومَن معـه، وينهـال عليهم ضربًـا وركلًا وهو ماضٍ في صراخـه، ثم مال وهز أجسـادهم فانتبهوا إليه أخيرًا، وتوقف الإنشـاد، لكنهـم لم يقفوا له كالعـادة، كلما دخل عليهم بغتة، فتوجَّه إلى «سـمحان» وجذبه من فتحة صدر جلبابه، وقال في غيظ:

- طلبت منهم أن يؤدِّبوك فأدَّبتهم بسحرك يا بن الكلب.

وأبعـد «سـمحان» عينيـه عنـه متجاهـلًا إياه، وأنشـد بصـوتٍ فخيم جهوري:

أنتِ لا تجزعي يا نفسُ مـن بِدعٍ      مضـلةٍ، وضـيـاءُ اللـه هـاديـكِ

أجـارَكِ اللـهُ لـولا درعُ سُـنتهِ      لـكان سهمُ الهوى الفتَّاك يُرديكِ

فصرخ فيه:

- ابلع لسانك، لا أريد أن أسمع صوتك.

لكـن أحدهم كان قد حفظ البيتين الأولين من كثرة ترديدهما، فنسـي الضابط ومَن معه، وانطلق ينشـد: «بكيـت ودمع العين للنفس راحة...»، لكنـه لـم يدعـه يكمـل، وصفعـه على وجهـه بقسـوة، فكاد يسـقط على الأرض. والتفت إلى «سمحان» ورماه بنظرة قاسية، ثم فكر في أن يصفعه هو الآخر، لكن شيئًا داخله جعله يتردد، إلَّا أنه لم يلبث أن تجاسر، ورفع سـاقه ليركله، وسـحبها إلى الـوراء، ودفعها إلى الأمـام، لكنها لم تندفع، وقفـت مكانهـا متيبسـة، فاجتاحـه هلـع، ونظـر إلـى مسـاعده وجندييه،

وبعضهم كان يظن أن الضابط قد أمسك زمام نفسه في اللحظة الأخيرة على غير ما هو معروف عنه من طيش وحماقة، لكنهم فوجئوا به ينحني ويمسك ساقه الجامدة، ويصرخ: «رِجلِي شُلَّت»، فامتلأت عيونهم بالدهشة، وتطلعت إلى «سمحان» الذي كان واقفًا في صمتٍ، عيناه إلى الأرض، وشفتاه تتمتمان بما لا يصل إلى مسامع الواقفين.

أشار إليهم بيده، فحملوه إلى الخارج، وهو يتوعد ولا يكف عن الشتائم، بينما يسري في جوفه الرعب والشعور بالضعف والضياع، حتى وصل مكتبه، مارًّا بـ«جميلة» التي كانت جالسة تحط على رأسها دفقة من شعاع شمس الصباح غافلت الجميع وتسرَّبت من كوة في الجدار الذي يطوق فناءً فسيحًا تنبت فيه غرف الحجر والتجنيد والأحوال المدنية.

كان الأسى يسكن رأسها، ووجهها مكفهر، وفي قلبها وجل، لكن كل هذا زال بمجرد أن رأت الشيخ «عبد العاطي»، الذي دخل من باب القسم، ورآه مساعد الشرطة الذي يحط على كتفيه خشبة زيتية فارغة فجرى إليه، ومشى أمامه، حتى وصل إلى غرفة الضابط الذي تجمدت ساقه منذ قليل، وطرقها في هدوء، ثم فتح الباب، وقال: «الشيخ عبد العاطي مجاور سيدنا الفولي».

ووصل إلى سمع «جميلة» قول الضابط: «تفضل يا مولانا»، فسرت في شرايينها موجة من الارتياح. ولم تمضِ سوى دقائق حتى خرج الضابط ماشيًا على قدميه بخطوات معتدلة، وراء «عبد العاطي» حتى باب غرفة الحجز، ونادى:



- تعالَ يا شيخ «سمحان».

فلما خرج إليه قبَّل رأسه، وقال: «لا تؤاخذني، مَن لا يعرفك يجهلك، وقد ضلَّلني أولاد الَّذين».

خارج القسم لاحت محطة القطار بمدخلها العريض، وناس يهرولون إليها دون أن يلتفتوا إلى أحد من المارة في ميدان «سافواي»، وشعر «سمحان» برغبة في السفر، إلى أين؟ لا يدري. كان مجهدًا وعاقد الجبين من الغضب لما يجري في هذا البلد، ويقول في نفسه:

- ماذا كان يجري لي لو لم يرسل الله إشارة إلى الضابط المتغطرس، ولم يحضر سيدي الشيخ «عبد العاطي»؟

لم يسأل الشيخ «عبد العاطي» عن شيء، فقد تعلَّم ألا يندهش من أفعاله، لكن لم يمرَّ وقت طويل حتى جاءت إجابة عن السؤال الذي لم ينطق به، إذ قال لـ«سمحان»:

- رأيتك في الحلم تصرخ: «أغث اللهفان»، فقمت وجئت إليك.

لكنه فوجئ به يقول:

- أريد أن أرحل عن هذه المدينة.. أبدو كسمكة أخرجوها من البحر ورموها تتقلب في ألم على تراب ساخن.. أنا ابن الزرع والجبل وبيوت الطمي، ولا قبل لي بمواجهة الثعابين والثعالب والذئاب في شوارع لا أعرف أسماءها.

وأمَّنت «جميلة» التي كانت تمشي إلى جوارهما على كلام زوجها قائلة:

– نحن غرباء هنا، وقد وقعنا وسط مَن لا يرحمون، وهم إنْ لم يقدروا علينا بعصيهم وخناجرهم، سيقدرون بألسنتهم التي تألف الكذب والبهتان.

لكنهما فوجئا بـ «عبد العاطي» يرد في ثقة:

– لا تتعجلا.. فكل شيء بقدر.

وأخذ يد «سمحان»، وداس عليها، ملتفتًا إليه في ودٍّ جارفٍ، وقال له:

– عما قريب سأنتظر منك أن تلبي لي طلبي الأخير، وبعدها لك حرية التصرف، فلا تنصرف عني الآن وأنا في احتياجٍ إليك.

ولسعه الكلام بحدة، فردَّ عليه بصوتٍ مخنوق من الألم:

– أطال الله في عمرك يا شيخي، ومكنني من أن أبقى إلى جوارك، وألبي كل ما تطلبه وأنا غاية في الامتنان.

خرج «سمحان» وزوجته من الحبس أكثر قوة مما دخلا، هكذا كانا يظنان وهما يسيران إلى جانب الشيخ «عبد العاطي». لكن حين ودعهما وعادا إلى شقتهما اكتشفا أنهما قد فقدا أعز ما لديهما، فقد صرخت «جميلة» وجرت إلى الحمام، وجرى «سمحان» وراءها ليجد تحتها بقعة هائلة من الدم، نظرت هي إليها ورفعت رأسها وقالت له في انكسار:

– يبدو أننا فقدنا الجنين!



# 60

رغم أن أهل الحي رأوا «سمحان» بعد ساعات من القبض عليه يدب في الشارع المؤدي إلى شقته، فقد زُيِّن لهم أن يتعاملوا معه على أنه ساحر بارع. ووجدوا في هذا ما يلبي احتياجهم إليه. فأغلبيتهم لا يريدون شيخًا يسيرون وراءه فيجهدهم في طلب الطاعة والمراقبة والإحسان والزهد والعبادة، إنما يريدون رجلًا يحرك عينيه ويديه وشفتيه، فيغني فقيرهم، ويشفي مريضهم، ويعيد الضائع إلى أهله، ويساعد العانس على أن تلقى عريسها المُنتظر.

وجاءت صاحبة البيت لتطمئن عليهما، وما إن جلست حتى قالت:

– الحي كله لا حكاية له إلا ما جرى لكما.

كظم «سمحان» غيظه وردَّ عليها:

– «الفاضي يعمل قاضي».

تنحنحت، ومسحت وجهيهما بنظرة خاطفة، وواصلت:

– يقولون إنك تخاوي جنيًا، وأنت تخاوين جنية.

لـم يـردا عليهـا، وغـاص كل منهما فـي حزنـه، فوجدتهـا فرصة كي تضرب ضربتها:

- قبل سـاعات جاءني رجل من عزبة «طه السبع»، وأخبرني أن هناك من قال له قبل سنين إن تحت أرضية بيته دفينة لمساخيط من أيام الفراعنة، وأنه جاء برجلٍ مخاوٍ العام الماضي، وأطلق بخوره وعزَّم، لكنه فشل في أن يخرج شيئًا.

نظرت «جميلة» إليها وهي تقاوم وجع الإجهاض وسألتها:

- وما المطلوب منّا؟

تلقفت السؤال وردت بسرعة:

- تخرجان الكنز ولكما ما تطلبان.

وضحكت عن أسنان متآكلة، وضيقت عينيها، وأكملت:

- وأنا لي الحلاوة.

وتكـررت هـذه الطلبات فـي الأيام اللاحقـة، وكثر الوسـطاء إليهما، وهما في صد وامتعاض، وباتا أكثر إيمانًا من أي وقت مضى بأن بقاءهما في هذا المكان خسـارة مبينة. لكن كان على «سـمحان» أن ينتظر، امتثالًا لطلب الشيخ «عبد العاطي»، الذي لم يبخل عليه بما لديه، إذ كان يجلس إليه بين المغرب والعشاء وبعدها لينهل من علمه، وهو يتعجب من غزارة ما في رأسه، وصفاء ما في نفسه، ويأكله الندم على ما فاته.



وشعر الشيخ به، فربَّت كتفه وقال له:

- لا تندم على ما فات، فلم يكن من الممكن أن تناله قبل الآن.

- تمنيت لو قضيت إلى جانبك وقتًا في بداية رحلتي بـ«طهنا الجبل».

ابتسم وردَّ وهو يملأ عينيه بوجه «سمحان»:

- وقتها ما كان يمكنني أن أنبئك بما تسمعه مني الآن.

- لمَ؟!

- لم يكن مأذونًا لي، وكان عليك أن تمضي في الطريق الذي سلكته من قبلك، لترثني، فعند علماء الظاهر يحكون عن تلاميذ، أما لدينا فيوجد ورثة، لا بد من امتحانهم قبل أن يضعوا أقدامهم على أول الطريق.

- كنت أريد المزيد.

- كل ما لديَّ سيذهب إليك، وما أقوله لك الآن ما كان بوسعي أن أنطق به أمامك في الماضي، فوقتها كنت ستُصد عن كلامٍ وراء عقلك، وفوق ما كنت تطالعه من صندوق عمك.

وصمت برهة وواصل:

- علومنا لا تحتاج إلى عقل يقظ فحسب، بل أيضًا إلى نفسٍ صافية، وأيامها كان في نفسك بعض كدر، ولحظة أن تختفي منها آخر نقطة سوداء، سأُعلِّمك حروفي الأخيرة، ثم أذهب راضيًا.

- وكيف يذهب كل الكدر يا شيخي؟

- حين لا تساوي قيمة الدنيا في عينيك ذرةً من رمل.

# 61

جاء اليوم الذي انتظره «سمحان» وخافه. كان القمر في كبد السماء، حين قال له «عبد العاطي» بعد صلاة العشاء:

- تعالَ إلى المسجد لنصلي الفجر سويًّا، ومعك قلة ماء وصرة طعام، ولا تسألني عن شيءٍ أبدًا.

- حاضر.

وجاء في الموعد المحدد، وبعد الصلاة ركبا من موقف عربات الأجرة إلى «بني مزار»، ومنها إلى «البهنسا»، وهناك راح «عبد العاطي» يمشي في ثبات نحو الصحراء، و«سمحان» يتبعه صامتًا، حتى وصلا إلى بقعة خالية، ليس فيها سوى أجمة قصيرة داكنة الخضرة، وعن يمينها نخلتان متعانقتان، إحداهما تطرح بلحًا أحمر والأخرى بلحًا أصفر، وكان الصبار مختلف الأنواع: مخروطي وإبر آدم وعمم القاضي، ومنها يخرج زهر أبيض وبنفسجي، وتحتها تراب كالحناء، بعضه مائل إلى الحمرة، وبين النخلتين والصبار حجر مستطيل ضخم، منقوش على جانبه عبارة تقول:



«أولها ضعف وفتور، وآخرها موت وقبور، لو بقي ساكنها ما خربت مساكنها، فاربط قلبك بالله».

ولما قرأ «سمحان» المكتوب أهرق دموعًا غزيرة بلَّلت التراب فازدهى الصبار ورقص، وأسقطت النخلتان بعض رطبهما، وخرج دود من الأرض التي انثقبت، وراح يزحف نحو الحجر الكبير، كان دودًا كثيرًا حتى لوَّن الأرض بالبني، وكان عفيًّا لدرجة أنه ترك خلفه خطوطًا محفورة فوق الرمل، التوت في بعض المواضع فبدت كحروف مكتوبة بلغة غريبة.

نظر إلى «عبد العاطي» وسأله:

- لمَ أتيت إلى هنا؟

ردَّ عليه وهو يتنهد وصوته يتحشرج:

- لا تسأل عما ستراه بعد قليل، وهو الآتي لا محالة، وما يهرب منه الناس في متاهات مسدودة، والذي به ستعتبر، فهو خير واعظ.

وساد صمت، قطعه «عبد العاطي» مواصلًا:

- هذا مكاني الذي اخترته حين كنت هنا، فلا تدع الغرور ينسيك أن تختار مكانك، فأجسادنا التي تقطع الأرض وتترك رائحتها في بقاع شتى، لا تتحملها في النهاية إلا بقعة واحدة، تناديها منذ الصرخة الأولى، لكننا لا نعلم.

- لكن ها أنت تعلم، وقد جئت إلى بقعتك.

- كنت جاهلًا بها، لكنك أخبرتني ذات مساءٍ بعيدٍ، لا يمكنني نسيانه، بل إنه يجري أمام ناظري الآن.

- أنا؟!

- ألـم يكـن الرجل الذي يناديـك كل مرة ويأخذك إلـى الزمن القديم هو أنا؟

- نعم.

- كذلـك كنـت أنـت الرجل الـذي يناديني، ومنـذ زمن يسبق ولادتك، إلى أن قابلتك أول مرة، فهربت منك وأنا أعرف أنني سألاقيك.

ضرب «سمحان» جبينه بكفه، وتنهد بعمق وقال:

- منذور كل منّا للآخر.

جلـس «عبـد العاطـي» علـى الأرض، وراح يخمش الرمـل بأظافره فصنـع فجاجًـا موزعة في الجهات الأربـع، كأنها جميعًـا تلتقي في نقطة واحدة، وقال:

- حالنـا كحالهـا، تفرقت بنا السـبل، وها نحن قد التقينـا، وبعد اللقاء لا يكون إلا الفراق، فحين تنهي مهمتك التي جئت بك إلى هنا من أجلها، لا تنتظر، امضِ إلى حال سبيلك.

- أتتركنـي فـي منتصف الرحلة؟ لا يـزال لي عندك الكثير، وأنا لا أشبع مما لديك.



ليـس لـك عنـدي الآن أفضـل ممـا قالـه «الحسـن البصـري» ناصحًا «عمـر بن عبد العزيـز»، وأختار المنصـوح هنا لأن بيده كان السـلطان والصولجـان، وبـذا فهو علـى الكبر أقـدر، وعلى الغرور أسـرع، ومع هـذا التـزم، فما بالـك برجلٍ مثلـك لا يمتلك إلا قـوت يومه، فأنصت إلى ما سـيخرج من فمي، فما أعمقه: «اعلم أنَّ التفكر يدعو إلى الخير والعمـل به، والندم على الشـر يدعو إلى تركـه، وليس ما يفنى وإن كان كثيـرًا يعدل مـا يبقى وإن كان طلبـه عزيزًا، فاحذر هذه الـدار الصارعة الخادعة الخاتلة التي قد تزينت بخداعها وغرت بغرورها وقتلت أهلها بأملها، وتشـوفت لخطّابها فأصبحت كالعروس المجلوة، العيون إليها ناظرة، والنفوس لها عاشقة، والقلوب إليها والهة ولألبابها دامغة وهي لأزواجهـا كلهـم قاتلة، فلا الباقي بالماضي مُعتبِـر، ولا الآخِرُ بما رأى من الأول مُزدجِـر، ولا اللبيب بكثرة التجارب منتفع، فاحذرها الحذر كله فإنها مثل الحية ليِّن مسـها وسمها يقتل، فأعرض عما يعجبك فيها لقلـة ما يصحبـك منها، وضع عنـك همومها لما عاينت مـن فجائعها، وأيقنت به من فراقها، وشـدد ما اشـتد منها الرخاء ما يصيبك، وكن ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور له، أشـخصته عنهـا بمكروه، وكلما ظفر بشـيء منها وثنـى رجلًا عليه انقلبـت به، فالسـار فيها غار، والنافع فيها غدًا خـار، وصل الرخاء فيها بالبـلاء، واجعل البقاء فيها إلى فناء، سـرورها مشـوب بالحزن، وآخر الحياة فيها الضعف والوهن، فانظر إليها نظر الزاهد المفارق، ولا تنظر

نظر العاشق الوامق، واعلم أنها تزيل الثاوي الساكن وتفجع المغرور الأمن، لا يرجع ما تولى منها فأدبر، ولا يدري ما هو آتٍ فيها ينتظره».

أنصت «سمحان» بنفس صافية وقلب مفطور، بينما كان «عبد العاطي» يجلي الحروف من فم يتوهج وسط وجه يذبل كزهر انقطع عنه الماء زمنًا، وكان كلامه يرطّب شفتيه المقددتين، وعيناه ذاهبتان إلى البعيد البعيد حتى آخر الدنيا. وهبّت نسائم لينة، والشمس تميل نحو المغيب، فرفرف النخل، ولم يهج الرمل، وكأنه انفصل عما يدور حوله. ولاح في السماء سرب حمام أبيض، راح يدور فوقهما، ولا يبرح البقعة التي حلّا فيها، وكان كلما مال نحو عين الشمس بدا ثوبًا ضخمًا يُرقّشه الدم.

فرد «عبد العاطي» ساقيه على الرمل، واضطجع إلى الخلف، شاخصًا ببصره نحو الشمس التي تذبل مع نزيفها المتواصل الذي سيتوقف حين تبتلعها الرمال. رفع يده فحجب الشعاع الأحمر القادم من طرف السماء، وقال:

- يحدث هذا كل يوم ولا يتعظ أحد.

زحف «سمحان» حتى لامست ركبتاه ركبتي «عبد العاطي» وقال له مستعطفًا:

- زدني يا عم.

نظر طويلًا في عيني «سمحان» ثم وضع يده على عينيه، طالبًا منه أن يغمضهما، وأن يرهف أذنيه، وقبلهما يفتح قلبه، وقال:



الآن ذهب نصف النقطة السوداء التي تكدر نفسك، وليس لك عندي إلا قول «الجنيد»، فاحفظه، وقبل حفظه لتعيه، وقبل وعيه لتمتثل له، وقبل الامتثال لتعاهد نفسك على أن تعمل به ما حييت: «إنما اليوم إن عقلتَ ضيفٌ نزل بك وهو مرتحل عنك، فإن أحسنت نزله وقِراه شهد لك وأثنى عليك بذلك وصدق فيك، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قِراه شهد عليك فلا تبع اليوم ولا تعد له بغير ثمنه. واحذر الحسرة عند نزول السكرة فإن الموت آتٍ وقد مات قبلك مَن مات».

ونظر نحو الحجر الضخم المنتظر وقال:

- خذني إلى حيث يكون.

مدَّ «سمحان» ذراعيه، وحمله وكان خفيفًا كريشة، وسار به دون أن تترك قدماه أي علامة على الرمل، إذ صار هو أيضًا خفيفًا، وشعر أنه قادر على أن يطير به ويدور مع السرب المحلق في صفحة السماء.

فلما وصل إلى الحجر وجده أضخم مما رآه من عند الصبار، لكن «عبد العاطي» الذي نزل على الأرض وتمدَّد، وضع كفيه عليه فانزاح من مكانه في يسر، وكأنه عِهن منفوش، وبانت تحته حفرة مهندسة بعناية، جدرانها من الحجر الصغير، وأرضيتها ناعمة كالحرير، وفي ركنها جوال مربوط، أشار إليه «عبد العاطي» وقال:

- في هذا الجوال كفني، اشتريته قبل سنين.

وهنا أدرك «سمحان» أن كل هذا الترتيب من صنع يد الرجل الذي يحدثه وهو يحتضر، فتعجب من أمره، رغم أن ما يعرفه عنه لا يجعله

يتعجب أبدًا، ولا حتى حين ضرب الأرض بطرف ساقه الراقدة على الرمل فانبجس ماء من بين حصى مختلف الأحجام وبلله، وجرى سرسوب منه نحو حفرة صغيرة وتجمَّع فيها، ولم تمتصه الرمال على غزارتها.

وتابع «عبد العاطي» جريان الماء فقال لـ «سمحان»:

- هات قُلتك التي فرغت من الماء، بعد أن شربناه في الطريق.

مدَّ القُلَّة إليه وهواء يصفر داخلها فيخرج من فتحاتها لحنًا جنائزيًا غريبًا، فأمسكها بأطراف أصابعه الواهنة، وقام من مكانه على مهل، ومشى بخطوات مرتعشة نحو حفرة الماء، وغيب فيها القلة فبقبقت حتى صمتت. رفعها وأعطاها لـ «سمحان» وقال له:

- لتصحبك طيلة السنين التي تبقَّت لك، ولن تفرغ، ولن تنكسر، حتى لو رميتها من فوق جبل أشم.

ودفع كفيه في الماء فصنعتا دوامات خفيفة راحت تلثم حواف الرمل الليِّن، فانبثق منها نور أزال الغبش الذي فرش رداءه على الأرض بعد أن غابت الشمس. ونظر حوله فإذا بالمكان خاوٍ، ليس فيه سواهما، وأعاد عينيه إلى وجه «سمحان» وقال:

- بعد أن أبلغ غايتي، جرِّدني من ملابسي، لأخرج من الدنيا كما دخلتها، واحفن من هذا الماء وصب على جسدي، وارفعني على كتفك، وسر بي إلى الحفرة، وهناك افتح الجوال ولفني بكفني الذي لم يضرب فيه



مخيط، ومددني على مهل، ورص إلى جانبي أحجارًا تسند عظمي، ولا تخف من هذا الدود الكبير الذي رأيته زاحفًا منذ قليل، فهو جاء ليدافع عن جسمي لا ليأكله، فهو إن رأى دودًا يخرج من الأرض أو ينبت من لحمي سيلتهمه على الفور. وبعدها أغلق الحفرة بالحجر الضخم، وقف عندي أتتنس بك حتى يشقشق نور الفجر، ثم انصرف، ولا تفكر يومًا في زيارتي، فأنا الذي لن أكفَّ عن زيارتك في صحوك ومنامك.

وقبل أن يغمض عينيه سابحًا في النور الأبدي، قال لـ «سمحان»:

- حين تفتح نافذتك فلا تجد الجبل مكانه، فلا تتردد في أن تذهب في طريقك، الذي تسلكه، وعندها سترى ما لم ترَه من قبل.

ثم أخذ يده بين كفيه الواهنتين، وقال له: «ردِّد خلفي بقلبك لا بلسانك»، وذكر كلامًا لم يسمعه «سمحان» من قبل، ولم يقدر على أن يشغل نفسه بما يسمع: هل هو طلاسم؟ أم لغة أخرى غير التي يعرفها الناس؟ لكن الشيخ «عبد العاطي» رحل قبل أن يفسر له ما يقول، وتركه ليعرف بنفسه في قابل الأيام.

وكانت الطيور قد غابت في عتمة أول الليل، والدود كفَّ عن الزحف، والماء الذي انبجس غار، وعادت الأرض قاحلة مستوية، وراح الحجر الضخم يزحف من تلقاء نفسه حتى جثم فوق الحفرة التي ثوي فيها «عبد العاطي» راضيًا مرضيًا.

وصفرت رياح هبَّت من الشمال، وهزت النخل، فسمع «سمحان» صوت ارتطام الرطب بالحصى، فمشى نحوها، والتقط ما استطاع أن يلتقطه، ودسه في جيبه، وهو عازم على أن يغرس النوى عند الجبل الواقف في الناحية الأخرى، يحرس الأرض الخلاء.

وتهادى عزف ناي من بعيد، وكان أنينه يقترب، حتى ظن «سمحان» أن مَن ينفخ في الغاب المجروح رابض وسط عراجين النخلتين، فشخص ببصره في أول ضوء للقمر، فلم يجد أحدًا، سوى التمر الذي يستريح قليلًا من قدح شمس النهار. وأصاخ السمع فأحس أن العزف قادم من جوف السماء.

وقال في نفسه: «ربما حضرة في إحدى القرى التي تتراقص في العتمة بعض لمباتها الواهنة، وتأتي إلى عيني مرتعشة بما يوحي ببعد المسافة»، لكنه كان يعرف جيدًا أن الليل الساكن يحمل الصوت البعيد، حتى يظنه الغافل والجاهل والملهوف على مرمى حجر منه. إنه مثل السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، فيهرول إليه فلا يجد شيئًا، أو بالأحرى بالنسبة لـ «سمحان» مثل الهاتف الذي يناديه ويأخذه إلى الزمن القديم وهو يحسب أنه على بعد دقائق فقط من زمنه الذي يعافر فيه من أجل أن ينتصر على نفسه.

ومع صوت الناي سمع صوتًا ينشد في لين وطلاوة:

شغلت قلبي عن الدنيا ولذتها    فأنت والقلب شيء غير مفترق
وما تطابقت الأحداق من سِنة    إلا وجدتك بين الجفن والحدق



# القسم الخامس

# 62

لـم يرَ من قبل مـا وقعت عليه عيناه وهو يصعد سـلالم البيت متهملًا كأن الدنيـا مربوطة بسـاقيه. طيلـة المدة التي قضاها فـي حي «أبو هلال» كان يخـرج من شـقته صباحًا ويأتـي بعد الظهر مسـرعًا، ويقفز بخطوات واسعة، يقطع فيها درجتين أو ثلاثًا في المرة الواحدة، وفي الشارع يمشي مهـرولًا، لا يلتفـت حواليـه، ولا ينشـغل إلا بمـا يدور داخلـه، حتى قال الناس حين رأوه:

- مجذوب.

ثم قالوا بعد ما جرى له على أيدي أصحاب اللحى الطويلة:

- مسحور.

اليـوم سـار مترنحًـا، وراح يتفرس فـي كل أحد وكل شـيء: الوجوه الضامرة، والرؤوس التي سـكنها الشيب، والجدران الكالحة، والشوارع غيـر المسـتوية، والأزيـاء المتنوعـة للرجال والنسـاء، والدراجـات التي تجـري بـلا حـذر، وعربـات الكارو حيـن تقطع الشـوارع نحو السـوق، والسيارات القليلة ذات الطرز القديمة.

واقتحمـت أذنيه الأصـوات التي تخرجها مختلف الأفواه، وسـمعها للمـرة الأولـى بهـذا الوضـوح، وظلّت تطـارده حتـى دخل بـاب البيت

القديـم، واكتشـف أن هنـاك فلقين فـي الجـدران التي تعلو السـلم، وأن الحوائـط تكاد تنقـضُّ، وأن الفتحات المتواجدة بهـا ويعلو بعضها بعضًا يسكنها العنكبوت، وأن شقًّا عميقًا يجرح إحداها وتعشش فيه دبابير.

ابتسـم فـي وداعة؛ لأنه لـم ينتبه لكل هـذا في الماضـي، ولأن البيت الـذي يعتـزم مغادرتـه إلى الأبد، لا يسـتحق أن يلتفت إليه بعـد أن يعطيه ظهره، وأيضًا لأنه تذكر قول أبيه ذات يوم: «الأماكن بناسها».

وهنـا يوجد نـاس طيبون مطحونون يكدحون من أجـل أن يبقوا على قيد الحياة، لكن بينهم يسـكن أشرار، يستغلون كلام الله، من أجل مآرب دنيئـة. والرجل الوحيد الذي كان يصبره على الاسـتمرار في هذه المدينة رحل، ودفنه قبل ساعات قلائل، وتركه للخلاء والريح وعطر الصبار.

لم يبذل جهدًا كبيرًا حتى أقنع «جميلة» بالرحيل عن تلك المدينة التي حاصرته، كانت مثله قد سـئمت المكوث الطويل بين الجدران المتآكلة، وضاقت بالعيون التي تطاردها كلما هبطت عند الضحى لتتسوق وتعود، فحتى العيال الصغار كانوا يزفونها في الذهاب والإياب:

- «الساحرة الشريرة أهيه».

لكـن كان عليـه أن يجيـب لها عن ثلاثة أسـئلة: كيف سيُقنع أمه بأن تعيش معها دون منغصات؟ وكيف سـتتوارى عن عينـي «أبنوب» الذي يقطن بلدة لا تبعد عن «جبل الطير» سـوى ميلين؟ وكيف سـيتغلب على متاعـب الذهاب والرجوع من عمله بالمنيا كل يوم؟ واسـتغرقت الإجابة بضعة أيام.



كان خاطـره قد أوحـى إليه بكل الإجابات، لكنه آثـر أن يثبت لها كل شـيء أمـام عينيها. فذهب إلى بلدتـه وقابل أمه ولـم تمانـع، وفكر في أن يترك العمل ويـزرع أرض أبيه القليلة ويبحث إلى جانبها عن عمل يجني منه ما يكفيهم، فبعد أن أُحيل قريبه إلى التقاعد امتدت أيدي أمير الجماعة إليـه، فتدخل لدى المدير الجديـد الذي لم يتورع في أن يضيق عليه حتى يطلب النقل إلى بلدة أخرى.

قال لها:

- لم أعد قادرًا على الذهاب إلى هذا المكان البائس.. يدفعونني دفعًا إلى أن أفقد هدوء أعصابي، وأن أكون غير الذي أريد.

ولما ذكرته بالقوت والكساء ودواء أمه، ردَّ عليها في اطمئنان:

- لا تقلقي، فمَن خلقنا لن ينسانا، وقد عرفت أن رزقنا سيكون أوسع في المكان الذي كانت فيه بدايتي، وستكون فيه نهايتي.

ولما وجد مخاوفها لا تريد أن ترحل كاملة، قال لها:

- أنا مأمور بالرحيل.

أمـا «أبنوب» فكان عليه أن يفتـش وراءه، ليعرف ما انتهى إليه بشـأن «جميلة»، فأرسل صديقه «عبد الرحمن» يستقصي الأمر، وقال له:

- مـا لديَّ يبين أن بيته مسـكون بآخرين، وقدميـه تدبان في أرض جديدة قديمة.

نظر إليه متعجبًا، وذهب وغاب نصف يوم، ثم عاد إليه بخبرٍ غريبٍ:

- طار عقله ورحل عن البلد..

قالها «عبد الرحمن» وهو يهز رأسه أسفًا. ولم يكن «سمحان» بحاجة إلى مزيد من التفاصيل، فقبل أيام أخذته سِنة من النوم وهو جالس على الأريكة القديمة وأفاق، دون أن يعرف ما إذا كانت رؤيته قد جاءته في الحلم أم في العلم؟ لكنه يتذكر كل شيء بالتفصيل وكأنه قد عايشه في وضح النهار وقبل دقائق من الآن.

رأى «أبنوب» يهيم على وجهه تحت سفح الجبل، وقدماه تجران الحصى والرمل، وأصابعه تثقب حذاءه الأجرب. والصليب يروح ويرجع على صدره، وعيناه حائرتان تسعيان وراء شيء كالسراب، وشفتاه مقددتان بعد أن شواهما اللهيب الخارج من جوفه. كان يعاني ويثير الشفقة، ولا أحد يرحم حاله، ولا يفهم ضناه ولهفته.

ورأى «سمحان» زملاء «أبنوب» في الكنيسة، وحتى مَن كانوا تحته من الشمامسة يهشونه بأياديهم وكأنه حشرة ضارة، وحين ينادي أيًّا منهم يسرع الخطى هاربًا منه. وكان العيال يصفقون خلفه، مستهزئين به، وبعضهم يخرج له لسانه أو يلقيه بحصاة.

كل هذا جرى أمام ناظري «سمحان» وأكده له «عبد الرحمن»، وزاد عليه:

- يقولون إنه أصيب بالجنون، وهجرته زوجته وعادت إلى مسقط رأسها في قرية «طحا الأعمدة»، وأخذت معها أولاده، وأرسلت أخاه فباع البيت، وأقنعه أن يذهب معه فذهب صامتًا.

وصمت برهة ليغلب ارتجاف قلبه، ثم واصل:

- يقولون إنه عشق بنتًا فاتنة، كانت قد استجارت به وساعدها، لكنها غافلته وهربت.

- ما اسمها؟

- «جميلة».

قالها وعيناه في قدميه ووجهه تشرَّب حمرة رائقة، فمدَّ «سمحان» يده إلى كتفه، وداس عليها بطلفٍ وقال:

- طول عمرك صديق وفيّ يا «عبد الرحمن».. أنت أخي الذي لم تلده أمي.

وساد بينهما صمت، قطعه «عبد الرحمن»:

- عرفت أن «أبنوب» أرسل مَن يستقصي عنك في «جبل الطير» بعد أن غادرت «دير العذراء» بيومين، ويسأل ما إذا كنت قد عدت إلى بيتكم ومعك فتاة حسناء، وجاءه المرسال بأنك قد عدت وحيدًا فاستراح، وظن أن زوجتك هربت وعادت إلى الدير الذي جاءت منه، وفكر يومًا أن يبلغ الشرطة، لكن زوجته، التي شعرت بالغيرة، صرفته عن هذا وشددت عليه فخضع لها ولاذ بالجنون، لعل فيه طبابة.

وتذكر «سمحان» ما قالته له «جميلة» فسأل «عبد الرحمن»:

- كان يقول لزوجتي إنه سيزوجها من ابن عمه.

- ما عرفته أن له أخًا لم يتزوج بعد.

دمعت عينا «سمحان»:

- مسكين هذا الرجل، كان طيبًا، لكن قلبه لم يكن معلقًا بالسماء بما يكفي.

وشرد في كل ما جرى بينهما، وقال:

- ما يضنيني أن زملاءه تخلوا عنه بهذه البساطة، ولم يعذروه.

- واحد منهم فقط كان رحيمًا به، عطوفًا عليه، يأخذه من يده، ويدخله الكنيسة، ويجلسه أمام الصليب، ويربت كتفه، ويسقيه ويطعمه ويواسيه.

وكانت «جميلة» أكثر شفقة عليه حين عرفت ما جرى له. ذرفت دمعتين وقالت:

- لا يعذره إلا مَن كابد الشوق مثله.

وقلبت عينيها في صالة الشقة الضيقة، وغمر رأسها ما جرى لها في الدير، وقالت:

- كان هذا يطل من عينيه، لكنه عجز عن البوح، وكان حائرًا بين قلبه وضميره.

وكأي أنثى غرقت في سعادة وهي تلملم أشياءهما البسيطة استعدادًا للرحيل؛ لأن رجلًا أصابه الجنون من أجلها.



# 63

في غبش الليل عاد إلى «جبل الطير». توقفت عربة نقل صغيرة أمام بيتهم، وجاء رفاق المقهى وأنزلوا الأشياء، ووضعوها إلى جانب الدكة التي جلس أبوه عليها طويلًا، وقالوا له وهم ينصرفون:

- ننتظرك لتستعيد معنا أيام زمان.

لكنه لم يذهب، دخل إلى الغرفة المغلقة منذ مدة، وأنار لمبة الجاز، وجلس إلى جانب صندوق عمه «رشيد» يقلب في الكتب التي كان قد قرأها جميعًا.

تسامرت «جميلة» مع «أم سمحان» حتى سقطتا نائمتين، وتردد غطيطهما في جدران الحجرة التي قاومت فيها الأم الأرق وحيدة منذ رحيل زوجها. أما هو فقد بقي ساهرًا يسترجع الصفحات التي طالعها منذ زمن، وحفرت في رأسه معاني عميقة، لكنها صنعت غربة بينه وبين وظيفته البسيطة، وجعلته ينظر إلى الشومة المستوية ويقهقه وحيدًا، والصدى يأتيه هازئًا منه، لكن رؤى الليل والسفر إلى الزمن البعيد، ثم عشقه لـ«جميلة» كفياه بما قُسم له.

كان رغم كل ما جرى يشعر بامتنان شديد لعودته إلى أمه، التي لم تقبل أن تذهب لتعيش معه في البندر بعد أن أخبرها بزواجه. سألته مستنكرة: «هل هناك سأجد جاراتي الطيبات؟»، فابتسم وتركها ومضى.

نافذة الغرفة المواربة سمحت له أن يسمع أنفاس أمه وزوجته، وهما تشهقان وتزفران معًا، لكنها لم تلبث أن ضاعت وسط دبيب قوي راح يتصاعد تدريجيًّا حتى ملأ أذنيه.

لم يكن أحد أمامه، لكن حين التفت إلى الخلف وجد شابًّا فارع الطول، عيناه تتألقان في الضوء الشحيح، وأنفه كحدِّ السيف، وشفتاه مزمومتان في حزم، وإن كانت في وجهه بشاشة.

اقترب منه وسأله:

- هل نفعك صندوقي؟

قام إليه، ونظر فيه طويلًا، وقال:

- لولاه لقتلني الحزن على تركي التعليم في أول الطريق.

- أنا دخلت الجامعة لكن ما أنت عليه أعلى بكثير مما حصَّلته أنا قبل موتي.

ابتهج «سمحان» لما سمع، وكان ما مرَّ به في الليالي العتيقة جعله محصنًا ضد الفزع من ظهور عمِّه الذي مات منذ سنين هنا في الغرفة على الهيئة التي كان عليها قبل أن ينطق كلماته الأخيرة، وقبل أن يداهمه المرض ويخطفه.



قام إليه ليمسكه لكن يده اخترقت الفراغ، وعادت إليه كما ذهبت.

جلس طويلًا يسترجع طيفه، ثم نام مكانه والنهار ينضح من النافذة، وينسكب على وجهه، فيتململ، لكن لا يلبث أن يغرق في سبات عميق.

استيقظ عند الظهر بمعدة خاوية، طغت عليها رغبة جارفة في أن يصعد الجبل. فتح النافذة ورآه كما تركه، راسخًا مهيبًا، يحتضن بين أذرعه العملاقة طيور «البوقيرس»، التي تبدو وكأنها قطعة من السحب العابرة، سقطت هنا على الصخر، بينما تجري في الأعالي لتنام عليه هناك عند مرمى البصر.

قال لأمه:

- سأطلع الجبل.

فأمهلته حتى تنكسر الشمس العفية:

- أخاف عليك من ضرباتها التي لا ترحم، ومن لهيب الحجر تحت رجليك.

فانتظر حتى مالت بعد العصر ولملمت بعض شعاعها، ونثرت الريح في وجه السماء قطعًا كبرى متلاحقة من السحاب.

خطف القُلة التي ملأها من عين الماء التي فجرها «عبد العاطي» هناك في الناحية الأخرى، ثم زمت وابتلعتها الرمال. وصعد من مسرب عريض، يدوس الحصى، وعيناه تطالعان قطع الصخر والطير. وكان

نسيم العصاري يهبُّ ليّنًا، فيجعل جلبابه يهفهف، وصدره ينشرح، وتُقبل نفسه على السير حتى النهاية.

«آهٍ لو أقدر على بلوغ البحر المالح، الذي يجري حين ينتهي الصخر، وأعبره مشيًا على الماء حتى أصل إلى ما وراء جبال الحجاز، أو مشيًا على الحجر حتى أصل إلى هضبة الحبشة».. حدَّثته نفسه، ولم يرد عليها سوى بمزيد من المشي.

ترك قدميه للطريق، ولم يضجر، ولم يلهث، ولم تكل ساقاه، وفجأة دارت الريح حوله فدار معها، وشعر أن جسمه ريشة، وروحه تسبقه إلى الأعالي، فأغمض عينيه وسلَّم نفسه للهواء الذي ملأ جلبابه فانتفخ وصار كجناحين كبيرين. وحين فتح عينيه بعد وقتٍ لا يدريه، وجد صخورًا تلو صخور، تنحدر بشدة نحو ماءٍ عريض، وبلطفٍ نحو خيط ماء خفيف، صخور صلدة بالغة القدم بها عروق معدنية وسدود نارية، ثم صخور جيرية، تتخللها قمم شاهقة قليلة ومتناثرة، وتمزقها أودية وأخوار، يجري فيها ماء خفيف رائق لونه، وتظهر فيها ينابيع تحضنها خضرة، يتقاطر بين آجامها وبسطها أناس وجمال وغنم.

وسمع صوتًا يناديه:

- هنا مناجم ذهب، كان الفراعين يستخرجونه مهللين، وسار على منوالهم اليونان والرومان، فهل لك أن تغرف منها ما يغنيك؟!

أنصت قليلًا، ثم ردَّ عليه:

- بل أريد ما هو أهم؟



فسأله:

- ما هو؟

فأجاب من دون تردد:

- الملح، فالناس يمكن أن يعيشوا بلا ذهب، دون أن ينقصهم شيء، إنما لا يمكنهم أن يعيشوا بلا ملح.

جاء الصوت:

- لهذا وُجِدَ على الأرض مَن قال ذات يوم إن الملح المادة العزيزة على الله، وهناك مَن استعمله في طقسه الديني ليصل قلبه بالسماء، وهناك مَن جرَّبه في أعمال السحر، ويوجد من ظن أنه يضرم العشق، ويشعل الشهوة، فيزيد الخصوبة، ولهذا كان رهبان يمتنعون عنه حتى لا يُسقطهم في سطوة اللذة.

ضحك «سمحان»:

- أنا أريده لأكل العيش.. العيش والملح، ومعي لن يزيد به قلق الاشتهاء، بل الصبر على كل المكاره.

- طريقك الطويل إليه هو الذي سيعلمك الصبر، وأمورًا أخرى.

وصمت الصوت، وزمجرت الريح، وثار غبار لوث السحب الصافية، وبانت صخور الملح في الأسفل كأكوام قطن مغبرة، وجاء عواء ذئاب رابضة في بطن الكهوف، واهتزت القُلة في يده، لكن ماءها لم يسقط.

وقال صاحب الصوت:

- لن تطير إليه كحالك الآن، لكن ستمشي خلف بعير سمين، وستعرف معه كيف تتمهل وأنت تلتقط حبات رزقك المبعثرة على اتساع الأرض.

وسمعه «سمحان» وهو يهبط إلى الأرض على مهل:

- أنصت مليًا إلى مَن يصحبك في الرحلة، فمعه نور كما معك، ونوره على نورك، سيجلي لك الطريق.

ووجد قدميه تحطان فوق الصخر، والشمس تترنح عند شط النهر الغربي، ونظر فإذا بقرية «جبل الطير» عند السفح أمامه، سار نحوها وهو يعرف أن المكان الذي كان يحلق فيه قبل قليل يحتاج منه إلى أسابيع ماشيًا حتى يبلغه.



# 64

في اليوم التالي ذهب إلى «أبو برهان» ليقف على خبرته في جلب الملح من أعالي الجبال، ويستشيره في شراء بعير. حين وصل إلى البيت المعلق في وجه الريح، والذي يبدو من بعيد علبة ملونة وسط بساط أخضر يعانقه من قريب جبل أشم مائل للاصفرار، وطريق أسفلتي أسود، يعتلي أزرق النهر.

حين اقترب سمع سعالًا متواصلًا، ينتهي بشهقات حادة، تخرج من صدر رجل جالس على حصيرة صغيرة إلى جانب الدار، ووجهه إلى الجبل. ولمَّا رأى الرجل «سمحان» استند على عصاه وركبته، وقام نصف قومة، لكن ضيفه أسرع إليه، وصافحه وأجلسه بهدوء، ثم جلس إلى جانبه.

كان «سمحان» قد اصطحب معه صندوق عمه «رشيد» ولم يستبقِ منه سوى الكراسة التي وجدها في «طهنا الجبل»، حمله على الحمار ومشى خلفه حتى لا يثقله بحمولة زائدة، وحين وصل أنزله بمساعدة جيران «أبو برهان»، وفتحه ليلقي عليه نظرة أخيرة. وجاء «برهان» فقال له:

- هذه كتب مفيدة، إن قرأتها ستزيدك علمًا.

تهللت أسارير الذي صار على أبواب الصبا، وأقبل على الصندوق في شغفٍ يُقلب الكتب، ويطالع عناوينها والفرحة ترقص في عينيه. وجرى نحو «سمحان» وقبّله في خده من فرط الامتنان، وشعر لحظتها أن آفاقًا جديدة في حياته قد انفتحت، وأنه سيصبح بعد أن يلتهم سطور كل هذه الكتب غير الذي كانه.

ونادى «أبو برهان» زوجته كي تعدّ كوبين من الشاي، وكانت لا تزال قادرة على المشي متوكئة على الهواء، وإن كان ظهرها قد احدودب قليلًا.

وقبل أن يسحب آخر رشفة شاي من كوبه كان قد نال ما يريد، إذ أرسل الرجل ابنه «برهان» فجاء بجارهم الذي كان في أواسط عمره، بدينًا ذا أوداج منتفخة، وعينين ضيقتين يطل منهما جشع، جعله يغالي في ثمن الجمل، الذي عرضه للبيع، وأخبر بهذا سماسرة في القرى المجاورة. لكن «أبو برهان» تدخل، وكان يبدو أن له عليه كلمة، وأقنعه بأن يخفض الثمن، فقبل على مضض، لكنه فوجئ بـ«سمحان» ينظر إلى صاحب الجمل ويقول له:

- سأشتريه بالثمن الذي أردته في البداية.

استغرب الرجلان، لكنه نظر إلى البائع، وقال:

- لا أريد لك أن تتضرر، فيطاردني ندمك أينما أذهب.



الأهم من ثمن الجمل كان هو الطريق إلى الملح، هكذا يعرف «أبو برهان»، ولذا قال له وهو يهم واقفًا ليقفز فوق الجمل الذي أناخوه له:

- الجمل أسهل ما في المهمة، أما الأصعب فهو الطريق.

لكن الطريق لم يكن مشكلته، بل الخوف من أن تسرق التجارة منه وقت المعرفة والتذوق. وطمأنه «أبو برهان» دون أن يدري:

- سيكون وقت طويل ملك يديك وأنت تسير خلف جملك، فلتسرح فيما تشاء، لكن لا تنسَ أن تُسلي الجمل بالحداء، وتُسلي نفسك بالغناء.

وحدد في هذه اللحظة ما الذي سيشدو به، وما الذي سيفكر فيه، منتبهًا أو شاردًا. وجرى هذا في التو حين امتطى جمله، وعاد إلى بيته، لتمضي حياته سنين بين الجبل والزرع، بين الملح والقمح.

وحيدًا كان يسلك الفجاج والمدقات المتعرجة بين كتل الصخر الهائلة، وصوت حدائه وغنائه يرن في الخلاء العالي، كان يمضي ويترك الصدى وراءه، وحين ينصت ولو بعد أيام يجد الصدى آتيًا، والجمل يهز رأسه سعيدًا بالموسيقى التي لا تنتهي.

ثلاث رحلات في السنة الواحدة كانت كافية ليختلي بنفسه وقتًا طويلًا. وكان يجد صوت «عبد العاطي» يهتف في أذنيه أحيانًا:

- رعى أنبياء الغنم كي يجدوا وقتًا للتأمل، أما أنت فيكفيك الملح.

كان يرى صورته محفورة على الصخر، وصوته يتردد بين الأفلاق الحجرية العظيمة، لم يكن يصرخ، بل يهمس، لكن همساته تأتي جلية لا لبس فيها:

- لا تُضيِّع الطريق من قدميك.

فيلتفت «سمحان» إلى الطيف ويسأله:

- أتقصد الطريق إلى الملح؟

يتبسم ويرد:

- بل الطريق إلى مَن خلق الملح.

صرة واحدة من كسور خبز لا تتيبس كالصخر الذي يملأ عينيه من كل الاتجاهات، وقُلة ماء لا تنضب ولا يجف ريقها، وحذاء لا يبليه الحصى، وجمل وديع كالحملان، وقبل كل هذا قلب عامر بالرضا، ولسان يلهج بالتسابيح.

كان جيبه مملوءًا بنوى التمر الذي تساقط من النخلة التي دفن بالقرب منها «عبد العاطي»، وكان يغرس إحداها كلما وجد، وهو ماضٍ على مدقات تتسع وتضيق، بقعة صغيرة خضراء، تحضن نبعًا أو تعانق سحابة. ومع توالي السنين أخذ النخل يتقاطر بين أفلاق الصخر، بعضه يضرب بجذور عفية في الرمل والحصى، وبعضه يقاوم الصهد والعطش بأوراق صفراء ذابلة تتوحد مع لون الأرض التي يقف فيها مترنحًا. وفي الذهاب والإياب، كان «سمحان» يسكب تحت الجذور دفقات من قُلته التي لا



تنضب، فترقص الجذوع الصغيرة، وتعلو قليلًا تريد أن تصل إلى رأسه فتقبله.

كان سعيدًا بما غرست يداه، لكن سعادته الغامرة خلقتها تلك الفرصة العظيمة التي أتيحت له كي يغوص في نفسه، ويُصفِّي كل ما علق بها من شوائب. إنها النصيحة التي أسداها إليه «عبد العاطي»، وها هو يشعر أن روحه ترفرف فوق الطريق الذي يسلكه إلى الملح في الذهاب والإياب، وصوته يهمس في أذنيه، ليواصل النصائح والتعاليم.

ومرت سنوات حتى تسلل الملح إلى جسده وروحه، حط بعضه على رأسه فاشتعل أسفل فوديه شيبًا، رغم أنه لم يبلغ الأربعين بعد، وحط في نفسه، فازدادت بياضًا كتلك القطع الجوانية المطمورة والتي يصل إليها بعد أن يكسر الطبقات والصفائح العليا والسطحية للصخر الناصع، كما تمرَّس على الصبر وطول البال، فأصبح حليمًا حكيمًا صموتًا، يتأمل ما في داخله أكثر من انشغاله بالتفكر في كل ما يسمعه من الآخرين.

وكلما كان يذهب ويعود يجد «جميلة» قد ازدادت حضورًا: جسد يقاوم تصاريف الزمن، وروح تفيض بالجمال، ونفس يتسع في جنباتها الرضا والسكينة. وهذه السمات الرائعة جعلتها سندًا لزوجها.

وكان يقول لها في تبتل:

- كلما نظرت إليكِ أحببت الله أكثر لأنه خلق فأبدع.. هذا بحق أحسن تقويم.

لم تكن تعينه على تدابير الحياة فحسب، بل أيضًا على نفسه. فكل ما تعلّمته في الدير من ضرورة الاستجابة لنداء الروح، كانت تقوله له، نعم لم تتمكن هي من أن تكون استجابتها لنفسها على القدر الذي أراده لها أولئك الذين أخذوا بيدها إلى طريق الرهبنة، لكنها عاشت مؤمنة طيلة الوقت بأن هذا الطريق ليس فاشلًا، إنما هي التي فشلت في السير فيه، وأن بكل خطوة من خطواته ما يمكن أن يستفيد منه كل مَن يريد لروحه أن تسمو وتطير محلقة في الآفاق البعيدة جدًّا، ولهذا كانت دومًا مفيدة لـ «سمحان» في كل ما تقول وكل ما تفعل. يسألها فتجيب، ويستنطقها فتنطق، وقبل كل هذا يراها كيف تتصرف مع أمه ومع الجيران.

كل الجارات أحببن «جميلة»، ولم تعد أي منهن معنية بأن تطيل النظر إلى الصليب الأزرق الراقد في بطن معصمها. حتى أم «سمحان» لم تعد تراه، وإن رأته فإنه لا يثير في نفسها أي شيء حيال زوجة ابنها، لا كراهية ولا حتى غصة أو شعورًا بأنها قد أُجبرت على تقبل ما جرى. بل كان الأمر على النقيض تمامًا، إذ كانت تطيل النظر إلى وجهها الحسن وتملأ رأسها بفعلها الأحسن، وتقول لها: «ابني محظوظ لأنكِ أنت نصيبه».

وحين جاءها الموت طلبت أن تُغمض عينيها في حِجر «جميلة»، نظرت ليلتها إلى «سمحان» وقالت:

- لم أُخلّف بنتًا لأموت على حجرها وهي بنتي.

ابتسم متغلبًا على أحزانه وقال لها:



- وأنا لا أعتبرها حبيبتي وزوجتي فقط، بل أختي وصديقتي أيضًا.

وبهذه الأدوار الأربعة عاشت «جميلة» مع «سمحان» سنوات العمر، انتفخ بطنها مرة لكن حملها لم يستقر، فأجهضت بعد شهر واحد، ومن يومها لم تحمل، فاعتبرها هو ابنته، واعتبرته هي ابنها، وتساند كل منهما على الآخر، ومرَّ قسط من العمر هادئًا.

فبين الرحلة وأختها كان «سمحان» يقيم حضرات الذكر أمام داره، ومع الأيام صار له مريدون، يأتون عقب صلاة العصر، يحملون جرادل الماء ويرشون الأرض لتنفث صهدها، وتلين تحتهم وهم جالسون بعد العشاء يرددون ما حفظوا من «دلائل الخيرات»، ويطوحون رؤوسهم غائبين عمَّن حولهم، وآذانهم مشنفة بأناشيد ترتجف لها القلوب:

أبدًا بذكرِكَ تَنْقَضِي أوْقَاتِي   مَا بَيْنَ سُمَّارِي وَفِي خَلَوَاتِي
يَا وَاحِدَ الحُسْنِ البَدِيعِ لِذَاتِهِ   أنَا وَاحِدُ الأحْزَانِ فِيكَ لِذَاتِي
وَبِحُبِّكَ اشْتَغَلَتْ حَوَاسِي مِثْلَمَا   بِجَمَالِكَ امْتَلأَتْ جَمِيعُ جِهَاتِي

ومع الأيام جذبت الحضرة كثيرين من القرى المجاورة، بل عبر رجال النهر قادمين من الغرب ليغسلوا أرواحهم هنا بين بيوت الطمي والصخر، بصوتٍ ندي لرجلٍ غريبٍ، يهبط عليهم في ليالي الحضرات من الجبل، ويذهب إليه حين تنتهي، وكل ما يعرفه عنه المريدون أن شيخهم «سمحان» قد قابله ذات ليلة وهو راجع خلف جمل الملح، وأنصت إلى نشيده وبكائه فدلّه على الحضرة.

وهمس بعض المريدين في آذان بعضهم:

- يبدو أنه ملاك ساقه الله أمام الشيخ وهو راجع فالتقطه كما التقط السيارة يوسف ويأتي به لتطير لإنشاده قلوبنا.

وحين سألوه ذات يوم:

- من أي بلد أنت؟

أجابهم على الفور:

- من «عرب الشيخ محمد».

كانوا يعرفون هذه القرية الواقعة على بعد أميال من هنا في قمة الجبل، لكن بعضهم لم يصدق هذه الرواية وأصر على أن صاحب هذه الحنجرة لا يمكن أن يكون بشرًا. وحين كانوا يواجهون أقوالًا من قبيل:

- الملائكة أجمل من هذا الرجل بكثير.

كانوا يرددون في ثقة غريبة:

- أراده الله أن يكون على هيئتنا.

لكن شيخهم ابتسم وقال لهم:

- هو منكم ولا أزيد.

وحين ألحوا عليه في أن يخبرهم بمسقط رأسه، ردَّ في حسم:

- قلت ولن أزيد.



واطمأنوا إلى ما قاله لهم، حتى جاءت ليلة قرر فيها الرجل أن يبيت في «جبل الطير»، بعد أن داهمه إرهاق شديد، وأشفق عليه «الأحباب» من أن ينبعث في الليل الموحش بينما الذئاب تعوي بقسوة من فرط الجوع.

ذهب مع أحدهم، ولمَّا أوغل الليل راحلًا، وأمام راكية نار مدسوس فيها براد يغلي، قال لصاحبه:

- انتشلني الشيخ من طريق الهلاك.

نظر إليه متعجبًا، لكنه لم يدع عجبه يطول، فواصل:

- كنت قاطع طريق، لا أرحم مَن يقع في يدي، أسلب كل ما أجده مع ضحاياي، إلى أن وضع الله الشيخ في طريقي. خرجت عليه من مغارة في ليلة لا أنساها، وأردت إيذاءه، فلمَّا مددت يدي لأطلق النار في الهواء لأخيفه، وأسرق جمله بما عليه، وكنت أعتقد أنه شيء ثمين، وجدت أن البندقية تخشبت بين أصابعي وكأنها عصا معوجة مقطوعة من شجرة سنط عجوز. هكذا شعرت وقتها بأن ملمسها تغير، وجيوش من النمل راحت تغزو جسدي، وزغللة رقصت في عيني، وذهب عني صوتي وكأني أخرس. وحين صرخ في وجهي: «الله أكبر»، سقطت مغشيًا عليَّ، وحين أفقت وجدته واقفًا فوق رأسي يبتسم.

مدَّ الرجل يده إلى النار، ورفع البراد، وهو تائه فيما يسمع، ثم صبَّ الشاي الأسود في كوبين من الصاج الأبيض، ومدَّ أحدها إلى المنشد، الذي كان قاطع طريق، وشفط هو رشفتين، وأرهف أذنيه ليسمع جديدًا:

- لا تغرَّنك هيئتي، كنت موظفًا مجتهدًا أعيش في «بندر المنيا»، وتلاعب بي رؤسائي، قتلوا واختلسوا هم واتهموني أنا، وحوكمت وصدر بحقي حكم بالسجن المؤبد، وتمكنت من الهرب، ولجأت لأهل أبي في «عرب الشيخ محمد» فسلموني إلى المطاريد، ووجدت نفسي قد انتقلت من سجن إلى سجن، ومن جحيم إلى جحيم، فهربت منهم، وعشت في مغارة، أسطو على مارة يعبرون من أمامي على فترات متباعدة، إلى أن أوقعني القدر في الشيخ «سمحان»، كان يمر بي في ذهابه إلى جبل الملح وعودته، ويجلس معي ساعات طويلة، وكنا نقيم حضرة سويًّا، وأحفظ معه كل المدائح التي أشدو بها، ويعلمني ما هو أبعد، وعلى باب المغارة غرس لي نخلة وكان يسقيها من قلته كلما جاء. ضرب بيده الصخر فانكسر ودفعه فانزاح بعيدًا وظهرت تحته بقعة رمل ناعم، غرس فيها النواة وسقاها.

كان منصتًا إليه جيدًا، وبعد أن توقف سأله:

- وبعد أن ننتهي من الحضرة، أين تذهب؟

- إلى المغارة.

- أبعيدة هي؟

- أمشي ساعتين، لكن لا يأتيني النوم إلا فيها.

ابتسم وقال له:

- يمكننا أن نجد لك غرفة ببلدنا تعيش فيها.



هزَّ رأسه رافضًا:

- السجن ورائي، فالعقوبة لم تسقط بعد.

لم تمضِ أيام على ما همس به المنشد في أذن صاحبه، حتى نقله إلى أحبابه من المريدين، وبعضهم تحدَّث به في البلدة، فانتقل الخبر إلى البلاد المجاورة عن طريق الرجال الذين يعبرون النيل لشراء مواشي وغلال، أما السيدات اللاتي يذهبن إلى سوق الاثنين لبيع السمن والجبن فقد نقلن الخبر إلى البندر.

لم يعرف أي من ناقلي الخبر اسم قاطع الطريق الذي هداه الله على يد «سمحان»، فاسمه لم يكن يهم أحدًا، إنما ما أظهره الشيخ من كرامات، وسرد كل واحد من قريحته ووجدانه ما شاء، عمدًا أو دون قصد، فأضيفت إلى ما جرى أشياء أخرى، واختلق البعض جديدًا. ولمَّا وصلت الأخبار إلى أذني «سمحان»، ابتسم وقال لنفسه: «ما الذي كان يمكن أن يقولوه لو عرفوا كل ما جرى في الليالي الغريبة».

لم يكتفِ الناس بالسماع بل هرع كثير منهم إلى «جبل الطير» لينهلوا من فيوضات الشيخ. مريدون يسعون وراء الذكر، ومرضى أتعبهم انتظار الشفاء بعد أن ترددوا على أطباء كثر، وأثرياء سطا لصوص على بيوتهم وحظائرهم ويريدون أن يصلوا إليهم ليستردوا ما ضاع منهم. ودعاه أهل الطريق فعبر النهر إليهم في الغرب، وسار يمينًا ويسارًا ليقيم حضرات عامرة بالذكر، جذبت إليها الناس، فحكوا في كل مكان، ليصل صيت الشيخ إلى البلدان كافة.

لم يسعَ هو إلى أن يتكلم الناس عنه، وكان يهرب من أولئك الذين يمدحونه في وجهه، ويكاد يحثو التراب في وجوههم، ويحرص على أن يقول طيلة الوقت:

- أنا عبد فقير إلى الله، لا أملك أن أنفع نفسي ولا يمكنني أن أضر أحدًا.

ولم يأتِ الناس إليه فارغي الأيدي، بل حمل كل منهم أجود ما يستطيع، لكنه لم يقبل كل شيء ومن أي أحد، وإن قبل شيئًا لا يدخله بيته، بل يوزعه على مريديه وفقراء القرية وكل قاصديه من فقراء البلدان المجاورة.

كانوا يأتون إليه فيجدونه في خلوته، التي هي غرفة عمه «رشيد»، وتستقبلهم «جميلة» بابتسامة لا تفارق محياها، وتجلسهم على الدكة والحصير المفروش تحتها، وتدخل إليه، فتجده عارفًا بمَن أتى وبما أتى، فيقول لها خذي هذا وارفضي ذلك، وحين سألته ذات ليلة عن أسباب القبول والرفض، قال لها:

- أشم رائحة الحرام عن بعد فأجتنبه.

وكانت أعطيات الناس تتفاوت حسب قدراتهم، فأحدهم جاد ببقرةٍ بعد حضرةٍ أقامها الشيخ في بلدة غرب النهر، وآخر جاد بديكٍ أحمر. ولا تعرف «جميلة» لماذا أبقى عليها في داره، رغم أنه كان يعطي كل ما يأتيه للفقراء، يومها اكتفى بالقول:



- الديك ينبهني قبل الفجر بصياحه، والبقرة فيها سر.

وحين رفضت البقرة أن يلمسها أي عجل فهمت «جميلة» أن السر هو أن البقرة لن تلد، وستعيش عالة عليهما، لكن السر كان أبعد من هذا.

كانت الخلوة تطول ساعات في الأسابيع التي تفصل بين رحلة البحث عن الملح وأختها، وكانت آخر الرحلات مختلفة، إذ اصطحب «سمحان» فيها «برهان»، الذي جاءه ذات مساءٍ وقال له:

- ضاقت الدنيا بعد وفاة أبي، ومرضه الأخير أكل كل ما ادَّخره، واشتريت من جارنا جملًا بالآجل، وأريد أن أذهب معك لآكل عيشًا.

نظر إليه «سمحان» وسأله:

- إذا كان الأمر يتوقف على نفقات دراستك فيمكنني تدبيرها لك.

هزَّ رأسه بامتنانٍ وقال:

- سأذهب معك في رحلات الصيف فقط، وأريد أن آكل أنا وأمي من عرق جبيني.

وجاءه قبل يوم من أول رحلة لهما، وجلس إلى جانبه، وفرد أمامه على الأرض خريطة، ومرَّر إصبعه فوق بقعٍ صفراء، وبنية، وأخرى خضراء قليلة ومتناثرة، حتى حط إصبعه على واحدة بيضاء، وقال:

- هنا الملح.

ابتسم «سمحان» وربَّت كتفه وقال:

- اطوِ خريطتك، فما على الأرض أعقد مما يظهره الورق.. أنا ذهبت إلى هناك ووصلت إلى الملح بلا خرائط.

أنصت قليلًا وردَّ عليه وهو يكظم غيظه:

- الصحراء مملوءة بالأدلَّاء وقصاصي الأثر، وهم في خدمة مَن يدفع لهم.

عاد «سمحان» إلى الابتسام وهو واعٍ لما يرمي إليه هذا الشاب، ولم ينسَ، رغم ابتعاد السنين، ذلك الحوار الذي دار بينهما عند ألعاب الحظ في مولد العذراء. نظر إلى «برهان» مليًّا ثم قال:

- هناك ما هو أبعد من الخرائط والأدلَّاء يا صديقي الصغير.

قهقه «برهان» وسأله مستنكرًا:

- هل ينزل عليك الوحي؟

- ليس وحيًا بالطبع.. لكن ما هو أبعد من العقل.

صمت قليلًا ورد:

- الشعور والتخاطر لا يمكن نكرانهما، لكن ليس لدرجة أن يقوداك إلى الملح حين تكون جاهلًا بمدقات الجبل ومنحنياته الوعرة.

- علم الله لا حدود له، ويهبه لمَن يشاء.

- أنت ولي إذن!

- بل عبد فقير إلى الله، لا يطمع إلا في رضاه.



ظهرت على وجهه حيرة، بعد أن فاضت من عينيه، ونقل قدميه على الأرض كأنهما قد التهبتا فجأة، وقال له بصوتٍ خفيض:

- ما الذي يجعلني أصدقك؟

- أنا في حلٍّ من أن أُظهر لكَ شيئًا، وما كان يمكنني أن أتحدث في هذا لو لم أرَك معجبًا بعقلك، وتعتقد أنه فيه وحده الخلاص.

- هل تنكر أن العقل هو طريقنا إلى الله؟

- لا أنكر، لكن الأمر يحتاج إلى خفقان القلب وثراء الخيال، وهناك مَن يسلك طريقًا آخر، والناس فيما يعرفون مذاهب.

- أنا مذهبي في رأسي، ووكيل الله عندي هو عقلي، وهو يكمل مسيرة الوحي في نظري ولا يعارضها.

- أنت حر، لكن لا تنكر على الآخرين مذاهبهم.

هزَّ «برهان» رأسه، وكان من الصعب عليه أن يُسلِّم بالهزيمة، فتدحرجت فيه فكرة جيدة، دفعها إلى لسانه ونطق:

- لو افترضنا أنك تسمع وترى وتفعل ما لا يتأتى للآخرين، فكم على وجه الأرض مثلك؟ إنكم قلة، قد تعدون على أصابع اليد في هذا الزمن الذي ظهر فيه الفساد في البر والبحر والجو، أما مَن يستخدمون عقولهم من أجل بلوغ غاياتهم فهم سائر الناس، ما عدا البلهاء والمجانين، فكيف نركن إلى ما لا نملكه ونترك ما لدينا؟

وأراد أن يقـول لـه إن النفـوس لو صفت تمامًا بالمجاهـدة كان لها ما تريد، وأن يتلو على مسـامعه: «مَن عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقـرَّب إليَّ عبدي بشـيء أحـب إليَّ مما افترضت عليـه، و لا يزال عبدي يتقـرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سـمعه الذي يسـمع به، و بصـره الـذي يبصر بـه، و يده التي يبطـش بها، ورجله التي يمشـي بها، ولئن سألني لأعطينه، و لئن استعاذني لأعيذنه».

أراد أن يقـول هـذا، لكنـه آثـر الصمـت اتقـاءً للجدل، متذكـرًا ذلك الحوار الطويل الذي دار بينهما قبل أسـبوع، حين كان «سـمحان» يعزي فـي وفـاة «أبو برهان»، حيث أخبره أنه لا يُقر بكل الروايات التي نُسبت إلى الرسـول الكريم، وألقـى الكلام في وجهه: «لا يمكن لنصٍّ شـفاهي أن يتداوله الناس مائة وخمسين عامًا ويبقى على حاله، ثم يأتي مَن يدونه وينسبه إلى النبي».

كلام هـزَّ رأس «سـمحان» يومهـا، وتعجَّـب مـن أن يصـل إليه عقل طالب يدرس الكيمياء في السـنة الثالثة من كلية العلوم، فسأله عمَّن ألقى في رأسه هذا الفكر، فعلم أنه يذهب إلى أستاذ فلسفة بكلية الآداب يرأس «الأسرة الجامعية» التي هو عضو فيها.

بلع الكلام الذي أراد قوله، فهو أيضًا لا يقف عند حد «العلم الكسبي»، بل يتعداه إلى «العلم اللدني»، واكتفى بالابتسام والقول:



- كيميائي شـغلته الفلسـفة، فكيف له أن يُسـلم بكل ما يسـمعه، ويمشي أعمى وراء مَن يشير إليه بإصبعه زاعمًا أن قدميه تتقدمان على الصراط المستقيم.

قهقه «برهان» حتى كاد يسقط على قفاه، وقال:

- لهـذا أبلغنـي زميـل بالجامعة، لحيته تـكاد تحط على ركبتيـه، أنه يكره الكيمياء والفلسفة؛ لأنها مواد لا تعتمد على الله. الأولى تغير ما خَلَقه، والثانية تفسد عقول خلقِه.

وشرد قليلًا وعاد يقول:

- لكنني لا أنكر أن هناك أشياءَ وراء العقل تحدث في هذا الكون.

استحسن «سمحان» ما سمعه وسأله:

- هـل هـي وراء العقـل لأنها أمـر خرافـي أو اعتباطـي، أم لأن العقل لا يدركها بإمكانياته التي نعرفها؟

فكَّر مليًّا في الإجابة ثم نطق:

- عقلي حدوده ما أسـمعه وأراه وألمسـه وأتذوقه وأشمه، لكن لا أعتقد أن هذا كل شيء.

- يعني هذا أن هناك ما هو خارج تلك الحدود؟

ابتسم «برهان» وردَّ في هدوء:

- إلى جانب هذا، أشعر بالحرارة والبرودة، والعطش والجوع، ويؤلمني الوجع وتقلقني حكة جلدي والسعال، وأدرك مرور الوقت والسير في الاتجاهات الأربع، وأشعر برغبتي في التبول والتبرز.

- هل يقف الأمر عند هذا؟

- لا، أؤمن أن الله كما منح بعض الناس قدرات جسدية هائلة، فقد منح بعضهم قدرات روحية خارقة، لكن هؤلاء قلة، قطرة في بحر، أو حفنة رمل في صحراء وسيعة، والقطرة لا تُغني عن البحر، والحفنة لا تكفي بديلًا عن الصحراء.

- لا نختلف ولكن...

قاطعه في لطف، وهو يدوس بثقة على المدق عند مساحة من الرمل اللدن، بما جعل آثار قدميه محفورة وراءه بوضوح، وكأنه يطبعها على أرض مرويّة:

- الأغلبية الكاسحة من البشر في كل زمان ومكان تعتمد على العقل، ولولاه لعاش الناس في الغابات يأكل بعضهم بعضًا.

هزَّ رأسه وردَّ عليه:

- العقول لا تغني عن الأرواح، وكل منّا في حاجة إلى أن يمتلك طاقة روحية تعين عقله على السمو وجسده على التسامي.

- لكن أصحاب الطاقات الروحية الفائقة في النهاية لم يفيدوا البشرية بقدر ما أفادها أصحاب القدرات العقلية الفذة.



- كأنك تنكر دور الأنبياء والأولياء والقديسين؟

- لا طبعًا، لكن حتى هؤلاء أعملوا عقولهم في كثير من الأمور.

- عقولهم لم تمنحهم ولم تعطِ غيرهم شيئًا مذهلًا أو فارقًا، إنما أرواحهم هي التي فعلت هذا.

- لكنهم كانوا في حاجة إليها ليدبروا شئون دنياهم، وأغلب أوقاتهم أداروها بعقولهم.

- لكنني لا أفصل بين ما يهديه المخ والقلب معًا لنا، إنه الفؤاد الواقف بين الاثنين يشدهما ليتلاقيا، أو هو حاصل جمعهما وامتزاجهما، إنها البصيرة التي هي أعمق بكثير من البصر.

- أنا لا أفصل مثلك، لكن قدراتي العادية تجعلني أعطي العقل الوزن الأكبر في الوصول إلى الحقيقة، وفي ترتيب علاقتي بالله والكون والعالم.

- أما أنا فتجربتي مختلفة، وهي تجعلني أنتظر دومًا ما فوق العقل.

- مثل هذا لم يتأتَّ إليَّ أبدًا ولا أنتظره.

- لكنك يمكن أن تؤمن به إن رأيته لدى غيرك.

- طبعًا، هذا مفروغ منه.

- وقد تعاينه بحواسك الخمس، وعندها لا مناص لك من أن تُسلِّم به.

- قطعًا، لكن لن أنسى أن هذا ليس سمة مشتركة بين سائر الناس، مثل العقل.

- معك حق، فطيلة حياتي لم أقابل سوى رجل واحدٍ فتح الله له فرجة في جدار الغيب، بينما قابلت آلاف الناس يستعملون عقولهم لتخمين ما سيأتي، وتدبير ما يجري.

أراد «سمحان» تجنب الجدل لكنه استدرج إليه، وبدا أمامه «برهان» مزهوًّا بنفسه، وبان هذا في عينيه، ولم يكن قد رأى بعد من الرجل ما هو فوق العادة، إذ كانا لا يزالان في بداية الطريق. وتوقفا تحت نخلة، وتركا بعيريهما يرعيان العاقول المتناثر هنا وهناك كأنه قنافذ ضخمة تقف متحفزة وسط الرمل.

فَرَد «سمحان» صرة الأكل ووضع إلى جانبهما قلة الماء، وراحا يلوكان الخبز والجبن القديم والعسل الأسود والبصل الناشف، ورأيا بالقرب منهما نملة تحمل فوق ظهرها قطعة من تمر، أكبر من حجمها وأثقل بعشرين مرة على الأقل، وتدب في معاناة شديدة، محاولة أن تتسلق حجرًا لتصل إلى الجحر، وحين تسقط منها قطعة التمر لا تيأس، بل تعود من جديد لتحملها وتحاول الصعود.

نظر إليها «سمحان» وقال:

- إنها الإرادة يا صديقي الصغير، التي تمنحها الروح. فعقل النملة ينبئها أن وزن قطعة التمر كبير، لكنها تحاول بفعل ما توحيه لها إرادتها.

أراد أن يكسب وقتًا حتى يتمكن من الرد:



- لم أفهم قصدك هذه المرة؟

- هناك ما هو أشمل من العقل، لكن ذلك لا يقلل من قيمته، ويجعل ما يتم به أكثر وثوقًا.

ولم يسلِّم الفتى بالهزيمة، بل فاجأ الشيخ بقوله:

- هناك نملة جرَّبت قبل آلاف السنين أن تحمل قدر وزنها عشرين مرة أو يزيد ونجحت، ونقلت التجربة لكل ما جاء بعدها من النمل، فأصبح يعقل أن هذا ليس مستحيلًا، وذلك ما تدركه النملة التي تراها الآن.

- أنت تلف وتدور حول إيمانك بأن العقل هو المسيطر في كل الأحوال، وأنا أراه مسيطرًا في بعض الأحوال، وهناك دومًا ما هو فوقه وأبعد منه، وخارج سيطرته.

- صحيح، لكن ما هو في نطاق سيطرة عقولنا هو الذي يمسنا كثيرًا وبلا انقطاع ويؤثر في حياتنا، وبوسعنا أن نصححه ونغيره ونعززه، أما ما هو خارج السيطرة فنحن عاجزون عن فعل شيء معه، وقد لا نشعر مباشرة بتأثيره علينا، ولهذا فإن حاجتنا للعقل تظل أكبر وأدوم.

- أنت تعتقد أن مَن يؤمن بالبعيد والخارق والغيبي يرفض العقل بالضرورة، أو يحقر من شأنه، هناك فعلًا مَن يفعل ذلك، لكنني لست منهم، ولن أكون.

# 65

هكذا كانت رحلات الملح فرصة لحوارات مطولة بين الاثنين، ففتح الشيخ «سمحان» رأس «برهان» على الخيال، وفتح الأخير رأس الشيخ على الواقع، واختلطت المعادلات بالكرامات، واتسعت المدقات التي تتلوى بين أفلاق الصخر كثعبان هائل، ولان الحصى تحت الأقدام التي تسعى في ثقة نحو الصخر الأبيض، لتقضم منه على قدر ما يحمل البعيران، ثم تعود إلى النقطة التي بدأت من عندها.

وهكذا حتى جاءت الرحلة الأخيرة، فـ«برهان» على وشك الالتحاق بالسنة الرابعة في كلية العلوم، وبعد التخرج ينتظره موقعه معيدًا بالكلية، فهو أول دفعته منذ السنة الأولى، ولا يجاريه أحد من زملائه. أما «سمحان» فإن موقفه تحدد قبل أن تنتهي الرحلة، التي صارت الأخيرة.

في الطريق عاين «برهان» بنفسه القُلة التي لا ينضب ماؤها، وصُرة الخبز التي لا تنفد، ورأى النخيل النابت في قلب الصخر، وكتل الملح التي تتصدَّع كلما وضع «سمحان» كفيه عليها، والجملين اللذين يسيران على الأرض خفافًا وكأن ظهريهما خاليان، والذئاب التي تطل من فوهات الكهوف والمغارات وتعوي ثم تهز ذيولها وألسنتها، وكأنها



الكلاب شبعى مستأنسة، وتربض مكانها أو تعود لتدس أجسادها في الظلام البارد وكأنها لم تكن.

كل هذا رآه وأدرك منه أنه يمشي مع عبد ربَّاني، لكن ما رأى لم يشككه أبدًا في أهمية أن تكون لعقله السيادة، ففي حياته التي مر فيها آلاف البشر، لم يرَ أيًّا منهم يملك ما عند الشيخ «سمحان»، بل إن أغلبهم يفشل حتى في تفسير رؤى الليل وأحلامه، ويتحير في اتخاذ قرار سليم ينجيه من الخسارة أو يجلب له المكسب، مهما تضاءل حجم ما يخسره، وتعاظم مقدار ما يكسبه، ولا يملك حيال ما يحزنه وما يسعده سوى التفكر والتدبر.

لكن «برهان» تعلَّم أن وظيفة ما في رأسه الآن، وما ينتظر أن يحل فيه من علم طيلة الوقت، هي أن يكشف أمامه المجهول، ويجلي الغامض، ويفتح كوة في جدار الغيب السميك، إلا أن المجهول والغامض والغائب سيظل دومًا كبيرًا كبيرًا، فما يعرفه وسيعرفه قد لا يكون في النهاية سوى الجزء الضئيل الطافي من جبل الثلج الهائل. وتذكر وهو يمشي مع «سمحان» ما قرأه منسوبًا إلى «أينشتاين»: «كلما ازددت علمًا، ازددت إحساسًا بالجهالة»، وتلك التي نسي الآن مَن صاحبها: «حين ينتهي العلم يبدأ الدين».

كان شاردًا ولم يشعر بالشيخ «سمحان» وهو ينسل من جانبه ويمضي نحو مغارة تبدو فوهتها أشبه بمقدمة خرطوم فيل يتأهب لالتهام لفة من

البرسيم. كان وجهه متهللًا، ويكلم شخصًا لا يراه «برهان» ويرفع يده ليحييه، وهو يتقدم إليه.

لم يكن سوى «عبد العاطي» الذي بادره قائلًا:

- ألم أقل لك إني سأزورك دومًا.

- لا تخلو رحلة من طيفك، أرى وجهك مفروشًا على الصخر، والآن ها أنت تكلمني.

- كفاك رحلات، وانقطع لمريديك فإنهم يستوحشونك، وحين تغيب عنهم يصيرون يتامى.. على شفاههم جميعًا أن يطلبوا منك أن تكفّ عن الرحيل، لكنهم يخشون أن يغضبوك، فيبلعون ألسنتهم وقلوبهم تدعو الله أن يلهمك بما يريدون، بعضهم يريدك من أجل ما تسمو به روحه، وبعضهم يريدك في سبيل دنيا يصيبها، فاعرف مَن يروم الدين ومَن يريد الدنيا، واحذر ممَّن قد يستعملون اسمك وصيتك في تحصيل ما ليس لهم من جيوب الناس، وليكن ذهنك حاضرًا دومًا لتعرف الفرق بين الأولياء والأدعياء.

- أنا أرحل لأرى مما كنت أراه.

- لن ترى شيئًا مما وقع وانقضى، إنما مما سيأتي، فلا تتعجل.

اندهش، لكنه لاذ بالصمت، بينما واصل «عبد العاطي»:

- كنت في «علم اليقين» تسمع الخبر وتقيسه بالنظر، ثم وصلت إلى «عين اليقين» فشاهدت وعاينت بالبصر، وارتقيت إلى «حق اليقين»



فباشرت ووجدت وذقت وعرفت، وتلك الغاية التي لا تصل إليها إلا حفنة من البشر، لكن إياك أن تتوهم أنك بين الناس وربهم، فيتوسلون بك، ويلجئون لك، فإن فعل بعضهم هذا فانهره في لطف، وأفهمه أنك لا تملك له سوى الدعاء معه لربِّك كي يعطيه ما يطلب.

- رأيت، رغم خوفي، ما كان بديعًا مدهشًا.

- وسترى ما هو أكثر دهشة.

- متى يا شيخنا؟

- كلٌّ بأوانه، فلا تتعجَّل، وعد إلى مريديك والزم جوارهم، ولا تخذلهم.

وقبل أن يرد «سمحان» رفع عينيه فلم يجده، أين ذهب؟ لا يدري. مال على الأرض التي كان يقف عليها الطيف، ومن مكان القدمين غرف حفنة من الرمل والحصى الصغير، وراح يدعك بها وجهه وصدره، ويسحب منها بمنخريه على قدر ما يستطيع.

كان «برهان» يستغرب ما يرى، ولا يجد له تفسيرًا، لكنه انتظر أن يسأل الشيخ عما يفعل. لكن الأخير لم يدعه ينطق بل عاجله قائلًا:

- أنت مندهش وتريد تفسيرًا.

- وكيف عرفت؟

- عرفت بشيء غير العقل.

- أنا أحتار في أمرك.

- لا تحاول أن تجد تفسيرًا لكل شيء، فهناك أشياء لا تحتاج تفسيرًا، وأخرى لا تفسير لها.

- وهل ما كنت تفعله قبل قليل لا تفسير له؟

- له تفسير عندي، لكنه قد لا يكون تفسيرًا عندك.

- قل ما هو ووقتها سأعرف إن كان لديَّ تفسيرًا أم لا.

- كنت أتكلم مع شيخي الذي رحل عن الدنيا قبل سنين، وجاءني اليوم ليوصيني.

- جاءك؟!! أنا لم أرَ أحدًا.

- ولن ترى، لكنني يمكنني رؤيته، وسماع صوته.

استدعى ما قرأه ذات يومٍ عن مرض الفصام، وتمتم بكلماتٍ مبهمةٍ، وآثر أن يصمت ولا يجرح الشيخ «سمحان»، لكنه كان محتارًا، فالرجل الذي أمامه لا يهذي، ولا يحرِّك أي عضوٍ في جسده بطريقة غير مألوفة، ويُقدِّر الأمور جميعًا حقَّ قدرها في رزانة وحكمة، ولا تظهر عليه أي آثار لهذا المرض المخيف سوى ما أقدم عليه قبل قليل، وفي النهاية فهم «برهان» هذا ضمن حالات الرجل ومقاماته، وخوارقه وكراماته التي عرفها، فما الذي يدعو للغرابة إذن؟

ولسعه وأخرجه من شروده قول الشيخ:



- لست مجنونًا، فلا تتعب نفسك في البحث عن سببٍ لما أقدمت عليه.

- لم أفكر لحظة...

قاطعه في هدوء:

- لا تفسد ما بيننا بالبحث عن العلل، فكلانا يحتاج الآخر في أيام عصيبة قادمة.

ارتجف قلب الشاب لما سمعه، وأدرك أن ما هو مقبل عليه مخيف، فقد جرَّب كلام الشيخ «سمحان» من قبل في أمور كثيرة، ولم تُكذِّب الأيام أبدًا ما قاله.

وحين عادا من أول رحلة يدبان في هدوء وراء الملح الراقد في بطون الأجولة، وجدا نفسيهما فعلًا في خندقٍ واحدٍ ضد مَن أنكر على الشيخ «سمحان» أذواقه ومواجيده، ومَن أنكر على «برهان» أفكاره وتأملاته، وأضرم أمامهما نارًا في نارٍ، بعد أن أوغر عليهما قلوب بعض الغافلين.

# 66

لم تخلُ «جبل الطير» كسائر القرى من أولئك الذين يتوهمون أن ما هم عليه هو الدين، وما خلاه باطل، أو بدعة، «وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». هكذا بدا لهم، «سمحان» بقلبه، و«برهان» بعقله، كافرَين والعياذ بالله.

كانوا ينبتون على مهلٍ في الشوارع، خارجين من بيوتٍ لم يتعلَّم أصحابها كيف يردون عليهم، أو يتوقفوا ليضاهوا بين أفعالهم وأقوالهم، فقد كانوا مشغولين بتدبير أقواتهم الشحيحة، تاركين الكلام لهم، يطلقونه كل يوم عقب الصلوات الخمس، ويخرج من المسجد سارحًا في الساحات والشوارع والحارات، ليملأ الفراغات الممتدة بين الجبل والنهر.

كان «سمحان» يقضي أغلب وقته في البلدة بين رحلات الملح، إما في غرفة عمه التي صارت خلوة، أو في مغارة يصعد إليها ويمكث فيها وقتًا طويلًا، يتلو القرآن ويتدبره، ويدون مواعظ وأدعية وتعاليم بقلم رصاص في كراسة كتب على غلافها: «خطوة على طريق الغفران للفقير إلى الله سمحان».



ولم يكن يصطحب معه في رحلته تلك سوى القُلة وصُرة الخبز، وكان ينقطع عن سائر الخلق، ولذا لم يكن يحتك بأصحاب الحناجر الزاعقة، إلى أن قال له أحد مريديه ذات ليلة:

- إنهم يسبونك.

هزَّ رأسه وابتسم:

- الله يسامحهم ويهديهم.

تلمظ المريد وزام دون أن يتجاوز حدود الأدب مع شيخه، لكن الشيخ لم يدعه مكبوتًا:

- لم يعجبك ردي؟
- لا تنطق إلا عن علم يا شيخنا، لكن هؤلاء أشرار، قد لا يكتفون بالسب، ويفكرون في أن تتطاول أيديهم عليك.
- الله خير حافظًا، وأنتم حولي.

رمى بصره عند قدميه وراح يشحذ طاقته حتى قال:

- يتهمونك بأنك ساحر مجنون، وأنك خرجت من دين الإسلام.
- وهل يصدقهم الناس؟
- «الزن على الودان أمر من السحر».
- حتى لو صدقهم الناس، فما يشغلني هو ما يعلمه الله عني.

وساد بينهما صمت، فسمعا حفيف الشجرة الواقفة على رأسيهما، وصفير الهواء في مغارة قريبة، وصوت المراكبي وهو ينادي على أحد

ينتظره على الشاطئ الشرقي، وراق الشيخ «سمحان» وراح ينشد في أذني مريده:

أمنْ بعدِ بذلِ النفسِ فيما تريدهُ ... أُثَابُ بِمُرِّ العَتْبِ حِينَ أُثَابُ؟
فَلَيْتَكَ تَحْلُو، وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وليت الذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صحَّ منك الود فالكلُّ هينٌ ... فكل الذي فوق الترابِ ترابُ

لكن هواجس المريد لم تلبث أن صارت واقعًا مريرًا، فذات ليلة جاء «برهان» لاهثًا وطرق باب بيت الشيخ «سمحان»، وفتح له، فرمى جسمه على الدكة وهو يقول:

- هددوني بالقتل.

- مَن؟

- «أبو حذيفة» ومَن معه.

- لِمَ؟

- اعترضت على ما يقوله للناس في المسجد، فابتسم أمامهم في وجهي، وهو يزجرني بعينيه، لكن بعد صلاة العشاء فوجئت به وحوله عشرة من أصحاب اللحى الطويلة يطاردونني وأنا عائد إلى البيت، وبيتنا كما تعلم معزول، فلو دخلت سيكسرون ورائي الباب وقد يؤذون والدتي المسنة، فلم أجد بُدًّا من أنْ ألجأ إليك.



ابتسم الشيخ «سمحان» وشدَّ على يديه وقال:

- ألم أقل لك إننا سنكون في خندقٍ واحدٍ.

شرد ذهني في خنادق كثيرة، ولم أحسب أنه سيكون هذا الخندق الذي نحن فيه الآن.

وسمعتهما «جميلة» فتدخلت في الحديث:

- أمثال هؤلاء وبال على كل الأديان.

وتحدثت عن طائفة «الأميش» التي ظهرت في الغرب خلال العصور الوسطى لتقاوم الإصلاح الديني، ولا يزال لها قلة من الأتباع في أمريكا، وقالت وهما يتابعانها باندهاش:

- أتباعها يحرِّمون حلق اللحى، ويوجبون حلق الشارب، ويفرضون على المرأة لبس أزياء فضفاضة تغطي جسمها وشعرها، فيلبسن غطاء رأسٍ أبيض إن كُنَّ متزوجات، وأسود إذا كنَّ عزباوات، وأن يُطعن أزواجهن في كل ما يريدون، وأن تكون مهمتهن في الحياة هو العمل على راحة الرجال، وألا يقدن السيارات، كما أنهم حرَّموا التصوير والنحت والموسيقى، وأزالوا وجوه ألعاب الأطفال، وقللوا من أهمية دراسة العلوم وحصروا العلم في الدراسات الدينية، ورفضوا الصلاة في الكنائس، ولا يقبلون أي تغيير طرأ على الحياة، إنما العيش كما جاء في الإنجيل بحذافيره، وعندهم مجلس فتوى يتكون من كبار السن، يتابعون كل ما يستجد ويصدرون رأيًا فيه طبقًا لما يظنون أنها تعاليم الإنجيل

الثابتة، وهم يؤمنون بالانعزال عن العالم ويرفضون مخالطة غيرهم أو الالتزام بقوانين الدولة، ويرفضون استعمال التليفون والكهرباء والنقود إلا مضطرين، ولا يُدخلون أطفالهم المدارس الحديثة.

قهقه «برهان» بعد فترة من الصمت والاستغراب، وقال:

- ما أشبه هذا بما سمعته ممَّن يطاردونني الآن!

نظرت «جميلة» إلى الصليب الأزرق النائم في بطن معصمها، وقالت:

- هذه دوامة لم تنتهِ رغم كل ما بذله المصلحون من جهد، ولا أعلم متى تنتهي؟! كابدت منها كل الأديان، وستكابد إلى أجلٍ غير معلوم.

ضحك «برهان» وردَّ:

- هذا التطرف أشبه بمرض السكر، لا شفاء منه، لكن يمكن احتواؤه لو تعاملنا معه بانضباط وصرامة شديدة.

هزت «جميلة» رأسها نافية وقالت:

- رغم أنني «أرثوذكسية»، فإنني معجبة بما جرى في أورُبا من إصلاح ديني.

ولم يكن «برهان» قد قرأ عن هذا إلا صفحات عابرة في منهج الصف الأول الثانوي، نسي أغلب ما فيها، فلاذ بالصمت، وتطلَّع إلى الشيخ «سمحان» الذي كان يرنو إلى نور يومض وينطفئ عند السفح، ويرتعش قليلًا بين الضوء والعتمة، لكنه لا يكشف شيئًا وسط الظلمة الشاملة.



كان الضوء يقترب وخلفه همهمات لم تلبث أن صارت لغطًا وجدالًا مختلطًا، اقترب من باب بيت الشيخ «سمحان»، وتدفقت الجلبة من النافذة على رؤوس المترقبين في الداخل. دَقُّوا الباب بعنف، وعيونهم تطلق شررًا، فسرى خوف في وجه «جميلة»، وزفرت ساخطة: «هؤلاء وراءنا في كل مكان نذهب إليه»، وردَّ زوجها وهو يقوم نحو الباب: «طوائف شتى يجمعهم هدف مستتر، وظلام يكبس على القلوب والعقول».

حين شدَّ المزلاج وجد أمامه وجه «أبو حذيفة» متجهمًا، وعينيه مفتوحتين عن آخرهما بقسوةٍ، لا ترجفان في دفقات الضوء المنبعثة من كشاف في يده اليمنى. مدَّ بصره من فوق كتف «سمحان» ورماه في صالة البيت، فرأى «برهان» واقفًا عند الدكة، وقد زال عنه خوفه وتحوَّل إلى تحدٍّ واشمئزاز.

أعاد بصره وسلَّطه إلى عيني «سمحان»، وأشار بيده إلى الواقف في الداخل:

- أيتطاول على دين الله وأنت تحميه؟

التفت «سمحان» خلفه، ثم استدار:

- لم يتطاول أبدًا، بل قال رأيه، والدين ليس ضعيفًا حتى يحتاج إلى حماية، وإن حماه أحد فلستم أنتم، ولا يمكنني أن أتخلَّى عمَّن لجأ إليَّ.

نظر إلى أتباعه الذين كانت لحاهم قد أخذت تهتز من الغيظ، وعاد إلى «سمحان» وقال:

- هو شاب طائش، لا يدري ما يقوله، أما العيب فعليك أنت الذي شاب شعرك، ولا تحسن الكلام عن دين ربك، وتتطاول عليه أكثر منه.

ملأت الدهشة وجه «سمحان»:

- أنا؟!

- بشحمك ولحمك.

- فيمَ تطاولت؟

- حديثك أمام مريديك، حين كنت ترد على أسئلتهم، والذي نفيت فيه أن تكون بالقرآن آيات يناقض بعضها بعضًا أو يحتمل تأويلها الشيء ونقيضه، ورفضك لمسألة أن النساء ناقصات عقل ودين.

كان المريدون قد أخذوا يتجمَّعون عند بيت شيخهم بعد أن طار الخبر إلى بيوتهم جميعًا. كانوا يلهثون ويرجون من الله أن ينتهي الأمر على خير، وكانت آذانهم مرهفة إلى شيخهم، لتسمع ردَّه على ما نُسب إليه.

أخذ نفسًا عميقًا، وردَّ في هدوء:

- هذا رأيي، فما الذي يضيرك؟

- يضيرني أن تتعدَّى على الرسول فيما قال، وكذلك الصحابي الجليل «علي بن أبي طالب» كرَّم الله وجهه، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين الذين يؤخذ عنهم.



- أنتم فهمتم كلام الرسول خطأ، إن كان قد قال بنقص النساء في العقل والدين، وما نسب لـ «علي» مردود عليه وليس مقدسًا عندي.

- ها أنت تنزلق نحو الكفر، أو تظهر علاماته وتنطق به بعد كتمان أيها الزنديق.

- أنت آخر مَن يوزع الإيمان والكفر على الناس، فأمثالك في تاريخ الإنسانية انتهوا إلى بوار.

- دعك من رأيي فيك، واذكر أمامي تبريرك لما قلت.

- ولِمَ تريد أن تسمع ما ترفضه؟

- لأُقيم عليك الحجة أمام أتباعي وأتباعك.

- بأي صفة تقيم الحجج وتهدمها؟

- لا تراوغ، ودعك من موقعي وموقعك، لا أريد منك سوى أن تشرح ما قلته لنعرف دليلك الشرعي فيما قلت.

ابتسم «سمحان» ونظر إلى وجوه مريديه عابرًا أجمة من اللحى المتشابكة لأتباع «أبو حذيفة»، وقال:

- «دليل»! نعم، فلكل شيءٍ سبب، إما أن يكون شرعيًّا من عدمه، فتلك هي المشكلة.. مَن يحكم على مدى شرعيته؟ وإن حكم فهل وسائل حكمه موحًى بها أم هي مجرد رأي بشري حتى لو استند إلى القرآن تفسيرًا وتأويلًا؟

- لا تتفلسف، وتهرب من الإجابة، التي لا تملكها أصلًا.

- بل أملكها، لكنك قد لا تعيها.

- هاتها، وما أعيه لا تصل أنت إليه.

- أما رفضي أن يكون القرآن متناقضًا فمبعثه أنني نظرت إليه كوحدة واحدة، لا تُقرأ آية أو تُفسر إلا ضمن كل آياته الستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين، وقد جمعت مثلًا آيات القتال التي تستمرءون أنتم وأمثالكم تجزئتها لتبرير العدوان، فوجدت أن الله لا يقر الحرب غير إن كانت دفاعية وعادلة، ويكره الإغارة والعدوان على الناس حتى ولو كانوا على غير دين الإسلام، وجمعت الآيات التي تتحدث عن إدارة المال والمعاش فوجدتها تحض جميعًا على العدل والكفاية، بينما أنتم تنحازون إلى الثراء والبطر. وإذا نظرنا إلى الآية ضمن أخواتها فلن نجد تناقضًا أبدًا، وقد نجد تفسيرًا ينجينا من تأويلات البشر التي أضاعت الوحي وأخذته في طرق معوجة على أهواء الناس ومنافعهم.

ونظر طويلًا إلى وجوه الواقفين أمامه قبل أن يضرب أحد الأسس التي يعتمدون عليها فيما يقولون ويفعلون:

- في رأيي، القرآن ليس متناقضًا، إنما يتصدى لقضايا متناقضة وخلافية في الحياة، ولكل منها آيات تتعرض لها، ولذا أرفض جملة وتفصيلًا كل ما تقولونه عن الناسخ والمنسوخ.



كان الاستياء يتصاعد تدريجيًا في نفس «أبو حذيفة»، ويملأ التجاعيد التي تتتابع في وجهه كموج في عاصفة، لكنه كظم غيظه إلى أن يسمع بقية ما طلب من «سمحان» أن يشرحه. تنهَّد في وجعٍ وسأل:

- وماذا عن النساء والدين والعقل؟

- المرأة حين تحيض لا تصلي ولا تصوم، ولا تطوف بالبيت الحرام في أثناء الحج، وإن أدت بقية المناسك مثل الإحرام والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ورمي الجمرات، وقد ترون في هذا نقصان دين؛ لأن الصلاة والصيام والحج من أركان الإسلام، لكنه نقصان مؤقت بأيام معدودات، لو أخذنا بوجهة نظركم في تأويل ما نُسب للرسول، لكن الأمر في نظري مختلف، فما يطرأ على المرأة من محيض ليست مسئولة عنه، بل هو من خلق ربي حتى تحمل وتلد وتحفظ ذرية آدم وحواء، كما أن المحيض وإن أجَّل أو ألغى بعض الطقوس فإنه لا يخل بجوهر الإيمان أبدًا، وهذا هو الأهم عندي. والقرآن أورد كلمة «ذكر» بعدد كلمة «أنثى»، وكلمة «رجل» ومترادفاتها بعدد كلمة «امرأة» ومترادفاتها، وطالما أتبع كلمة المؤمنين بالمؤمنات، والمسلمين بالمسلمات، فهي المساواة التامة.

ونظر في وجوه الواقفين أمامه فوجد لحاهم قد انكمشت بعد أن زمُّوا شفاههم وسحبوا وجناتهم إلى الخلف غيظًا ونفورًا، بينما عيونهم تتسع وأياديهم تهم أن تفعل ما تأمرهم به عقولهم، لكنهم يمسكون زمام أنفسهم كما يفعل شيخهم «أبو حذيفة».

ولم يعبأ «سمحان» بهم ونظر إلى مريديه وكأنه يعيد ما قاله لهم من قبل ليرسخه في عقولهم:

- خلال فترة الحيض تصاب النساء بآلام نفسية وعضوية فيزداد توترهن وغضبهن ويحتد مزاجهن ويكتئبن، وقد يشعر مَن لا يعرف حالهن أنهن قد تبدَّلن، ويؤثر هذا على صفاء أذهانهن، فلا تعمل عقولهن بكامل طاقتها، وهذا هو النقص إن صحت الرواية، لكنه نقص مؤقت، لا يمكن أن ينسينا أننا قابلنا في حياتنا نساءً أعقل بكثير من رجال كثيرين.

وسلَّط عينيه في عيني «أبو حذيفة» بقوة وقال له في حسم:

- مشكلتكم أنكم تسحبون الأمر على عموم النساء، وفي كل الأوقات، وفي كل حياة أي امرأة منهن، وهذا هو مكمن الخطأ.

كان الغضب قد بلغ ذروته في نفس «أبو حذيفة» ولم يستطع عليه صبرًا، فانفجر، وهو ينظر إلى الداخل بحثًا عن «جميلة» التي توارت خلف الجدار، ولم يعد أحد من الواقفين أمام البيت يراها:

- أفسدت هذه النصرانية عقيدتك.

امتلأ وجه «سمحان» غضبًا، وزام مريدوه، لكنه أشار إليهم بالصمت والثبات، فالتزموا بأماكنهم، وجاء ردُّه بصوتٍ خفيضٍ، لكنه جليٌّ، قاطع:

- أنسيت أن إحدى زوجات الرسول كانت نصرانية؟



- لكنها أسلمت.

- لا إكراه في الدين.

- لماذا لم تدعُ زوجتك إلى الإسلام؟

- ما الذي يجعلك متيقنًا من أنها لا تعرف؟ كما أنني دعوتها ودعتني إلى الإيمان، وكلانا تخلَّص من الطلاءات المزيفة التي طمست الحقيقة الأولى، فوجدنا سويًّا أن الأصل واحد، وما بيننا لا يفهمه مثلك.

عندها مدَّ «أبو حذيفة» يده وجذب «سمحان» من رقبته، وغضب المريدون وتقدموا ووقفوا حول شيخهم، وصوته يقتحم آذانهم:

﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتراجع المعتدي إلى الخلف، وأشار من طرف إصبعه إلى أتباعه، فتراصوا إلى جواره، ونظر إلى «سمحان» بعينين حمراوين وتوعده:

- "إن غدًا لناظره قريب".

ردَّ واحد من المريدين في غضب:

- يجيء ولا يجدكم يا ظلمة.

لكن الشيخ نهره بنظرةٍ حاسمة:

- يجيء الغد فيجدكم قد وعيتم وفهمتم.

قهقه «أبو حذيفة»:

- عمومًا لسنا مشغولين بما سيأتي غدًا، فهذا علمه عند ربنا، إنما شغلنا هو كيف نستعيد الماضي.. الأيام التي عاشها الصحابة الكرام.

ابتسم «سمحان»:

- وكيف تستعيد الماضي؟

- نطبق ما كان عليه رجاله.

- وكيف تعرف ما كانوا عليه؟

- كل شيءٍ مدون في الكتب.

- مَن الذي دونه؟

- سلفنا الصالح.

ابتسم «سمحان»:

- ما في الكتب القديمة دوَّنه الصالحون والطالحون، واختلط هذا بذاك، وتاهت الحقيقة.

عبس «أبو حذيفة» ونظر حوله فوجد مريدي الشيخ «سمحان» قد تكاثروا، وطوَّقوا أتباعه، فبلع ريقه، وقال مهددًا:

- وقت محاسبة الكفرة لم يحن بعد.

وقبل أن ينسحب ومَن معه، لم ينسَ أن يتوعد «برهان»:

- لن أتركك أيضًا يا بن أمك.



# 67

لم تشرق شمس اليوم التالي إلا وكان «برهان» يحرِّر محضرًا بقسم شرطة مركز «سمالوط» ضد «أبو حذيفة» ورجاله، فأرسلوا إليه فجاء مسرعًا، وكذلك الشيخ «سمحان»، وجعلوا كلًّا منهما يوقع على تعهد بعدم التعرض للآخر.

وقبل أن يمسك القلم سأل ضابط أمن الدولة الذي كان يحضر الجلسة «أبو حذيفة»:

- هل أصابك حَوَل يا شيخ؟

فتح عينيه مندهشًا، ونظر حوله، وقال ووجيب قلبه يكاد يقتحم آذان كل الجالسين:

- حول ماذا لا قدَّر الله ولا سمح.

اكتسى وجه الضابط بجديةٍ ظاهرة، وداس على الحروف:

- طلبنا منك أن تقطع الطريق على نشاط «جماعة الإخوان» في قريتكم، وكل القرى المجاورة لها، وأفهمناك جيدًا أن هؤلاء يستعملون الدين ستارًا للوصول إلى الحكم، ثم يزعمون أنهم يحكمون باسم الله،

ويبطشون بالخلق، وسمعنا منك تأييدًا لهذا بأدلة شرعية، كما سميتها، وقضيت وقتًا تفند فيه أفكار الإخوان، وأطلقناك عليهم، لكنك صمتَّ عنهم، ورحت تناكف في رجال الصوفية، وطلبة العلم الحديث، وهذا يغضبنا منك، ويفقدنا الثقة فيك.

تصارع داخله خوف وغيظ، وأخرج من بين أسنانه جملة مصحوبة بزفراتٍ حارة:

- لكنهم يخالفون الشرع في أقوالهم وأفعالهم، ونحن...

قاطعه بحدة:

- لا يجب عليك أن تتجاوز حدود ما سمحنا لك به، لست وصيًا على الدين، والناس أحرار في علاقتهم بربهم.. نحن نترك لك فرصة الدعوة، فأبلغهم بما عندك، وهم مخيرون في أن يقبلوا منك أو يرفضوا.

طأطأ رأسه صاغرًا:

- حاضر يا أفندم.

ووقَّع على التعهد وهو ينفخ داخله حتى كاد صدره يتشقق، ثم أعطى ظهره لمركز الشرطة، ومضى صامتًا.

وقال «سمحان» لـ «برهان» وهما ينصرفان نحو الشارع المكتظ بالناس والسيارات وعربات الكارو:

- عمري من عمره، وكان صاحبي في طفولتنا الغضة، ترك المدرسة بعدي بسنوات، وهو في الصف الثاني الإعدادي، وسافر في ريعان شبابه



إلى السعودية للعمل، وعاد بعد عشرين سنة على الهيئة التي هو عليها الآن، شكله كما رأيته وكذلك أفكاره.. إنها الآفة التي أصابت بلادنا ولا فكاك منها إلا بإصلاح من الجذور.

ابتسم «برهان» وقال:

- العلم هو مفتاح الحل.

هزَّ «سمحان» رأسه موافقًا، وصمت قليلًا ثم نطق:

- والإيمان أيضًا، الإيمان فحسب.

وحين كانت السيارة تجري على الأسفلت فوق النهر، والهواء يضرب وجهيهما، سأل الشاب الشيخ:

- أعجب كيف يؤمن بالعلم مَن رأى في لياليه كل ما رأيت وقصصته عليَّ في رحلات الملح.

دمعت عيناه وردَّ:

- كان هوًى مني وضعفًا، ما كان يجب أن أبوح بأسراري.

عاد الشاب ليعزز تساؤله:

- هذه نقرة، وما طلبته نقرة أخرى.

رفع عينيه لتصافحا مراكب شراعية تتقاطر فوق الماء في هدوء، وقال:

- أراد الله أن يريني كيف تُصنع الأساطير، لأومن بالعلم، وأعرف أيضًا أنه ليس كل ما وصلنا عن الدين هو ما نزل من السماء.

ونظر حوله إلى الركاب اللاهين، كلٌّ في حاله، وقال:

- هؤلاء الصامتون يكتبون بألسنتهم الكثير عبر الزمن، فلا تستهن بهم.



# 68

لم يُقدِم «أبو حذيفة» وأتباعه على أي إيذاء بدني لـ«سمحان» ومريديه، ولا «برهان» وأمه، لكن الأذى لحقهم بألسنةٍ كالمبارد، مسنونةٍ ومسمومةٍ، تنهش بلا رحمة، وتنفث بلا ورع.

ومالت رؤوس بعض الناس لهذا الحديث الكريه، لاسيما أن أصحابه كانوا يبدأونه بعبارات «قال الله» و«قال الرسول» و«كان الصحابة رضوان الله عليهم»، لكن هناك مَن لم يُلقِ له بالًا، إما لأنه يثق في «سمحان» أو لأنه لا يثق في «أبو حذيفة»، وقلائل هم مَن تجشموا عناء الرد على السخافات والشائعات، فأمطروا آذان قائليها بمدح «سمحان» بإفراط:

«رجل طيب»..

«شفنا منه كل خير»..

«لا يدخل بطنه حرام أبدًا»..

«خيِّر مع فقرائنا ولا يأخذ شيئًا لنفسه مما يأتي إليه وهو كثير»..

«لا يوجد في رأسه وقلبه غير الله»..

«له كرامات لا ينكرها أحد»..

«صيته وصل إلى البر الغربي، ولفَّ البلاد، وهذا شرف لبلدنا»..

في مقابل هذه الشائعات كان بعض المريدين يسرفون في الحديث عن كراماته، ينطلقون من صحيحها ويضيفون إليها من خيالهم الكثير، ويدور الكلام ويصل إلى أذني شيخهم، فيهز رأسه غاضبًا، وفي حضرات الليالي المتتابعة يقول لهم جميعًا: «لا تحكوا للناس عن شخصي، حتى ولو بالصدق، إنما احكوا عما نتلوه هنا من أناشيد ودعاء ورقائق ومواعظ، واطلبوا منهم أن يكونوا معنا على الطريق الذي نبتغيه.. كلامكم عني يؤذيني حتى لو كان بما هو حقيقي، فما بالكم لو اختلقتم من عند أنفسكم أشياء، ظنًّا منكم أن هذا في صالحكم ويرضيني، أو حتى في صالح الطريق».

وحين يخلو إلى نفسه في الحجرة الضيقة أو المغارة، التي تمزع الصخر وترفرف عليها الراية الخضراء، تدمع عيناه، ويطلب من الله الغفران.

كان مَن حوله يعتقدون في أنه قادر على أن يعرف كل شيء في أي وقت، وتعب من أن يجعلهم يفهمون أن كل أمر بأوان، فما يعرفه إما أن يأتي في رؤى الليل، أو يمر أمام عينيه كطيف، أو يسمع صوتًا يهمس في أذنه اليمنى، وغالبًا ما يكون صوت «عبد العاطي».

ينظر إليهم وهم متلهفون لمعرفة ما سيأتي ويقول:

- لا يعرف الغيب إلا الله.



فيردون عليه:

- ومَن اصطفاهم من أنبيائه وأوليائه.

يصمت، وفي قلبه وجع من افتتان الناس به. كانوا يعبرون النهر ويقطعون الطرق المعبدة والترابية، يقدمون من بطون الأرض ويهبطون من قلب الجبل، يأتون ليتجمعوا في صالة بيته البسيط، فإن كان في غرفته، دخلت إليه «جميلة» وأبلغته بمَن جاءوا، وإن كان في المغارة اعتذرت لهم وهي تقول:

- لا يعرف موعد عودته من هناك إلا الرب.

كان كل مرة يعود من المغارة وقد شابت خصلة من رأسه، حتى صار كله أبيض، وهو يمضي نحو الضفة الأخرى من عمر مترع بالشقاء والصفاء معًا.

وكل عودة له تأخذ «جميلة» رأسه في حضنها، وتقول له في امتنان:

- بزهدك أواصل معك الطريق الذي تركته من أجلك.

يرفع رأسه وينظر في عينيها طويلًا، ويقول:

- طريق الله واحد.

طلبت منه مرة أن يأخذها إلى المغارة، وتقضي معه أوقاته المتشابهة هناك، لكنه سألها:

- ومَن يستقبل زائرينا؟

ردت وبصرها يحط على الدكة والحصير اللتين يجلس عليهما من يأتي إليهما من كل حدب وصوب:

– وأنت في المغارة يأتون ويذهبون بلا جدوى.

ابتسم وقال:

– لا تظني أن كل مَن يأتي في حاجة إلينا، نحن في حاجة إلى الكثيرين منهم، أنسيتِ الفقراء الذين ينتظرون ما قسمه الله لهم في أموال زائرينا.

هزَّت رأسها مؤمِّنة على كلامه، وقالت:

– أقضي معك ساعة واحدة وأعود.

– أتعودين وحدك في الجبل؟

– أرى رايتك الخضراء من النافذة، فالمكان قريب.

– هذا ما يظنه الذي يراه من هنا، لكن الوصول إليه صعب، يجب أن تمرِّي بمدق طويل متعرج، وشق بين صخرتين، ثم تضعي قدميكِ على منايم محفورة على الحجر، حتى تصعدي إليه.

– كل هذه الوعورة؟

– نعم، وأخشى عليكِ.

– لا أخاف على نفسي وأنا معك.



صمت برهة وقال:

– إن كان لا بد فلمرةٍ واحدةٍ، سآخذك عند الظهر وأعود بك قبل المغيب.

امتلأ وجهها فرحًا:

– أريد أن أشاركك كل شيء، حتى خلوتك.

وأخذها معه ذات يوم، وصعدت ومكثت في المغارة ساعتين تمعن النظر في جنباتها. لم تكن وسيعة لكن أرضيتها كانت ممهدة، مفروشة بالرمل الناعم، وبدا أن أحدًا كان يستخدمها بيتًا في زمنٍ بعيد. جدرانها الحجرية كانت متساوية قليلًا، وكأن هناك مَن نحتها بعناية على هذا النحو. عند الباب كان هناك صبار مختلف الصنوف، خضاره ناضر كأن المطر يُقبِّل جبينه كل صباح. وحين سألته، قال لها:

– اسقِهِ من القُلة.

– القلة التي لا تنفد؟

– لا تنفد بإذن الرزاق، الواهب، الكريم.

– بإذن رب الكون كله.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تطلقهما تتجولان في المكان، فمدَّ كفَّه ومسح الحبات الساخنة المتتابعة على خديها، وسألها:

– لماذا تبكين؟

أخذت رأسه في حضنها وأجابت:

- كأنها قلّاية راهب قديم.

أنصت إلى ما تقول، ولم يكن قد زار ديرًا من قبل، فراح يتخيل كل شيء، بينما واصلت هي:

- راهب لكنه متزوج.

وكررت «جميلة» هذا في الليلة التي سبقت غياب الجبل، بعد أن هزّ جسدها ثلاث مرات وهو في هذه السن، كان منتشيًا وسعيدًا، وفعل كل ما يستطيع معها وكأنه ينزف آخر قطرة شهوة في جسده، استعدادًا للحظة تحتاج فيها روحه إلى صفاءٍ تام.

كانت هي غارقة في النوم، ووجهها متورد وكأنها عادت بنت عشرين سنة، بينما سمع هو هاتفًا يناديه: «قم يا سمحاااااااااااااااااان».

وقام وفتح النافذة، فلم يجد الجبل مكانه.



# 69

لم يكن يدري إلى أين هو ذاهب حين فتح الباب، ورمى قدميه على المدق النابت من عند جدران بيت يفتح ذراعيه للجبل. ذراع يمضي تحت السفح فاصلًا بين الحجر وخيط من زراعات القمح، والثاني يلتوي مضمومًا إلى صدر الصخر وينطلق إلى الأمام. ضاع المدقان في هذه المساحة الهائلة التي استوت فيها الأرض فوق الجبل الغائب.

«طار الجبل أم غطس؟»، سأل «سمحان» نفسه، وهو يمضي مدفوعًا بقوةٍ خارقةٍ لا تجعله يتوقف ولا يتقهقر. مضى بين أسراب «البوقير» التي كانت مثله تبحث عن الجبل. جاءت وحطَّت ونشبت مناقيرها في الرمل، بحثًا عن الديدان، لكن الدود كان قد رحل مع الجبل.

لم يكن خلفه سوى الديك الأحمر، الذي يصيح بلا توقف: «كتر الخير»، والبقرة العاقر التي تخور بصوتها المجروح.

قطع ألفي خطوة، لكن النقطة التي كان يصعد من عندها إلى المغارة لم تكن واضحة، والمغارة نفسها، التي كانت خلوة، لم تكن متواجدة، ذهبت مع الجبل الراحل. ولاحت هناك على الطرف الآخر حديقة غنَّاء، قريبة هي أم بعيدة؟ لم يكن الأمر محسومًا له، وكان عليه أن يمشي إليها

بـلا كللٍ ولا مللٍ، لاسيما أنه لم يشعر بالتعب رغم طول المسافة التي قطعها.

لا يعرف ما الذي جعل جسده يقوى على الطريق، بدا كأنه عاد صبيًا ينهب المدق والجسر إلى الحقل، ليضرب الأرض ساعات بفأسه دون أن يحس بإجهاد، لا يلهث ولا يتصبب عرقًا، ولا تزحف على ظهره أشواك تخزه من فرط الانكباب على الفأس التي لا تكف عن الصعود والهبوط.

«ما هذه الصحوة التي تنتابني؟ أعاد الشباب من دون أن أدري؟ أم أخذ مخي أمرًا بأن نفسي تتوق إلى بلوغ الخضرة التي تعانق الفيافي من بعيد وأنني لا بد بالغها وإن طال السفر؟».

تتدفق الأسئلة كنهرٍ جارٍ، لكنها تجمد ككتل ثلجٍ، وتتساقط على رأسه كأحجار جبلٍ صرعه زلزال عارم.

كان يتأرجح بين رغبةٍ في الإقدام عدوًا، أو يمشي الهوينى مستمتعًا بالرمل الذي بدا كالذهب، ولون الخضرة البديع الذي يبدو دانيًا لكنه لا يصل إليه رغم أنه سار وقتًا طويلًا. وشعر أنه في حاجة ماسَّة إلى «عبد العاطي»، شهق ودعا وهو يرفع رأسه إلى السماء فتصافح الزرقة الصافية ونجومًا بانت لعينيه بعد غياب الشمس كقطع فضةٍ انخلعت من كل آذان نساء أهل الأرض وأعناقهن، وتناثرت وطفت فوق هذا البحر العلوي الذي ينطبق هناك على الحديقة مترامية الأطراف، والتي صارت مع الليل قطعة هائلة من الظلام.



وسمع الصوت الذي طلبه يهمس إلى جانبه:

- ألم أقل لك يا «سمحان» إنك سترى ما سيأتي؟

- وما الذي يأتي يا شيخي؟

- الذي لم ترَه من قبل.

- رأيت ما فوق الخيال.

- ليست للخيال حدود يا شيخ.

- قلبي يدق بعنفٍ أكبر بكثير مما كان يفعل في الليالي العصيبة التي كان الماضي فيها يأتي إليَّ مذعنًا، ويسقط تحت قدمي كأنه ورقة شجر يابسة في خريفٍ عاصف.

- اربط على قلبك، واترك روحك لتأخذك إلى حيث يشاء ربك، فما تبقى لا يزيد على خطوات قليلة في مشوار الألف ميل الذي قطعته، لكن في هذا الزمن القصير ستشهد ما لم تشهده في أيامك الطويلة.

- يجرفني شوق إلى أن أرى.

وسمع الذي يناديه من بعيد باسمه، وصداه يتردد فيصنع دوامات حول أذنيه. كان صوته طليقًا كريح، محددًا كأصابع اليد، فطفرت عيناه بدموع غزيرة وقال على قدر ما أمكن لحنجرته أن تصرخ:

- جاااااااااااااي.

ورفع قدميه عن الخط الأخير للصحراء، وبعد أن سقطت الشمس خلف ظهره انطمست الرؤية أمام ناظريه، وزمجرت الريح وعوت، وثار رمل ولم يجد صخرًا يصده، فانطلق إلى الجنوب، لكن قدمي «سمحان» لم تهتزَّا، وثوبه الذي امتلأ بالهواء لم ينخلع، بل كان يطير حول جسده ذهابًا وعودة، ويضرب ساقيه، ويغرف بعض حبات الرمل في حركته المجنونة، ويلقي بها نحو فخذيه، فتصير إبرًا تخزه، لكنه لا يشعر بها؛ لأنه شرد فيما سمع، وما ينتظره.

واحتمى الديك بحجر كان لا يزال مغروسًا في الرمل، ووقفت البقرة إلى جانبه، تمد خطمها في وجه الهواء الطليق، وترخي جفنيها على عينيها حتى لا يقدح الرمل مقلتيها الوسيعتين.

وعاد الصوت يستعجله:

- تقدَّم يا رجل.

فقطع الخطوة الأخيرة في الصحراء، معتقدًا أنها نحو الحديقة الغنَّاء التي كانت تترامى له قبل ساعات وهو يمشي على مهل، لكنه وجد نفسه في عالم آخر.

«ما هذا؟!»، سأل نفسه باندهاش، فقد رأى ما لم يرَه من قبل. مباني خفيضة متتابعة، جدرانها ناصعة البياض، وبينها نجيل مبسوط، وورد يفوح أريجه، وحولها سور يحجبها عن الناظرين، وتنام تحت الجدر أرض خلاء، يشقها طريق أسفلتي ناعم عريض، يقف عند باب في وسط



السور، تخرج منه شاحنات مربعة ومستطيلة تلمع أجسامها في وقدة الشمس.

انفتح باب بناية منها، فظهرت كبائن عملاقة مغلقة، بها سماعات كثيرة، متصلة بأجهزة تسجيل إلكترونية، يقف أمامها رجال يرتدون معاطف بيضاء.

وسمع صوت «عبد العاطي» يقول له من وراء السور:

- اذهب إلى حفيدك.

- حفيدي؟!

- نعم.

- لكنني تركت زوجتي قبل ساعات قليلة وبطنها خاوٍ.

- ألم تضاجعها ليلة رحيلك؟

رفع وجهه في خجلٍ:

- حصل.

- حبلت بولد، وسيكبر ويتزوج وينجب من بنت «برهان» ثلاثة بنين وثلاث بنات، وستقف بعد وقتٍ قصير أمام واحدٍ منهم.

هزَّ رأسه لينفض عنه الحيرة، وقال لنفسه: «في الليالي الفائتة كنت أعود إلى الوراء، فكنت أعرف ما هو دون الذي أنا عليه الآن، أما هذه المرة فأنا ذاهب إلى الأمام، وسأكون أنا دون ما هم عليه». لكنه وجد

قدميه تمشيان نحو باب أحد الأبنية الخفيضة الضخمة، ودخلها، واختبأ خلف دولاب عريض في أوسطه فتحات تمكنه من أن يرى كل شيء.

مدَّ بصره، فإذا برجلٍ بدين يرتدي معطفًا أبيض، يلتصق بكرشه، يمد عينيه من خلف نظارة سميكة، ويمد بوزه كذلك ليسأل شابًّا تكاد عظامه تشق لحمه الضئيل عند كوعيه وترقوته، كان يقف في الخلف متطلعًا إلى أسلاك دقيقة نابتة من قلب مكعبات ومربعات ومستطيلات وأسطوانات وذاهبة إلى الخارج:

- هل فرغت من تسجيل ما سمعت؟

- نعم، كانت الأصوات متداخلة، فمررتها على «جهاز الفرز والعزل» لأتبين ما إذا كان هذا حقًّا صوت النبي «موسى» وهو يحدِّث «فرعون» أم أن الأمر اختلط علينا.

- وماذا تبين لك؟

- لا يزال الأمر يحتاج إلى مزيدٍ من التجربة.

هزَّ الرجل البدين رأسه، ثم قال:

- عمومًا، ضع نتائج الفرز في الملف الخاص بها.

ورمى بصره نحو رجلٍ فارع الطول كان يتابع الحديث صامتًا، وقال:

- تتبعنا أصوات رجالٍ ذاهبين إلى قصر، والناس تهتف لهم وتناديهم على أنهم حواة مهرة، وجاءنا صوت خفيض ودود، تحد من طلاقته



لثغة ظاهرة، وآخر إلى جانبه جهور فصيح، كانا يتكلمان والناس قد سكتت، ثم صار لغط وضجيج فامتزجت الأصوات وصعب تمييزها، وتحتاج إلى مزيد من التحليل والتدقيق.

أشار بيده نحو النافذة التي تظهر منها بناية مجاورة وقال:

- اذهبوا بالأصوات المختلطة إلى المعمل الثالث، ووزعوها صوتًا صوتًا، وليكن علماء اللغات القديمة والتاريخ والأنثروبولوجيا حاضرين.

والتفت إلى ثالثٍ كان يقف عن يمينهم مشغولًا بالبحث في حاسوبٍ صغير، وقال:

- حين تنتهي من تسجيل ما نطق به عرب الحجاز في أوائل القرن السابع الميلادي، استعِن بأساتذة لغة عربية وأنت تفرغ المحتوى.

أومأ برأسه:

- سمعت بعض الكلمات أثناء التسجيل، رغم أنها بالعربية لكنها غريبة على أذني.

- لن تكون غريبة على مَن يعرفون لهجات القبائل العربية القديمة.

وابتسم وواصل كلامه:

- ما سنصل إليه، ونذيعه على الناس بعد أن نتيقن منه تمامًا، سيُسقط الكثير من الأكاذيب المعتقة والأساطير الموجودة في بطون كتب قديمة يتم تداولها على أنها حقائق دامغة.

كان «سمحان» يتابع الحديث مندهشًا من دون أن يروه، وجاءه صوت «عبد العاطي» هامسًا:

- هذه كرامات العقل الذي يرينا العجائب.

- وكراماتنا، هل تقادمت وصارت نسيًا منسيًّا؟

- ستبقى، لكنها تخصنا نحن فقط، وهناك دومًا مَن يشككون فيها، أما ما يخرج من هذه المعامل الضخمة فأدلته الدامغة معه، ويكون للناس أجمعين.

وسرت موجة من كآبة في نفس «سمحان»، لكنها سرعان ما تبددت حين قال له «عبد العاطي»:

- لا نزال نسبقهم.

رفع رأسه إليه وفي عينيه استفهام، فأجابه:

- لم يطوِ أحد منهم الزمان والمكان.

تهللت أساريره، لكنه لم يلبث أن وجم وهو يقول:

- هذه حكايات يسمعها الناس عنَّا، ولا يفعلها غيرنا، أما هذه المعامل فيراها الجميع، ويرون ما ينتج عنها، ويستفيدون منه، ويستمتعون به.. كرامات العلم مفتوحة بلا حساب، وتقع في جلاء النهار.

ضحك «عبد العاطي»:

- تردد ما كنت أقوله لك.



- حقائق لا يمكن نكرانها.

راح «سمحان» يمعن النظر في الشاب الوجيه الواقف أمامه، والفرحة ترقص في عينيه، كان على صغر سنه ووسامته يبدو رزينًا، لا ينطق إلا بحساب، ولا يقول سوى ما هو مفيد ولافت، والنجابة تطل من مقلتيه في وضوح، ولسانه يتنقل بين العربية والإنجليزية والفرنسية في فصاحة.

ابتسم وقال لـ «عبد العاطي»:

- أترى يا مولاي؟ حفيد «سمحان» و«جميلة» ورث العلم والحكمة والوسامة والبلاغة.

ردَّ عليه:

- العِرق دسَّاس.

ونظروا إلى الجدار حيث كتلة معدنية مضاءة تتقدم عليها الثواني والدقائق بانتظام. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر، موعد انصرافهم، هكذا فهم «سمحان» حين رآهم يطفئون أجهزة الحاسوب الدقيقة المتتابعة أمامهم في إحكام، وتقدم الرجل البدين نحو الحفيد الذي كان منهمكًا في عمله، لا ينظر إلى ساعة الجدار، ونقر على كتفه وقال له:

- حان وقت الغداء.

فقام يلملم معطفه ويزرره وهو يقول:

- سأعود لأكمل ما بدأت في وقت المساء.

وخرجوا جميعًا يرطنون بالإنجليزية، واصطفق الباب خلفهم، وساد صمت عميق، فترامى هسيس ووشيش الأجهزة، وامتزج في أذني «سمحان» وكأنه غطيط رجل غارق في نوم هادئ، يمضي في أحلام سعيدة.

دار بين الأجهزة المتناسقة، وفتنه منظرها، فمال عليها كأنه يتشمم زهرًا يانعًا، ورفع هامته نحو الباب الموصد، لكن صوت «عبد العاطي» أتاه:

- يمكنك أن تخرج من الجدار لو أردت.

لكنه أبى، وقال:

- سأنتظر عودة حفيدي في المساء.

وأسند رأسه على طاولة فسيحة أمام حاسوب صغير، وغرق في النوم. وتهادت الأحلام رخيّة، فرأى نهرًا وسيعًا رائق الموج، وعلى شاطئيه يصطف نخيل متساوي الهامات، تتدلى منه عراجين مثقلة بالتمر، تحجب بعض وقدة الشمس الحارقة وتصنع ظلالًا مبعثرة، وتقف فوق كل نخلة حمامة بيضاء، ضخمة كبجعة وقوية كنسر. وظهر قارب صغير يهتز يمنة ويسرة ويتقدم إلى الأمام على قدر ما يمنحه الموج من قدرة على الاندفاع.



وشمّر «سمحان» عن ساقيه وخاض الماء إليه، ووجد حفيده على مقربة منه يفعل مثله، فلما وصل الماء إلى ذقنه سبح، فسبح الحفيد بموازاته، حتى وصلا إلى القارب وهما يلهثان، رفع كل منهما صدره حتى حطه على حافة، وشبّا فتدحرجا داخله، وأمسك كل منهما مجدافًا، وراح يدفعه بقوة فجرى القارب إلى الأمام، وطار الحمام وتلاحم في الهواء حتى صنع سحابة هائلة حجبت عن رأسيهما أذرع الشمس العفية.

# 70

أفاق على نقرات إصبع فوق كتفه، فتح عينيه فوجد حفيده أمامه يسأله في استغرابٍ وهو يطالع هيئته الغريبة:

- كيف دخلت إلى هنا؟

احتضنه بعينيه، وقال في امتنان:

- من الباب.

مرر بصره مرة جديدة على جلبابه الفضفاض وعمامته الخضراء وأطال النظر إلى وجهه وقال:

- لكن الباب كان مغلقًا، ومكاننا بعيد، ولا يأتي إليه الناس هكذا بلا استئذان.

هزَّ رأسه وقال:

- كنت تائهًا في الصحراء.

- يمكن، لكن كيف دخلت؟

- لا تسألني عما لا أستطيع له إجابة.



وساد صمت، وشرد الحفيد في ظنون، ثم أخرج هاتفه النقَّال من جيبه، ومرر إصبعه على أزرار، وحملق في صورة بانت له، ورفع عينيه إلى وجه الشيخ «سمحان»، وقال بحروفٍ ممطوطة:

- سبحان الله!

وارتعش جسده، واضطربت خواطره، ونظر إلى الباب الموارب، وكاد يجري نحوه، لكنه تمالك نفسه وسأل الواقف أمامه:

- مَن أنت؟

ودون تردد أجابه بثقة:

- أنا جدك «سمحان».

لم يكذبه، فالصورة التي طالعها على هاتفه منذ قليل هي لجده، التقطها من برواز معلق على جدار في صالة بيت أبيه، وكان فيها يرتدي الجلباب نفسه الذي يرتديه الآن، وكذلك العمامة. واشتعلت الأسئلة في نفسه، وأدرك أن ما هو أمامه ليس سوى شبح رجل ميت، وشعر بالخزي أن يكون عالمًا متمكنًا يلملم أصوات الراحلين في القرون الغابرة ويخاف من شبح. فأظهر تماسكًا وجلدًا، وداس بقدميه في الأرض، وانطبق فكَّاه، وخرجت من بينهما حروف كلامه:

- لكن جدي مات منذ سنين.

نظر «سمحان» إلى نفسه، ورفع وجهه مندهشًا وقال:

- أنا أمامك حي أرزق يا بني.

كان قد حسم الأمر، وأدرك أن الرجل الواقف أمامه هو جده فعلًا، ولم يستغرب هذا، فالرجل الذي قيل له إنه سافر في الزمن ورأى كيف تولد الأساطير وكيف يتصارع البشر في الزمن القديم، يمكن أن يعود من الموت، ويدخل هذا المعمل الكبير، وتأخذه سِنة من النوم، ويستيقظ ويتثاءب، ويتلمظ ويتكلم، ويشرق في عينيه فرح وهو يرى حفيده وسط علماء كبار.

ومع هذا أراد أن يستوثق أن مَن يقف أمامه هو بني آدم من دم ولحم وعظام، وليس شبحًا أو طيفًا أو تخيلات وهلاوس خلقها سعيه المحموم وراء أصوات مَن رحلوا. وغريزته العلمية قالت له: «ابدأ بالشك حتى تصل إلى اليقين»، فحملق من جديد في وجه جده وقال:

- جدي كان برأسه شجاج من كثرة سقوطه مغشيًا عليه، وجرح قديم في كتفه اليمنى.. هكذا أخبرني أبي بعد أن أخبرته جدتي.

مدَّ الشيخ «سمحان» يده، ونزع العمامة وشد الجلباب عن كتفه، وقال:

- لترَ بنفسك.

تقدم خطوات ورأى ما جعله يستوثق من أن الذي يحدثه هو جده. لكنه يعرف جيدًا أن الميت لا يعود أبدًا إلى الحياة. لم يحدث هذا إلا في خوارق معدودات، تنبئنا بها التوراة والإنجيل والقرآن، العُزير وحماره،



والطير الذي مزقه نبي الله إبراهيم إربًا، حتى أصحاب الكهف والرقيم الذين كانوا من آيات الله عجبًا، لم تنقضِ حياتهم، بل ناموا أكثر من ثلاثة قرون، هكذا يقول القرآن، وهو ما يؤمن به الحفيد العالم.

ولهذا سرعان ما ارتاب فيما يسمع من الرجل الواقف أمامه، وقال من دون مواربة:

- أنا متأكد أنك مت، قبرك في «جبل الطير»، ومريدوك جعلوه ضريحًا، رغم أنك طلبت منهم ألا يفعلوا، وناس كثر يأتون من كل مكان ليحيوا مولدك، الذي تختلط فيه البهجة بالذكر، والدنيا بالآخرة.

أطرق الشيخ «سمحان» صامتًا في أسى، ورفع عينين مملوءتين بالدموع، فتشظى في ناظريه وجه حفيده، ومدَّ كُمَّ جلبابه ليمسح البلل عن بصره، ويستعيد ما افتقده. جلس على كرسي أمام حاسوب، فانعكست صورته على الشاشة المطفأة، رمقها بطرف عينه، وقال لحفيده:

- لا أحد يعود من الموت، لكن يمكن لمَن سافر إلى الوراء أن يسافر إلى الأمام.

هزَّ رأسه مؤمِّنًا على كلامه:

- فعلًا.

- أنا في رحلة إلى زمنك.

اقترب منه خطوة وسأله:

- هل يمكنني لمسك يا جدي؟

لم يجب، بل تقدم وأخذه في حضنه، وطوقه بذراعيه. كان جسد الحفيد يرتجف قليلًا، لكنه سرعان ما هدأ واستراح، وخبت أنفاسه المبهورة ونشيجه الحار، ثم انخرط في البكاء.

«لِمَ تبكي يا قرة عيني؟»

سأله الجد بصوت طليق كساعات السحر، ملأ أذنيه لحنًا، وملأ قلبه رهبة وخشوعًا. خلع نفسه من بين ذراعيه وقال في امتنان:

- طالما تمنيت أن أراك.

- أتركت لك سيرة طيبة؟

- سيرتك عطرة يا جدي، لكن الأعطر منها مسارك.

- لم أكُ سوى رجلٍ فقير.

- منحك الله ثروة لم يمنحها إلا لقلة من خلقه.

- محبة الناس؟!

- هذه ثروة من دون شك، لكنني أقصد ما كشفه الله لك عما جرى في الزمن القديم.

وصمت برهة وأكمل:

- والزمن الآتي الذي أنت فيه الآن.



ضحك في صفاء وقال:

- ظننت أن مثلك سيرى كل هذا مجرد أساطير.

- الأساطير هي ما يُقال عنك الآن في كل القرى.

- داريت ما أعطاه الله لي على قدر استطاعتي، ولم أكُ أُقبل على الحديث عنه، وائتمنت مَن سمعوا مني طرفًا منه اضطررت إلى البوح به، ولم يخامرني أي شك في وفائهم.

- يا ليتهم يتحدثون في هذا.

ارتجف قلبه، وسأل في حزن:

- هل نسبوا إليَّ ما لم أقله، وما لم أفعله؟

- قالوا عنك أشياء فوق الخيال، ونسبوا لك أعمالًا فوق النواميس.. بعض مريديك بدأوا الحكايات، ودارت في القرى وعادت غير ما ذهبت، وتداولها حتى الأطفال بعد أن أضافوا إليها من مخيلاتهم الخصبة، والنساء الثرثارات غذينها بأشياء مثيرة، حتى وصل الأمر إلى أن قالوا عنك إنك كنت تضاجع جدتي عشرين مرة كل يوم، ثم تغتسل وتصلي ساعات طويلة دون أن تخور ساقاك.

وحين رأى الأسى باديًا على محيًا جده، حتى كاد وجهه يسود، قال له ليطمئنه، وهو ينظر إلى الكراسة التي يمسك بها في يده:

- هناك مَن يرد غيبتك الأبدية، ويحكي عنك كرجل طيب وهبه الله كرامات لم تؤتَ لغيره في زمنه، وهناك مَن يحفظون كراستك تلك

التي تركتها لهم، ويرددونها في حضراتهم وسط التسابيح الغارقة في روائح البخور النفاذة، وأحدهم طبع منها كتابًا يوزعه على الناس في مولد «الفولي»، وهناك مَن بنى مسجدًا باسمك، وواحد ممَّن سمعوا عنك وراق لهم ما تركت من سيرة عظيمة أنشأ مدرسة منذورة لك، وخصص جائزة للمتفوقين فيها أسماها «جائزة الشيخ سمحان».

انفرجت أساريره، ومصمص شفتيه وقال:

- عجيب أن يهبني الله ما أرى به ما مضى، ويمنحني فرصة أن أراك الآن، لكنه لم يكشف لي شيئًا عمَّا سيُقال عني أو يُفعل باسمي بعد رحيلي.

وتنهد في ارتياحٍ ثم سأل:

- وماذا عن أهل الطريق؟

- يلتفون الآن حول رجل طيب من مريديك اسمه «فضل عبد الرحيم».

- «فضل» شاب طيب، جاء إليَّ قبل ثلاثة شهور، وعلى وجهه علامات الصلاح والنجابة.

- تقصد قبل سنين طويلة، فهو الآن صار عجوزًا يتوكأ على عصا لا يرضى عنها بديلًا.

- أي عصا تلك؟

- العصا التي كانت رايتك الخضراء معلقة فيها.. جاء الديك بكراستك ملفوفة في قطعة من الراية، وحملت البقرة العصا بين أسنانها، وفور



هبوطهما إلى «جبل الطير» توجَّها إلى بيت «فضل» ورميا أمامه العصا والراية، وهو منخرط في بكاءٍ حار.

هزَّ «سمحان» رأسه وقال:

- أعرف سبب بكائه.. فقد أبلغته في الليلة التي سبقت اختفاء الجبل من عينيَّ أن بقائي في الدنيا مرهون برفرفة رايتي.

- هو أبلغ الأحباب بما قلت له، وحين اختاره الديك والبقرة بتسلُّم عصاك ورايتك بايعوه شيخًا، وأخذوا العهد على يديه، وترحموا عليك.. هكذا حكوا لي حين طالني الوعي، وأخبروني أن جدتي «جميلة» كانت تبكي في صمت مفطورة لغيابك، بكت بحرقة ونحل جسمها وانتابها شرود طويل، لكنها كانت تقول للذين يسألونها عن قبرك: «أبلغني الراحل الحبيب ذات ليلة أنه سيموت وحده، غريبًا كما عاش».

صدَّق على كلامه:

- أبلغتها حن تمنَّت أن نموت متعانقين.

سكت الحفيد، وأطرق «سمحان»، وترك عينيه تجوبان المكان النظيف، الذي وُضِع فيه كل شيء بعناية، وشرد فيما سمع ولم يكن يعرف، ثم تلا:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ .

هزَّ الحفيد رأسه، وقال:

- وهبك الله وحدك ما كنت تراه وتعايشه، ووهبنا العقل فسرنا في الاتجاه نفسه بطريقة مختلفة.

- أتقصد هذه الأجهزة التي تصلون بها إلى أصوات القدماء؟

نظر إليه مندهشًا، وسأله:

- أتعرف أنها لهذا؟

- أعرف قبل أن أدخل إلى هنا.

- من الخيبة أن أسأل رجلًا متواجدًا الآن في المستقبل كيف عرف.

ابتسم واقترب منه، وربَّت كتفه:

- أعتقد هذا.

وران بينهما صمت، قطعه الحفيد قائلًا بما جعل حدقتي جده تتسعان إلى آخر مدى لهما:

- كل ما يجري في هذه المدينة العلمية الضخمة التي تراها يحاول أن يساير ما كان لك في الزمن البعيد.

هزَّ رأسه نافيًا:

- أنا رأيت مشاهد متناثرة، قدَّر الله لي أن أراها، وكل ما عداها لا أعرف عنه شيئًا حقيقيًّا، ولا وسيلة لي لمعرفته سوى التي يسلكها الناس، مما



تركه لنا الأولون في كتب، وهي ليست سوى ما اختاروه، أو ما اعتقدوا أنه الحقيقة، أو ما دافعوا به عن منافعهم وأهوائهم وميولهم، وكذلك ما حملته ذاكرة الناس من تفاصيل خالطتها خرافات وأكاذيب، وأشياء أخرى صنعتها الأغراض المتضاربة.

وسعل قليلًا، ثم بلع ريقه وواصل:

- أما ما تفعلونه أنتم فسيدوَّن على هذه الأجهزة، وسيعيش، وسيكون بوسع الذين يأتون بعدكم أن يختبروه، ويضيفوا إليه، ولن يتركوه للناس يوزعونه عبر الأيام على ألسنة تنطق من وحي خيال خصب، أو على نفوس مريضة لا تتفوه إلا بما هو معوج أو غارق في الهوى.

وتذكر ما قاله له «عبد العاطي» وأعاد ترديده:

- إنها كرامات العقل يا بن ابني.

وكان الحفيد ينصت إلى جده مستمتعًا بما يقول، لا يريد أن يقاطعه، لكنه أراد أن يثلج صدره أكثر، ويذهب عنه بعض أحزانه، فملأ حنجرته بدفقةٍ عارمةٍ وأطلقها:

- ما سمعته عنك هو الذي جاء بي إلى هنا، ومهد لي الطريق لتراني بين علماء أفذاذ.. مضيت خلفك لكن بطريقة أخرى.

رفع هامته وسأله متعجبًا:

- أنا؟!

- أنت يا جدي.

- غريبة.

- ما سمعته من أبي عنك ألهمني التفكير في طريقة نعود بها إلى القرون الغابرة، لنعرف ما قاله أجدادنا، وكيف عاشوا، وحقيقة ما نُسب إليهم من أقوال وأفعال.

اقترب منه أكثر وأخذ يمناه بين كفيه وضغط عليها:

- أثلجت صدري.

- قرأت بحثًا قصيرًا في دورية علمية إنجليزية فانطلقت منه وطرحت أسئلة ما كان يمكن لخيالي أن يصل إليها لولا ما سمعته عنك.

وجال ببصره حوله، وقال:

- هذه مدينة علمية عالمية أقيمت على أرض مصر، تمولها عدة دول، ويعمل فيها علماء من جامعات عديدة.. كان لا بد أن تكون هنا حيث مهد الحضارة، ومهبط الأديان، وأقدم الأصوات التي هزَّت الهواء بذبذبات متتابعة، صعدت رويدًا رويدًا، لتستقر في الغلاف الجوي البعيد، والآن نسترجعها، لنعيد كتابة تاريخ البشر.

ابتسم الشيخ «سمحان» وقال:

- بركات العلم لا حدود لها، ترمح وراء الخيال، وتحاول أن تغلب الأساطير.



امتلأت عينا الحفيد بالامتنان، وهمَّ أن يقول لجده شيئًا، لكنه لمح بطرف عينه وجهًا يمرق عند النافذة، فالتفت ليراه فكان قد اختفى، ولم يعرف ما إذا كان شخصًا بالفعل ينصت إليهما أم أن هذه مجرد تهيؤات ليست بمستغربة في وقت يتحدثان فيه عن الأساطير والكرامات.

كان بالفعل واحدًا من فنيي المعمل، وقف وراء النافذة مدة ليست بالطويلة لكنها كانت كافية ليعرف أن الدكتور «عبد العليم محمود سمحان» يحدِّث رجلًا جاء من الزمن الماضي.

هرع إلى العلماء الذين كانوا يجلسون في استراحتهم البسيطة يحتسون قهوة ما قبل الغروب، بعد يوم عمل شاق كالعادة، وقال لهم:

- رأيت الدكتور «عبد العليم» يكلِّم إنسيًّا غريبًا، يبدو أنه قد حضر بجسمه من الزمن القديم، وراء صوته الذي التقطناه.

نظر بعضهم إلى بعض باستغراب، وهبُّوا واقفين. وكأطفال يجرون خلف لعبةٍ مبهجةٍ، تسابقوا إلى الخارج متجهين إلى المعمل. كانوا ينتظرون أي شيءٍ غريبٍ يكسر رتابة حياتهم الموزعة بين المعمل والمكتبة والاستراحة والسرير، ولأنهم لم يسمعوا منذ سنين أي شيءٍ غير عادي، فقد رقصت قلوبهم فرحًا لما قاله فني المعمل، وجروا وراءه، يدوسون تحت أقدامهم الصرامة والجدية التي تحلوا بها على مدار أعمارهم.

حين وصلت قرقعة أقدامهم على البلاط إلى أذني «سمحان» قال لحفيده:

- زملاؤك قادمون، عليَّ الرحيل الآن.

وسمع صوت «عبد العاطي» يناديه:

- تعالَ.

فأومأ برأسه وقال له:

- حاضر يا شيخي.. حاضر.

وبينما يهم الحفيد أن يطلب من جده البقاء حتى يقدمه لزملائه في فخر واعتزاز، اختفى من أمامه، وبقي مكانه فراغًا يمتد بين الحواسيب الباردة، والجدار الأصم.

«جديييييييي».. هكذا صرخ، بينما زملاؤه وأساتذته يهرولون ناحيته في فزعٍ، ويقلِّبون عيونهم في المكان بحثًا عن هذا الإنسي الغريب.

بعضهم انحنى ليرى ما تحت الطاولات، وهناك مَن ثنى ركبتيه وجلس القرفصاء، ومرَّر بصره في المساحات الفاصلة بين صفوف الحواسيب، وبعضهم هرع إلى الخارج، وهناك مَن جرى إلى النافذة وأرسل عينيه يمنيًا ويسارًا من دون جدوى.

كما جاء ذهب. جسدًا أتى وطيفًا راح..



# 71

وجد نفسه في البقعة التي كان فيها قبل أن يسافر إلى حفيده، لكن الخيط الفاصل بين الصحراء والفراغ لم يعد قائمًا، وانبسطت الأرض التي كان يمضي إليها ورحبت أمامه، وأخذت هيئتها الأولى، ولاحت في البعيد الحديقة وارفة الظلال، كجبلٍ هائلٍ أخضر، وحملت النسائم أريجها الذي كاد يُسكر، حتى إن الديك ترنح من فرط النشوة، وفتحت البقرة منخاريها، وراحت تتقافز بعنفٍ في رقصة ماجنة، وفردت القنافذ أجسامها، وارتخت أشواك الصبار.

كان الوقت نهارًا، والشمس في كبد السماء تتثاءب في استرخاء، ورغم صفاء الجو فإن الحرارة كانت منخفضة، كأن الشتاء قد جاء بغتة، أو الشمس استحت من أن تقسو على رجل يمشي الهوينى متطلعًا إلى آخر دنياه في سلام.

«هل تعبت يا سمحان؟»، سمع مَن يناديه عن يمينه. لم يكن صوت «عبد العاطي». توقف والتفت خلفه فلم يجد أحدًا، لكنه أجاب:

- لذيذ العيش في التعب يا مولاي.

قالها وهو يلهث، ودموع مخنوقة تجري في عروقه فتبلل روحه، التي كانت تهفو إلى تلافيف شجر يرنو من بعيد ناضرًا، بينما كانت أذناه مشنفتين بأنين ناي انبعث من مكان لا يعرفه، لم يلبث أن خالطه شدو رباب مجروح، فجلس هو مكانه، ورقدت البقرة، وقعد الديك فوق جسمها العريض، وتوزعت القنافذ حولهما، وألقت التينة بعض ظلها فوق أجسامهم.

وسأله صاحب الصوت المجهول بصوتٍ رخيم:

- أتريد أن تمضي إلى هذا الجبل الأخضر العظيم، فتشرب من ينابيعه، وتأكل من فاكهته، وتطرب لألحان طيره، وتبتهج لألوان زهره ووروده وفراشاته البهية، وتملأ أنفك بالروائح الزكية، وتعود صبيًا كما كنت؟

رفع الشيخ «سمحان» وجهه وتلفت حوله من جديد وأجاب:

- معي قُلتي وخبزي وها أنا أمضي إليه.

سمع قهقهة رجَّت الأرض:

- ستذهب إلى هناك عاريًا مجردًا من كل شيء.

- ولمَ أهتك ستري يا عم؟

- أتيت إليها هكذا، وسترحل عنها على الهيئة التي جئت بها.

أطرق صامتًا برهة، وردَّ في هدوء:

- فهمت الرسالة يا عم، لكن...



قاطعه بصوتٍ يخالطه ضحك رائق:

- قلق أنت على ما في كراستك.

- هو كذلك.

- لا تخف، فما فيها سيصل إلى مَن قصدتهم.

تذكر ما سمعه قبل قليل من حفيده، وهزَّ رأسه:

- أنا واثق من هذا.

وتاه في ظنون، وسأل نفسه:

- هل ألقيها هنا على الأرض فيأخذها عابرون إلى المريدين في «جبل الطير»؟ أم أدفنها تحت التراب فيأتي مَن ينبش عليها بإلهام من السماء أو بمحض مصادفة؟ وهل ينفع أن أطوحها إلى أعلى فتحملها الريح إلى بلدتي التي لم أعد أراها؟ أم أنتظر لأن أحدًا سيهل بعد قليل من جوف الرمال الممتدة فأسلمها له وأئتمنه عليها وسيصون الأمانة؟

وجاءه الصوت:

- لا تشغل نفسك بالأسئلة، فسيجري ما لم يخطر لك على بال.

وساد صمت، قطعه الصوت:

- ألم يأتِكَ اليقين بعد؟

- أتاني، وإلا ما كنت قد جئت إلى هنا، لكنني حزين على فراق «جميلة» والمريدين.

عادت الضحكة الرائقة:

- لو روعي ما سيحزن الراحلين ويوحشهم في الدنيا ما ذهب عنها أحد، لكن لكل بداية نهاية.

- سمعًا وطاعة يا عم.

وعاد الصمت، بينما الدموع تنهمر من عيني الشيخ «سمحان»، وصاحب الصوت لم يكف عن ابتساماته، ثم قال:

- نفارق أحبة لنقابل غيرهم.

- مَن تقصد؟

- شيخك الذي لم تعد تسمع صوته.

- شيخي «عبد العاطي».

- ينتظرك فلا تتأخر عليه.

هزَّ رأسه:

- لهذا لم أعد أسمع «صوته» منذ أن خرجت من مدينة العلم.

- انتهى دوره هناك، وجاء دوري.

- مَن أنت؟

- آخر مَن تراه وتسمع صوته.

- لكنني أسمعك ولا أراك.

- لا تتعجل، ستراني ولا تسمعني بعد قليل.



# 72

كان الناي يواصل أنينه، والرباب لا يكف عن الشدو المجروح، والنسيم العليل يهب، والأرض تتباهى بصفارها الذي لا نهاية له في عينيه، ولا يحده شيء سوى من الطرف الأمامي البعيد حيث الخضرة التي تظهر كجبلٍ أشم، زاهر، يرمقها بطرف عينه وهو يتطوَّح في حضرةٍ لا يشاركه فيها سوى القنافذ وبقرته وديكه وزرعه الناضر.

دار حول نفسه فلم يرَ أحدًا، كان خلاء، وكانت عزلة، ولم يكن أمامه من سبيل سوى الخضوع لما أُمر به، فخلع ملابسه، وصبَّ من القلة على جسده فتساقطت أدرانه تحت قدميه، وابتلعها الرمل، بينما الماء يتدفق كشلالٍ هادر، على جسمه الذي يزداد نحولًا وشحوبًا، حتى سقطت القلة من يده فارغة.

صفرة الموت كانت، لكنَّ حياة أخرى ترعرعت حوله، فالماء جرى، فارتعشت لجريانه بذور حملتها الريح لأزهار بهيجة الألوان طيبة الرائحة: الريحان والنسرين وشقائق النعمان والنرجس والسوسن والأرجوان والياسمين.

وتقدمت البقرة حتى وصلت عند الصبار، وراحت تضرب الأرض بأظلافها، فانخلعت أحجار من مكانها، وبانت فجوات نائمة بين كتل الحصى والرمل المتماسكة من أيام السيل القديم، كانت القنافذ قد صنعتها على مهلٍ بيوتًا لها، وانفتحت الجحور على بعضها البعض فصارت حفرة وسيعة، ترابها ناعم.

ورفرف الديك وقطف بمنقاره زهورًا ورياحين، وألقاها في الحفرة، فعل هذا مرات ومرات، حتى فرشها عطرًا.

وتقدم الشيخ «سمحان» في هدوء، ورمى بصره ليخطف نظرة شاملة على مثواه الأخير، فارتجف قلبه حتى كاد يشق ضلوعه ويسقط على الرمل، وانهمرت دموعه، وملأته الوحشة، ولام نفسه على خوفها، لكنه سمع صوتًا طليقًا يقول:

- لا تثريب عليك، إن له مهابة حتى على أصحاب النفوس الغارقة في الاطمئنان.

هزَّ رأسه راضيًا، واجتاحه حنين إلى «جميلة» وتمنى لو أغمض عينيه للمرة الأخيرة في حجرها، أو ماتا متعانقين كما تمنت. لكن الصوت عاد ليقول:

- لأننا نعلم أنها لن تتحمل فراقك أمام عينيها أثقلنا نومها لحظة خروجك باحثًا عن الجبل الذي غاب، ولأنك لم تُرد أن تشقيها وهي عاجزة عن أن تستردك، جئنا بك هنا وحيدًا، مجردًا بلا حول ولا طول، وجعلناها هناك لتحمل ذريتك وتحميها، فلا تحزن.



لكن ما سمعه لم يبدد وحشته، ولا حنينه إليها وإلى مريديه، فعانق أطيافهم التي مرقت من أمام عينيه، وحطت هناك في الأفق على طرف الحديقة الغنَّاء.

وطارت الفكرة في حضور السكرة، فتنبه إلى أن جسمه العاري قد جففته النسائم الطرية، وسار نحو الراية وجذب طرفها، فانخلعت من عصاها، واستقرت في كفيه، نظيفة تلمع كأنها لم تُمسَّ من قبل.

مزَّق جزءًا صغيرًا منها ولفَّ به الكراسة التي دوَّن فيها تعاليمه وعظاته وأدعيته، ولفَّ جسمه بما تبقى منها، فشعر أنه يخف، وكأن لحمه وشحمه وعظمه يذوب ويتلاشى، بينما الروح تفيض وتكبر.

وجاء الصوت:

- كما بدأت تعود.

وجاب صدى ما قيل الآفاق، واهتزَّ له الرمل، وتراخت أشواك الصبار والتين والقنافذ، وأطرق الديك صامتًا وفي فمه الكراسة الملفوفة، ومدَّت البقرة خطمها وحملت العصا بين أسنانها وهي مغمضة العينين. ورآهما وهو يستعد للهبوط إلى حفرته ينسحبان في هدوء، ويتركانه للصمت الجليل، ثم لم يلبث أن ترامى غناء من جوف الصحراء بصوتٍ لا مثيل لحلاوته وطلاوته ونداوته.

وبينما غاص جسمه بين ضفاف الرمل، ولم يبقَ سوى رأسه معلقًا في وجه الحديقة البعيدة القريبة، رأى رجلًا يشبهه، يقف عند ناصية الأرض،

يلملم الريح في عباءته، ويجذب الشمس من حبالها الذهبية، وتسقط في كفيه، فيرميها على بحرٍ أصفر ناعم، لتتدحرج ويجري خلفها، غير عابئ بالعتمة التي أخذت تلف المكان، ولا بالسحاب الذي وقف عاجزًا في بطن سماء حبلى بقناديل الفضة الشاحبة، بل مدَّ أنفه ليسحب من نسائم رخية هبَّت بلا انقطاع، ورفع هامته مغمضًا عينيه كأنه يريد أن ينسى كل شيء، لينعم بحياة أبدية.



# عرفان

يدين الكاتب بالعرفان لكتبٍ ساعدته على تدقيق ورسم ملامح السياق العام للوقائع القديمة الواردة في هذا النص، منها: سليم حسن: «الأدب المصري القديم»، مانيتون السمنودي: «الجبتانا.. أسفار التكوين المصرية»، المقريزي: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، علماء الحملة الفرنسية: «وصف مصر»، بهاء الدين إبراهيم محمود: «المعبد في الدولة الحديثة في مصر الفرعونية»، جورج بوزنر، وآخرون: «معجم الحضارة المصرية القديمة»، هيرودوت: «هيرودوت في مصر»، جيمس هنري برستيد: «فجر الضمير»، بريان م. فاجان: «نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر»، أنا رويز: «روح مصر القديمة»، جاستون ماسبيرو: «حكايات شعبية فرعونية»، إريك هورنونج: «إخناتون وديانة النور»، بيرون شيفر، وآخرون: «الديانة في مصر القديمة»، لوسيت فالنسي: «الهروب إلى مصر.. رحلة العائلة المقدسة»، إدوارد وليم لين: «المصريون المحدثون.. شمائلهم وعاداتهم»، ساويرس بن المقفع: «تاريخ البطاركة»، حبيب جرجس: «أسرار الكنيسة»، رأفت عبد الحميد: «الكنيسة والدولة»، مجموعة مؤلفين:The Scientific Lexicon of Religious Beliefsk، إمام عبد الفتاح إمام: «معجم ديانات وأساطير

العالـم»، أحمـد محمد الثعلبـي: «قصص الأنبيـاء»، محمد بن سـليمان الجزولي: «دلائل الخيرات»، أبو حيان التوحيدي: «الإشارات الإلهية»، ابـن عطـاء اللـه السـكندري: «لطائـف المنـن»، أبو عبـد اللـه الواقدي: «فتوح الشـام»، ابن القيـم الجوزية: «الداء والدواء»، عمـرو عبد العزيز: «قصة البهنسـا.. حكاية غزوة»، ماجدة جمعة: «البهنسا من الحاضرة إلى القرية».

وكررت «جميلة» هذا في الليلة التي سبقت غياب الجبل، بعد أن هزَّ جسدها ثلاث مرات وهو في هذه السن، كان منتشيًا وسعيدًا، وفعل كل ما يستطيع معها وكأنه ينزف آخر قطرة شهوة في جسده، استعدادًا للحظةٍ تحتاج فيها روحه إلى صفاءٍ تام.

كانت هي غارقة في النوم، ووجهها متورد وكأنها عادت بنت عشرين سنة، بينما سمع هو هاتفًا يناديه: «قم يا سمحاااااااااااااان».

وقام وفتح النافذة، فلم يجد الجبل مكانه.

***

هذه الرواية تقيم جسرًا عريضًا بين الواقع والخيال، يجتازه القارئ في يسر، عبر نسيج سردي مُحكم، يبدعه الكاتب بدأب فلَّاح، وتبتل ناسك، مانحًا شخوصه لحمًا ودمًا، يجعلها تتسلل من قلب التاريخ البعيد، لتدب على الأرض بيننا، وتشاكس البشر والشجر والحجر.

إنها رواية تطرح، ببراءة وبراعة، صورًا حياتية، وحالات إنسانية، شيقة وشائكة، تلامس الواقع بقسوته، والخيال بنعومته، في حضرة الوجد والعرفان، وفي ظل تصالح الشك مع اليقين، لتصنع "واقعية سحرية"عربية، تلفت الانتباه بقوة.

---

عمار علي حسن، عضو اتحاد الكتاب ونادي القصة ونقابة الصحفيين في مصر، صدرت له روايات: "شجرة العابد" و"سقوط الصمت" و"السلفي" و"زهر الخريف" و"جدران المدى" و"حكاية شمردل"، ومجموعات قصصية: "حكايات الحب الأول" و"أحلام منسية" و"عرب العطيات" و"التي هي أحزن"، وله كتابان في النقد الأدبي: "النص والسلطة والمجتمع" و"بهجة الحكايا"، وله تحت الطبع: رواية "باب رزق" وأقاصيص قصيرة جدا "أخت روحي".

العربية للكتاب